الرسائل الكبرى

المسمّاة

نزهة النّاظر المتأمّل وقيد السّائر المستعجل

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبّاد
النّفزي الرّندي الفاسي
المتوفى سنة 792هـ رحمه الله تعالى

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون
Beirut-Lebanon
بيروت - لبنان

AR-RASĀʾIL AL-KUBRĀ
AL-MUSAMMĀT
NUZHAT AN-NĀẒIR ALMUTAʾAMMIL
WA QAYD AS-SĀʾIR AL-MUSTAʿJIL
A Book in Sufism

الرسائل الكبرى
المسماة نزهة الناظر المتأمل
وقيد السائر المستعجل

Author : *Al-Imam Abou Abdullah Muhammed ben Ibrahim An-Nafzi Ar-Randi Al-Fasi (D.792H.).*

المؤلف : الإمام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي الرندي الفاسي (ت 792 هـ).

Editor : *Al-Sheikh Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali.*

المحقق : الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

Classification : *Sufism*

التصنيف : تصوف

Year : *1434 H. - 2013 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

Pages: *336*

عدد الصفحات : ٣٣٦

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

ISBN : *978-2-7451-7719-3*

All Rights Reserved

BOOKS - PUBLISHER
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان | كتاب - ناشرون

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com

Exclusive rights by © **BOOKS - PUBLISHER** Beirut-Lebanon No part of this publication may be translated,reproduced,distributed in any form or by any means,or stored in a data base or retrieval system,without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **BOOKS - PUBLISHER** Beyrouth-Liban Toute représentation,édition,traduction ou reproduction même partielle,par tous procédés, en tous pays,faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة **كتاب - ناشرون** بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

ISBN-13: 978-2-7451-7719-3
ISBN-10: 2-7451-7719-2
90000
9 782745 177193

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الرحمٰن الرحيم القائل في كتابه الكريم ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: الآية 52] والحمد لله تعالى القائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآيتان 9- 10].

وصلّ اللهمّ على سيدنا محمد القائل: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، والقائل: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «**مجاهدة العبد هواه**» وفي رواية: «مجاهدة النفس». والقائل ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**» أي من تخلّق بها دخل الجنة.

وبعد، فبما أن النفس البشرية أمارة بالسوء وبما أن الإنسان مطالب بالتخلق بأسماء الله تعالى، فحياته ومسيرته إلى ربه في الدنيا تتراوح بين تخلية وتحلية، وتهذيب لنفسه وتخليتها من الرذائل والأوصاف الذميمة، وتحليتها بالفضائل وتخلُّقها بمكارم الأخلاق، وبأسماء الله الحسنى، ليكون إنساناً ربانياً ومسلماً كاملاً جامعاً لمقامات الدين الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة، وقد قال الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»: إن تزكية النفس فرض عين على كل مكلف» إذ لا تخلو نفس من عيب إلا نفوس الأنبياء والرسل.

نقدِّم للقرّاء الكرام كتاباً في التصوف الإسلامي يشرح كيفية تطهير النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل وكيفية حضور القلب وعروج الروح إلى عالمها الأصلي عالم الحق تعالى، هو كتاب «الرسائل الكبرى في التصوف» المسماة «نزهة الناظر المتأمل وقيد السائر المستعجل» لعلم من أعلام التصوف في القرن الثامن الهجري شيخ المدرسة الصوفية الشاذلية بالمغرب الأقصى العارف بالله تعالى المحقق

الشيخ محمد بن عباد النفزي الرندي الفاسي المتوفى سنى 792 هجرية.

والكتاب طبع طبعة حجرية قديمة بالمملكة المغربية وله طبعة بدار المشرق ببيروت سنة 2005 ميلادية، بتحقيق كنث هونير كمب، وله طبعة بدار ابن حزم ببيروت سنة 2011 ميلادية بتحقيق الأستاذ الدكتور محمد بن عزوز. ونحن بدورنا وإتماماً للفائدة قمنا بطبع الكتاب اعتماداً على هذه الطبعات الثلاث.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المُريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: الآية 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ المُلْك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أسرار ما تعبَّدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآيات 3-4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: الآية 69]، لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: الآيتان 22 - 23].

كتبه الشيخ الدكتور

عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة(*) ابن عباد النَّفْزي
(733 - 792 هجرية)

ابن عباد النَّفْزي أحد علماء السنّة الكبار ومن أعلام التصوف في القرن الثامن الهجري، يعتبره كثير من الدارسين الناشر الفعلي والمُنَظِّر الأساسي للمدرسة الصوفية الشاذلية بالمغرب الأقصى.

هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزي الحميري الرندي الشاذلي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد: متصوف باحث، من أهل (رندة) بالأندلس. تنقّل بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر خطيباً للقرويين بفاس، وتوفي بها.

له كتب منها (الرسائل الكبرى) وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات.

و(غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية) ويعرف بشرح النفري على متن السكندري.

و(كفاية المحتاج).

و(الرسائل الصغرى).

و(فتح الطرفة).

و(شرح أسماء الله الحسنى).

و(بغية المريد) نظم به الحكم العطائية.

(*) (ويكيبيديا - الموسوعة الحرة - الأنترنت).

ولد في مدينة رُندة قرب قرطبة في جنوب أسبانيا سنة 733 هجرية - سنة 1371 م، ومدينة رندة حصينة، ولهذا بقيت في أيدي المسلمين حتى قبيل نهاية الحكم الإسلامي في أسبانيا، فلم تستسلم إلا سنة 1485 ميلادية، بعد أن استظلت بلواء الإسلام طوال ثمانية قرون.

وكان ابن عباد من أسرة نبيلة في المدينة جمعت بين جلالة الجاه الاجتماعي وبين التقوى والفقه في الدين. فأبوه، أبو إسحٰق إبراهيم، كان قاضياً وخطيباً دينياً مفوهاً، يعظ الناس في مسجد رندة. وعن أبيه هذا، أخذ ابن عباد القرآن ومبادئ العربية. وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد الله الفريسي أخذ العربية، وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الرندي علم القراءات.

ثم ارتحل الصبي إلى بلاد المغرب وتلقى العلم في بلاد كثيرة من أهمها: فاس وتلمسان وسلا وطنجة. وأخذ في طريق الصوفية والمباحثة على الأسرار الإلٰهية حتى أشير إليه، وتكلم في علم الأحوال والمقامات والعلل والآفات، كما قال المقري (نفح الطيب، ج 3 ص 175، القاهرة سنة 1302 هـ)، وقد أخذ التصوف خصوصاً على الشيخ الصالح الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، وأقام معه ومع أصحابه في مدينة سلا سنين عديدة، لوجدان السلامة معهم، على حد تعبيره (المقري: نفح الطيب، ج 3 - 176)، كما لقي في طنجة الشيخ الصوفي أبا مروان عبد الملك ولازمه كثيراً. وقرأ خصوصاً كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وهو إلى جانب «إحياء علوم الدين» للغزالي أعظم كتب التصوف الإسلامي.

وبعد أن أقام في سلا سنين عديدة انتقل إلى مدينة فاس بعد وفاة أستاذه أحمد بن عاشر، وعين خطيباً بجامع القرويين في مدينة فاس، وبقي في هذا المنصب خمس عشرة سنة خطيباً، إلى أن توفاه الله في فاس رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة (سنة 1389 م).

وكان ابن عباد، كما قال عنه الذين ترجموا له: «أمة وحده» (المقري، ج 3 ص 178) حسن السمت طويل الصمت، كثير الوقار والحياء، وكان الغالب

عليه الحياء من الله تعالى والتنزُّل بين يديّ عظمته، وتنزيله نفسه منزلة أقل الحشرات، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة الملك وشهود المنة، نظّاراً إلى جميع عباد الله تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة، مع توفية المراتب حقها والوقوف مع الحدود الشرعية (ج 3 ص 187).

وأشهر مؤلفاته هو شرحه لمتن كتاب «الحكم» لأحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709 هجرية، وهو كتاب يتضمن جملاً قصيرة فيها خلاصة التصوف، وإن لم يكن مرتباً ترتيباً منطقياً. وكان ابن عباد من أتباع الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي ثم تلميذه أبو العباس المرسي، لكنه في شرحه على «الحكم العطائية» لا يقتصر على الشاذلية، بل يورد أقوال أعلام التصوف دون استثناء.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

الرسالة الأولى

وبعد، فقد بلغتنا منكم كتب، وذكرتم في بعضها مسألة الخاتم والأدعية التي أخذتم فيها توسُّلاً بذلك إلى الغرض المذكور، فذلك من الأمور الجائزة، والله أعلم.

وقد ترجم البخاري رحمه الله في كتابه على محبة طول العمر، وأدخل الحديث المذكور فيه صلة الرحم، ولست أنكر خواص الأسماء والحروف ومنفعتها في ذلك المطلب وغيره، وإنما أستقبح حال مَن يجعل العمل به كالمؤكد عليه، ويجعل ذكر الله تعالى وأسمائه وسيلة إلى غيره، وذلك غبنٌ في الرأي ووكس في الحظ، وقد يكون بعض ذلك من التوغل في الأسباب القادحة في مقام التوكل كالاسترقاء وغيره. هذا ما عندي في المسألة، والله تعالى أعلم.

وأما ما طلبتموه من الكلام على مسائل البراءة، فأكثر ما فيها غير محتاج إلى التكلم عليه إلا الفصل الأخير من قول كاتبه: ومَن ظنّ بي أن عدم أخذي في طريق التصوف إنما هي لرجحان غيرها عندي عليها، إلى آخر هذا المعنى. واعلم أن الحق لا يستبين في المسألة ما لم يُعلم معنى التصوف وثمرته وفائدته، لأن الحكم على الشيء ردّاً وقبولاً فرع عن كونه معقولاً وجملة التصوف كون العبد على حالة توافق رضى مولاه عنه ومحبته له، وذلك على قسمين: علم وعمل.

فالعلم يستفاد به تصحيح عقائد أهل الدين ومقاصد المكلفين.

والعمل يستفاد به قيام العبد بحسن الأدب بين يدي ربّ العالمين لتتحقق عبوديته له في كل حال وفي كل حين.

وهذا هو حقيقة ما جاء به إلينا نبينا محمد ﷺ من الدين القويم والصراط المستقيم وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله تعالى سواه ولا يرتضي من الأديان حاشاه. ومعناه الخضوع والاستسلام لنوازل الأحكام، والانقياد والإذعان لمقتضيات أوامر الإيمان ظاهراً وباطناً وسرّاً وعلانية من غير حرج في الصدر ولا ضيق في القلب ولا تَلَكُّؤ في النفس. فإذا كان هذا معنى التصوف لَمَ يتصور من أحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يهمله أو يشتغل بغيره؟ فمنَ أهمل النظر فيه أو تشاغل عنه بغيره فذلك إنما يكون لعدم معرفته به.

ومن هذا تعلم أن أكثر طلبة العلم مخدوعون مغرورون، لأنهم إذا اشتغلوا مثلاً بفن الفقه المصطلح عليه الذي هو أقرب العلوم في الظاهر إلى المقصود، ولم يعنوا قبل ذلك بتصحيح نياتهم ومقاصدهم بطريق التصوف كانوا بذلك متّبعين لأهوائهم منقادين لآرائهم، وذلك هو اللهو واللعب الذي لا جدوى له في المنقلَب ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعَام: الآية 70] فإن ادَّعى أحدهم أن نيته في ذلك صحيحة، قيل له: من أين لك هذا وأنت لم تسلك طريقه؟ فها هنا ينقطع لا محالة، إذ لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب بسهم في طريق القوم. فإن في ذلك الطريق تظهر له خِدَع النفس، وخفايا متابعة الهوى والطبع، وفيه يتراءى له خفيّ الشرك وجليّه ودقائق الآفات وجلائلها، فيكون إذ ذاك أخذه فيه بباعث ديني غير مشوب بغرض هوائي، وعند ذلك لا يكون خارجاً من طريق التصوف إلى غيره لأنّا نحسب ذلك من جملة أعماله المطلوبة منه في التحقيق بمعناه. وقد قدّمنا أن العمل أحد قسمَي مدلوله، ومصداق ما ذكرناه من شمول لفظة التصوف لما ذكرناه من المعاني ما يقول الشيخ أبو نعيم رحمه الله حين يذكر السادة من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ويُحلّي كل واحد بحليته ويصفه بصفته، فإنه يقول: وقد قيل إن التصوف كذا، وقد قيل إن التصوف كذا، إشعاراً منه بأنهم

وإن اختلفت طرقهم ومذاهبهم، وتباينت مطالبهم ومراتبهم، قد اشتركوا في مدلول هذا الاسم وضربوا في مقتضاه بأوفر سهم. والحاصل من هذا ألا غير معتبر معه لأنه حق وما عداه باطل.

فإن قلت: إنكم حصرتم الأمر في طريق واحدة وهي طريق التصوف، وأبطلتم تعدد الطرق، فمن أين وقع الاختلاف بين الناس حتى توجّهت كل فرقة إلى جهتها وارتضت مذهباً خلاف مذهب صاحبتها؟ فأقول: لما حدثت البدع والأهواء، كثر الاختلاف وتشعبت الآراء. وانظر هذا المعنى في الكتاب المذكور فيه البدعة والتقليد من جملة الكتب التي عندكم، فإني أحب أن أُريح نفسي من التطويل الذي لا فائدة فيه، مع أنه أظهر من كل ظاهر.

وليس يصح في الأذهان شيء ... متى احتاج النهار إلى دليل[1]

فإن قلت: هلّا اشتهر فن التصوف في زمان الصحابة والتابعين ووقع من التحقيق والتدقيق فيه ما وقع بين أئمتهم لا سيما هؤلاء المتأخرين؟

فأقول: معناه بكماله عندهم، ويدل عليه وجود ثمراته من دعوتهم إلى الله وإعلاء كلمته ومجاهدة مَن حادّه وأشرك به، وشغلهم بهذا هو الذي منعهم من التبحُّر في علمه وإنهاء النظر فيه إلى غايته، ولا غاية له، مع أنهم مستغنون عن هذا كله بما هم غرقى فيه من بحار التوحيد، فلما قضى الله تعالى بما قضى به من ذهاب الدين، وخُبُو أنوار الإيمان واليقين، وخرج الناس من الدين أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً، إذ لم يبتلوا بالتشاغل بغيرهم، فتفرغوا لما لم يتفرغ له الأولون من التفنُّن في علوم التوحيد والتحقق بحقائق أهل الفناء والتجريد، إلى غير ذلك من تربية وتهذيب وتصنيف وتبويب وجمع وترتيب، وصادفوا لذلك خلوة يا لها من خلوة لما أسبل على غيرهم أستار الغيرة وابتلي به سواهم من استيلاء الجهل والغرة. وهؤلاء وأشباههم هم الذين تمنَّى رسول الله ﷺ رؤيتهم

(1) هكذا ورد في الأصل وأورده عبد الرحيم بن أحمد العباسي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص.

طلبت على مكارمنا دليلاً ... متى احتاج النهار إلى دليل

واشتاق إليهم وسمَّاهم إخوانه في الحديث الصحيح وهم المعنيون بقوله ﷺ: «**إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء**»[1] قال الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي رحمه الله: سئل بعض أهل المعرفة عن قول النبي ﷺ: «**يغبطهم الأنبياء والشهداء**» كيف يغبطهم الأنبياء وهم فوقهم في المحل؟ فقال: لأن الأنبياء شُغِلوا بفرائض الإبلاغ ومشاهدة الخلائق، وأولئك لم يكلَّفوا ذلك، فلم يشغلهم عن الله شيء، فلذلك يغبطهم الأنبياء، وإن كان الأنبياء أعلى وأتمّ. وانظر شيئاً من هذا المعنى في أول كتاب «**لطائف المنن**»، ثم إنهم يقلُّون في كل زمان حتى لا يكاد يُرى منهم إنسان. وهذا هو أوان ذلك، فنسأل الله تعالى حُسن العاقبة وجميل الخاتمة.

فإذا فهمت ما ذكرناه في معنى التصوف ورجعت إلى ما ذكره صاحب البراءة، علمت منه أنه لا يتحصل لك من كلامه حقيقة تشدّ عليها يدك. فإن **قوله**: ومَن ظنّ في أنّ عدم أخذي في طريق التصوف إنما هو لرجحان غيرها عندي عليها، يقتضي أن هناك طريقين موصلين، وأن أحدهما أقصر من الآخر، وقد قدّمنا أن الطريق واحد فقط كما أن الدين المحمدي واحد.

وقوله: لكنِّي رجل منعه من السعي في فكاك رقبته، قصد به إلى ذكر الموانع له من الأخذ في طريق التصوف على الجملة. ومَن عرف مقتضى هذا الطريق لم يتصور في حقه مانع منه كما قدّمناه، لأن الإيمان يحمله عليه كما حمله على سلوك طريق غيره بزعمه لا سيما في القسم العلمي منه. وإذا أخذ في ذلك بالتعلُّم والاجتهاد دعاه لا مُحالة إلى القسم العملي لينازله ويتحقق به ولم يمنعه منه ما ذكر.

وقوله: إني رجل أَسَرَتْهُ شهوات نفسه، إلى آخر هذا المعنى، قصد به إلى تفصيل الموانع التي توهمها موانع، وليس كذلك، بل هي بواعث ومستحثات

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب البر والصلة حديث رقم (7318) [4/ 188] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف المتحابين في الله في القيامة عند حزن الناس. . .، حديث رقم (573) [2/ 332] ورواه غيرهما.

على التحقيق، لأن العبد إذا علم داءه التمس دواءه واستحلى فيه نصبه وعَناءه. وقد أحسن فيه من وجهٍ وأساء فيه من وجه، **أما وجه استحسانه** فلِما فيه من تهمة النفس والإنحاء عليها بالذم والمقت، **وأما وجه استقباحه** فمن جهة غفلته من النعم التي غمرت هذه المساوىء كلها وأربت عليها، ولعل من جملة النعم عليه توفيقه للاعتراف والإقرار وعدم المعاندة والاستكبار، ولو أن سيداً خلع على عبده خِلعة عظيمة تستر عليه مقابحه وعيوبه، ثم إنه لم يحفل بذلك ولم يرفع به رأساً، بل أخذ يُبدي للناس ما ستره عليه مولاه، لعُدَّ ذلك منه سوء أدب لاستهانته بالخلعة واحتقاره لها. وإنما يستحسن منه ذلك في حالة ادعاء شيء من نعوت السيادة له وإضافتها إليه بحيث يخشى من نفسه وجود أرْيَحِيّة واهتزاز يتوهّم بذلك وجود مشاركة ما، فعند ذلك يغضب لسيده ويبدي من نفسه ما يليق بعبوديته ونقصه وآفتِه.

ولله دَرُّ عائشة رضي الله عنها ما كان أعرفها وأشد تأدُّبها، لما استأذن عليها ابن عباس رضي الله عنه في أن يزورها أو يعودها، قالت: ما أصنع به يمدحني ويثني عليَّ، أو كما قالت. فلما أذنت له ودخل عليها، وقع منه ذلك وقال لها: إنكِ لكيتٍ وكيتٍ وإنك لذيتٍ وذيت. فقالت: يا ليتني كنت نسياً منسياً وذلك هو المراد بقوله ﷺ: «**احثوا في وجوه المدَّاحين التراب**»(1) على أحد التأويلات.

وهذا الكلام من صاحب البراءة لم يصادف محلاً ولم يكن أيضاً للاستدلال به على دعواه المتقدمة أهلاً.

وقوله بعد ذلك: ولم أُرزق صدق اللجاء وحسن الافتقار وخالص الاضطرار. فليت شعري أيّ التجاء وافتقار واضطرار أعظم من تحققه بتلك الأحوال التي ذكر مع مشاهدة عجزه وفاقته.

وقوله: وما يظهر من حالي أني مائل إلى كذلك، فذلك مبني على توهُّم وجود طريقتين وقد أشرنا إلى بطلانه.

---

(1) رواه أحمد في المسند، من حديث المقداد بن أسود، حديث رقم (23875) [6/ 5]، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (565) [20/ 239] ورواه غيرهما.

وقوله: وودت أني حين لم أكن مع السابقين خلصت النية في المقام مع مَن دونهم كذلك أيضاً.

وقوله: لكني بقيت مذبذباً لا من هؤلاء ولا من هؤلاء كلام ساقه في معرض الذم لحاله وهو في الحقيقة عين المدح لها، لأنه إذا لم يكن من الطائفتين في نظره سالم من الفتنة والدعوى، لأن الفتنة مع إحدى الطائفتين والدعوى مع الأخرى.

وقوله: لأني كلما أردت النهوض مع مَن أحب قصَّ جناحي ونكِستُ على رأسي، هذا هو حال مَن لم يأتِ الأمر من بابه ولا قصده من وجهه، بل لم يعرفه حق المعرفة. ولعله عند نظره إلى خيبته وإفلاسه يرحمه مولاه، ويقيم له بناء حاله على أساسه من غير حول منه ولا قوة.

وقوله: وإن مالت النفس إلى المقام الثاني تشوّفت الهمَّة إلى الطريق الأخرى، ففتر عزمها عما مالت إليه. فهذا من تأييد الله تعالى له ولطفه به إذ صرفه عما ربّما يستضرّ به لو حصل عليه.

وقوله: وأما الطريق الأخرى فَأَنَا منها في غاية الإفلاس. هذا هو الذي ينبغي له في المقال، ولا يسعه سواه على كل حال. حقق الله له رؤية الإفلاس ومحا عن قلبه استيلاء الغفلة والوسواس ـ هو ـ وكل مَن قصد بابه الكريم وطلب منه هدايته إلى صراط مستقيم. فهذا ما أردنا ذكره من الكلام على ما في البراءة. وقد استأنفنا الرجوع إلى ما كنا تركناه منذ زمان من الفضول والغزارة. ولكن وقع ذلك منا بعد تأنٍّ كثير واستخارة. كل ذلك موافقةً لغرض فلان واتباعاً لمراده. والله تعالى يغنيه عن هذا وأمثاله بما يُتيحه على قلبه من هدايته وينتحله له من نصره وحمايته، فإنه على كل شيء قدير.

***

الرسالة الثانية

أما بعد: فقد بلغنا كتابكم الذي أخبرتموني فيه عن الأمر الشنيع الذي

أصابكم مع العامة الجهلة، وقد عزَّ ذلك علينا كثيراً، وبلغ منَّا ومن بعض أصحابنا كل مبلغ، وقد حصل لكم بحمد الله الانتفاع به من وجوه:

أحدها: إصابتكم بتلك البلية وسلوك الله تعالى بكم سبيل هذه الطائفة المرضية، وقد قال بعضهم: لا أغبط أحداً لم يصبه بلاء في هذا الأمر، أو كلاماً هذا معناه. وانظر إلى كلام ابن عطاء حيث قال: «ليخفف ألم البلاء عليك»(1) والمسألة التي بعدها.

وثانيها: معرفتكم بالزمان وأهله، وهذه أيضاً **فائدة جزيلة، لأن ذلك** يؤديكم إلى الحذر منهم وعدم الركون إليهم، فينفرد همَّكم بربكم وتحظون منه بوجود قربكم، وانظر هذا المعنى عند قول ابن عطاء رحمه الله: «إنما أجرى الأذى عليهم»(2) إلى آخره. وقد سأل أبو ذر رضي الله تعالى عنه رسول الله ﷺ عما كان في صحف إبراهيم، فذكر له أشياء إلى أن قال فيها: «**وعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه مُقبلاً على شأنه حافظاً للسانه**»(3) وكلام العلماء في مثل هذا أكثر من أن يحصى.

وثالثها: خمول ذكركم وسقوط منزلتكم من قلوب بعض الناس، فإنكم لا تعدمون في تلك النازلة مَن كان حالكم تلك بمرأى منه ممن يعظمكم ويجلُّكم فيحط ذلك منكم عنده. وهذه أيضاً من الفوائد العظيمة. وانظر هذا المعنى عند قول ابن عطاء: «ادفن وجودك في أرض الخمول»(4) إلى آخره، وكلامه في التواضع(5) قريباً من آخر الكتاب.

---

(1) (علمك أنه هو تعالى المبلي لك). فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار.

(2) والحكمة كاملة هي: إنما أجرى الأذى على أيديهم لئلا تكون ساكناً إليهم أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء.

(3) أورده أبو سليمان البستي في كتاب العزلة [1/ 99].

(4) ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدْفَن لا يتم نتاجه.

(5) يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري: «من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتى أثبت لنفسك رفعة فأنت المتكبر حقاً». ويقول أيضاً: «ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى =

ورابعها: استفادتكم بذلك راحة قلبكم من استشعار كونكم مأمورين بالنصيحة لعباد الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وخوفكم عند ترك ذلك حصول العقوبة عليه وفوات الأجر منه لأنكم لا محالة تكفُّون بعد هذه الواقعة عن الأخذ فيما يمكن أن يؤدي إلى مثلها ولا تصلُّون بعد ذلك الوضوء تفادياً من هذا الأمر الشنيع الذي حلّ بكم، بل تكتفون في ذلك بالنية، والنية أبلغ من العمل. هذا إن كنتم فيما قلتم وفعلتم صادقين مخلصين، وإن لم تكونوا على هذه الصفة، بل كان ذلك منكم على سبيل الاسترسال على مقتضى الجبِلّة ومتابعة الهوى والشهوة، فيفيدكم ذلك تهمة النفس في فعله والانكفاف فيما تستقبلون عن مثله، لأن هذا من التكلُّف الذي تبرّأ منه رسول الله ﷺ والأتقياء من أمته.

وخامسها: معرفة صديقكم من عدوكم، لتُنزلوا الناس منازلهم، وتعاملوا كل صنف منهم بما يليق به من المعاملة، فتسلِّمون مع كلا الطائفتين، من الظلم مع الصديق بالتفريط، ومع العداوة بالإفراط. ولا شك أنكم في هذه النازلة تتعرفون ذلك أتمّ تعرُّف، فتعملون على حسب ذلك من الاستهانة والتلطُّف والمنافرة والتآلف.

وسادسها: استفادتكم به حصول الجواب مني على كتابكم، لأنه لما أصابكم ما أصابكم كتبتم لي بذلك فلم يسعني إلا أن أكتب لكم جوابه ليحصل لكم بذلك التعريف بهذه الفوائد التي ذكرناها، وبفائدة إعلامي إيّاكم الآن بأنكم أخطأتم فيما فعلتم، ومعرفة الإنسان خطأه من أعظم الفوائد.

وخطأكم في ذلك من وجوه:

أحدها: أخذكم فيما لا يعنيكم وعدم اتهام رأيكم فيما أقدمتم عليه من ذلك الكلام، «**فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1] وفي علمكم

= أنه دون ما صنع». ويقول أيضاً: «التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته».

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، باب ما جاء في صفات المؤمنين، حديث رقم (229) [1/466] ورواه الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2881) [3/188] ورواه غيرهما.

كم من صحابي روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ. وإنما كان ذلك مما لا يعنيكم، لأن ذلك مما لا يجب عليكم، ومَن عمل ما لا يجب عليه في هذا الزمان لا يسْلم من الآفات. قال أبو حفص رضي الله عنه: لا يصح الكلام إلا لرجل إذا سكت خاف العقوبة على سكوته، وإنما يجب ذلك على مَن نصب نفسه لإرشاد العوام، وتصدّر لتبليغ الأحكام، لأن ولاة الأمر في قبضتهم يسمعون لهم ويستجيبون لدعوتهم، فهم على ذلك أقدر وبتعاطي مثل هذا أوْلى وأجدر، ولكن الله تعالى لما أراد محنة أكثر العباد وفتنتهم، وإسقاطهم من عينه، أعمى أبصار هؤلاء وأصمَّ أسماعهم وطبع على قلوبهم، فإذا أصاب الناس معضِلة أو ابتلوا بداهية ولجؤوا في ذلك إليهم، لا يجدون فيهم متمسَّكاً ولا يهتدون بهم إلى طريق الحق مسلكاً. وقد ورد في فتن آخر الزمان: أن الناس يصيبهم فيه فتنة فيلجؤون في ذلك إلى علمائهم فيجدونهم قد مُسِخوا قردة وخنازير، ومسخ الصور الظاهرة لا عبرة به وإنما الاعتبار بالأمور الباطنة. وقد وقع على حسب ذلك ما أخبر به الصادق المصدوق، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ولو اقتديتم في هذا الأمر بسيدي سليمان حيث قال: لا أدري هذا ولا أدخل فيه، لكان أحسن، على أنه لم يخلُ من خطأ في سكوته وتغافله عن مثل هذا، ولكن لا غرض لي في بيان ذلك الخطأ.

وثانيها: أنكم لم تسلكوا طريق أئمتنا رضي الله عنهم في هذا الأمر الذي أذكره لكم وهو أنكم لا تخلون في هذه النازلة من التعريض بطريق التصوف، ومحاولة الدعاء إليه، والإشادة به بين يدَي الجهلة من العموم أصحاب الرسوم، لأن متبوعهم هو الذي يفهمون منه الإنكار والقدح في أهله فلا تقدرون على الصبر عن الرد عليهم حسبما أعرفه منكم حين تنزعجون وتضيق أخلاقكم، ومَن بيده جوهرة نفيسة أو درّة خطيرة لا ينبغي أن تسمح نفسه بأن يلقيها للبغال والحمير، أو أن يعلّقها في أعناق الكلاب والخنازير.

ولم نرَ أحداً من الأئمة المقتدى بهم في زمانهم الصالح فعل شيئاً من ذلك، ولا فاه به، ولم نُلفِ أحداً منهم اعتقد في كتم ذلك حرجاً لم يجد

منه مخرجاً ولا خاف بسببه مطالبة تقتضي معاتبة أو معاقبة، بل نزّلوا خلق الله حيث أنزلهم، وكانوا ناظرين إلى معاملته معهم، فإذا كان هذا في تلكم الأزمنة حيث الأنوار في قلوب الناس مشرقة متمكنة، فكيف يكون الحال في هذا الزمان الذي عمَّ فيه وجود الحرمان، واستحوذت على القلوب جنود الشيطان، وخبت فيه أنوار الإيمان، هل يسعنا فيه سوى الإخفاء والكتمان؟ ولقد رأيت في بعض التعاليق عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه سيد هذه الطائفة وإمامهم أنه أوصى عند موته فقال: مَن كان عنده شيء من كلامنا فليدفنه ولا يُظهره، فإنه بعد سنة ثلاثمائة إلى ما فوقها يصير زهد الناس كلامهم، وعبادتهم لباسهم، ومعبودهم بطونهم، لا يعبأ الله تعالى بأعمالهم. وللشيخ أبي طالب المكي رضي الله عنه شيء من هذا المعنى في كتاب العلم لا أذكره الآن، فإن غلب أحدهم وجدٌ وتجاوز للحد، فتفلّت منه شيء من ذلك، استسلموا للقدر ورضوا بالإيذاء الذي يجري على أيدي البشر، لأن دمهم في مشاهدتهم هَدَر.

وثالثها: مخالفتكم لسيرتهم في أنكم لما أصابكم ذلك جزعتم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: الآية 25]، بيد أنه يحق لكم ذلك لأنه موقف صعب، قلَّ من يثبت فيه أو يسلم منه على حال غربتكم وعدم إعانة مَن يبادر إلى مساعدتكم، والأعين نظّارة والآذان سمَّاعة، وعدوكم منكم بمرصد يرى ذلك فيفرح. وهذا من البلاء العظيم الذي يعجز الأكثرون على الصبر عليه، ولكن إذا وقفنا مع ظاهر الأمر وأخطرنا ذلك على قلوبنا على الدوام لا يكون لنا فيه راحة ولا سُلوان، بل ربما زادنا ذلك شراً وأعقبنا تعباً وخُسراً، ومطلوبنا إنما هو ما يبرّد حرّ تلك النار، ويُهوِّن علينا بلايانا الكِبار، فلا يسعنا إلا سلوك سبيل هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم، والحذوِ على مثالهم، والنسج على مِنوالهم، فإنهم لما شاهدوا محبوبهم ونالوا من قربه مطلوبهم، لم ينسبوا إلى الخلق نفعاً ولا ضرّاً، ولم يجدوا في معاملتهم إياهم بإكرام أو انتقام برداً ولا حرّاً، بل شاهدوا فعل الله تعالى وحده، وأنشدوا هذا البيت معلنين به ليوافق قولهم عقده:

وإن فــؤاداً رُعــتَــه لــك حــامــد وإن دمــاً أجــريــتَــه لــك شــاكــر[1]

فتعال فلنقتدِ بهم لعلنا نصل إلى شيء من مواهبهم، فينجمع همنا بمولانا، ونلهو بذكره عن دنيانا وأخرانا، ونبدأ ذلك بأن نشتغل بأنفسنا ونعتزل بأبناء جنسنا، ونقتنع بما رزقنا الله تعالى من كثير وقليل، ومع أن قليل الله تعالى لا يُقال له قليل، ولا نحفل بمَن برق ورعد، ولا نبالي بمَن قام وقعد، ونستعمل الوصية التي كتبت بها إليكم في الكتاب الذي قبل هذا، فإنْ حلّت بنا مصيبة أو نفذ علينا القدَر ببليّة لا نطالب النصرة من غير الله، ولا نرجو لتفريجها سوى الله، وندع ذلك كله بعين الله. وهذه الحال وإن لم نكن من أهلها فلا بد لنا من استشعارها ومعاودة تذكارها وتكرارها، ليصل إلى قلوبنا شيء من أنوارها ومكنون أسرارها. فإن وقع منا حزن على فَوْت شيء من حظوظ دنيانا، أنسناناه الحزن على ما فاتنا من مولانا، فيقع الشيء في محله، ويعرف الحق لأهله.

ورابعها: إنكم لم تذكروا لي شيئاً مما قلتموه لهم أو قالوه لكم في ابتداء الأمر وانتهائه، ولم تفسِّروا لي شيئاً من ذلك، ولم تفعلوا في ذلك شيئاً. وأحسب أنكم شافهتموني بالكلام، ألم تكونوا حينئذ تستوفون كل دقيق وجليل، وتذكرون كل غثّ وسمين، ولا تدعون شيئاً مما يحتاج إليه أو لا يحتاج إليه إلا وتخبروني به؟ والقلم أحد اللسانين. أما تعلمون أن في الاطلاع على الأمور الجزئية، ، الحصول على الراحة الكليَّة؟ ولا لوم على العبد عند طلبه الراحة في دنياه، إذا لم يُخِلَّ ذلك بمعاملة مولاه، وتصريف الأقلام يُغني عن المشافهة بالكلام عند تنائي الأشخاص والأجسام! وقد قبلت عذركم في اختصار كتابي الذي هذا جوابه، لأجل ما ذكرتم من الاستعجال فيه. فما بال

(1) هذا البيت هو للمتنبي أحمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب، ونصه:

وأنَّ دمــاً أجــريــتــه بــك فــاخِــرٌ وأنَّ فــؤاداً رُعــتَــه لــك حــامــد

وهو أحد أبيات قصيدة بلغت أربعاً وأربعين بيتاً من البحر الطويل وتفعيلته فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

سائر الكتب التي تكتبون لا تستوفون فيها ما أريد تعرُّفه منكم من الأمور الصغار والكبار. وتذكرون فيها أشياء خارجة عن المضمار، ولكن هذا نادر منكم إلا إن كنتم لا تجدون مَن تثقون به في التوصيل إليّ فتتكلفوا في ذلك من المشقة ما لا يحصل به فائدة لديّ، فعذركم في ذلك مقبول، إذ لا ينبغي لأحد أن يُتعب نفسه فيما لا طائل له ولا محصول.

ولو قلتَ لي في هذا الكلام: يا أخي هذا مشترك الإلزام، وأنت أحق مني بالعتاب والملام. فإني كتبت لكم نحو العشرين كتاباً بين كبير وصغير، ولم يقع لنا منكم إلا كتابان أو ثلاثة بعد إلحاح كثير وطلب غزير، لكان قولكم مستقيماً، ولكن غفلتم عن الفرق بيني وبينكم، أنا في بلاد غربة وأرض جفاء وبدو، فلا يكاد يوجد عندنا معنى تتشوّف النفوس إلى تعرُّفه وطلب الإخبار به، وأنتم في حضرة المملكة ودار السلطنة، وشأن تلك الحضرة والدار أن يجلب إليها كل شيء عجيب وتُقصد بكل معنى غريب، وبعض ما تضمنته من المجالي والمظاهر لا توجد في غيرها، وجميع ذلك مشتمل على أسرار وأنوار يتشوّف إلى الاطلاع عليها أرباب البصائر والأبصار. والخبر قد يغني عن العيان، واللفظ المختصر قد يقوم مقام ديوان. ولأجل هذا وما أشبهه، عندي مَيْل إلى سكنى تلكم البلدة، ولكن لا أملك لنفسي قَومة ولا قعدة، إلى أن يطلق الله تعالى العقال، ويأذن في الارتحال والانتقال، فيجتمع من شملنا ما تصدّع، ونشاهد بأبصارنا ما كانت آذاننا قبل تسمع. ولكم في هذا الكلام على حسب ما وقع لكم من المصائب العظام كفاية ومقنَع. ومَن قدّم له الزبد والشهد بدلاً من السيف والمِقرع، بالقليل منه يكتفي وباللقمة منه يشبع. فتأمل ما كتبناه ها هنا أجمع، ووفِّ النظر فيه حقه لتنتفع به وتنفع، فقد عملت لك فيه عمل من طبّ لمَن حبّ فلا تخشى في استعماله دركاً ولا تفزع، فهو الترياق الفاروق الذي به تندفع غائلة كل أسد يفترس وأسود يلسع، وهذه أمور معنوية فحدِّق بصرك لكي تنظر، واصغِ بأذنك لأن تسمع، واقدر قدر هذه النُبذة، فالأرض ممن يعلمها أو يرسمها خلاء بلقع.

وأستدرك هذا الكلام وأقول ما قاله بنو يعقوب الكرام على نبينا وعليهم

أفضل الصلاة والسلام: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يُوسُف: الآية 81] ولا تظنن أني أقف ها هنا وأقطع الكلام وأختم الكتاب ها هنا بالرحمة والبركة ومعاد السلام، ولكني أزيدك من الكلام الجزل المشتمل على الجدّ والهزل، ما تنجلي به عنكم بقايا الهموم التي عَلِقت بكم من أصحاب الرسوم والجهلة العموم، عافاكم الله مما أصابهم به من بلائه وحال بينكم وبينهم كما حال بين أرضه وسمائه، وقولوا على هذا الدعاء آمين، وأنتم ومَن يتعلّم منكم من أولاد المسلمين الذين سلموا من الذنوب، وسمح لهم في العيوب، وشملتهم بعدم تكليفهم رحمة علام الغيوب، لعله يستجيب هذا الدعاء، وإن صدر من غير ذي صفاء، فإنه إذا كان ذلك زال عنكم العناء والتعب وحصل لكم الهناء والأرب، وقضيتم في نيلكم لما لا تستحقونه غاية العجب، وليس في أمر الله تعالى من عجب. فلو شاهد أهل الاعوجاج ما وجِهَ به يحيى بن أحمد السرّاج لماتوا من الهمّ والغم وودوا لو غرِق صاحب الياقوتة في اليم، ولكن الله بفضله ورحمته سلّم، فاشكر الله تعالى على ما به أنعم، وتأمل هذا الرمز وتفهّم، واصغِ بسمع قلبك إلى الكلام على تمام المعنى الذي تقدّم.

فإني أقول ـ وعفو الله تعالى المأمول ـ: فأنتم ترون ما اشتملت عليه تلك الكائنة من النِعَم الغامضة الباطنة التي إذا شئتم رأيتموها محققة لكم، محصّلة عندكم، فضلاً عما يُرجى لكم من الثواب الجزيل في دار الملك الجليل، فإذا علمتم ذلك علم يقين، وأردتم سلوك سبيل أولياء الله الموفّقين، لم تشكُّوا في أن الشكر أحق عليكم من الصبر، وأن الاستبشار والفرح أوْلى بكم من الحزن والترح. فإذا قمتم بواجب الشكر وصحبتم آلاء الله تعالى بالذكر، لم تعدموا من الله تعالى المزيد والفلاح والتوفيق والنجاح.

قال الله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية 7]، وقال عزَّ من قائل: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: الآية 69].

والشكر هو الصراط المستقيم الذي قعد عليه العدو اللعين ليصد عنه مَن

تبعه من الضالين. قال الله عز وجل مخبراً عنه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: الآية 16] ـ إلى قوله ـ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية 17] لم يقل صابرين ولا قانتين ولا زاهدين ولا مخبتين ولا عابدين ولا متوكلين ولا غير ذلك من مقامات الأبرار والمقرّبين، لعلمه بأن مقام الشكر تنتظم فيه سائر المقامات، وتندرج فيه الأحوال والكرامات. فانظر كيف عرّف الله تعالى هذا العدو اللعين منهج الحق وطريقه، ولكن حرمه هدايته وتوفيقه. وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه على نبينا وعليهم السلام: «**حبّبني إلى خلقي**» فقال: «**يا رب كيف أحبِّبك إلى خلقك؟**» قال: «**ذكِّرهم آلائي ونعمائي فإنهم لا يعرفون إلا الجميل**»(1) أو كما قال ربّنا عزَّ وجل.

وقد جعل الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه من عيوب النفس أن يكون العبد في محل الشكر وهو يظن أنه في مقام الصبر لأنه مأمور بالترقِّي في المقامات والكون على أحسن الحالات. وجعل دواء ذلك رؤية العبد نِعَم الله تعالى في جميع الأحوال. ثم قال بعقب ذلك: فإني سمعت سعيد بن عبد الله يقول: سمعت عمِّي يقول: سمعت أبا عثمان يقول: الخلق كلهم مع الله في مقام الشكر وهم يظنون أنهم معه في مقام الصبر.

وليت شعري ما الذي حمل صاحبنا وأتباعه وأشياعه على التعرض لكم بالإذاية دون غيركم؟ ومن المعلوم أن طلبة موضعكم لا يقدرون على السكوت على ما هو أقل من ذلك وكأنهم لم يجدوا في تلك البلدة أحقر منكم. فإما أن تكونوا زدتم على أيديكم في ارتكاب النقيض، وإما أن صاحب الصنعة الذي صنعته عدو بغيض، ولو كان في الدنيا شيء من الخير لكان لكم مجلِس قُبالة مجلسه، وكرسي مُناظر لكرسيه، وأعيُن نظارة إليكم كما له أعين نظارة إليه. فإن اشتغل بقراءة كتاب من كتب الحديث، اشتغلتَ أنت بقراءة كتاب آخر

(1) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء، ذكر طبقة من تابعي أهل الشام [5/ 400] وأورده في ترجمة كعب الأحبار [6/ 32] وأورده الرازي في التفسير الكبير، سورة البينة (7) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [32/ 48].

مثله، وإن أخذ في شرح الحديث من تلقاء نفسه، فسّرتَه أنت بكلام العلماء والعارفين، وإن أسند حديثاً أو حديثين، أسندتَ أنت عشرة أحاديث، وإن أتى به من طريق واحد، حدّثتم به من طرق كثيرة، وإن اشتغل بسَب المبتدِعة من غير تعيين بدعتهم، فعلتَ أنت مثل ذلك مع تعيين بدعتهم، وإن انتصر عليكم بالعامة، انتصرتم عليه بالخاصة، وإن استعان عليكم بأهل الدنيا، استعنتم عليه بأهل الآخرة. ولكن لم يبقَ في الدنيا ولا في أهلها خير، فعُدَّ نفسك فيهم كالعير، وكن في حذرك منهم كالطير، واشتغل بالجِدّ في السير لعلك تفنى عن كل كون وغير فتُكفى كل كرب وضير. فإذا بلغت إلى المطلوب وانكشفت لك أسرار الغيوب، وتجلّت شمس القلوب التي ليس لها أفول ولا غروب، انجلت عنك الهموم، واسترحتَ من مكابدة أصحاب الرسوم، وانطلقتَ من وِثاق عالم القوالب والجسوم، وتقول ـ حين تحل بهذه الحضرة، وتحظى فيها بما تشاء من جمال النضرة ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فَاطِر: الآيتان 34، 35] حقّق الله لنا هذه المُنية، وأنالنا هذه البغية، وحجب عنا كل حيّ ضار، وحال بيننا وبين كل جبّار ذي استكبار.

ولنقتصر على ما ذكرناه، فقد انقضى من الليل ثُلُثاه وكل اليد والعين، وعمّرتُ بالخط المُدمَج من هذا الكاغد الجهتين، عسى أن لا نرجع عن مقصودنا بخُفَّيْ حُنَيْن، ومقصودنا إنما هو تأدية حق سؤالكم، والحرص على إصلاح حالكم، والأمر بيد الله، ولا قوة إلا بالله.

***

الرسالة الثالثة

وبعد: فقد سرَّني ما آل إليه أمركم من السلامة والنجاة من الهلكة، فللَّه الحمد كثيراً، فالتزموا ما أشرت به إليكم في الكتابين السابقين ترشدوا. وقد أحسنتم في سياق تلك المسألة بالواو والفاء، لأني تعرّفت منها أموراً كنت متحيراً فيها، وأهم ما كان عليَّ بعد الهم الذي أصابكم إشكال أمر مَن ذكرته

لكم. فلمّا وصفتم الكيفية بان لي ذلك وتمهّد له عندي بعض العذر لأنكم أدخلتم أنفسكم في أشياء كنتم عنها في غِنًى من جهة فساد الوقت. وإن كان بعضها حقاً في نفس الأمر لكن كان يسعكم السكوت عنها وترك العمل بها لأجل ما ذكرناه مع أنكم لا تجدون على ما ترومونه من ذلك مُعيناً ولا ناصراً. وقد صدق عليكم ظني في قولي لكم: زدتم على أيديكم في مناقضته، ومع هذا لم يكن ينبغي له أن يسكت في هذا الأمر وأن يتغافل عنه لما يتضمّن ذلك من المفاسد التي أنا ذاكرها، بل يعتمد **أولاً** الدفع عنكم وسد باب التقوُّل عليكم، والعامة إذا قالت فعلت.

وثانياً: نصرة دين الله وحماية أولياء الله والنصيحة لعباد الله. فإنه لم يبقَ لهم من القِوام وما يتحفظون به من الهلاك العام إلا حُسن ظنهم وسلامة عقدهم فيما يرجع إلى تعظيم مَن لا يقع منهم تعظيم لله تعالى ولا رسوله ﷺ إلا بتعظيمهم. ودعهم يُخطؤون في آحاد الأشخاص، ولعل الخطأ في ذلك هو الأمر المقصود منهم، إذ ليس لهم من نفوذ الإدراك وكمال البصيرة ما يتميز به عندهم الصادق من الكاذب والمُحق من المُبطل. فلا لوم عليهم في الانخداع إلى مَن خدعهم الله، بل ذلك هو المطلوب منهم. وأمر المخادِع إلى الله، فإن شملته رحمته وأدركته عنايته لم يجدوا لمراده ولا مقدوره تبديلاً ولا تحويلاً، وإن حقّت عليه كلمته وأحاطت به شقوته فالله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً، فما لهؤلاء ولهم فليدَعوهم يعيشون في ستر الله ويتحرَّمون بحُرمة الله فلعل ذلك أن يكون حظهم من الله، إذ لا يضيع لهم هذا القدر من الانتساب عند الله. فلِمَ يمنعون مسيئهم من أن يكون في خفارة محسنهم فلا يعظمونه ولا يوقِّرونه ويدعون محسِنهم أن يمشي في مرقة مسيئهم فيستهينون به ويحقرونه؟ وهل أمرهم إلا مبني على التلبيس وإخفاء المقام والحال بما يتعاطونه من مقال وفعال؟ فلا دلالة واضحة تدل عليهم ولا أمارة لائحة تهدي إليهم، وقد خبأ الله ولايته في عباده كما خبأ رضاه في طاعته وسخطه في معصيته. فلا ينبغي لأحد أن يحتقر شيئاً من هذا، ولم يبلغنا عمَّن تقدم ولا مَن تأخر من علماء الدين أنه تعرَّض لما تعرض له ذلك الرجل من منزعه المعلوم، ولا جعلوا ذلك وَكْدَ

أمرهم ولا أفنوا فيه مدة عمرهم، وهم أغْيَر على الدين وأنصح لعباد الله المسلمين منه، بل قصارى أمرهم السكوت حرصاً منهم على سلامة عقائد عجائز البيوت التي هي أوهن من خيط العنكبوت، وهم العوام الذين لا فرق بينهم وبين بهائم الأنعام إلا في لبس الثياب وفصاحة الكلام. وإن تكلموا ففلتةً من غافل، أو إجابةً لمسترشِد سائل، كل ذلك غيرةً على جانب أولياء الله تعالى أن تجعل عُرضة للكلام، وأن تُفَوَّق إليهم السهام. ولله در الإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه فإنه لم يستجز الأخذ في ذكر معايب المنتسبين إلى هذه الطريقة، وإن كان من أعظم الناس غيرة على الحقيقة، إلا بعد أن خاف أن يعتقد صحة نسبة ما لا يليق بها إليها، وأن طرائق الأولين إنما هي ما هؤلاء عليها. وأراد أن يبين سننهم الماضية وآثارهم الدارسة العافية ليُحتذى على مثالها، ويُنسج على منوالها. وكان ذلك به خليقاً إذ هو من أهله تحقيقاً.

وأما أن يشتغل عامي بذمِّهم بحضرة هذا الجيل ويذكر معايبهم بين الصحفة والمنديل ويجعل ما هو آخذ فيه من حديث رسول الله ﷺ وسيلة إلى هذه الطامة الكبرى وذريعة إلى ما يصادم سنّته المثلى ويروِّج ذلك على العامة لعماهم ويوقعهم من حيث لا يشعرون في مساخط مولاهم، فذلك من أكبر الكبائر والبدع التي لم تُعهَد في الأوائل والأواخر.

وقد كنتُ أعتقد أنه لا ينهض لي في تلك البلدة كلام لما اختصت به من أرباب الأفهام وأولي الغيرة على دين الإسلام، فبان لي بُطلان هذا الاعتقاد وتحققت «**أن بني سعد في كل واد**» وما هو إلا عار عليهم وخزي إلى يوم التناد. ولستُ أعجب من رجل غريب قصد إلى بلد ليس له فيه صديق على الحقيقة ولا حبيب، فأظهر لأهله حالته وبثّ فيهم مقالته، وأراهم مذهبه كأنه ورقة مُذهبّة حتى آل أمرهم في حق نصرته والذب عن طريقته إلى إثارة نار الفتن المضرمة والتصدي لقتل النفس المحرَّمة من غير ناهٍ ولا زاجر في موضع جمع المأمور والآمر والعاجز والقادر.

وإنما أعجب ممن هو من أهل الدين موسوم بالشفقة على المسلمين، ذي

جاه وقدر عند العامة والسلاطين، حيث لم يتكلم في شأن هذا الإنسان بكلمة تسمع ولا تصرّف في هذا الأمر تصرُّفاً يكون له موقع، وهو يعلم ما تضمّنه من المفاسد التي يعُمّ ضررها كل قائم وقاعد مع أنه وجد مفصلاً للكلام لمّا قصده أولئك العوام ليكون لهم عليكم من الحكام، وأدنى ما يجب عليه في هذه الحال أن يقابلهم بالعنف والإغلاظ في المقال ويُقبّح لهم حالهم فيما اعتقدوه من نصرة الباطل والمحال، ولا يعرض لِما وراء ذلك مما ربما يُدخله في مِراء أو جدال. فهذا أقل ما يجب عليه في نصرة الدين والنصيحة لله تعالى وللمسلمين. وذلك آكِدٌ عليه من جميع ما يتقرّب به في حقهم إلى رب العالمين.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا ظهرت في أمتي البدع، فكتَمَ العالم علمه، فعليه لعنة الله**»[1]، وهذا الحديث ذكره الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبيّ القرطبي المالكي رحمه الله في مقدمة «كتاب النصائح» له، وجعله عمدته في كل ما بيَّنه فيه وفصَّله. وأي بدعة أعظم مما ذلك الرجل بصدده من إبطال قاعدة من قواعد الدين، وإضلال عوام المسلمين، وتعميته عليهم الحق الواضح المبين، حتى لا يفرقوا بين غَث[2] وسمين.

وليس بمستغرب ما وقع بنا في هذه الأزمنة من ضروب الفتن، وأنواع الرزايا والمِحن، بل ذلك في حقنا قليل، بل هو على ابتلائنا بما هو أعظم منه عنوان ودليل، حين صارت أعراض أهل الحق مناديل يتمسح بها جهلة العوام، وصار أولياء الله تعالى على جلالة أقدارهم عنده وشريف منزلتهم لديه علكاً في أفواه الماضغين على ممر الليالي والأيام، وعمرت بيوت الله تعالى المشرّفة بمثل هذه المناكير، وشُهِرَ أمرها في المحافل وعلى رؤوس المنابر، وشاع ذلك في النواحي والأقطار والقرى والأمصار، وجُوهر الحق تعالى بمعصيته بذلك أتمّ جهار، وأعظم العقوبات الواردة من الله تعالى علينا، والموصلة لكل

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) الغثُّ: الرديء من كل شيء، ولحم غَثٌّ وغثيث بيّن الغثوثة: مهزول. وغَثَّت الشاة: هزلت، فهي غَثَّة، ورجل غَثٌّ: رديء. (لسان العرب).

فضيحة وعار إلينا نُبُوُّ قلوبنا واشمئزازها عن هذه المعاني، بل يكفي في حصول ذلك عدم تأثرنا بها، وعدم صرف هممنا إليها، وذلك كله أمارات وجود قسوة القلب التي مآل أمرها إلى طردنا وبُعدنا من حضرة الربّ. صرف الله عنا عقوبته ورزقنا في كل أوقاتنا مُراقبته بمنِّه وكرمه، على أن أولياء الله تعالى هو يتولّى أمرهم ولا يكل إلى غيرهم نصرهم.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ مما يرويه عن ربه عزَّ وجل: «**مَن أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة**»[1]، وفي بعض الروايات: «**وأنا الثائر لهم**» أو كلاماً هذا معناه. فهذا ما أردتُ أن أذكره من الكلام في بيان ما وقع منه من الخطأ في هذه النازلة العظيمة غائلتها، وهو نفث مصدور ضاق عن تحمُّله جلده، وأعجز صبره عنه حُزنه وكمده.

والصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليه فإنه لا يجملُ[2]

وكان المثير له سؤال السائل ولولاه لم تسمح النفس بإيداعه في الرسائل، ورجونا ممن يقف عليه من إخواننا المسلمين، الناصحين لله تعالى في الدين، أن تحمله الغيرة الإيمانية على الشفقة على الأمة المحمدية، فينتصر لأولياء الله تعالى ممن قطع سببه من أسبابهم، ووطىء بقدمه على رقابهم، فتنحسم مادة تلك العلة الصعبة، وينقلب أعداء الله تعالى بالحرمان والخيبة.

وأما أنا فإن كان قصُر عنهم يدي بالضرب واللطم، فهو واصل إليهم إن شاء الله تعالى بالكتب والرسم، وجَهد المُقِل يُستحسن ويُشكر، وإمساك المُكثِر ذنب لا يكاد أن يُغفر، والإشارة تغني عن العبارة، لكن لمَن ينظر من وراء الستارة. وقد أعجبني كلام فلان وزادني ذلك غبطة فيه، ولو كان هناك أربعة

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (609) [1/ 192] ورواه الشهاب في المسند، من شغله ذكري. . . ، حديث رقم (1455) [2/ 326] ورواه غيرهما.

(2) أورده ابن الملقن في طبقات الأولياء، تراجم الرجال، حرف الميم [1/ 169] وعزاه أيضاً إلى يحيى بن معاذ الرازي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، كتاب الصبر [2/ 151].

مثله لحصل المقصود من القمع والردع إذا بذل كل واحد منهم غاية الوسع، ولكن الله تعالى سلب منهم البركة حتى لم يقدروا على نطق ولا حركة. والله تعالى وليّ التوفيق لنا ولكم إلى ما يحبه ويرضاه.

والذكر الذي تضمنته تلك الرؤيا هو من أشرف الأذكار في استجلاب الأنوار، وهو ذكر مَن انفتح له في سلوكه من أبواب المعارف وفنون اللطائف ما ربما يحمله استعظامه وانبهار عقله فيه على الفَترة في السلوك والوقوف عن السير إلى حضرة مَلِك الملوك، فإذا استشعر السالك ذلك وتشاغل بهذا الذكر المخصوص على الوجه الذي رسمه له مشايخ هذه الطريقة، لم يزل مدة سيره في حِل وترحال، وكان له تعطُّش لازم وشرب دائم. فإن كنتم على هذه الحال فتشاغلوا به إن وجدتم شيخاً يرشدكم إلى طريقه وكيفية العمل فيه وقلّما تجدونه.

وقد كنتُ تعرّفتُ من كتبكم السالفة أنكم رجعتم إلى الأخذ في الرواية، وأنكم شغِفتم بها، وأنكم هجرتم كتب التصوف ومطالعتها والنظر فيها. فحدث عندي تغيُّر في باطني وانكربتُ من أجل إني عهِدتكم مائلين إلى طريق التصوف موالين لأهله، محامين عليه وذابِّين عنه من طعن طاعن وإنكار منكر. فلما رأيتُ ذلك منكم خفت أنْ يكون شأن هذه الطريقة التصوفية لم يرسخ في قلوبكم كل الرسوخ، وأن يكون عندكم كالثوب المُعار، وثوب العارية لا يُسخِّن، فضلاً عن أن تحصل به مُتعة أو زينة، إذ لو كان ذلك فيكم راسخاً لم يلفتكم تغيُّر الأحوال وتقلُّب الأمور عنه حتى ضاق صدركم بسبب فَقْد الأنوار منه، وحصل عندكم من الوساوس وضروب الجهالات وفنون الآفات ما لا تقدرون بأنفسكم عن التفصّي والانفصال عنه حتى انتهى بكم الحال إلى استيلاء المُرّة السوداء فصِرتم ترون بسببها في عالم النوم أهوالاً، وددتم أن يحصل لكم منها الفداء حسبما ذكرتموه في كتابكم المتقدم. وكان أكّد عندي تقلّب أمركم وتغيُّر حالكم ما قضيتُ منه غاية العجب، لأني لم أعهد منكم أنكم قلتم في بعض كتبكم: وقد بلغتني الكراسة ـ تعنون الكراسة التي بُعِث بها من الأندلس ـ ولم تزيدوا على هذا حرفاً واحداً من أنكم هل نظرتم فيها هل وقع فيما كتبتُ

فيها من التنبيهات على تلك الإشكالات التي تضمّنته أم لا؟ وبعد نظركم فيها، هل وقع ذلك منكم موقعاً زالت عنكم بسببه شبهة أو اتضحت لكم جادة، أم لا؟ بل أضربتم عن جميع ذلك صفحاً، ولم تُعرِّجوا عليه بتلويح ولا تصريح مع أني في ذلك قصدتُ قصدكم واعتمدت نفعكم لأنكم قلتم في بعض كتبكم ما معناه أنكم إذا نظرتم تلك الكرّاسة يظلم قلبكم ويتغير حالكم، فساء ظني لأجل ذلك بكم، والشفيق بسوء الظن مولع. فلما تعرّفتُ الآن من كتابكم أن الله تعالى مَنَّ عليكم بالإنقاذ مما كنتم فيه ومن التفكر في طريقه بما ألاحه لكم من واضح البرهان وعظيم التبيان، وبفكّ اليدين عنها بخلاف، زال عني ذلك الكرب. وليتكم حين مَنَّ بذلك عليكم تركتم الأخذ فيه بالكلية ولم تستثنوا منه بقية لأجل ما عَرَضَ لكم من الشبهة الخيالية. ولكن أبت الوسوسة أن تفارقكم، وكأنه لم يبقَ عليك من فروض الكفاية إلا أن تكون حاملاً لراية الرواية بين أهل السفاهة والغواية، لتصل بذلك من رفعة القدر في دنياك وأخراك إلى الغاية. فأفِق من غشيتك وانتعش من حيرتك، فقد لاح الصباح وبان لك من حجج الله تعالى ما ليس لك منه انفكاك ولا براح، والله تعالى يحملنا وإياكم على أرشد الأمور ويحمينا عن مسالك الجهالات والغرور، فهو بالفضل جدير وهو على كل شيء قدير.

وسألتم في كتابكم الأخير عن المسألة التي ذكرها صاحب «المقامات» رحمه الله ورضي عنه، وتلك المسألة إشارة إلى حال الخضر مع موسى عليهما السلام، ساقها رحمه الله كالدليل على ما هو بسبيله من تقريره أن ثَمَّ أموراً انفرد بها الخواص قد جاوزت الأحوال والمقامات، وفارقت النعوت والعلامات. وذلك أن الخُلُق كما قرره في بابه «وصف العبد ونعته»، وحقيقة التصوُّف راجعة إليه بإجماع من أهل هذا الطريق. وكل ما هو من نعت العبد مصحوب بالعلل، ولذلك أنِف الأبدال منها كما قال. وذكر هنالك أن جماع الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو بذل المعروف وكَفّ الأذى. وأكثر ما جرى في تلك القصة خارج عن مقتضى ما قاله في حقيقة الخلق ليس منه في شيء من التأنّي على المتعلِّم والمسترشد وهو موسى عليه السلام حين قال له

الخضر عليه السلام: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف: الآية 70] وهو إنما اتبعه متعلِّماً مسترشداً. ومن التعاسر على المتّبع والسائل وهو موسى عليه السلام حين قال له الخضر عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية 67] إلى قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: الآية 78]. ومن خرق سفينة المساكين، وقتل الغلام غير البالغ، فأنت ترى هذه المسائل كيف جاوزت مقام الخُلق الذي هو حاصل أمر التصوف حتى أنه ليست منه في شيء ولا سبيل لأحد أن يستنكرها ولا يستقبحها وإن لم يظهر له وجهُها.

فإذا تقرّر هذا لم يستبعد أن ينفرد الخواص بأمور جاوزت الأحوال والمقامات التي من جملتها الخلُق وهو ما أراد رحمه الله أن يقرره، وإنما لم يذكر من مسائل الخضر عليه السلام إقامة الجدار إذ ليس من هذا الباب. وقد ذكر في باب الخلق في الدرجة الثالثة في التخلُّق بمجاوزة الأخلاق وهو لخاصة الخاصة وهو ما أشار إليه ها هنا.

ولمّا كان الخلُق من نعت العبد ووصفه، كان ما جاوز الخلق ليس من نعت العبد، ونعني بنعت العبد حاله ما لم يقتطع عن نفسه، فإذا اقتطع عن نفسه زال عنه النعت ولم يكن له اسم ولا رسم، فيصير حينئذ من أهل القبضة. وأهل القبضة هم خاصة الخاصة، المشار إليهم بقول الصادق المصدوق ﷺ حاكياً عن ربِّه عزّ وجل من قوله: «**فإذا أحببته كنت سمعه وبصره**»[1] وكذا وكذا، فتجدهم تجري على أيديهم أشياء مستنكرة في ظاهر العلم وباطنها حق محض إذا ظهر وجهُه اعترف بصحته وحقيقته كمسائل الخضر عليه السلام بعد تفسيرها، لأنهم معزولون عن نفوسهم، مأخوذون عن مقتضيات رسومهم، فكانت التصرفات الجارية عليهم غير منسوبة إليهم، وكل ما لم يُنسَب إليهم لا سبيل لأحد أن يسأل عنه سؤال اعتراض وانتقاد. فليس إلا التسليم وجميل

(1) رواه الحاكم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، في بيان عدد الأبدال وصفاتهم [1/ 265].

الانقياد ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية 16]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: الآية 23] وقد نبّه الخضر عليه السلام على هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: الآية 82] وقوله في إقامة الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ. . .﴾ [الكهف: الآية 82] وإنما أسند الإرادة إلى نفسه في مسألتَي السفينة والغلام، دون المسألة الأخرى تأدُّباً لما في ظاهرهما من الشناعة. واحمِلْ على هذا الأسلوب الذي ذكرناه في معنى هذه المسألة كل ما ينسب إلى الأكابر من أحوال شنيعة وجوِّز أن يكون ذلك من هذا القبيل لتَسلَم بذلك من التهمة وسوء الظن بالأكابر الذي لا تقال في ذلك عثرة عاثر، كقول النبي ﷺ أو غيره ـ الشك عندي ـ لبعض الناس: «**أصابتك عين من عيون الله**»(1)، وما أشبه هذا. فهذا ما ظهر لي من الكلام على هذه المسألة التي سألتم عنها على طريقة القوم نفعنا الله بهم. وهنا انتهى تفسير المسألة المذكورة.

وقوله: لكن إرادة أهل التخصيص إلى آخر ما قلتم هو مبدأ لما ذكره من أحوال الخواص فألحقوه بباقيها على ما هو عليه من بيان أو إشكال، ولا تكلفني الكلام عليه يا أخي، فما لك ولهذا كله؟ دعه لأربابه، واشتغل أنت بروايتك وعنعنتك وسِلسِلتك على طريقة أرباب الحديث لتنال رُتبتهم في هذا الزمان الفاسد الخبيث، ولتكون مبلِّغاً للشريعة المحمدية في الفترة الجاهلية إلى مَن نبذها خلف ظهره بالكلية لتنصلح بذلك أحوالهم الفاسدة، ويبنون أمورهم في دينهم على أصح قاعدة «وهل يُصلح العطّار ما أفسده الدهر؟».

ولو تأمّل الإنسان حاله بعين البصيرة وكان له حظ من عقل وإنصاف، لعلِم أن جميع ما يتصرف فيه مما تميل نفسه إليه من طاعة وقربة فضلاً عن مباح ومعصية لا باعِث له عليه سوى الهوى ليتوصل به إلى حظ دنيوي يناله أو يتوهم نَيْله ثم لا يناله، ولا حظ له منه في الآخرة. وذلك التصرف والعمل يحتاج فيه لا محالة إلى تعب ومقاساة نصب، فإذا رزق الله تعالى العبد شيئاً من القناعة وتأتّى

---

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، في صفة الأولياء وحقيقة الولاية. . .، [2/ 236].

له من وجه لا يذمه علم ولا يحتاج فيه إلى كبير مؤونة لقمة وخرقة وكوّة فضلاً عما وراء ذلك من اتساع الحال وكثرة المال، ينبغي له أن يقتصر على ذلك ويقنع به ولا يتشوّف لغيره بتصرف يقتضي وجود تعب وشغل قلب، فذلك كله شرّ ظاهر وأعظمه شرّاً وأشده في العاقبة ضرّاً، قلّما يسعى به لاستجلاب ذلك مَن ينتسب إلى الدين من أهل العلم والعمل، مع اعترافه بقبح حاله، وأعظم من كل عظيم وأشرّ من كل شرّ إذا لم يعترف بذلك، بل عدّه ديناً قويماً وصراطاً مستقيماً، وهذا هو حالنا، عفا الله عنا.

فإذا التزم العبد ما ذكرناه، وقطع به وقتاً صالحاً في دنياه، حصل له عند ذلك من حظوظه الدنيوية أنهى ما أمّله، وأدنى ذلك حصوله على الراحة القلبية والبدنية وخروجه من حيز الغرور وكونه ضُحكة للشيطان الغَرور ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾ [هُود: الآية 86] فاقبَل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى الانتصاح بها منك.

وقل لي: يا نصيح لأنت أوْلى بنصحك إذا علمت فما انتفعت[(1)]

ولكن إذا رجعنا إلى حديث آخر لا يسعُنا إلا الصمت والتزام أدب الوقت خشية حلول المقت، أعاذنا الله من سخطه ومقته بمنِّه وكرمه.

والمراد منكم أن تجتمعوا مع فلان وتعتذروا له عني فإني لم أكتب له جواب كتابه وكان سأل مني فيه أن أكتب إليه وأوصيه، وكنتُ قبل هذا كتبت له كتاباً بمثل ذلك لما طلبه مني، ونبّهته فيه على الطريقة المألوفة مني، وهي طريق الشكر، إذ هو الطريق الأقصد، وبيَّنتُ له وجوهاً من النِعَم هي ملابسة له، وأشرت له إلى كيفية الشكر عليها ليصل بذلك إلى مرغوبه ومطلوبه من غير تعب ولا مؤونة. فلما وصل إليه الكتاب لم يقنع بذلك لأنه وقف مع حال نفسه وقبح

---

(1) هذا البيت هو أحد أبيات قصيدة لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الأليبيري المتوفى سنة 460 هـ، وهو من البحر الوافر وتفعيلته: مفاعلتن مفاعلتن فعولن. ونصه:
وقل لي يا نصيح لأنت أولى بنصحك لو بعقلك قد نظرتا
(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

تصرفها وشكا إليَّ ذلك وقال لي: أنا أعْرَف بنفسي، وتوهم أني مدحته واستحسنت حاله وأنا لم أمدح أحداً إلا الله تعالى ولم أستحسن إلا فعله معه، ودعه هو يكون ما كان. وهذا هو حالي معه ومع غيره لو رأيتُ رجلاً في غاية الصلاح وآخر في غاية الفساد لسلبتُهما عن حالهما وبقيتُ مع مراد الله بهما وفعله معهما، فإذا كان هذا حالي فكيف يستقيم مني أن أخاطب أحداً بما لا يُجدي عليه نفعاً مما اعتاده الناس في وصاياهم ومواعظهم من التخويف والتحذير والمبالغة في الجد والتشمير مع التغافل عما هو عليه من سوء الأدب بين يدي الله تعالى من رؤية النفس وغلبة الدعوى؟ وصاحب هذه الحالة لا يُفلح أبداً ولو بلغ في الجِد والاجتهاد كل مبلغ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النُّور: الآية 40]، والجاهل أبداً لا يسعى إلا فيما فيه هلاكه ولا يشعر بذلك، فكيف يروم مني أن أُوَقِّفَ زِقّاً فارغاً ـ على حال ما أنا عليه الآن من تكلُّف الكتب ـ من أجل العلة التي في بصري، ولولا منزلتكم عندي وحسن فهمكم عني لم أتنازل هذا التنازل كله ولم أذكر شيئاً من هذه المعاني، ولكن ذلك هو الذي حملني عليه وخفّف عني مؤنة كتبه. فعساكم تقفونه على هذا، وعلى ما ذكرته لكم قبيل هذا على وجه النصيحة، وتضيفون إلى ذلك من عندكم ما يحسن موقعه عنده لعله ينتفع بذلك هو ومَن شاء الله من غيره. والله تعالى يهدي الجميع إلى طريق الرشد، ويوفقنا للخير بمنِّه وفضله.

***

الرسالة الرابعة

وبعد: فقد وصلني كتابكم وتعرفت منه حالتكم في تلك النازلة الشنيعة، وقد كان مآل أمرها إلى خير، وما دفع الله تعالى أعظم. فاحمدوا الله تعالى على السلامة وارتقبوا منه جزيل الكرامة.

وأما ما ذكرتم من الكرب الذي كان أصابكم بسبب فَقْد ذلك الكتاب فلا تجعلوا ذلك من بالكم، فلعل في ذلك خيراً من حيث لا تعلمون، وقد جاء ذلك على مقتضى الخاطر، وسررت بذلك لأني تداركت من أمره ما احتجنا إليه

في الكتاب الذي بعده، وفات ما لا يحتاج إليه أو يؤدي إلى وقوع ضرر بسببه.

وما ذكرتم فيه من أمر الشيخوخة، وأنكم أثبتُّم أهلية ذلك لي، وحلفتم على ذلك باسم الله تعالى العلي، فأنا أحلف أيضاً بمثل ذلك اليمين على نفي ما أثبتموه ونقض ما أبرمتموه، وكلانا ـ إن شاء الله تعالى ـ في يمينه بارّ، لأنه حلف على مقتضى ما عرف. وأنتم قمتم بما يجب عليكم من تهمة أنفسكم ورؤية عدم استحقاقكم للنَمَط العالي الذي ذكرتم حين قلتُ لكم: ما لك ولهذا؟ دعه لأربابه. . . إلى آخره، وادّعيتم أن ذلك مني مكاشفة بحالكم، ثم تبدّل لكم هذا النظر بما ذكرتموه ولم أقصد بكلامي سواه مع ضرب من الدعابة والمزاح اللذين ليس عليَّ فيهما جُناح.

وقولكم: فزال عني المَيْل إلى الرواية بالكلية، ولم يبقَ لي إلى الركون إليها بقيَّة، صحيح لو وقفتم عليه ولم تستثنوا مقابلة ما بقي لكم من «الموطّأ» وهل المقابلة إلا من بقايا ذلك؟ وكأنكم إذا تركتم مقابلة ذلك الكتاب تنهدِم سارية في جامع القرويين. كيف وفي بلاد الإسلام والبلاد التي استولى عليها عبَدة الأصنام آلاف الآلاف من نسخ الموطأ وبعضها في غاية الصحة وجودة المقابلة، وعامة ذلك قد نسج عليه العنكبوت، وتعطلت به زوايا البيوت، وما تشاغل به الناس منه أكثره صار شبكة للحطام ومصيدة للحرام.

فأي نيَّة صحيحة تبقى لكم مع هذا في التهمُّم بإتمامه بالمقابلة لولا وجود الوسوسة التي أشرتُ إليكم بها؟ إلا إن كنتم لم تجعلوا ذلك من همِّكم، بل جعلتم ذلك عوضاً من البِطالة التي لا بد لكم منها، فحينئذ يُنظر فيه.

وما طلبتم من بيان ما بقي من المسألة التي وقع الكلام عليها وهو قول صاحب كتاب «المقامات»: لكن إرادة أهل التخصيص. . إلى آخرها، فمَن فهم الكلام الذي رسمناه على الكلام الذي تقدم تلك المسألة لم يُشكل عليه شيء منها، لأنا قلنا فيه إن الخواص مُقتطَعون عن أنفسهم، معزولون عن صفاتهم، إذا نظرنا إلى صفة الإرادة منسوبة إلى العبد وجدناها متعددة، ومتعلقاتها متعددة، إما مرادٌ فيه ـ وهو إيصال منفعة له ـ أو مراد له ـ وهو إيجاد ما به

المنفعة ـ، أو تكون ذاته مرادة، فإذا نظرنا إليها مسلوبة عن العبد بالنظر والشهود الجمعي، لم يبقَ له منها شيء، وهو معنى ما ذكره من التجرُّد، وحينئذ يشاهد ما كان متعدداً من مراداته مراداً واحداً فردانياً من حيث لا تعدد ولا تغاير. والعبارات في هذا المعنى ضيقة المجال، وهي وإن حُرِّرتْ لا تخلو من إيهام ما هو باطل ومحال، فأقيلوني منها وطيبوا أنفساً عنها، فإن ذلك لا حاجة بكم إليه الآن ولا يليق ذكره بهذه الأزمان. وقد قدّمت لكم من كلام سهل بن عبد الله رضي الله عنه التحذير عن مثل هذا المعنى.

وأما الذكر الذي طلبتم مني أن أُلقِّنكموه لتدوموا عليه وتتخذوه وِرداً، فإن ذلك ليس من شأني، هو من شأن الشيوخ المربِّين. وقد تقدم مني على عدم أهليتي لذلك الحلف واليمين. ولكن الذي أدلُّكم عليه من أنواع الأذكار، ما كان منها دعاء، ومن الدعاء ما يتضمن حمداً وثناءً ويقتضي من داء الرعونات شفاء. ولم أجد ذلك إلا في المواظبة على سيد الاستغفار الذي جاءت به صحاح الأخبار، لما تضمنه من المناجاة والحضور والإقرار بربوبية الملك الغفور، ثم إخلاص الوحدانية والاعتراف بفاقة الخِلْقَة وذلة العبودية. ثم إظهار الحاجة في تكاليف الخدمة إلى القوي والمعين، والاستعاذة بالله تعالى مما يوسوس به عدوه اللعين، ثم الرجوع إلى الله تعالى بالنعم وتحمُّل الذنب المجترم. ثم سؤال الغفران والمتاب والاختتام بالثناء الحسن على رب الأرباب. فإذا جعلتم ذلك هجِّيراكم في أكثر أوقاتكم حصل لكم بذلك الخير الكثير مع القيام بحُسن الأدب بين يدَي الملك القدير. واتخذوا كيفيّةً من الصلاة على النبي ﷺ فذلك من أقرب الوسائل إلى أشرف المقاصد، والتزموا ذلك فيما عُيِّن له من الحالات والأوقات، واجعلوه عِوَضاً مما فاتكم منه عند تشاغلكم بالأحاديث التي تروونها عن الثقات وغير الثقات.

وأما ما استشرتموني فيه من لبسكم للدُفّاس بين أظهر الناس، فإن ذلك مما لا فائدة لكم فيه مع تعرضكم بذلك لطعن العامة وشتمهم ووقوع المضرات من قبلهم.

وأما الحانوت فدعوها مبنية مداراة على حالكم وتقية، ولا يضركم ذلك

إذا صدقت فيه النية. فإن الزمان قد بلغ الغاية في الفساد، وشملت الفتن جميع العباد إلا مَن عصم الله تعالى منهم، والله تعالى يعيذكم من شر الأشرار وتسلُّط الفجّار.

وأما ما استشرتموني فيه أيضاً من تسميع الناس كلامي وحملهم بذلك على اتباع مقصدي ومرامي، فإن غلب عليكم حال يحملكم على الكلام فلا عِتاب عليكم ولا ملام، إذ لعله يكون في تلك الحال مراداً منكم، وإلا فالسلامة في ترك ذلك جملة إلا أن تجدوا أهله ومحله.

وأما ما ذكرتموه من الرمز فليس ذلك برمز على الحقيقة، وإنما أوردتُ لفظاً محتملاً لمعنيين، كل واحد منهما صحيح. فلو ذكرتم لي المعنى الذي فهمتم منه ذكرتُ لكم المعنى الآخر إن شئتُ ذلك. وإنما قصدت بذلك كله التسلية لكم عما كان أصابكم من الكرب. فصِرتُ في ذلك الكتاب أركبُ كل صعب وذَلول، وأتفنّن في العبارات والإشارات التي تستحليها الأسماع وتلهج بمعانيها العقول، وما من حرف منها ولا كلمة إلا وتحتها طائل ومحصول، ليس في شيء من ذلك زيادة ولا فضول، وكذلك في سائر ما نكتب به إليكم ولكنكم لا تشعرون به، إذ لو شعرتم بذلك لاكتفيتم بالقليل منه، ولكني لما علمت منكم ذلك صرت أُكثِرُ الكتب وأضع الهِناء[1] مواضع النقب. والناصح في كَتْب الرسائل المبعوث بها إلى البُلدان ينبغي له أن لا يدع شيئاً من البيان، ولا يرى تفرقة بينها وبين مخاطبة المشافهة والعِيان، بل ربما كانت تلك أكثر إيضاحاً وأبلغ تصريحاً وإفصاحاً. كل ذلك ليحصل المقصود من كتاب واحد، ولا يُحتاج معه إلى مراجعة توجب طول انتظار ولا تشوُّف إلى وارد، لا سيما فيما تباعد من الديار وتنائى من الأقطار، والانتظار يُشِيبُ مَن لم يشِب، ويُنَشِّب مَن لم ينتَشِب، ويكون ذلك في صحيفة مَن ينتسِب إلى مَن إليه انتُسِب.

فافهم الإشارة وأجِب عن كل ما منك بتصريح أو تلويح طُلِب، فإن فعلت ذلك تُصِب، وإن لم تفعله أخطأت ما يَجِب، لكن لا يصلح عتاب مَن على

---

(1) الهناء: هنيء: طُلي، والهناء الاسم، والهَنْءُ المصدر، والهناء: القطران (لسان العرب).

ذلك عُتِب، لأن بعض الأمر فيه عنه قد غُيِّب وحُجِب، وقل حينئذ ما كذب صاحبنا ولا كُذِب، ولا وَهِم ولا حَسِب بل شرب وطرب وبذل جهده وحَدِب. ولسان الحال أفصح من لسان المقال فيما خبِر وجُرِّب، وليس عليك في هذا الأمر معترض ولا محتسب. وسيعلم كل مَن ظلم أي منقلب ينقلب. والسلام.

***

الرسالة الخامسة

وبعد: فقد وصلني كتابكم وذكرتم فيه أنه حصل بأيديكم تأليف ألفّه فلان في نصرة طريقته بالأحاديث الصحيحة، ولا بأس لو نسختموه وبعثتم به، لأن الأحاديث النبوية مظنّة الفوائد لمَن عرف تأويلها. وطلبتم فيه أيضاً بيان ما وقع في كتابَيْنا من العبارات المسجّعة كما طلبتموه منا في كتاب قبل هذا وذكرتم فيه ما فهمتموه فيها وسألتم: هل وافق فهمكم ما قُصِد فيها أم لا؟

فأما ما فهمتهم في الكتاب الأول: فقد وافقتم وصادفتم الغرض في أكثرها، وفي بعض منها قاربتم. وكنت نبّهتكم على هذا في كتاب كتبته إليكم قبل هذا، ولا أدري أوصلكم أم لا؟

وأما ما فهمتموه في الكتاب الثاني: فقد رميتم في ذلك مرمًى بعيداً وحمّلتم بعض الكلام حملاً ثقيلاً، وذكرتم في تأويلها أشياء من النمط العالي من مسائل التوحيد والحقيقة والجمع والتفرقة وغير ذلك مما عبّرتم به من العبارات، إلى أن قلتم: مَن هو مثلي واقف مع النظر إلى نفسه، وكذا وكذا وكذا لا يفهم ما يعبّر به أولياء الله بتصريح فكيف ما يذكرونه بإشارة أو تلويح؟ وأنا لم أقصد إلا تقريب الإشارة وإن تفنَّنتُ في العبارة في مقاصد هي أدْوَن من ذلك بحسب ما يليق بالكلام المتقدم عليه. والذي أوجب ذلك لكم حتى لم تعثروا على المقصود بأول وهلة ـ والله تعالى أعلم ـ ما تخلّل في أثناء ذلك السجع من المحو والحذف، والكلام إنما ارتبط بعضه ببعض في تقدير بقاء ذلك المحو ثابتاً، فلما وقع ذلك تقطّع الكلام وحصل الإشكال والإيهام. ومن أول الكلام الممحو إلى آخر الكلمات المسجعة إنما قصدت به الكتاب الذي

كتبته في شأن الرجل الذي كان عندكم، وأردت بذلك أن يظهر أمره للناس ليُنكر عليه ويَبطُل الغرض الذي قصد إليه، وكان لي إذ ذاك فيه قريحة تامة، وأهاج ذلك مني ـ بعد أن كنت تغافلت عن ذلك ـ طلب فلان مني بيان الخطأ في تلك النازلة فاغتنمت ذلك وكتبته كتاباً مستقلاً بنفسه لم أخلط معه غيره، فلما رأيت أن ذلك لا يُجدي شيئاً ـ وأني فيه بمنزلة مَن يؤذن في أرض خالية ـ مع أني توقعت كراهية فلان لذلك، لأني عرّضت به فيه، وأنا لا أحب أن يصدر له إلا ما يوافقه ـ مصيباً كنت في ذلك أو مخطئاً ـ محوت ذلك الكلام وقلت لك: لا تُطلع عليه أحداً سواه حتى آذن لكم. فهذا هو الذي أوجب انقطاع ذلك الكلام حتى لم تحصل منه فائدة.

ونص ما انمحى منه: . . . واقتَرِ ما أُدرج طيّه وكُتِب، وبثّه سراً إلى مَن في الخير رغب، وقولوا حينئذ ما كذب صاحبنا ولا كُذِب. . . إلى آخره، فهذا ما قصدته بهذا السجع.

وأما السجع المتصل به من قبله فهو من تتمة أغراض مفهومة مما تقدمه من الكلام، فقولي: كل ذلك ليحصل المقصود من كتاب واحد، أي يحصل لي المقصود من جوابكم عن كل ما يتضمنه كتابي بتصريح أو تلويح من كتاب واحد أكتب به إليكم، ولا أحتاج إلى مراجعة بكتاب آخر أطلب منكم فيه كذا وكذا وكذا مما لا يُحصى ولا يُعد فنحتاج في ذلك إلى طول انتظار وتشوُّف، لا سيما فيما تباعد من الديار، لأن انتظاري لذلك يُشِيب مَن لم يشِب ويُنَشِّب مَن لم ينتشِب، أي أجد لذلك ألماً بقلبي، لأن لي تشوقاً كثيراً إلى ما يرد عليَّ من جهتكم من كتاب تخبروني فيه بأشياء مما يصلح أن يتفاوض فيه المتجالسان من أمور واقعة بكم أو بغيركم، وما قيل فيها وما جرّت إليه، ليحصل لي بذلك بعض أنسٍ، لأني ها هنا بحال غربة لا أجد من أحد حالاً تناسب حالي ولا مذهباً يطابق مذهبي، فتجدني أستوحش لذلك وأتألم من قبله. فإذا ورد عليَّ كتاب منكم، كثير الجرم، فيه كلام كثير، أعجبني ذلك من قبل أن أقرأه، وقلتُ: لعلّ فيه شفاء، فإذا قرأته وجدته غير موفٍ بغرضي فأود لو كان على خلاف ذلك. وهذا وإن كنتم لا تعلمون الغيب فقد ظنّ

أنّ عندكم فطنة بالإشارات والتلويحات والمعرفة بالأغراض والمقاصد.

وقولي: ويكون ذلك في صحيفة مَن ينتسب... إلى مَن إليه انتسب. هذا الكلام هو الذي حمّلتموه حملاً ثقيلاً كما ذكرته لكم، لكنكم ادعيتم أنكم لا تعرفون تأويله، وإنما قصدتُ بذلك أن الألم الذي أجده في الانتظار لكتابكم الذي أطمع أن يكون موفياً بغرضي تجدونه مكتوباً في صحيفتكم، وإنما غيّرت العبارة لأجل القافية أو ما يشبه القافية. ونعني بالانتساب: النسب الذي اشتركنا فيه حسبما كنتم ذكرتموه لي، وقصدت بهذا الكلام نوعاً من المزاح ـ لا أنه حقيقة ـ لأني لا أحب أن يكون في صحيفة أحد تباعة من قبلي فضلاً عنكم، وهذه أيضاً ليست بتباعة، وإنما تشبهها في الظاهر. والتفسير الذي فسّرتم به هذا الكلام لا يحتمله ظاهر اللفظ، لأني عبّرت فيه بمَن التي هي لمَن يعقل فقلت: لمَن إليه انتسب، ولو أردتُ ما ذكرتم لقلتُ: لما إليه انتسب، ثم إن ما ذكرتم فيه نوع من دعوى الانتساب إلى طريق القوم، وأنا لا أقدر أن أدّعي الانتساب إلى ذلك ولا أتجاسر عليه. ولا يُعترض على هذا بقولي في مقدمة «التنبيه» على كلام ابن عطاء: إذ منَّ علينا بالانتماء إلى مذاهبهم والانتساب إلى كريم مناسبهم، لأن الانتماء والانتساب هنالك ليس بمضاف إليّ إضافة محضة فيكون ذلك دعوى، وإنما أسندت ذلك إلى الله عزَّ وجل، واعتمدت في هذا الإسناد على ما أظهره عليَّ وعلى غيري من اعتقاد تلك النسبة، ورجوت من الله تعالى لمّا أظهر من ذلك ما أظهر أن يكون محققاً بأن يقع الأمر كذلك عنده. فالكريم إذا ادُّعِيَ عليه شيء ما في يديه ـ ويكون المدّعي أو مَن ادُّعِي له مفتقراً إليه ـ يصدّقه في دعواه ويُسوغ له هبته وجدواه، فما ظنُّك بمَن صدر منه تلقين تلك الدعوى ـ وكان عالماً بالسر والنجوى ـ سبحانه نِعم المولى.

وقولي: فافهم الإشارة وأجِب، ليقع منكم الوفاء بالغرض الذي تقدم ذكرنا له.

وقولي: فإن فعلت ذلك تُصب، أي تقع على المقصود عندي.

وقولي: وإن لم تفعله أخطأت ما يجب من حق اقتراحي عليكم، ولو

فعلتم كما أفعل لأصبتم، وذلك أني آخذ كتابكم وأفْلِيه فلياً بحيث لا يشذ عني منه شيء مما يقتضي مني جواباً لكم، فإن تركت منه شيئاً فإنما أتركه تعمُّداً لغرض، لأني لا أرى لكم فيه مصلحة ولا فائدة، ويستقيم ذلك مني لمزية الشيخوخة التي ادّعيتموها لي وكما شاء الله تعالى وقدّره، وقد وافقتكم على دعواكم لي ذلك لمّا أردت أن أُذيّل به الآن، وأختم به هذا الهذيان.

فإن قلت: شأن الشيخ أن لا يطالب تلميذه بشيء من حظوظه وأغراضه، ولا يتغنّم ذلك منه ولا يُتعبه ولا يُكدّر عليه عيشه، وإنما يسعى فيما تعوّد عليه بالمصالح الدينية والدنيوية، لأن الشيخ قد فرغ من تأديب نفسه وتهذيبها. وأنت يا أيها المتكلم لم تفعل شيئاً من ذلك، لأن هذه المطالب كلها التشاغل بها مما يُشتِّت الهَمّ ويفرّق القلب، وأنت تدعوني إلى ذلك وتحرِّضني عليه تحصيلاً لغرضك الذي لا يعود عليّ منه مصلحة معتبَرة مما يقصد به الشيخ تلميذه ومريده، بل ربما آذاه وشقّ عليه.

فأقول: هذا كله مما يُبطل دعواكم لي مقام الشيخوخة، وجميع ما استدللتم به على ذلك ساقط لا يقوم على ساق. فإن رضيتم بشيخوخة نصطلح عليها ليست من الشيخوخة الحقيقية في شيء بحيث يقع فيها ما ذكرتم مما لا يقع في الشيخوخة الحقيقية من طلب الحظوظ والأغراض الذي لا يحظى شيء منها المريد، فلا حجر عليكم في ذلك، والاصطلاحات لا يقع عليها سؤال، والبيِّنة من قرض الدَّين، ومَن لا سبيل له إلى النظر بعينين ينظر بفرد عين. وفي حقي يصدُق البيت الذي قيل في شهود بعض الأزمنة وقاضيها، لكن بعد تبديل ما فيها من أسمائهم، فيقال لي:

مريدك والزمان وأنت شيخ قريب من قريب في قريب[1]

وكان في البيت شهودك عوضاً من مريدك وقاضٍ بدلاً من شيخ. وإن لم ترضوا بذلك احتجتم في هذا الإلزام الذي ألزمناكم على لسانكم جواباً مقنعاً، ولن تجدوه، فإن وجدتموه فقيِّدوه.

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذا البيت.

وقولي: لكن لا يصلح عتاب مَن على ذلك عُتِب، أي إن لم تصادف غرضي وعاتبكم على ذلك معاتب، فإن عتابه إياكم لا يستقيم، لأن تكليفي لكم فَهْم تلك الإشارات والتلويحات والإجابة منكم على حسبها تكليف شطط يقع لا محالة فيه الغلط، فلا يستقيم فيه العتاب، ولذلك قلت في تعليله: لأن الأمر فيه عنه قد ستر وحجب.

وقولي: وقولوا حينئذ ما كذَب صاحبنا ولا كُذِب، هذا مُرتّب على الممحو قبله، والقول ها هنا حالي وليس بمقالي، ولذلك قلت بعده: ولسان الحال أفصح من لسان المقال فيما خُبِر وجُرِّب، ونعني بذلك أن تكونوا عند مطالعتكم ذلك الكتاب مَن ذكرتُه لكم في قولي: وبُثَّه سراً إلى مَن في الخير رغب، على حال تطابق معنى ذلك الكلام. فإن رأيتم من بعض مَن تقرؤونه عليه بعض إنكار أو تَلكؤٍ عما طالبته فيه من الانتصار، قلتم في أنفسكم ذلك الكلام، لئلا يقع منكم في بثِّه لمن ذكرته لكم تقصير وإحجام. ومعنى ما كذَب صاحبنا، أي فيما ادعاه فيه، ومعنى ما كُذِب، أي أن العلم الحاصل له بذلك علم يقيني يشبه العلم المتلقَّى من إلهام الملَك في المتانة والقوة بحيث لا يعتريه وهم ولا حسبان، ولذلك قلت بعده: ولا وهِم ولا حسِب، واقتديت في تلك العبارة بأبي ذر رضي الله عنه حين قال في قصة وفاته المشهورة للنفر الذين تولَّوا أمره ـ بشارة لهم ـ: «ما كَذبتُ ولا كُذِبت» لما أخبرهم أن رسول الله ﷺ كان قال له: «**إنك تموت بفلاة من الأرض وتشهدك عِصابة من المسلمين**»(1) أو كما قال ﷺ.

وقولي: بل شرِب وطرِب وبذل جهده وحدِب، صادفتم الغرض في فهمه، إلا أنّ المناصحة التي ذكرتم أني بذلتُ فيها جهدي هي ما تضمّنه ذلك الكتاب فقط.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، محنة أبي ذر رضي الله عنه، حديث رقم (5470) [3/ 388] والنص موضع الاستشهاد هو: «وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين وليس من أولئك النفر أحد إلا ومات في قرية وجماعة فأنا ذلك الرجل والله ما كذبت ولا كذبت فأبصري الطريق. . .» إلخ.

وقولي: وليس عليك في هذا الأمر معترِض ولا محتسِب، أي ليس عليك في التكلم بهذا الكلام معترِض من عقل ولا محتسِب من شرع، لأنه موافق للحق غير منحرف عنه.

وقولي: وسيعلم كل مَن ظَلم، أيَّ مُنقلَب ينقلِب، قصدتُ به خصوص تلك النازلة، أي سيعلم مَن ظَلم بقلب الأمور ووضع الأشياء في غير مواضعها، فردّ الرؤوس الذين هم أولياء الله تعالى وخاصته أذناباً يطؤون عليها بالأقدام. والأذناب الذين اشتملت عليهم ثيابهم ونبحت على أولياء الله تعالى كلابهم، رؤوساً يسمع منهم الكلام وتصدر منهم الأحكام، وهم أضلُّ سبيلاً من بهائم الأنعام، أيَّ منقلَب تنقلِب، إذا انكشف الغطاء وبرح الخفاء وحاق به الشقاء وانقطع من يده حبل الرجاء، هنالك يقرع السنَّ مِن ندَم ويقف من التحسُّر والتأسُّف على قدم، ويودّ لِما صدر منه من عظيم الذنب وسوء الأدب بين يدَي الربّ أن يرد إلى العدم، هيهات هيهات ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [هُود: الآية 21]، ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الجَاثِيَة: الآية 27] فنعوذ بالله من الخسران الذي ليس له تدارُك ولا جُبران، ونسأله أن يرزقنا من حُسن الأدب والتعظيم والتوقير لأولياء الله تعالى الذين اتخذوه وكيلاً ورضوا به كفيلاً ولم يوجّهوا لمَن سواه تأميلاً، ولم يروا لهم على غيره تعويلاً، ولا ابتغوا من الوقوف على قدم العبودية له تبديلاً ولا تحويلاً، ما يوجب لنا منهم القبول ويحقق لنا شفاعتهم في اليوم المهول ويُنظِمنا في سلك محبِّيهم، ويجعلنا ممن يجيب دعوتهم ويُلبِّيهم.

يا عباد الإلٰه إنّ عُبيداً ... لاذَ مِن جاهكم بركنٍ قوي
فاقبلوه بفضلكم وارحموه ... واشفعوا فيه للإلٰه العلي

فهذا ما أردت أن أذكره لكم في بيان ما أشكل عليكم ونبّهناكم في ضمنه على أشياء كنتم غافلين عنها لتعملوا على حسبها إن شئتم، ولم يكن في غرضي ذكرها حتى حركتموني لها. وذكرتم في كتابكم أنكم تركتم الرواية بالكلية، وغلوتم في ذلك حتى بعتم كتاب الموطأ، وحدّثتم أنفسكم بغير ذلك، ولا

تحتاجون إلى كل هذا، بل المراد منكم أن لا تجعلوا ذلك من همّتكم كل الجعل، والله تعالى سبحانه يُصلح منا القول والفعل ويعاملنا بالمنَّة والفضل، لا بما نحن له أهل.

الرسالة السادسة

وبعد: فقد بلغني كتابكم وأنتم تذكرون فيه وفاة سيدي الحاج، فالله تعالى يرحمه ويبرّد ضريحه ويجزيه عنا أفضل الجزاء، فقد كان لكم نِعْمَ الصاحب والحبيب، ولقد استراح هو من متاعب الدنيا وفِتَنِها وبقينا بعده غرضاً لذلك.

ليس مَن مات فاستراح بمَيْت   إنما الميت ميِّت الأحياء[1]

وأعظم الفتن التي دُفعنا إلى مكابدتها فتنة الدين، لأن الأمر فيها يؤول إلى سوء الخاتمة والعياذ بالله، وسبيل نجاتنا منها في غاية الغموض والإشكال، والدالُّون عليها كعنقاء مغرِب لا توجد بحال. ولولا القَسوة التي غمرت قلوبنا من آثار هذا كله لمتنا كمداً لما دُهينا به من المصائب التي سدّت علينا أبواب الرحمة، وقطعت عنا موادّ العصمة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يخافون من الفتن القادحة في أديانهم فيودُّون أن لو ماتوا على ما هم عليه من الصفاء والزكاء قبل أن ينزل بهم ما يحولون به عن حالهم، وأيّ شيء حالهم؟ هي ما أثمره صحة إيمانهم وصفاء يقينهم بسبب أنوار النبوءة التي فاضت عليهم من رفضهم للدنيا وإيثار الآخرة عليها وبذلهم الجدّ والاجتهاد فيما يؤديهم إلى هذا المطلب الشريف. وكانوا في هذا الأمر بمنزلة مَن ظفر بإكسير يتوصّل به إلى مُلك كبير، فشعر

(1) أحد ستة أبيات لابن الرعلاء: عدي بن الرعلاء الغساني، وهو من البحر الخفيف، وتفعيلته:

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

بوجود أحد ينازعه فيه ويغالبه عليه، فكيف تُرى يكون حاله في التحرُّز والتحفُّظ؟ وفي حديث أبي جحيفة رضي الله عنه أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متغيِّر اللون فقال: «**ذهب صفوُ الدنيا وبقي الكدر، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم**»[1] فإن صحّ هذا عن رسول الله ﷺ أنه قاله أو قاله أحد من أصحابه رضي الله عنهم في زمانهم الصالح فماذا عسى أن يكون قولنا نحن؟ ولكن مثل هذا القول إنما يصدر من قلب حيّ بالإيمان متفطِّن للزيادة والنقصان، عالم بالصفاء والكدر، وما بقي منهما وما بان. وأما نحن فقد ماتت منا القلوب واستولى عليها ران الذنوب، فضعف بسبب ذلك إيماننا بالله واليوم الآخر، وصار حديثنا بذلك كحديث مستهزىء ساخر، فركنَّا إلى هذه الدار التي فيها نغتذي ونعيش، مع أنَّا لم نحصل منها إلا على أطراف الريش، وقرَرْنا بها عيناً، وإن كان حاصلها زُوراً ومَيْناً، بحيث أنَّا نعُدّ البقاء فيها ولو ساعة واحدة غنيمة مع ما نلقى فيها من أنواع البلايا وضروب الرزايا، حتى إذا نزل بنا أمر نتوهم أن يكون في ضمنه الموت، قامت علينا القيامة، وانقلبت الدنيا بنا على عروشها لاستشعارنا ذلك. فأين نحن من زمان يُتمنّى فيه الموت، ومَن لنا به؟ لو أدركناه لكنّا من الفائزين، ولكنّا أُخِّرنا إلى زمان ماتت فيه القلوب وعظمت فيه الخطوب، لِما سُلب منها من أنوار الإيمان واستولى عليها من جنود الشيطان، فما أحقنا بالبكاء بعد الدموع بالدماء، وما أحرانا أن نكون على حال لا تقِلُّنا أرض ولا تُظِلُّنا سماء.

وأعظم المصائب علينا أنَّا لا نجد أحداً ينبِّهنا على مثل هذا ويُنعش قلوبنا بحاله أو مقاله، وإنما نجد مَن نزداد به توغُّلاً في الباطل ورسوخاً في الضلال، وهم الدجاجِلة الكذّابون الذين خاف علينا منهم الناصح لنا والشفيق علينا ﷺ أكثر مما خافه علينا من المسيح الدجّال، ولعمري لئن ظهر عن قريب ليجدن هؤلاء الناس قد دانوا بطاعته، واستجابوا لدعوته، من غير أن يحتاج إلى كبير مؤونة ولا تعب، لأن أولياءه كفَوْه ذلك أتَمّ كفاية. والكافر إذا دعا المؤمن إلى

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حرف الذال المعجمة، حديث رقم (1340) [1/ 503].

الكفر جهاراً لم يَقبل منه ولم يستجِب له، فإذا تلطّف في ذلك واحتال عليه بالتلبيس بأمور تناسب حال المؤمن يستدرجه بذلك استدراجاً خفياً، ويسترقِه استراقاً لا يشعر به، فحينئذ يحصل على مراده أجمع. وفي حديث الفتن والتعريف بأهلها حيث قال رسول الله ﷺ فيهم: «**دعاة على أبواب جهنم، مَن أجابهم قذفوه فيها**»[1]، وما أجاب به حذيفة رضي الله عنه حين سأله عن صفتهم، فقال ﷺ: «**هم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا**» إشارة إلى المناسبة والمقاربة التي ذكرناها. والله أعلم.

وإبليس لم يقدر على إغواء ذلك العابد من بني إسرائيل حتى بنى مسجداً قبالة مسجده، وزاد عليه في اجتهاده وتعبُّده، وحينئذٍ تمكن منه، والضلال قد يحصل بعين ما تقع به الهداية، والتوفيق لا يناله إلا مَن سبقت له من الله العناية ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: الآية 26].

وعند كَتْب هذا الكتاب وصل إليّ كتاب منكم تضمن الإخبار بأمور من جملتها السؤال الذي سأل عنه الشريف الذي ذكرتم، لأن الإشكال عليه في ذلك إنما آثاره ما توهّم من أن الروح إذا رُدَّت بعد خروجها مصحوبة بالمشقّة. ومن أين له هذا؟ فإن قاسه على المعهود في النوم فلا مشقة في ذلك ردّاً ولا خروجاً، وإن قاسه على حال الموت فلا رد هنالك تشاهد فيه المشقة، وإنما تشاهد المشقة حال خروجه عند الموت. وقياس خروجها من البرزخ على خروجها عند الموت لا يستقيم، لأن موجب وجود الألم منفي هنالك لعدم وجود البشرية التي تشعر بالألم واللذات الدنيوية. والمشقة التي ذكرها تابعة لذلك، وهذا القدر كاف في إزالة الإشكال والزيادة عليه. وتحقيق القول في كيفية هذا الأمر فضول، لا يسع الوقت أن يقال. ولا أدري كيف خفي هذا على الفقهاء والصالحين الذين ذكرتم أن السائل سألهم فلم يجد عندهم ما

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، حديث رقم (6673) [6/ 2595] ورواه مسلم في صحيحه، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. . .، حديث رقم (1847) [3/ 1475] ورواه غيرهما.

يشفيه. فإما أن تكونوا حين ذكرتم الإشكال لم تحرروا محله، وإما «أنّ أبا حنيفة آنَ له أن يمدّ رجله».

وما ذكرتم في هذا الكتاب والكتاب الذي قبله من أنكم أردتم المجيء إلى هنا برسم الزيارة ومقابلة الشرح وتصحيح بعض ما تضمنه، وسألتم هل لكم في ذلك فائدة أم لا؟ فالجواب ـ والله الموفق للصواب ـ أن السفر في هذا الزمان صالح، لأنه معتدل في حرِّه وقرِّه، إلا أن الفائدة فيه قليلة لا تفي بمتاعب السفر وتشتُّت الحال وفراق الأهل في هذا الموسم، وتعلُّق الخاطر بالأولاد والمسيد وغير ذلك، مع أن المدة يسيرة لا يحصل في مثلها تشفٍّ ولا استراحة إلى مخالطة ولا كلام.

افترقنا حولاً فلما اجتمعنا كان تسليمه عليّ وداعاً[1]

مع أن تزاور الأحرار بالأسرار. واليد تقوم مقام لسان مكثارٍ مِهدار، ومقابلة الشرح هي مقتضى الوسوسة التي صحبتكم من رواية الآثار وتصحيح معانيه، لا على وجه البدار، ولكن بعد خلع العذار وقطع الزنار وعدم الوقوف مع جنة أو نار، هنالك بلوغ الآمال والأوطار.

على نفسه فليبكِ مَن فات عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم[2]

وتمثيل فلان مسألة ذلك الشريف بالنَّفَس لا يستقيم فيما يظهر لي، لأن النَفَس ملائم للطبع في إدخاله وإخراجه، وكل ما لائم الطبع معلوم أنه لا ألم فيه ولا مشقّة. وأما دخول الروح وخروجها من الجسد فأمر غريب ليس فيه تشاكل ولا مناسبة، فوجدان الألم في ذلك ليس بمستبعد. ولولا مشاهدتنا حال النوم واليقظة وما نجده في دخول الروح وخروجها في ذلك من فقدان

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذا البيت.

(2) هذا البيت هو للشيخ عمر بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة الملقب شرف الدين ابن الفارض وبسلطان العاشقين المتوفى سنة 632هـ وهو البيت الواحد والأربعين من قصيدة مطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

الألم وعدم المنافرة، للازمنا ما أشكل على ذلك الشريف طوق حمام.

وبعد: فعلى رسول الله أفضل الصلاة والسلام، وقد تفقّهتم في مسألة الشيخوخة ورددتم الكلام في حظ النفس وعدم حظ النفس، والخلاف في ذلك بيننا خلاف في شهادة، أنتم تقولون حظ نفس محمود، وأنا أقول حظ نفس مذموم، ورفع الخلاف في ذلك بيننا موكول إلى الحيّ القيوم، ولكن حين تفقّهتم في تلك المسألة وأخذتم وأعطيتم فيها، فها أنا أورد عليكم سؤالاً أشغل به بالكم، وأتعرّف بجوابه من الحظ التصوفي مقدار ما نالكم ليقع لي الفرح والاستبشار إذا صادفتم فيه الحق والصواب، والاكتئاب والانكسار إذا قصر منكم عن ذلك الجواب.

وهو أن رجلاً ممن ينتسب إلى طريقة الفقر جاء زائراً إلى قوم فلم يرَ منهم إقبالاً عليه، فسقطوا من عينه، وجعل يبكي على دثور طريقة الفقر، وخلاء الدنيا من أهلها، وتبدُّل ما ألف منهم، واستحالة ما عهدهم عليه. فلما سمعت ذلك قلت: لو بقي هذا الرجل في منزله ولم يشتغل بزيارة أحد وكان يوفِّر على نفسه العناء والتعب في قطعه المسافة البعيدة برسم ذلك مع ضيق الوقت وتشوشه وخوف الطريق وقلة المضغة، كان أوْلى به وأسلم له في منقلبه.

فأخبروني لأي سبب هذا وما الذي يظهر لكم فيه؟ وما كان حق هذا الزائر أن يكون عليه في قصد الزيارة؟ فإن أجبتموني عن هذا بجواب شاف سررتموني بذلك، وعلمت أن سعيي معكم لم يضع من كل الوجوه. وإنما قلت من كل الوجوه لأن بعضه قد ضاع من جهة منها، وذلك من جهة ما يرجع إليّ من تحسين نيَّة وإخلاص عقد، فأنا في ذلك كما شاء الله عزّ وجل. وما انبنى على مثل هذا مضمحِلّ ذاهب، أنفخ عليه يطير. لكن هذا كله لا يمنع من حصول الفائدة على يده لمن شاء الله عز وجل لصحة قول النبي ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[1] فلا يستقيم لأحد صلُح على يديه أحد أن

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى، الاستعانة بالفجار في الحرب، حديث رقم (8883) [5/ 278] ورواه الدارمي في السنن، باب إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، حديث رقم (2517) [2/ 314].

يدّعي صحة حاله فيما بينه وبين ربّه. لأن هذا الحديث يرد عليه ويدفع في صدره. والسر في هذا عندي ـ والله أعلم ـ أن مَن لاحت له حقيقة من الحقائق ووجد محلاً قابلاً لإلقائها فيه، لم يسعه إلا أن يذكرها ولو نُشِر بالمناشير وهدِّد على ذلك بأليم العذاب، ودع نيته في ذلك تصح أو لا تصح، لأن حجج الله تعالى لا تبطُل، ولا بد من أن يقيّض الله لإقامتها مَن شاء الله عزّ وجل من مؤمن أو كافر أو صدِّيق أو زنديق.

واعتبر هذا المعنى بقصة الراهب الذي اجتمع به إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه في صومعته وأعطاه من قوته، وباعه من تلامذته بغالٍ من الثمن، وعتابه له على عدم بيعه منهم بأضعاف ذلك، وإظهاره له عزته عليهم، وعظم أمره في قلوبهم، مع اعترافه على نفسه بالكفر بين يديه، ودعائه إياه إلى خلوص التوحيد وإبطال كل معبود سوى الله عزَّ وجل. ولم يعتبر في ذلك ما يخاف على نفسه من إبراهيم بن أدهم من هتك ستره وتبيين أمره لأولئك الأتباع حتى يتبدّل نظرهم فيه، ويبصقون في وجهه، ولكنه كان مقهوراً على ذلك، لم يجد انفكاكاً ولا سبيلاً إلى أن لا يتكلم بذلك الكلام الحقيقي لإبراهيم بن أدهم مع شهوده فيه أهلية ذلك، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم في ابتداء تلك القصة: تعلّمت المعرفة من راهب، وما تعلّمها منه إلا من هذا الوجه، لأنه رأى عجزه ومسكنته وعدم تمالكه فيما عساه يستضر به فيما أدّاه إليه ما هو عليه من الكفر والخيانة والمكر لأولئك الأتباع الذين يُزيِّنون صَوْمعته ويعتقدون ربوبيته أو ما يشبه الربوبية، وما ذلك إلا لأن الله تعالى أقام حجته على لسانه، ودع يكون ما كان. وعلى هذا المنزع حالي جار، غير محمود في ذلك ولا مشكور ولا مثاب ولا مأجور. والحمد والشكر لله رب العالمين.

وانظر ما ذكرناه ها هنا لم يكن في خاطري منه شيء حتى قلتُ وعلمتُ أن سعيي معكم غير ضائع من كل الوجوه، ثم تسلسل الكلام وجرى القلم بما ترون وهو القاهر فوق عباده، وإن لم تجيبوني على ذلك بجواب شاف، فأنتم تدرون ما أريد أن أقول، والله تعالى يخلّص من الفضول، ويرزقنا منه القبول وبلوغ

المأمول، واتباع سبيل الرسول المبرّئ من الهوى فيما يفعل ويقول بمنِّه وكرمه.

الرسالة السابعة

وبعد: فقد بلغنا كتابكم المشتمل على المسائل المتنازع فيها. وطلبتم منّا فيه بيان ما ظهر لي فيها.

أما مسألة رؤية الأولياء للملائكة على وجه الكرامة، أما الجواز فلا ينبغي لأحد أن ينكره، وإذا كانت رؤية الله تعالى على وجه الكرامة جائزة في الدنيا على أحد قولَيْ شيخينا أبي الحسن فجوازها في حق الملائكة أوْلى. وأما الوقوع، فقد نقل أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم رأوهم لكن لا على صورهم التي هم عليها، ويكفي في ذلك الحديث الصحيح الذي ذكر فيه الإسلام والإيمان والإحسان، وفي آخره فقال ـ يعني النبي ﷺ ـ: «**هذا جبريل جاء يعلِّم الناس دينهم**»[1] وأما عائشة رضي الله عنها، ففي بعض الأحاديث أنها رأت جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي. وفي بعضها لم تره، وإنما قال لها النبي ﷺ: «**هذا جبريل يقرئك السلام**»[2] فقالت عائشة: «وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا نرى»[2] تريد رسول الله ﷺ.

وأما عمران بن الحُصين رضي الله عنه فلا علم لي برؤيته لهم، وإنما المنقول عنه أن الملائكة كانت تزوره وتسلِّم عليه، بل ورد في بعض طرق حديثه: وكانت الملائكة تسلِّم عليه من حيث لا يراهم، فالاحتجاج بحديثه على رؤية الملائكة لا يصح، والله تعالى أعلم.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. . .، حديث رقم (50) [1/ 27].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (3045) [3/ 1177] ورواه مسلم في صحيحه، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، حديث رقم (2447) [4/ 1894] ورواه غيرهما.

ولا فرق في ذلك بين الصحابة وغيرهم فيما يظهر لي. وقول مَن قال إن ذلك ببركة رسول الله ﷺ صحيح، إلا أن بركته لا تختص بالصحابة، بل أتباعه كلهم تشملهم بركته، وسائر كراماتهم معجزة له ﷺ. فمن ادّعى رؤية الملائكة من أولياء الله تعالى العارفين على هذا الوجه لم ينبغِ الإنكار عليه.

فإن قيل: إنما حصل العلم للصحابة رضي الله عنهم بكون الذين رأوهم هم الملائكة من جهة إخبار النبي ﷺ إياهم بذلك، وهو الصادق المصدوق، فمن أين يعلم ذلك مَن بعدهم؟ قلنا: لا يستحيل في مقدور الله عزَّ وجل أن يخلق الله تعالى لهم علماً ضرورياً بذلك إذا فاتتهم رؤية النبي ﷺ وإخباره، والعلم الموهوب لا يُنكر.

وقد ذكر الشيخ أبو طالب رضي الله عنه وتبعه الشيخ أبو حامد الغزالي، والنص له عن بعض العارفين قال: ظهر لي الملك فسألني أن أملي عليه شيئاً من ذكري الخفي، والحكاية إلى آخرها. وقد نقل سيدي عبد النور في الكتاب الذي ألّفه من كرامات سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وجملة من علومه وكلامه حاكياً عن الشيخ أبي العباس الجامي عن أبي عبد الله القزديري قال: سألت سيدي عبد الله الحبيبي ـ وكان من كبار أصحاب سيدي أبي الحسن ـ وقلت له: يا سيدي أخبرني بشيء مما رأيت من أحوال سيدي أبي الحسن رضي الله تعالى عنه، فقال لي: نزلت معه وقتاً من جبل زغوان وهو راكب وأنا أسير خلفه فقال لي: يا عبد الله إذا ورد عليَّ حال فاترك الدابة تسير حيث توجهت ولا تعترضها في شيء. فبينما نحن نسير وإذا به قد كساه حال غُيِّب فيه وإذا بسحابة طير سدّت ما بين السماء والأرض، وقد أظلّته، وإذا بأربعة من الطير البيض يقدمها طير كبير، فاكتنف ذلك الطير العظيم للشيخ بأجنحته وجعل منقاره في فم الشيخ، وبقي الأمر كذلك مدة، وارتفع ذلك وذهب الطير ورجع الشيخ إلى حسِّه، فنظر إليّ، وقال: يا عبد الله، رأيت شيئاً؟ فقلتُ له: نعم رأيت كذا، وذكرت له ما ذكرت لك، فقال لي: أما سحابة الطير فهي أرواح كل ولي لله تعالى، وأما الطير الكبير الذي يقدم الطيور البيض فهو الملك عبدوس صاحب فلك القمر، سألني في علم يختص به. ولا سبيل إلى تخطئة

أحد من هؤلاء الأئمة ولا تكفيره. فهذا ما حضرني الآن من النقل في هذا المعنى لأني كتبته مستعجلاً.

وأما رؤية الملائكة على الصور التي هم عليها، فلم ينقل عن أحد من الأولياء أنه رآهم كذلك، والذي يظهر أن ذلك من خواص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولعل ما وقع للقاضي عياض في ذلك إنما هو في ادّعاء رؤيتهم على هذا الوجه، إذ في هذا الوجه قد يصح وجود الإجماع. ومَن ادّعى ما يخالف الإجماع فقد يكفَّر بذلك، وكلام عياض لم أقف عليه ولم يسع الوقت استعارة الكتاب الذي هو فيه، فهذا ما ظهر لي والله تعالى أعلم على أن أتشاغل بمثل هذا فضول، إذ هو شيء لا يتعلق به عمل.

وأما المسألة التي جرت بينكم وبين فلان في السلوك والجذب، فالذي يظهر لي أن السلوك لا بد له من جذب يتقدمه. والجذب لا يلزمه أن يكون له سلوك يتقدمه، بل يكون الجذب ابتداء ثم يأخذ في السلوك ثانياً. فإن عنى بقوله: لا بدّ في الجذب من سلوك السلوك الذي في ثاني حال فصحيح. وأما في الابتداء فلا يصح للزوم التسلسل. وقد ذكرت هذا المعنى في بعض طرر تلك الكراسة.

وأما المسألة التي تنازعتم فيها مع فلان، فلا اختلاف بينكم على الحقيقة، لأن الولي إذا فعل فعلاً منكراً في الظاهر لكن له تأويل يسوّغه الشرع كمسائل الخضر، فإن العقل يفهم جواز فعلها شرعاً ولا ينكر ذلك، وأما ما لا يمكن فيه تأويل يسوّغه الشرع فإن الشرع لا يجوِّزه ولا يقع من الولي إلا على سبيل الفلتة والهفوة. والعقل يساعد على هذا أيضاً، فما أخذه هو من اعتبار نظر العقل صحيح، وإنما أخطأ في آحاد الجزئيات. وما أخذتموه أنتم من اعتبار التأويل صحيح، وإنما أخطأتم في إلقاء نظر العقل وادعائكم أنه معزول عن ذلك، وليس هذا من المواضع التي ينعزل فيها نظر العقل، فإن الأحكام الشرعية يوافق عليها نظر العقل لأنها قوانين موضوعة لتصرفات المكلفين، وتعقل ذلك أمر لازم، وإنما يكون العقل معزولاً في مسائل الاعتقادات فقط، بمعنى أنه لا يتصرف فيها بجعل ولا تكييف.

وأما مسألة السالك المجذوب والمجذوب السالك وتقدم أحدهما على الآخر في استحقاق الشيخونة، فالذي يظهر لي صحة ما قاله السهروردي ـ رحمه الله تعالى ـ لأن المجذوب السالك أنجح تربية من السالك المجذوب، فيصل به المريد في أقرب مدة، لأن سلوكه كان على بيِّنة وبعد تقدم مشاهدة، فالسالك على يديه يتراءى له منه ما يستمرىء به مرارة سلوكه ويوجده حلاوة فيه، لأن سلوك شيخه كان على هذه الوتيرة، والارتباط بين حال الشيخ وحال التلميذ أمر متحقق. فبهذا النظر يترجّح للشيخوخة مَن ذكرناه على الآخر.

وأما ما رجّحتم به من كون المجذوب بمنزلة مَن أخذه الملك وخلع عليه خلعة عناية به ومحبة له، والسالك بمنزلة مَن قيل له سر إلى موضع كذا وأعطيك كذا فليس بمناسب لما ادّعيتموه وهو ناقص حتى يتمم بما ذكرناه. وما احتج به المناظر لكم في تقديم السالك المجذوب فهو بعيد المناسبة فيما يرجع إلى الشيخوخة والتلمذة، لأن الأجر الذي ترتّب للسالك المجذوب على مجاهداته ومكابداته لا أثر له في ترجيح حاله على حال الآخر في الأمر الذي ذكرناه. وذكر الأجر ها هنا ثقيل لا ينبغي أن يتكلم به كل مَن ينتسب إلى طريقة التصوف، لأن القوم لم يلاحظوه ولم يعملوا عليه، بل يعدُّون نظرهم إليه ذنباً من الذنوب لأن ذلك راجع إلى حظ النفس، وهم إنما يعملون في طريقهم على إزالة كل حظ لهم حتى تتحقق بذلك عبوديتهم، وهذا هو حال أهل القرب السائرين إلى الله تعالى بالقلب، وأما الالتفات إلى الأجر فهو شأن الأبرار العاملين بظواهر الطاعات الموظفة على الجوارح المحسوسات، ولا مدخل لهؤلاء في هذا الأمر.

وقولكم في ردّ عليه: ليس من شأن المتصوِّف النظر إلى مجاهداته ومكابداته ولا لما يصح له عليها، صحيح مليح. ومن أين لكم هذا لولا مساعدة الريح، فاحمدوا الله تعالى الذي هداكم، واشكروه على ما أولاكم، وتهيّؤوا بذلك لازدياد المعارض وإضاءة أنوارها، وتهنُّوا بما آتاكم الله من فضله، ودعوا الشمعة تحترق بنارها.

وأما المولد: فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين وموسم من

مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزيين بلبس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب، أمر مباح لا ينكر على أحد قياساً على غيره من أوقات الفرح. والحكم بكون هذه الأشياء بدعة في هذا الوقت الذي ظهر فيه سر الوجود، وارتفع فيه عَلم الشهود، وانقشع بسببه ظلام الكفر والجحود. وادّعاء أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان، ومقارنة ذلك بالنيروز والمهرجان أمر مستثقل تشمئزّ منه القلوب السليمة وتدفعه الآراء المستقيمة.

ولقد كنتُ هنا فيما خلا من الزمان خرجت في يوم مولد إلى ساحل البحر، فاتفق أن وجدت هنالك سيدي الحاج ابن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه وقد أخرج بعضهم طعاماً محتفلاً ليأكلوه هنالك، فلما قدّموه لذلك أرادوا مني مشاركتهم في الأكل، وكنت إذ ذاك صائماً، فقلت لهم: إني صائم، فنظر إليّ سيدي الحاج نظرة منكرة، وقال لي ما معناه: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصيام بمنزلة يوم العيد. فتأملت كلامه فوجدته حقاً وكأني كنت نائماً فأيقظني، لكن المناكر التي ألفت في العادة من اجتماع الرجال والنساء، وتزاحمهم وتضامهم والإصغاء بالسمع وإرسال البصر في المستحسنات المحظورة المسموعة والمنظورة عند تشاغل الولدان بالأذكار والأشعار، وقبل اشتهار ضوء النهار، هي التي تكدّر صفاء هذه الحالة المرضية، وتوجب للمتديّن أن لا يتشاغل بما يوقع في هذه البلية، وأن يسُد هذا الباب على نفسه بالكلية.

فإذا تركتم العمل بذلك لأجل ما يؤول إليه من الفساد لا لأجل كونه بدعة يؤمَر بتركه في كل حال من الأحوال، كانت نيتكم فيه صحيحة. ولا يضركم توسُّم الناس فيكم الصلاح بسبب ذلك. ولا حاجة بكم إلى ذم الناس بتقدير رجوعكم إلى الحالة الأولى، وسدّكم للمسيد في ذلك الوقت لا وجه له مع أن ذلك يفوتكم منفعة الأولاد الذين جرت العادة بإدخالهم ذلك اليوم المكاتب، ولا سيما أولادك الذين يساقون بالبوق والطبل وأنواع الطرب، والشبكة إن لم ينصبها صاحبها للصيد في مظنة وقوعه فيها لم يظفر منه بطائل.

ولا بأس بزيادة ضياء في المسيد ذلك اليوم المبارك تَفرِقة بينه وبين غيره من الأيام، وتجعلون فيه أربعة مصابيح أو خمسة أو ستة أو سبعة أو عشرة، وإن كان ذلك شمعاً فهو أحسن، ويتشاغل الأولاد إذ ذاك بألواحهم وأحزابهم، لا شيء غير ذلك. فإذا استعلى النهار، فأطلقوا أولادكم واسلكوا في ذلك مسلك الأعياد، وحكم ما يعطاكم فيه حكم ما يعطاكم في أعياد المسلمين، إذ لم يُقصد بذلك غرض فاسد في الدين. وأما الحكم بذلك والقضاء به فوظيفة الأمراء والسلاطين، وعليهم النظر فيما يجوز من ذلك وما لا يجوز. فإذا التزمتم هذا كله، وانشرحت صدوركم له، ولم تجدوا في أنفسكم رعونة من ترك مخالفة الناس فيما اعتادوه، أو ترك موافقتهم على الطرف الأقصى مما أرادوه، وطبتم نفساً عما عساه يتحصّل لغيركم من متاع الغرور، ويفوتكم من ذلك بسبب ما عملتم عليه من التجارة التي لا تبور، كانت حالكم صحيحة، ليس فيها سقم ولا علة، وهو معيار صادق تمتحنون به حالكم، وتتعرفون منه صوابكم ومحالكم. والله تعالى ولي التوفيق.

***

الرسالة الثامنة

وبعد: وقد وصلنا كتابكم وأنتم تذكرون فيه أشياء من جملتها أنكم سألتم عن العلة في تلك المسألة على طريق الخاصة، ولا أدري كيف غفلتم عنها وهي مبينة في كلامي على أول مسألة من مسائل ابن عطاء. ولما كان المعنى في ذلك لا يفهمه كل أحد ولا فائدة فيه لأكثر الناس، بل ربما أضرّ ذلك بهم، لم أذكره ولم أبسط الكلام عليه، واكتفيت في ذلك بالإيماء والإشارة. ومنها أنكم ذكرتم أنكم حاولتم الجواب على تلك المسألة التي ألقيتها عليكم، وأشرتم إلى أنَّ جوابها راجع إلى ما تضمنه الكتاب الذي فيه جواب فلان، وأنّ فيه الإشارة إليه، ولكن تنزيلها على عين النازلة هو المطلوب.

وما ذكرتم من قولكم: وبالجملة فأنتم تعلِّموني وترشدوني للأدب بين يدَي الله... إلى آخره، كلام مجملاً لا يفهمه كل أحد، وبعضه لا يماس تلك النازلة كل

المماسّة، ومطلوبي إنما هو ما ذكرته من التنزيل الذي يحتاج فيه إلى التطويل. ولا بأس بالتشاغل بمثل هذا، وقطع الوقت فيه، لأني آخذ بالقياس من نفسي، لأني إذا بقيت بلا شغل يصيبني قنط وضيق فتجدني أتشاغل بأشياء أعتقد أنها لا تنفعني كل المنفعة في حال ولا مآل، بل ربما ضرني ذلك فأحسب أن جميع الناس مثلي، والله تعالى يلطف لي، فإن شعرتم بمثل هذا الحال السيىء من أنفسكم دونكم وما تتشاغلون به، وإن لم تجدوه فهنيئاً لكم ما أعطيتم، فتغافلوا عن جميع ذلك فقد أغناكم الله عنه وعن غيره.

وذكرتم في الكتاب الآخر أنكم أردتم حضور دولة الموطأ، بل قد حضرتكم وأردتم مني الإشارة لكم بما تفعلون. هل تستمرون على الحضور أو تعتزلون ذلك اعتزال حذور نفور، ولم يظهر لي ما أشير به عليكم. وحضور مجالس العلم بركة لكن لا تتحصل إلا لمن كانت له فيه نية صالحة محققة، فلو أخبرتموني بالذي فتح عليكم منها لكنت أنظر معكم فيها، وحين لم تخبروني بشيء من ذلك لم أدرِ ما أقول لكم، وقد كنت بعثت إليكم جواب الكتاب الذي بلغنا قبل هذا وتحققت وصوله إليكم لأن الحامل له شخص موثوق به وله فيه منفعة. وقد ذكرت لكم ما فهمته في تلك المسائل، وكنت استعجلت في كتب ذلك الكتاب، وبقي عليَّ بسبب ذلك أمور ها أنا أنبّهكم عليها.

أما مسألة رؤية الملائكة: فذكرت لكم ما فهمته فيها ولم أذكر في ذلك نصاً لأحد من أئمتنا، ولم يخطر بخاطري إذ ذاك، والمسألة قد نصّ عليها الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب «عجائب القلب» وذكر نحواً مما قلناه أو أبلغ منه فانظره هناك، والإمام أبو حامد عظيم القدر.

إذا قالت حذام فصدِّقوها   فإن القول ما قالت حذام[1]

---

(1) أحد أبيات قصيدة لابن الرومي: علي بن العباس بن جريج الرومي المتوفى سنة 283 هـ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل كان جده من موالي بني العباس. والقصيدة من البحر الوافر، وتفعيلته:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

ومما نقل عن القاضي عياض مما يخالف ذلك لم أقف عليه كما لم تقفوا أنتم عليه. ولعل مَن نسب ذلك إليه وهِم فيه. والله تعالى أعلم.

وفي الكلام على السالك المجذوب والمجذوب السالك استدراك أوجبه عدم التأمل مني لما كتبتم به. وذلك أنكم لما استدللتم على تقديم مَن قدّمتم على الآخر بما ذكرتم من الكلام، قلت لكم: إن ذلك الكلام غير مناسب لدعواكم تقديم مَن ذكرتم تقديمه للمشيخة. وقلت لكم أنه ناقص حتى يتمم بما ذكرناه لكم. وذلك كله صحيح بالنظر إلى ذلك، أعني تقديمه للشيخوخة. ومع قطع النظر عن ذلك وادّعاء أفضلية أحدهما على الآخر في أنفسهما ربما يظهر ببادىء الرأي ما ظهر لكم من تقديم المجذوب السالك على السالك المجذوب. وليس يظهر لي فرق بينهما من جهة الحقيقة لأنهما اشتركا جميعاً في كون كل واحد منهما غير ناظر إلى عمله ولا طالب له حظاً لنفسه، وحاصل أمرهما أن المجذوب السالك ووجِهَ باللطف، وهو تعرُّف يؤدي إلى المعرفة التامة بما يتدارك به من السلوك، والآخر قوبل بالعنف، وهو أيضاً تعرُّف يؤول إلى معرفة تامة بما يتدارك به من الجذب وكلاهما محبوبان قد خُلع عليهما خلعة العناية والمحبة، والمكابدة التي لزمت أحدهما دون الآخر بعد تحقيق وصوله لا تنقصه، كما أن الراحة التي هي من شأن الآخر بعد تحقيق وصوله لا تكمله. فمن أين يقع تفضيل أحدهما على الآخر؟

فإذا تقرر هذا ظهر أن ما مثلتم به حال الشخصين غير موفٍ بالغرض في تقديم المجذوب السالك على السالك المجذوب، وكلام السهروردي لم أذكره ولم أقف عليه، ولم يقع بيدي كتابه. وهذا كله مني فضول، والله تعالى يخلّص منه، وقد كنا منه في خلاص لولا القدر الذي ليس للعبد منه ملجأ ولا مناص.

***

الرسالة التاسعة

وقد بلغنا كتابكم وذكرتم فيه أنكم وقفتم على جواب المسائل التي

سألتوني عنها، ومن جملتها **مسألة المولد المبارك**، وحكمتم بأن ما ذكرته فيها في غاية الحُسن إلا أن أنفسكم اشمأزت من اجتماع وقد الشمع مع قراءة الألواح، وثقل ذلك عليها. ولم يعجبني هذا الكلام منكم لأني تعرفت منه أنكم ما أردتم سلوك مسلك الناس فيما يفعلونه ذلك اليوم بالكلية وإن أدّى ذلك إلى محظور أو مخالفتهم بالكلية حتى تكون عَلَماً بين الجمهور، لكن أردتم أن يكون أحد هذين الوجهين على وجه لا ينكره شرع ولا يتوجه قبل مَن يفعله زجر ولا ردع، وخصوصاً الوجه الأول.

فإذا لم تجدوا ما يمنعكم منه طابت نفوسكم بعمله وانشرحت صدوركم في آخره وأوله. وهذا المسلك الذي سلكتم في معاملتكم لربكم في هذه النازلة ليس بمرضي عند أرباب التوفيق الذين استضاؤوا بأنوار المعرفة والتحقيق، لأن العبد من شأنه أن لا يكون له غرض يراعيه ويودّ أن يوافقه مولاه عليه، وأدبه في هذا خير له من وقوع موافقة مولاه له وإمضاء غرضه، وذلك بأن يكون غرضه تابعاً لما يأمره به مولاه. فإذا ورد منه ما يكون له فيه غرض فذلك هو «الزبد بالشهد» وإلا كان غرضه ملغًى لا عبرة به. وأنتم في هذه النازلة حِدْتُم عن طريق الأدب، وإن كنتم عازمين على القيام بما عليكم وجب، والله تعالى يغفر لنا ولكم.

وفهمت هذا كله من قولكم إلا أن ذكرتم لي ما يناقضه، فأنا أرجع إليه. فلولا تشوفكم إلى ذلك ما نصصتم عليه، وكيف أذكر لكم ما يناقضه والحال قد ألجأتنا إلى ما ذكرته لكم حتى لم نجد محيصاً عنه، لأنَّا إن جمعنا بين وَقْدِ الشمع وذلك المقال المعروف لم يخلُ ذلك الموطن من وقوع المنكر المألوف شاء مَن شاء، وأبى مَن أبى، وما يؤدي إلى هذا كيف يستجيز عاقل أن يفعله اتباعاً لمرضاة الناس من غير أجر ولا أجرة، فإذا أوقدتم من المصابيح ما تيسّر واشتغل الأولاد بما منهم كل يوم اعتيد وتكرّر، لم يقع هنالك شيء مما يُحذر أو يُنكر، وحصلت لكم الفائدة المألوفة ذلك اليوم من مجيء الصبيان إليكم وانثيالهم بالتحف والطرف عليكم. ولم أقل لكم أوقدوا عليكم ألف قنديل حتى لا يوجد إلى

التخلص من المنكر سبيل، ولكن سلكنا طريقاً وسطاً بين التكثر والتقليل، وإلى ما يقارب التقليل أميل، كل ذلك ليجتمع لنا القيام بحق المولد واغتنام الفائد المتجدد، والسلامة من المنكر المتزايد، والله تعالى الموفق والمؤيد، إلا أن تدعوا رجال متولي الأمر فيزيلون ذلك المنكر بالضرب والقهر، ويدفعون الشر بما هو منه أشر، فأنتم أعلم، والأحكام السلطانية لا أدخل فيها.

أما المسألة التي وقعت بينكم وبين فلان: فلم يقع منكم تحرير لها، وإنما تنفرض هكذا: **هل يقع الولي في شيء من شأن العقل أن ينكره أبداً ولا يقبله أم لا؟**

فهذا سؤال وجوابه: لا يقع ذلك ولا يصدر منه إلا على سبيل الفلتة والهفوة. ولا ينبغي أن يفهم خلاف هذا في فرض المسألة وجوابها.

وقول القائل: ما لا يفهمه العقل باطل. فإذا بُيِّن له ظهر للعقل صحته فكان صحيحاً، كلام محتمل، والله تعالى أعلم، لأن الباطل باطل أبداً والصحيح صحيح أبداً، والعقل ليس له حكم، وإنما له إدراك الحكم، أعني أنه يدرك كون فعل كذا حسناً في نظر الشرع أو قبيحاً في نظره، والعقل لا يحكم بحسنه ولا قبحه، فإذا تصفّح العاقل الشرع وعلم أن فيه أموراً ظاهرة وأسراراً باطنة لم يتجاسر أن ينكر على أحد يتوسم فيه الخير، فعلاً قد يُدرك عقل ذي عقل يوماً ما موافقته للشرع ظاهراً وباطناً، ووُكِّل الأمر في ذلك إلى الله عز وجل، إلا أن يكون عقله مؤيداً بنور اليقين فحينئذ يلوح له الباطل من الحق ويستبين. وبهذا المعنى الذي ذكرناه من كون العقل يدرك ولا يحكم، لا يصح الإلزام الذي ألزمتموه نظراً إلى ما في نفس الأمر. وقد يصح الإلزام على المعنى الذي فهمتموه.

الرسالة العاشرة

وقد بلغني كتابكم وذكرتم فيه أموراً، منها أنه وصلكم الكتاب الذي

وجهت إليكم مع فلان وذكرتم أنه لاح لكم معنى ما أشكل عليكم من تلك المسألة التي تضمنها كتاب فلان لمَّا عاودتم النظر فيها، وليتكم كنتم فعلتم هذا أول مرة فلم تحتاجوا إلى سؤال ولا مراجعة. وأما ما كتبتم في جواب تلك المسألة فهو في غاية الحُسن ونهاية الاتقان، وقد صادفتم الغرض وعثرتم على المقصود المعتمد ولا مزيد على كلامكم فيها. فالحمد لله الذي وفّقكم لذلك وجعلكم ممن حظي بحظ وافر من أمور لم يحظَ بها ـ بل بشيء منها ـ أكثر فقراء هذا الوقت، ولم يجدوا منها رائحة مع جدِّهم في الطلب وتعلُّقهم بكل سبب والله يؤتي فضله من يشاء.

وأما ما طلبتم منا من بيان **المسألة التي ذكرت فيها قصة الراهب مع إبراهيم ابن أدهم رضي الله تعالى عنه من قولي**: لأن بعضه ضاع من جهة منها، فإني لم أتذكر هذا اللفظ، ولم أشعر بشيء من سوابقه ولواحقه القريبة منه بعد توجيه فكري إليه بالكلية. وإنما تلمّحت من ذلك أمراً جُملياً لم أتفطن لشيء من تفاصيله، وأظن ما فهمتم منه لم يطابق ما ذكرت فيه كل المطابقة، وإن كان كلامكم فيه حقاً. وقد نبّهت على شيء من المعنى الذي ذكرتم فيه في كتاب فلان.

وأما مسألة فلان فمن المسائل التي الأخذ فيها فضول، لا طائل تحته ولا محصول، لأنه لا يتعلق بها عمل ولا يجتنى منها عسل. وقد كان ارتفع منها الإشكال الذي اعتراه إما بالتمثيل بالروح أو بالنَفَس. وذلك هو المقصود المتلمس، وبقي عليكم الإشكال في الفرق بين الأمرين، ولماذا اخترت التمثيل بأحدهما دون الآخر؟ وإنما اخترت التمثيل بالروح دون النفس لأن النفس أمر يقتضيه الطبع، بمعنى أنه لا يتقوم وجود إلا به. فالملاءمة فيه ذاتية، والأمور الذاتية لا تتصور مفارقتها بحال، كملاءمة الطعام والشراب للبدن المعتدل المزاج، السالم من الانحراف والاعوجاج، ولذلك لا تقتصر الملاءمة فيه على نفي الألم، بل قد تكون مقتضية لوجود اللذة، فإن مثّلنا خروج الروح ودخوله عند الموت وبعده بخروج النفس ودخوله لم يستقم هذا التمثيل. وإلا فليكن

خروج الروح عند الموت كخروج النفس في عدم الألم، لأن نسبة دخول النفس وخروجه نسبة واحدة، والمعروف من الحلال خلاف هذا.

وأما ملاءمة الروح فليست مقتضاة للطبع بالمعنى الذي ذكرناه، بل هي ملائمة عرضية بواسطة ما جعل هنالك من التهيؤ والقابلية، وإلا فأي مناسبة بين الأمر العلوي والأمر السفلي حتى يقتضي أحدهما الآخر الاقتضاء اللازم. فإذا مثلنا خروج الروح ودخوله عند الموت وبعده بخروج الروح ودخوله عند النوم والاستيقاظ استقام هذا التمثيل، ولم يلزمنا في خروج الروح عند الموت من عدم الألم ما اتفق منه عند خروجه بالنوم كما لزمنا ذلك في التمثيل بالنفس. فالملائمة التي ذكرتها في النفس حتى أوجبنا بسبب وجودها فقدان الألم والمشقة إنما عَنَيْتُ بها الملائمة الذاتية التي ذكرتها، لا مطلق الملاءمة التي اعترض عليَّ بسببها ولم أردها بل غلطتُ في إطلاقها «والغلط يرجع من التليس» ومَن ظنّ من نفسه منا العصمة من الغلط والخطأ فهو من أتباع إبليس، وليت كل ما تكلمنا عليه يكون غلطنا فيه هكذا والله ولي التجاوز برحمته، على أن المعترض قد يمنع هذا كله ولا يسلمه ويدّعي استواء الأمرين في الأمور الذاتية والعرضية، فنسلّم له ما ادّعاه ولنوافقه على الغرض الذي قصد ونواه. ودليلان على مسألة واحدة أقوى من دليل واحد، وقد بلغ الغرض وحصل المقصد بالزائد.

وأما ما ذكرتموه من كلام السهروردي رحمه الله على مسألة السالك المجذوب والمجذوب السالك فهو كلام مَن ذاق وجرّب، ثم أُدنِيَ وقُرِّب، فكانت عبارته عن مشاهدة وعيان، لا عن تخمين وحسبان كما عبّرنا به نحن، والمعوّل إنما هو على ما ذكره أرباب الشهود المتحققون بالوجود الذين لاحت عليهم أنوار الكرم والجود. وأما مَن هو غريق في بحار الغفلة والجهل، موسوم بالدعوى في القول والفعل، كحال المتكلم لكم في هذا المحل، فلا عبرة بكلامه ولا معوّل على نقضه وإبرامه. وليتنا حُظينا بالفهم عنهم وحسن التلقي منهم، لكنّا لعلوّ مقدارهم وكمال أنوارهم واتساع جاههم عند إلٰههم، تجاسرنا

على الأخذ في المعاني التي فيها يأخذون والحَذو على أمثلتهم التي يرسمون. والطفيلي مقبول عند الكرام مقابَل بالبر والإكرام، يأكل عندهم أطايب الطعام ويتعاطى بينهم كؤوس المدام، وتمتثل أوامره هناك المتصرفون والخدام، ثم ينقلب عنهم مشكور الإلمام معمور الأكمام مشيَّعاً بالتحية والسلام «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»[1].

وأما ما ذكرتم من حالكم وما أنتم عليه من عيوب وذنوب، قاصدين بذلك نسبة ما نفيتموه عني من الحال السيىء إليكم وتمنِّيكم أن لو كان ذلك حالكم فلم تصادفوا في شيء من ذلك الغرض. كيف وأنتم تعتقدون مني الإشراف عليكم وكمال المعرفة بكم، وإني أعلم بنفسي منكم. وبالله الذي لا إلٰه إلا هو ما جميع ما ذكرتم في أنفسكم من الذنوب والعيوب من حيث تعرضكم بها إلى سخط الله تعالى وعقوبته في جنب ما عندي إلا مستحقَر متلاشى من حيث التعرُّض المذكور. ولا أقول هذا تأدُّباً ولا غضّاً من النفس كما أُلِفَ في العادة، وكما وقع من أبي بكر رضي الله عنه حين قال: «وليتكم ولستُ بخيركم»[2] وإنما قلتُه حقيقة بحيث لو انكشف الحجاب عما أُثبِت من ذلك في أم الكتاب لكان موافقاً لهذا المنهاج قِباج[3] بقباج.

وما ذكرت لكم حال الراهب مع إبراهيم بن أدهم إلا للتعرف من ذلك حالي مع حالكم، فإن كان هذا العِلم نافعي عند الله عزّ وجل فأنا خير منكم بالوجه الذي يكون به الراهب خيراً من إبراهيم بن أدهم. وإن لم ينفعني هذا العلم عند الله عزَّ وجل وكنتم خيراً مني بالنسبة التي يكون بها إبراهيم بن أدهم خيراً من الراهب، والظاهر أنه لا ينفع. فالآن مَن أولى بالدعاء والتوبة وما

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل مجالس الذكر، حديث رقم (2689) [4/ 2069] ورواه أحمد في المسند، مسند أبي هريرة، حديث رقم (7418) [2/ 251] ورواه غيرهما.

(2) رواه عبد الرزاق في المصنف، باب لا طاعة في معصية، حديث رقم (20702) [11/ 336] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، حرف العين [30/ 304].

(3) القبج: الحَجَل وهو أيضاً الكروان (تاج العروس).

ذكرتم معها من المطالب الشريفة أنا أو أنتم؟ هذا كله مع أني لم أُنكر صحة جميع ما نسبتموه لأنفسكم، وأضعافه وأضعاف أضعافه مما تملأون منه ديواناً بل دواوين. ولا أُبرِّيكم منه ولا أكذِّبكم فيه. ولو سكتُّم عن ذلك لكان أوْلى، إذ لا تزيدونني بذلك علماً بكم وبما أنتم عليه، ولكن لما طلبتم مني التكلم على السبب الذي من أجله غمرتم في الحال السيىء الذي ذكرتم حُسن منكم الإخبار بذلك. ولا أعلم سبب ذلك إلا ضعف اليقين الذي ينشأ عن الجهل المركب أو ما يشبه الجهل المركب.

وإنما قلنا إنه مركب أو ما يشبه المركب من قبل أنكم لستم عندي من جملة العوام الذين يجهلون ما تتضمنه العبادات والطاعات من الفوائد الأخروية. فإذا علموا بذلك بادروا إليه واغتنموا الثواب الموعود عليه، بل أنتم عندي جاوزتم حال هؤلاء فصار جهلكم مركباً أو ما يشبه المركب. وذلك أنكم لما علمتم ما شأن العوام أن يعلموه كنتم مثلهم فيما ذكرنا من المسارعة والمبادرة. فلما تفقّهتم واطلعتم على أشياء غير واحدة ولم تحفظوا حالكم بالتحقق في مقام اتهام النفس فيما علمتموه وعرفتموه صار ذلك العلم الأول عندكم جهلاً أو كالجهل.

فلما حصل عندكم هذا النوع من الجهل حدث عندكم بسببه الكسل عن العمل بواسطة ما نشأ عنه من ضعف اليقين، وهذا النوع من الجهل مداواته صعبة المرام محفوفة بالمكاره والآلام، لأن المتصف به لا يعتقد وجوده في نفسه فيزيله بالتعلُّم، وإن تصوّر أن يعتقده ويتشوّف إلى إزالته لوجود شيء من التهمة لنفسه كحالكم. ولذلك قلنا: أو ما يشبه المركب، لأن صاحب الجهل المركب ـ والعياذ بالله ـ لا تهمة له لنفسه ألبتة، لم ينهض في ذلك كل النهوض لأنه يقول: بالوجه الذي انقلب علمي الأول جهلاً ينقلب هذا العلم الذي أريد أن أتعلَّمه لأصحح به العلم الأول أيضاً جهلاً فما يزيد عليَّ إلا العناء والتعب والمشقة والنصب. ثم يثور عليه ما هو فيه من التحيُّر وتهمة النفس فيدعوه إلى التعلُّم، وفي أثناء هذه الترددات والمجاذبات كيف يستقيم له عمل أو يبلغ من الاجتهاد في الطاعات أمل؟ وهل هذا إلا محال لا يستقيم؟

وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذا المعنى على ما فهمته بفهمي القاصر في قوله في قصة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: الآية 20] فإنَّ هؤلاء القوم لمَّا هربوا بدينهم ولبثوا ما لبثوا في كهفهم، واحتاجوا إلى سبب تنتعش به بشريّتهم بعد طول تلك الغيبة، ولم يكن لهم بد من الرجوع إلى الأغيار، بسبب ذلك حذروا عند رجوعهم إليهم من اطلاعهم عليهم. فإما أن يقتلوهم قتلاً حسيّاً بالرجم أو معنوياً بدعائهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه من الكفر والظلم، ثم لا يقع منهم بعدها فلاح، لأنهم رجعوا إلى الفساد بعد الصلاح، وإلى الانخراط في سلك الجهّال ومطاوعة الأعداء الضلّال بعد ما كانوا فيه من توالي القبول والإقبال، والذنب في البُعد ليس كالذنب في القرب، ذلك يُرجى له الغفران، وهذا يحق به على صاحبه الحرمان والخسران.

وهذا كله من مقتضى الغيرة الإلٰهية، فإن العبد إذا انصرف عن باب مولاه بعد أن ألفه ووالاه، لا يبعث المولى وراءه رسولاً، ولا يلطف له في إشهاده ما يوجب له رجوعاً وقفولاً، بل يحلّي له حالته التي اختارها لنفسه، ويحسن له ضلالته إلى أوان حلوله في رمسه.

ارض لمن غاب عنك غيبته ... فذاك ذنب عقابه فيه[1]

وإذا كان المولى سبحانه يتقرب ذراعاً لمَن تقرّب منه شبراً، وباعاً لمَن

---

(1) نسب هذا البيت في الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي للشاعر اللبناني سليم نصر الله يعقوب جدي، عاش ما بين 1286 - 1313 هجرية 1869 - 1895 ميلادية، وهو طبعاً متأخر عن عصر المؤلف ولعله اقتبسها ممن تقدمه من شعراء، وجاء البيت في الموسوعة على النحو التالي:

أرض لمن غاب عنك غيبته ... وكن شفوقاً فالهجر يكفيه

ولا تحاول عقابه أبداً ... فذاك ذنب عقابه فيه

وهذان البيتان من البحر المنسرح وتفعيلته:

منسرح فيه يضرب المثل ... مستفعلن مفعلات مفتعلن

[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

تقرّب منه ذراعاً، ويأتي هرولة لمَن يأتيه مشياً[1]، فضد ذلك يفعل مع مَن تباعد عنه واختار بدلاً منه ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: الآية 139] «**وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[2] فهذا هو السر فيما ذكرناه.

وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه يقول: إن أصحاب الكسل عن عبادته هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان، فاختار لهم البُعد فأخّرهم عن محل القرب ولذلك تأخروا، وبهذا يتبين لك أن الإنسان كلما علا مقامه في علم أو عمل ولم يحفظه باتهامه لنفسه، وعدم وقوفه مع عقله وحدسه، لا ينحط إلا إلى ما هو من حال أدنى الناس مقاماً. وليته لو ساواه في ذلك فما أسعده وأبخته. واعتبر هذا المعنى بقصة بلعام[3] وبرصيص[4] ولهذا المعنى كان العوام خير من المتفقهة والمتقرئة الأقحاح، وأقرب من الحق، والمتفقهة والمتقرئة الأقحاح شراً منهم وأبعد من الحق. ونعني بالأقحاح الذين لم يشمُّوا شيئاً من علوم هذه الطائفة، لأن مَن شمّ منها ولو الشيء اليسير قد تمكنه مداواة نفسه فيعود إلى صحته من مرضه ونكسه. وأما مَن لم يحظَ منها

(1) يشير إلى الحديث القدسي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: إذا تقرّب عبدي مني شبراً تقرّبت منه ذراعاً، وإذا تقرّب مني ذراعاً تقرّبت منه باعاً أو بوعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة». رواه مسلم في صحيحه، باب فضل الذكر والدعاء. . .، حديث رقم (2675) [4/ 2067].**

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه. . .، حديث رقم (1224) [1/ 431] ورواه مسلم في صحيحه، باب البكاء على الميت، حديث رقم (923) [2/ 635].

(3) انظر قصته في فتح الباري لابن حجر العسقلاني، قوله باب ما يذكر في الطاعون [10/ 183] ومنها أن بلعام كان مجاب الدعوة وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام فأتاه قومه فقالوا: أدع الله عليهم، وكان مستجاب الدعوة.

(4) برصيص العابد نزل به قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ فإنه استودع امرأة فزين له الشيطان الوقوع عليها فحملت فخاف الفضيحة فزين له الشيطان قتلها، فلما وُجِدَت مقتولة تبين ما فعل فتعرّض له الشيطان قال له: اسجد لي أنجيك، فسجد له فتركه الشيطان وقال له: إني بريء منك. (انظر التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد الغرناطي الكلبي، الحشر (16) ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [4/ 110].

بشيء فما أسوده بسعده، وما أفلسه من معونة ورفد، وما أغبن تجارته وما أعظم خسارته، خسارة وأيّ خسارة، لم يخسر فيها مالاً ولا جِمالاً، وإنما خسر نفسه التي لا يرجو منها تعويضاً ولا إبدالاً ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 53].

فإذا تقرر هذا فلنرجع إلى الأحوال التي ذكرتها، ولنبيّن سببية هذا النوع من الجهل لها، مستعينين بالله تعالى، ونقول: أما الطاعات والعبادات والتمتع بالشهوات فإنك لما تفقهت في هذا الطريق لاح لك أمور قد توجب في نظرك ألا يكون لشيء من العبادات المتعلقة بظاهرك وقع عندك، أو تراها مصحوبة بالعلل والآفات وقوعاً واحتمالاً، ولا تسمح نفسك بالتحرُّز من آفاتها، وإن سمحت بذلك ربما لم تثق بها في التحرز فتنتفي عنها الفائدة في نظرك فتتكاسل عنها لأجل ذلك. وقد تقلد في ذلك أناساً كثيرين ممن لم يتشاغل بعبادة ولم يزهد في شهوة ولم يصرف إلى ذلك عنان عناية. وترى أن ذلك من أحكام أهل البداية أو يعلق بقلبك في التمتع بشهوتك ما قاله الأنباري في كتابه في الورع من أن المباحات لا زهد فيها ولا ورع، وتتناوله على خلاف ما يجب له أو يحملك على ذلك موافقة الأهل والولد والإخوان والأصحاب، وترى أن موافقتهم في ذلك من وجوه القرب، أو ترى أن النعم إنما خلقت للتمتع بها وقضاء الوطر منها، فإذا وجدت لذتها وتذوّقت مطعمها الشهي شكرت الله تعالى على ذلك بكلية قلبك كما فعل ذلك الرجل الذي كان يبرد الماء وينكر على مَن اختار شرب الماء الحار. وتناول في ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ. . .﴾ [الأعرَاف: الآية 32] الآية، أو غير هذا مما لم يحضرني الآن.

وأما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنك تتفقه في ذلك وتعتقد سعة في العلم بحيث يؤديك ذلك إلى حسبان ما هو منكر غير منكر بضرب من التأويل، أو يغلب عليك شهود توحيد لا يصحبه شرع ولا يؤيده ورع فتعذر بذلك المرتكب له، وقد يصدر مثل ذلك المنكر فلا تباليه ولا تعبأ به نظراً إلى ما ذكرناه، وقد تقلّد في ذلك مَن تراه خيراً منك حين يرى المنكر فلا يغيره، أو غير هذا من الوجوه.

وأما الاستغراق في طلب الرزق الذي هو مذموم عن لسان أهل الحق، فإنك تتفقه وتقول: أنا مأمور بالطلب، والتوكل لا ينافيه السبب، ولو تركتُ السبب أو لم أجتهد فيه كل الاجتهاد لاشتدّ طمعي في الخلق، فالآن قد أنقطع عنهم بما أنا متشاغل به من أمر الرزق، وأيضاً أنا شخص معيل فإن تكاسلت عن ذلك ضاع عيالي ولم أقم بالواجب لهم عليّ لا سيما في هذا الزمان الفاسد الذي استولى فيه الشح والبخل على الناس وغلت الأسعار واشتعلت نيران الفتن، أو تقلّد في ذلك مَن تراه عالي المرتبة في الدين، أو غير ذلك مما لم يحضرني الآن من الوجوه الفقهية التي توقِع صاحبها في كل محنة وبلية. لأنك إذا ركنت إليها وعوّلت عليها كسلت عن العبادات والطاعات وحرصت على التمتع بالشهوات وتركت التعرض لتغيير المنكرات، واستغرقت في طلب الرزق والفضول في جميع الأوقات.

فإذا استمررت على هذه الأمور أعقبك الاستمرار عليها ما ذكرتُه من القسوة، فإذا تيقّظت بعض تيقُّظ وأردت أن تتشاغل بما طلب منك من ذلك كله وجدت في نفسك من الفتور وعدم انشراح الصدر لذلك ما لا مزيد عليه. فإذا قمت إلى عبادة أو نويت الاشتغال بمجاهدة ورياضة لم تساعدك قدرتك على ذلك لأن النفس إذا استحلت حال الكسل بعد مقاساة ما قاست من شاقّ العمل قلَّ أن يوفَّق صاحبها إلى ما أمّل ويكون حالها في ذلك بمنزلة مَن يروم أن يوقف زقّاً فارغاً أو يغمس زقّاً منفوخاً في ماء غمر فكلما غمسه وأطلق يده منه رجع إلى وجهه. وإن أردت أن تترك الاستغراق في السبب أو تخرج عما عساه يكون في يدك من مال أو نسب مع أنه ما في يدك من ذلك شيء، لم تقدر على ذلك، لأن النفس قد ألفت قضاء الأوطار والتوصل بالمال إلى الأغراض الكبار. فإذا وجدت نية في بذل الفضل إن كان أو ترك لملك إن وجد أو عقد على زهد إن وقع ما يزهد فيه، لم تجد قابلية ولم تقدر على إمضاء عزيمة ولا نيَّة، وكان حالك في محاولة ذلك بمنزلة صاحب الدرع الذي كلما أراد أن ينفق أو يتصدق تقلصت، فإذا أرسلها لم يستطع ولزمت كل حلقة مكانها من جسده كما ورد بمعنى هذا الخبر. ولقد صدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث

قال في وصيته: «لأن يقدم أحدكم فتُضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرات الدنيا»[1]، فنعوذ بالله من هذه الحالة السيئة التي حذّر منها الصدِّيق رضي الله عنه، ونسأله أن يلطفه لنا ولمَن بُلي بها ممن كان أصحب الناس لنا وأشدهم مَيْلاً إلينا حتى لعبت بنا أمواج الهوى وغرّقتنا في بحارها الدنيا وتعرّضنا للفتن وكنا عنها في غنى.

وأما عدم تغيير المنكر: فقد ينتهي حالك فيه إلى ما ذكرت من أنه لا ينكره قلبك، لا عليك ولا على غيرك، بل يسقط عن قلبك موقعه ولا تجد لذلك مرارة ولا كراهية، وتستهين بالأوامر والنواهي، واعتبر بجميع ما ذكرناه لك ها هنا كلما أضربت عن ذكره من ذنوبك وعيوبك التي ادعيت أنك لو ذكرتها لملأت منها ديواناً. ولا يخفى عليك وجه الاعتبار مع ما قدمناه لك من وجوه الاستبصار. فإن أصابك سبب تتوقع به نزول الموت بك ثم أردت الاشتغال بالاستعداد له بالتقوى والطاعة وأخذت في ذلك، لم تدم عليه كل الدوام لما تعودت في طول عمرك من الخلل والنقص، و«القرد الشارف لا يتعلم الرقص»[2] وما سبب هذا كله إلا مسامحة النفس في ابتداء الأمر ومساعدتها على ما تفقهت وتأوّلت في السر والجهر حتى آل ذلك إلى القسوة التي لا يبقى معها للخير حركة ولا قوة. والقسوة حالة يتكيّف بها قلب العبد عند تعاطيه لتلك الأعمال التي جرّه إليها ما ألفه من التفقهات والتأويلات بسبب ما كان آخذاً فيه من العلوم والمعارف والمكتسبات ومداومته على ذلك وسواه مع استصحاب غرضه وهواه فيريد أن يأخذ الحبل بطرفيه، ونعني بذلك أنه يريد أن يحصل له المقام الأعلى مع مصاحبته للهوى. وهيهات هيهات.

جلّ بساط الحق أن يطأه مسافر يصحبه هواه وإلى هذه المعاني كلها الإشارة بقوله تبارك وتعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ. . .﴾

(1) رواه المقدسي في الأحاديث المختارة، حديث رقم (12) [1/ 88] ورواه الطبري في التاريخ، ذكر أسماء قضاته وكتابه وعماله. . .، [2/ 353].

(2) مثل شعبي مغربي. والشارف هو العجوز، وهو بالطبع عارف بالرقص.

[الحَديد: الآية 16] فقوله: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ حكم لهم بالإيمان والتزام أوامره ومقتضياته، والإيمان يأمر بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 93]، ثم قال تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحَديد: الآية 16] وخشوع القلب لينه وتأتّيه إلى الانقياد إلى مقتضيات العبودية، وهو ضد القساوة التي هي الصلابة، وخشوع القلب للذكر وما نزل من الحق إنما يكون بسقوط الهوى والبراءة من الدعوى فيعامل العبد مولاه حينئذ بما اقتضاه ذكره وتنزيله معاملة صحيحة خالصة صافية عن الشوائب والكدورات. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحَديد: الآية 16] بيَّن في هذه الآية الكريمة أن سبب قسوة قلوبهم إنما هو طول الأمد بعد إيتائهم الكتاب الذي تضمَّن الهدى والرشد. وذلك أنهم لما آتاهم الكتاب اقتضى منهم المبادرة إلى العمل بمقتضاه من غير تفقه ولا تأويل كما اقتضاه من هذه الأمة المحمدية ما أتاهم من الإيمان وما نزل عليهم من القرآن، ولا يتأتى ذلك إلا برفض الهوى جملة. فلما لم يرفضوا هواهم وبقوا معه سوّفوا بالأعمال واستشعروا تراخي الآجال فأعقبهم هذا الرائي الفاسد منهم أن قست قلوبهم بسبب ما تمرّنوا عليه من الضلال والتضليل الذي قطعوا فيه عمرهم الطويل بسبب ما ألفوه من التفقه والتأويل فانسلُّوا بذلك من الدين انسلال الشعرة من العجين، ولذلك كان أكثرهم فاسقين، كما قاله أصدق القائلين في هذه الآية.

وفي الإشارات عن الله سبحانه: «عبدي إذا أتاك أمري فكن كالنار وإلا أدخلتك النار»(1) يعني بذلك، والله تعالى أعلم، المبادرة إلى الامتثال من غير تروٍّ ولا تلكؤ ولا تراخ، لأنه إذا تراخى ولو أدنى شيء ملكته نفسه وأسره هواه، وأنّى له الانفلات من أيديهما بسهولة. واعتبر هذا المعنى بحال ذلك الرجل الذي قصد إلى قطع الشجرة التي كانت تُعبَد من دون الله بيِّنة خالصة وعقيدة جازمة، فلما تمثّل له إبليس وأراد أن يصده عن ذلك لم يسمع منه ولم

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

يعبأ به، فلما صارعه الشيطان صرعه الرجل. فلما ركن إلى أمانيه الباطلة ومواعده الكاذبة وأخلفه في ذلك رام قطع الشجرة ثانياً فلم يقدر ولم يخلِّه. وذلك لما صارعه الرجل صرعه الشيطان، وخذ الشجرة مثالاً، فقد مثّل بها الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه هوى النفس وشهواتها وأمانيها وأغراضها، وجعل ذلك بمنزلة شجرة أريد من بعض الناس قطعها وقلعها، ولا شك أن أسهل ما تكون لذلك مهما أخذ في ذلك بالجد والبدار لأنه إذ ذاك قوي وهي ضعيفة، فإن تراخى عن ذلك ولو شيئاً يسيراً ازدادت قوة ورسوخاً وازداد هو في جسده ضعفاً ووهناً. وعلى هذه النسبة كلما تباطأ عن ذلك. وهذا مثال مليح ومعناه صحيح، فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن يراعيها المريد. والله ولي التوفيق والتأييد.

إيَّه، فإذا كانت التفقهات والتأويلات ضارة لكم هذا الضرر العظيم مع أنكم متشاغلون بالعلوم الحقيقية والمناحي التصوفية، فكيف ترى يكون حال غيركم من أصحاب الرسوم إذا تفقهوا وتأوّلوا. فلا تسألوا عما بُلوا به من المصائب المشيب ذكرها للنواصي والدوائب. فترى الواحد منهم إذا تعلَّم مسألة أو مسألتين أو مسائل فقهية تنتعش نفسه وينتفخ ريشه ويعظم في نفسه ويتكبر، ويتقدم في القول والرأي بين يدَي سواه ولا يتأخر، ويستحسن حال نفسه غاية الاستحسان، وينظر إلى مَن عداه، وإن علاه منزلة الحشرات والذبّان. وقلّما ينتبه لمَن يوقظه أو يصغي بسمعه إلى وعظ مَن يعظه. أعاذنا الله وإياكم مما بلي به من سيىء الأحوال وعافانا من جهلة المركب الذي هو داء عضال ومنشأ كل ظلم وضلال.

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

والكلام في المتعبد والمتزهد كالكلام في المتعلم والمتفقه سواء بسواء.

فإن قلت: جميع ما ذكرتموه ها هنا من أوله إلى آخره مُشعِر بأن القلب قد طبع عليه وضرب بينه وبين التوفيق بسُرادق أحيط به وأقيم حواليه فكيف يتأتى منه الرجوع إلى المحمود من حاله الأول؟ وهل تصور ذلك إلا من المحال الذي لا يعقل؟

كيفَ الوصولُ إلى سُعادٍ ودونَها قُلَلُ الجبالِ ودونهنَّ حُتوفُ
الرِجلُ حافيةٌ وما لي مركبٌ والكفُّ صفرٌ والطريقُ مخوف(1)

فبأي شيء يتشبّث مَن هذا حاله، وبماذا يكون اشتغاله؟

فأقول: ما دام العبد يجد الحزن من نفسه والتأسُّف على ما فات من أنسه، فأمره مرجوّ، لأن بيده رأس مال يمكن أن يتوصل به إلى سَنيِّ الأرباح في ثاني حال، وإنما يخاف على أصحاب الرسوم الذين ماتت قلوبهم ولم تستثر منهم الهموم والأحزان معاصيهم وذنوبهم، فليكن شغل هذا العبد اللجأ والافتقار والتحقق في حال الاضطرار، وما أحقه بهذا الأمر، وكل ما كان معتمداً عليه وراكناً إليه في سالف أمره من علمه وعقله وقوته وحوله قد خذله وأسلمه ولم يغنِ عنه شيئاً فيما قصده ويمَّمه، بل كان جميع ذلك معيناً لأعدائه عليه وجارّاً للفضائح والمخازي إليه. ومن أمثال عامة الأندلس:

«صِحته يشجّعني برق عيونه وفزعني»

وهذا هو يا أخي حال كل مَن عمّر الكون معان أو أشخاص عوام أو خواص، فارفض جميع ذلك رفض النواة، وانبذهم نبذ القذاة، وحطّ رحل همتك بالمقام الأعلى، وأنِخ ركائب طلبك في البساط الأسمى، وناده بلسان حالك ومقالك، وقل: يا أرحم الراحمين، ويا مغيث المستغيثين ارحم مَن لم يبقَ له حبيب ولا صديق من جميع العالمين، فإذا فتح لك مولاك هذا الباب الكريم حصلت على الشرف العظيم وحللت في جنات النعيم وأتيت الله بقلب سليم، وقلت حينئذ بلسان حكيم عليم: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم.

وهذا هو الكلام الطيب الذي يصعد إليه من بين سائر الكلام، والعمل

---

(1) هذان البيتان هما للإمام الشافعي محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المطلبي أبي عبد الله المولود سنة 150 هـ والمتوفى سنة 204 هـ أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة وإليه نسبة الشافعية كافة. [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

الصالح الجاري على مقتضى هذا الذكر يرفعه إليه من غير أن يتوجه على صاحبه عتاب أو ملام، الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات. قيل: يعني بذلك الأعمال والعمَّال، فإنما طابت أعمالهم بشهود التوحيد، وإنما طابوا هم بالافتقار إلى العزيز الحميد. فلا جرم تتوفاهم الملائكة طيبين ويجتمعون تحت شجرة طوبى آمين، ويقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية 73] جعلنا الله منهم برحمته، آمين.

وقولكم: وأشد الأمر عندي أني على هذا الحال السيىء، ثم أني أطمع أن أنال درجات أهل الكمال... إلى آخره. فلا أدري درجات الكمال التي تخيّلتموها أي شيء هي، وهل درجات أهل الكمال إلا تقلُّب في عبودية الله تعالى كيف ما دارت بك الحال؟ فإن تخيّلت منها شيئاً غير هذا وجعلت ما شاهدته من نفسك من القبائح حجاباً بينك وبين ربك حتى ترفع ذلك بنفسك وجدِّك وجهدك، وحينئذ تقضي إليه، فما أعظم الجهل الذي أدّاك إليه. ما قرع سمعك منذ كذا وكذا سنة من علوم أهل التحقيق؟ ولعمري لهو أشد عليك من فوات ما توهمته كمالاً ومعرفة، فقُرّ عيناً حينئذ بفواته لأنك متلبس بما هو أشد منه.

ومن أمثال العامة: «قيل للمجذوم: اغسل يدك، قال: ما بعد الجذام علّة».

فانتبه يا أخي من نومتك، وامسح العمش من مقلتك، وارمِ ببصرك أقصى ما انتهى إليه نظرك، وحدِّقه وحققه فإنك حينئذ لا تشاهد في الدارِ ديّاراً، وتنظر إلى الملك العزيز يتصرف في مُلكه كيف شاء بلا منازع ولا معارض، وتستفيد من هذه المشاهدة والنظر أن تعرف أن جميع تصرفك وتقلُّبك وتضرُّبك وتشوُّفك وكراهيتك ومحبتك شأن من شؤون الملك التي هو كل يوم فيها، وأن الحال التي كنتَ عليها قبل هذا النظر والشهود قشار في نُخال وتورط في هلاك، لا يُنجيك منه عَمّ ولا خال، وحينئذ تضحك من نفسك ضحك مَن لاح له شيء توهمه عقرباً تلدغه، فبينما هو آخذ في محاولة ضربها وقتلها، وقد أخذ لأجل ذلك نعله من محلها:

إن عـادت الـعـقـرب عـدنـا لـهـا   وكـانـت الـنـعـل لـهـا حـاضـرة[1]

إذ تبدل فيه نظره وصحّ عنده خبره ووجده درّة عظيمة ينال منها مملكة جسيمة، لا يُدرى لها قدر ولا قيمة، أو ضحك مَن لاح له بين يديه شيء يتوهمه درة نفيسة، فبينما هو مادّ يده إليها ليأخذها فيجعلها في فمه أو يرفعها عنده فإذا بها عقرب في ذنبها عشرون عقدة. فالمثال الأول وزانه ما كرهته وأبغضته مع مشاهدتك لنفسك، فإذا شاهدتَ إقامة الحق لك فيه يعود عليك برداً وسلاماً. والمثال الثاني وزانه ما آثرته وأحببته مع مشاهدتك لنفسك، فإذا شاهدت صرف الحق إياك عنه تعد ذلك منه لطفاً وإكراماً. وبمثل هذه المخاطبات والمطالبات أخاطب نفسي وأطالبها ـ الأقربون أوْلى بالمعروف ـ إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

فهذا ما أردنا أن نذكره لكم في بيان السبب فيما طلبتم انجرّ الكلام إلى ما ترى، وإليك بعد هذا النظر في هذا الهذر، هل صادفت فيه الغرض ووقعت على حقيقة المرض، وقمت بالواجب المفترض، أو حُدتُ عن المقصود وقصرت في بذل المجهود ولم أوفِ بالأمر الموعود؟ وأخبروني ما الذي يظهر لكم من حالكم عند قراءة هذه الأحرف وتأمُّلها والنظر في تفصيلها وجملها، فإني نظمتها نظماً عجيباً وسقتها مساقاً غريباً. فإما أن أفرح بالصيد الذي يقع في حبالي، وإما أن أحزن لما ضاع من تلطُّفي واحتيالي، ونقول حينئذ ما قالته المرأة لابنتها: «كل شيء عملتُه معك إلا السعد». والمرجو من فضل الله تعالى

---

(1) قيل في شرح المثل العربي: أتجر من عقرب [جمهرة الأمثال رقم (392) [1/ 281].
وعقرب هو عقرب بن أبي عقرب تاجر كان بالمدينة من أكثر أهلها مالاً وأنفقهم تجارة وكان مطولاً مضروباً به المثل في المطل.
وهو القائل:

لـو كـنـت الـحـديـد لـكـسـرونـي   ولـكـنـي أشـد مـن الـحـديـد
كـل عـدو يـتـقـى مـقـبـلاً   وعـقـرب تـخـشـى مـن الـدابـره
إن عـادت الـعـقـرب عـدنـا لـهـا   وكـانـت الـنـعـل لـهـا حـاضـره
كـل عـدو كـيـده فـي أسـتـه   فـغـيـر مـخـشـي ولا ضـائـره

[المستقصى في أمثال العرب، الهمزة مع التاء [1/ 34].

ألا يضيع سعيي فيما طلبتم وأن يكون حان حين الكلمة النافعة التي ذكرتم. ولا أقول كلمة واحدة بل كلمات مجتمعات ومفترقات لأني ألقمتك فيها فانيدة تجد حلاوتها في فيك أبد الدهر، وسقيتك شربة يعجز عن تركيبها ومعرفة أجزائها أطباء هذا العصر، وحينئذ لا يبقى عليك من حالك إشكال، وتعرفت وتعلمت كيف تعامل مولاك في كل حال. ودعك بعد هذا تعيش أو تموت فقد حصل لك الإكسير والياقوت وزال من يدك التعلق بخيوط العنكبوت ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعرَاف: الآية 43].

وأما ما حكيتموه عن سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه من أن صلاته كانت موجزة في تمام فهو صحيح. وهذا من الرأي الحسن، إذ بِوَجَازتها تسلم من الآفات ومجاذبة الخواطر، وبتمامها يكون فيها أهلية التقرب بها إلى الرب القادر. وكون صلاة الأبدال خفيفة لا أدري هل هو لما ذكرناه أم لا؟ على أن الثقل والخفة أمور نسبية. فرُبّ صلاة خفيفة بالنسبة إلى ما هو أثقل منها وإن كان فيها طول والناس يغلطون في هذا. فإذا سمعوا أن تخفيف الصلاة مطلوب بالشرع نقروها نقر الديك ولم يعنوا بإتمام ركوعها ولا سجودها ولا مراعاة حدودها. فالأوْلى أن يرجع في تقدير الخفة والثقل إلى ما ثبت في الشرع.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ صلّى في أواخر عمره صلاة المغرب بسورة الطور، وأظن هذا الحديث في الصحيح، مع أن صلاة المغرب من أقصر الصلوات قراءة، فإذا عملنا على هذه النسبة كانت الصلاة التي نصلِّيها اليوم، المغرب وغيرها، خفيفة جداً. وقد أسند الحافظ أبو نعيم رحمه الله عن إبراهيم التيمي قال: كان أبي ـ وهو يزيد بن شريك ـ قد ترك الصلاة معنا، قلت: ما لك تركت الصلاة معنا؟ قال: إنكم تخففون، قلت: فأين قول رسول الله ﷺ: «**فإن فيكم الكبير والضعيف وذا الحاجة**»[1] قال:

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الغضب في الموعظة والتعليم. . .، حديث رقم (90) [1/ 46] ورواه مسلم في صحيحه، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، حديث رقم (466) [1/ 340] ورواه غيرهما.

قد سمعت عبد الله بن مسعود يقول ذلك، ثم صلّى ثلاثة أضعاف ما تصلُّون.

فانظروا في هذا، ويمكن أن يتلمّح من أحوال السلف في الزمن المتقدم ما ذكرناه ها هنا. وذلك أنهم كانوا لا يحتاجون في صلاتهم إلى تسميع مسمّع، كيف وقد رأى بعض العلماء بطلان صلاة المسمع والمصلي بتسميعه. ولم يشترط أحد في الإمام أن يكون صيّتاً ولا أن يتكلف رفع صوته زائداً على الجهرية. وقد كانت صلاتهم مع هذا كله صحيحة تامة لا اختلال فيها. وما ذاك إلا لأن صلاتهم كانت أطول مما جرت به عادة أهل زماننا، فكان الإمام إذ ذاك إذا دخل في عمل من أعمال الصلاة اقتدى به في ذلك الذين يلونه ثم اتبع الذين يلونهم أولئك القوم ثم اتّبع الذين يلون هؤلاء مَن يلونه، هكذا إلى أن يفرغوا أجمعون من ذلك العمل ثم ينتقل إلى عمل آخر، هكذا إلى تمام الصلاة بسكوت وسكون وخشوع. وهذا لا محالة يحتاج إلى تطويل ما لأنه إن لم يكن ذلك انسدّ على المأمومين سبيل الاقتداء بالإمام في جميع أفعال الصلاة، ولزم من ذلك أن يكون الإمام في ركن والمأموم في ركن آخر لا يتلاقوا معه إلا في قيام لقراءة أو جلوس لتشهُّد، لا سيما إن كثرت الجماعة المصلُّون بصلاته، ومثل هذا تخليط في الصلاة. وإن وقع من الإمام سهو لعبت أيديهم وخرجوا بلا صلاة. فما حدث التسميع إلا بعد أن رقّ الدين وصارت الصلاة على الناس بمنزلة الحمل الثقيل الذي ليس همهم إلا طرحه عن رقابهم واستراحتهم منه. فتوصلوا بالتسميع إلى أن يقتدي المأمومون بإمامهم في جميع أفعال الصلاة بدفعة واحدة. ففي الزمن الذي يقتدي به فيه مَن يليه يقتدي به فيه مَن صلّى في أخريات المسجد الكبير، لا سيما إن كان المسمع صيِّتاً أو يتعدد المسمعون بحيث يكون واحداً يلي الإمام وآخر عند الثريا الكبيرة وآخر عند الصومعة وآخر عند الخصة، ولو كنت رأيت سلّاً لمثلت لك بها ويرتج المسجد بالأصوات، فإن حدث للإمام سهو لا يمكنه تلافيه حينئذ إما بالتسبيح أو بالتصفيق كنحو القيام من اثنتين، يقوم المأموم خلفه ويقول بأعلى صوته: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 238] من غير حضور ولا خشوع، وكذلك الآخر والآخر، ولولا ذلك لفسدت صلاة القوم. كل ذلك ليحصل لهم غرضهم

من التخفيف مع سلامة الصلاة من النقص في الأركان مع الحال التي اعتادوها من التباعد بين الصفوف التباعد الكثير، وما أمر الناس بسد الفرج إلا ليقرب الناس من الإمام فحادوا عن السنَّة فسلّط عليهم البلاء والفتنة، وبالله التوفيق والعصمة.

وأما ما ذكرتموه من الكلام وهو قول القائل: مَن اعتدل في نظره إلى آخره، فصحيح المعنى. أما الاعتدال في النظر فهو أن يكون نظر العبد مستنداً إلى الشرع وذلك بأن يجعل الشرع حاكماً على عقله وهواه، لا يرى إلا ما أراه، فتجري بذلك عقيدته على الصراط المستقيم الذي لا مَيْل فيه ولا انحراف. وهذا أحد الأصول في محاولة الوصول.

وأما التجرُّد عن جملة الخبر فهو أن يرجع العبد إلى نفسه فيراها في غاية الذلّة والحقارة بحيث لا يرى فيها أهلية استحقاق شيء من الأشياء ولا أن تخبر ولا أن يُخبر عنها، وهذا هو الأصل الثاني. وأما التهيؤ للقبول فهو أن يأخذ العبد في السفر والسير إلى مقصوده بالأعمال والطاعات والمجاهدات والمكابدات حتى يصلح بذلك لقبول حضرة العزة له ويتحقق بما ذكرناه في الأصل الثاني فيحظى حينئذ بالمعرفة والمشاهدة والمجالسة والمحادثة. وهذا هو الظفر بحقائق الوصول الذي جعله ذلك القائل ثمرة الثلاثة الأصول. فالأصلان الأولان علميان فقط، فالأول علم يتعلق بالله تعالى، والثاني علم يتعلق بذات العبد، والأصل الثالث عملي فقط، وهو كيفية معاملة العبد للرب. هذا ما فهمته الآن في هذه الكلمات.

وأما حضوركم دولة الموطأ فلا حرج عليكم في حضورها. فإذا سمعتم فيها ما يكون فيه موافقة لما بأيديكم من علوم القوم فاقبلوه، وإن سمعتم ما يخالفه فتأولوه إن قدرتم، وإن لم تقدروا فسلِّموه ولا تردوه ولا تقبلوه. وأشد ما أخاف عليكم إن دمتم على ذلك مسارقة طباع أهل الرسوم وظواهر العلوم المتفقهين في هذا الوقت المشؤوم، وقد أشرنا في هذا الكتاب إلى أحوالهم وما آلت إليه.

وذكرتكم في كتابكم الذي هو جوابه قول الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ

نَفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذّاريَات: الآية 55] وأشرتم بذلك إلى أنفسكم، وهذا شبه الدعوى. لأن الإيمان مقام شريف وقد ردّ الله تعالى على المدّعين لذلك وإن كانوا منافقين، في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحُجرَات: الآية 14]، ولا أقول لكم لا تعتقدوا أنكم مؤمنون، ولكن الأدب في المقال أمر آخر. ولذلك كان الاستثناء مستحسناً فيه في قول القائل: أنا مؤمن إن شاء الله، فلا تعودوا إلى مثله، وكذلك لا تعودوا أيضاً إلى تحليفي بالله تعالى في شيء من الأشياء. فقد قلتم مثل هذا في كتابكم، والتحليف بالله تعالى عظيم. ولم يبقَ في كتابكم ما أنبهكم عليه غير هذا. والله ولي التوفيق برحمته.

الرسالة الحادية عشرة

وقد وصلنا كتابكم وذكرتم فيه أشياء من جملتها أن فلاناً قام مقامكم فيما كان غرضكم فيه، وقد كان وقع بيننا ذكر ذلك، وظهر له مني أني أتشاغل به لمّا طلبت منه أن يستعير لي كتاب البخاري ولم يكن غرضي في استعارته ذلك ولا ظننته يكتب لكم بذلك فيتعلق خاطركم بما لا ينِضُّ منه شيء ولا فائدة فيه، لأن العلم بصحة طريق الصوفية في مجرى العادة لا يستند إلى إقامة دليل من الأدلة السمعية ولا العقلية، وإنما يوجبه ما يليحه الحق تعالى في أسرار مَن اختصه من عباده بحيث يقهرهم ذلك ويحملهم على الاعتراف به بحيث لا يسعهم التشكُّك فيه، وهو علم اليقين الذي لا مساغ فيه لتهمة ولا شك ولا ارتياب، وإن كانت ظواهر النصوص قد تخالفه. ومثل هذا لا يُدرَك بالمنى ولا يُنال بالهوينا، فلا مطمع لأحد أن يكون مفيداً في حق مَن فقد ذلك اليقين بما يلقيه إليه من الأدلة المذكورة لأنه لا ينقاد إلا لنص قاطع لا يحتمل التأويل، وهذا غير موجود البتة، ولو كان موجوداً لم يقع بين الطائفتين ـ أعني أهل علم الظاهر وأهل علم الباطن ـ ما وقع من الاختلاف الذي لا يقدر أحد على رفعه.

واليقين أعزّ شيء نزل من السماء إلى الأرض، ومَن وُوجِه به لم يقع له

إشكال في شيء من النصوص الشرعية، ولا يبقى له فيها تعارض ولا تناقض. واتحدت في نظره الشريعة والحقيقة وصار من أمره على أوضح طريقة. فمَن عكس هذا الأمر ورام نصرة هذا الطريق بما تقتضيه الظواهر لم يجد شيئاً يخلصه من المطالبات ولم يأت بشيء يوجب له قمع معاند ولا غلبة منازع. وربما يؤدي ذلك إلى تعريض الطريقة للانتقاد وحمل الداخل فيها على سوء الاعتقاد، ثم إن الغرض المروم بذلك إنما هو ما ذكرتم من الدعاء إلى الله تعالى والمجادلة بالتي هي أحسن، وذلك إنما ينفع في حق مَن فيه علوّ همة وزكاء فطرة. ومَن كان بهذه الصفة لا يحتاج إلى تحرير دليل على طريقة علماء الظاهر بل يكفيه أدنى شيء من الرمز والإشارة، وهو الذي يجيء إليك لا أنت تجيء إليه، كما جاء في الخبر: «**أعِنِّي على نفسك بكثرة السجود**»[1]

وأما مَن كان ذا همة دنئة وفطرة ردئة فقد ضرب بينه وبين هذه الطريقة بحجاب لا ينفذه نظرة العين، وجعل في وجهه سد كسد ذي القرنين، فعدم الأخذ معه في هذه الطريقة وأن لا تذكر بين يديه طاعة لله، وجهاده بالسيف على إقامة ظواهر الشريعة فقط من غير تعرُّض لما وراء ذلك نضال عن دين الله. ولمثله من أهل الطغيان أنزل الله تعالى الحديد الذي هو ثالث الكتاب والميزان، ولهذا كانت هذه الطريقة مخصوصة لمخصوصين لا يدخل معهم طفيلي ولا يحوم حولهم فضولي.

فهذا هو الذي أوجب لنا التغافل عن ذلك مع أنَّا لم نجد أحداً من أئمتنا سلك تلك المسالك، والاتِّباع خير من الابتداع، والأوْلى أن يدخل رأسه مَن هو مثلي قصير الباع، وإن ارتبتم في صحة ما ذكرناه فها أنا أذكر لكم دليلاً على صحة طريق الصوفية على الجملة. ولكن إذا عرض ذلك على أهل الرسوم لم يقبلوه، وكان قدحهم فيه أقرب من جلوسك على كرسيك.

والذي يدل على ذلك إجماع الأمة على ذلك قبل ظهور هذه الشرذمة

(1) رواه الطبراني في الكبير، من حديث مصعب الأسلمي، حديث رقم (851) [20/ 365] ورواه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم (736) [1/ 418] ورواه غيره.

المنكرة، لأن الأمة فيهم فرقتان: فرقة وافقت ورضيت، وفرقة سكتت وسلّمت. والساكتون منهم لا سبيل لأحد أن يظن بهم أن سكوتهم تقية ومداهنة لأنهم أغْيَر على الدين وأنْصَح للمسلمين من أن يحملهم ذلك على السكوت على باطل، لا سيما وجاههم عند ملوك الأعصار قائم، وأمرهم مطاع وممتثل في العوالم. فصار سكوت مَن سكت منهم كنطق غيره، ولا يشترط في الإجماع على الشيء أن ينقل القول به عن كل فرد فرد، فإن ذلك متعذر أو مستحيل، بل يكفّي في ذلك أن ينقل عن أكثرهم مع سكوت الباقين وعلمهم.

وهذا كله معلوم عند مَن مارس الكتب ونقّر على السيَر والأخبار ولم يقتصر على البحث على ما ذكره اللخمي في «تبصرته»، وابن رشد في «بيانه»، والقاضي عياض في «تنبيهاته». وهذا كله بيِّن لمَن أراد الله توفيقه وهداه طريقه، ومَن لم يوفقه الله تعالى لهذا اعترض على ما ذكرناه وقدح فيه وقال: كيف يصح هذا الإجماع ومَن نقله؟ وقد يعكسه ويدَّعي الإجماع على نقيض هذا المطلب. هذا كله إذا استدل بالإجماع على طريق الصوفية على الجملة. فأما التفصيل فلا يمكن دعوى الإجماع فيه لأن الخلاف بين الطائفتين المذكورتين عتيد، وبأسهم بينهم شديد. ولكنا إذا تلطفنا وجئنا بنظر آخر يكون فيه نوع استدلال على أن الحق في جانبهم لم يُقبل، وضرب به وجه مَن جاء به. وتقرير ذلك النظر أنَّا إذا تأملنا ما اختلف فيه الفريقان من المسائل لم نجده يعدو أحد أمرين، إما شيء يرجع إلى الاعتقاد، وإما شيء يرجع إلى تكاليف العباد وهي المسائل الفقهية.

أما ما يرجع إلى الاعتقاد فلا يمكن أحداً أن ينازعهم فيما رأوا فيها لأنهم يدَّعمون أمراً وراء طور العقل، فكل ما ينتحلونه مدرَك عندهم بالعيان، وخصومهم إنما ينظرون ببضاعة عقولهم. وأين أحدهما من الآخر؟ ولا سبيل لأحد أن ينكر عليهم دعوى هذه الحال كما لا سبيل لأحد أن ينكر على مدّعي النبوة دعواها في زمان يصح فيه ذلك لأنه ادعى أمراً جائزاً في حكم الله، وواجباً في تعلق قدرة الله، ولا فرق بين الأمرين فيما يرجع إلى عدم تكذيب كل واحد من الفريقين، لكن النبي مأمور بدعاء الخلق إلى مذهبه، فلا بد من

جريان ما يصدقه في دعواه على يد مَن أمره خارق للعادة وذلك هو المعجزة، والآخر غير مأمور بذلك فلا يلزم في حقه ما لزم في حق النبي.

وأما المسائل الفقهية فهم أحق بالإصابة فيها من الآخرين إذا رجعنا إلى الإنصاف وتجنّبنا الاعتساف، فإن الهوى منهم مفقود وباب الغرور عليهم مسدود، وهم أقوام من أول بدايتهم إحكام التقوى والعكوف بالقلب على باب المولى. وهذه الأحوال مقتضية لوجود العلوم الحقيقية والتوفيق إلى العثور على أسرارها بخلاف غيرهم في جميع هذا. وانظر ما قاله الشافعي في شأن شيبان الراعي رضي الله عنهما لما عوتب في سؤاله له قال: إن هذا وفّق للعمل بما علمنا. وبمثل هذا النظر احتجّ بعضهم على ترجيح اجتهاد أهل المدينة على اجتهاد غيرهم من قبل ما نالهم من التوفيق ببركة مجاورة رسول الله ﷺ وإقامتهم في أَحَب البقاع إلى الله عزَّ وجل. وقد حاز مالك رحمه الله من هذا الحظ الأوفر، أعني بركة المجاورة والبقعة. ولم تزل أئمة أهل الظاهر في الأعصار الخالية يتبركون بصوفية وقتهم ويعظِّمونهم ويجلُّونهم ويلتقطون منهم نفيس الكلام ويعتقدون فضلهم على جميع الأنام.

كان الشافعي رحمه الله تعالى يجلس بين يدَي شيبان الراعي، وكان سفيان الثوري يقعد بين يدَي رابعة العدوية ويقول لها: «علميني مما أفادك الله من طرائف الحكمة» فتقول له: نِعْم الرجل أنت، لولا أنك تحب الدنيا.

وكان حمّاد بن زيد يسألها في حوائج يقضيها لها فتقول له: «إني لأستحي من الله أن أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها». وقال أحمد بن حنبل لأحمد ابن أبي الحواري: «حدِّثني بحكاية عن شيخك أبي سليمان الداراني» تبرُّكاً منه بذلك ومستفيداً له، فذكر له الحكاية التي ذكرناها في أول التنبيه. ولما صنّف أبو داود كتاب السنن رآه سهل بن عبد الله رضي الله عنه فأعجبه وأحبّ سماعه منه فبلغ ذلك أبا داود فبادر مسرعاً إليه وقرأه عليه وقال له: ما كنت بالذي تتعنّى أنت إليّ، حتى إن بعضهم كان إذا اتفق له سماع كلام أحد من هؤلاء أو رؤية حال من أحوالهم يبدو عليه من آثار ذلك ما يظنّ به كل مَن رآه أنه بمنزلة مَن كان نائماً ثم استيقظ ويعتريه بسبب ذلك تحيُّر ودهش.

ويحصل لهم في علومهم مزيد فوائد. وانظر إلى ما ذكره عنهم الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في أول باب وصية المريدين في آخر الرسالة، والإمام أبو القاسم القشيري عظيم من علماء أهل السنَّة وممن يهتم أهل الظاهر بنقل كلامه في مصنفاتهم. وهو من أئمة هذا الطريق رضي الله عنه ونفعنا به، ولكن لا يعرف الأمثال إلا الأماثل. وهذا دأبهم ودينهم، قديماً وحديثاً، لم نرَ ولم نسمع خلاف ذلك حتى جاء هذا الوقت المرذول. فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

ولقد كانوا إذا اتفق لبعضهم لقي أحد من هؤلاء يحال بينه وبين عقله من السرور والفرح. وما ذلك إلا لما كانوا عليه من إيثار الإنصاف وسلامة الصدور واحتقار النفس والبراءة من الكبر إلى غير هذا من الأخلاق الحميدة.

وليتأمل المتأمِّل في الحديث المذكور فيه أويس القرني رضي الله عنه إذ دلّ عليه رسول الله ﷺ وبيَّن أمره وأشار على خيار أصحابه إذا لقوه أن يلتمسوا منه الدعاء والاستغفار وما ذاك إلا لسر باطن اختص به، لخصوصيات لا تنكر. فقد يكون من عدمها عند الله تعالى أكرم وآثر، لكن لا من هذا الوجه المقرر. أن لا ترى إلى ما روي في بعض طرق حديث الخضر مع موسى عليهما السلام لما قال له: «أنا على علم علّمنيه الله لا ينبغي لك أن تعلمه»[1] هذا وموسى حبيب الله وصفيُّه وكليمه ونجيُّه. وانظر إلى طلبه له واتباعه إياه واحتماله غلظته وتعسُّره عليه. وقصة الخضر التي نصّ عليها القرآن وجاءت بتصحيح حالها صحاح الأخبار مما يحتجّ به على إثبات هذا الطريق. لكن قبوله وتسليمه لا يتصور إلا ممن أيده الله تعالى بالتوفيق. فعلى ما ذكرناه درج السلف الصالحون رضي الله عنهم فالخارج الآن عن ذلك المنزع والسالك خلاف ذلك المسلك لم يثلج صدره بنور اليقين، ولم يحظَ علماً بما كان عليه أئمة المتقين.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله [1/ 57] ونصحه: يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه» الحديث.

فهذا هو تقرير هذا النظر لكن لا يسلم من اعتراض مَن ارتبك في الجهل والغمر.

وأذكرني قولي: «لا يعرف الأمثال إلا الأمثال» ما رواه الشعبي: أن عدي ابن حاتم الطائي لما قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقال له: ما أظنك تعرفني. وكان ـ والله أعلم ـ توهم منه عليه شيئاً، فقال له عمر رضي الله عنه: وكيف لا أعرفك وأول صدقة بيَّضت وجه رسول الله ﷺ صدقة طيي، أعرفك آمنت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا. فالواجب على مَن ابتُلِيَ بأمثال هؤلاء المنكرين أن يعرض عنهم ولا يلتفت إليهم ولا يذكر حديث هؤلاء لهم ولا يدلهم عليه لما يخاف عليهم من الإنكار من السادة «ودرء المفاسد أهم عند العقلاء من جلب المصالح». ولا ينبغي أن يعتقد فيهم إلا أنهم مطبوع على قلوبهم، ممقوتون عند ربهم، مطرودون عن بابه الكريم، مصروف وجههم عن الصراط المستقيم، إلا مَن تداركه نعمة من ربه. فالاشتغال بإرشاد أمثال هؤلاء خسران عظيم، وعذاب أليم، والتماس محال لا يستقيم، كأسماع الرميم واستيلاد العقيم.

وليس المراد أن يكثر في هذه الطريقة الزحام، وإنما المراد أن يكون واحد من الأنام يحصل به القوام، وينجلي به الظلام، ويستسقى بوجهه الغمام، ويكون محلاً لنظر الملك العلام. ومثل هذا الشخص لا يخلو منه زمان من الأزمنة المتقدمة ولا المتأخرة بفضل الله عزّ وجل. ونحن وإن كنا لا نعرفه، فإن بركته واصلة إلينا وأنواره عامة علينا لما جعل الله تعالى فينا من التصديق بطريقه وموالاة حزبه وفريقه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية 43].

فهذا ما أردت أن أذكره لكم لتدفعوا به ما عساه يعرض لكم من الوسواس، وتكتفوا به عما طلبتموه منا قصداً إلى هداية مَن أصبح في قياد الشياطين والأبالس. ونحن نأمرك أن لا تعبأ بهم، ولا تلتفت إليهم، ولا ترجُ منهم صلاحاً ولا فلاحاً ما داموا بأنفسهم عن ربهم بخلاء شحاحاً. وإمارة ذلك اجتهادهم في طلب الدليل، فإذا أوضح لهم إليه سبيل قابلوه بالرد بمستكره

التأويل، ولو نزل عليهم بذلك جبريل وميكائيل ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النّجم: الآيتان 29، 30].

***

الرسالة الثانية عشرة

وقد بلغنا كتابكم وأنتم تذكرون فيه أشياء مُكربة لائقة بالوقت وذلك لما اشتمل عليه من السخط والمقت، نسأل الله تعالى النجاة من المهالك والكون في كلاءة الواحد المالك.

ويا أخي أريد أن أذكر لكم أمراً ربما كنتم تعرفونه، فإن كنتم نسيتموه ذكرتموه إذا اطّلعتم على هذا المكتوب، وإن لم تنسوه لم يزدكم إعلامكم بذلك إلا خيراً. وهو أن تذكروا نعمة الله عليكم في الأمر الذي وفقكم له من أنكم لم تجعلوا طريق القوم يظهر منكم كما فعل غيركم بحيث أقدركم الله على تلقي شدائد الزمان برحب الذرع واتساع الصدر حتى ربما يعقبكم ذلك في أكثر الأوقات والأحايين مزيداً عظيماً، لو كلفتم طلبه أو دفعتم إلى استجلابه بحيلة تبتدؤون بها من قبل أنفسكم لم تقدروا على ذرة من ذلك. وحصول هذا المزيد أمر متحقق لا شك فيه، فإن علمتموه موجوداً لكم فحسن، وإن لم تعلموه موجوداً لكم فقد يكون ذلك أحسن لكم من علمكم به، فأنتم لو خيِّرتم بين سلب هذه الحالة عندكم ويعطاكم عوضاً عنها مُلك العراق أو تبقى لكم مع ما يلزمها من الابتلاءات التي يكون عقباها إلى ما ذكرت لكم ما أظنكم تعدلون ببقائها شيئاً. وهذا كله من غير استحقاق منكم، ومن أين لفلان بذلك وأنّى له به لولا فضل الله تعالى عليه ورحمته وعنايته به، وفتحه له الباب إليه وموالاة منحه وعطاياه لديه، فاستذكروا هذه النعمة العظيمة ليحصل لكم بمعرفتها الشكر عليها فيعقبكم ذلك المزيد منها.

وأي شيء المزيد منها هو أن يرفع الحق تعالى الوسائط بينكم وبينه فلا تروا من أحد من الأغيار فعلاً ولا جُعلاً وتحوزوا بذلك المملكة التي حصلت لذلك الرجل الذي ذكرت أمره في أثناء التنبيه على قول ابن عطاء الله

[السكندري] رحمه الله: «**الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل**»[1]. . . حاكياً ذلك عن كتاب الصقلي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ فيها لها مملكة ما أعظم قدرها وأجل خطرها، لو انتقلت السماء على الأرض والعرش على الفرش لم يكن عند صاحبها خير من ذلك لأنه يرى نفسه مصرفاً في قبضة المالك، ومَن الذي يعترض عليه في فعله أو يعتقد خلو شيء من ذلك من نعمه وطَوْله إلا الجاهلون الغافلون الذين هم عن النظر في العبر والسمع للخبر معزولون.

وهذا كله كلام يتضمن التعزية لكم فيما أصابكم على يدَي بعض الناس من الإذاية الحسيّة والمعنوية. وقد ابتلاهم الله تعالى بذلك وعافاكم من مثله، فارحموا أهل البلاء واسألوا الله العافية، فلو كنتم مكانهم وكانت أفعالكم أفعالهم أي شيء كنتم تصنعون!؟ وربكم وربهم واحد، وأنتم وهم في تصريف القدرة واقتضاء المشيئة شرع سواء. وقد كان السلف يقولون إذا ظلموا بمظلمة: نعمة الله علينا إذ لم يجعلنا ظالمين وجعلنا مظلومين أعظم مما فاتنا من الظلامة. وفي بعض الآثار أو الأخبار: «**إذا أراد الله أن يُتحف عبداً من عباده سلّط عليه مَن يظلمه**»[2]

وأما ما فعلتم في المولِد وما اعتراكم بسبب ذلك من أمور راجعة إلى أقوال الناس فذلك كله معلوم وقوعه، فلو كنتم أعطيتم لهم الأُذن الصمّاء لكان في ذلك أعظم الردع لهم، وأظنكم فعلتم ذلك، وكون الأولاد لم ينصحوا في قراءة ألواحهم وتغافلتم عن ذلك هو المطلوب منهم ومنكم، ولو أمكنكم في ذلك الوقت أن تأذنوا لهم في الاشتغال بلهو مباح أو لعب ليس عليكم فيه جناح مع أمنكم من أن يحدث عندهم أو عند غيرهم بذلك فساد في عقيدة أو ضرب في ثاني حال لكان ذلك منكم حسناً جميلاً ولكن لا سبيل لكم إلى ذلك في هذا الوقت وأشباهه، ألا ترى أنكم لم تسلموا من الناس عند تشاغل

---

(1) ونص الحكمة كاملاً هو: «الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به».

(2) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء من كلام الفضيل بن عياض [8/ 104] ورواه غيره.

الأولاد بقراءة كتاب الله تعالى وقالوا: أي شيء منعه من إذنه لهم في الصلاة على رسول الله ﷺ!.

ولا تتعجبوا من هذا الكلام الذي ذكرت لكم فإن له في السنَّة مستنداً يمكن أن يستروح إليه وهو أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ عند قفوله من بعض غزواته فقالت له: إني كنت نذرت إن ردّك الله تعالى سالماً أن أضرب على رأسك بالدف، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَوْفي بنذرك**»[1] أو كلاماً هذا معناه. والحديث الآن لا أذكر مَن خرَّجه من أئمة الحديث وهو عندهم ثابت مشهور. ولا شك أن الضرب بالدف من أنواع اللّهو، والنبي ﷺ أمرها بالوفاء بنذرها له لما كان سبب ذلك فرحها بسلامته التي يجب عليها الفرح بها، ولم يجعل ذلك بمنزلة مَن نذر مباحاً أو معصية في عدم لزوم الوفاء به، فكذلك مَن أحدث لهواً مباحاً عند فرحه بزمان ولادته ﷺ من غير التزام ولا نذر، أيّ شيء يمنعه منه لولا التفقهات المباركة التي الوقوف معها واعتمادها من أعظم البدع في الدين. وكون هذا الأمر لم يكن في الصدر الأول حيث الإيمان راسخ في القلوب وشرائع الإسلام مطوية على تعظيمها والانقياد إليها الإضلاع والجنوب ليس بدافع له ولا مغبر في وجهه حيث لم يبقَ من الإيمان إلا الرسم، ولا من شرائع الإسلام إلا الرسم، وقريب أن يذهب من أيدي هؤلاء الناس اسمه ورسمه ويسلب عنهم معرفته وعلمه، فلم يبقَ اليوم بأيدي الناس من أمر الدين إلا أنهم إذا سمعوا بذكر النبي ﷺ تطرب له أفئدتهم وتنطلق بالصلاة عليه ألسنتهم، فهم يدينون له بالتعظيم والتصديق ويمزقون شريعته أي تمزيق، فالعاقل اليوم لا ينظر إلى ما أحدثوه مما يكون موافقاً لأهوائهم من تعظيم مَن عظّم الله حرمته بأي وجه يرونه تعظيماً، وإنما ينظر إلى ما أحدثوه من اطِّراح أوامره والاستهانة بنواهيه وزواجره الذي يستحقون عليه عذاباً أليماً، وإذا جاز

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على إباحة قضاء الناذر نذره. . . ، حديث رقم (4386) [10/ 231] ورواه أبو داود في السنن، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، حديث رقم (3311) [3/ 237] ورواه غيرهما.

أن يحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور جاز أن يُقرُّوا على رسوم قد استولى على حقائقها الدروس والدثور. فإذا نزعت منهم أي شيء يبقى بأيديهم؟ وما كان سبب جواز تحلية المصاحف بالذهب والفضة إلا لئلا يخلق في أيدي الجاهلين. وتعليق أثواب الحرير والديباج على الكعبة المشرّفة إنما استحسن لئلا يذهب تعظيمها وهيبتها من قلوب المفسدين. وإلا فأي حاجة للحجارة والصخور إلى تعليق الحجب والستور لولا هذا الغرض المذكور؟

ولما كتب حجبة البيت إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في شأن كسوته، كتب إليهم: «إني رأيت أن أجعل ذلك في أكبادٍ جائعةٍ أوْلى من البيت» أو كما قال رضي الله عنه، بل المتفقهة في مثل هذا الوقت لو لم يحبس الناموس ويتحلّى بالانقباض والعبوس ويلتزم هيئة مستحسنة في الملبوس لم يسمع أحداً منه فتوى، ولا قبل له دعوى، وإن كان في علم مالك بن أنس مثلاً. والعوام لا يأنسون إلا بالمحسوسات المنظورات والمسموعات والملموسات. وأما الأمور الروحانيات فهم بمعزل عنها، ولما استولى الجهل والغفلة على بني إسرائيل بحيث جوَّزوا على العجل أن يكون ربَّهم ويصرفوا إليه تعظيمهم وحبّهم، أمروا أن يتخذوا خيوطاً زرقاً في أرديته لكي إذا نظروا إليها تذكّروا بذلك زرقة السماء فينظروا إليها، فإذا نظروا إلى السماء تذكروا عظمة خالقها. فمَن طمع في محاولة إصلاح العامة بغير هذا المنزع فقد طمع في غير مطمع.

والعزفي رحمه الله كانت له نية صالحة في ذلك الأمر يرجى له بها من مولاه جزيل الأجر، وهو وإن كان لم يبلغ كلية غرضه في إبطال أمر النيروز والمهرجان معتمداً مقصداً تنشرح له صدور أهل الإيمان باعتبار ما ألف في العادة من الطغيان والعدوان، لأن الناس يصبحون في ذلك اليوم متجملين محتفلين متشوقين إلى أن يقرع سمعهم قارع من ذكر اسم نبيهم وحبيبهم فيلهجوا بذلك فرحاً وسروراً ويبتهجوا به استلذاذاً وحبوراً، ويتيمنون بذلك اليوم فيجعلونه ميعاداً لمهمّات أشغالهم وختانة أطفالهم وغير ذلك من أعمالهم. ومثل هذا لا يضيع لهم عند ربهم في مرجعهم ومآلهم. وغير مستبعد

والله أعلم أن يكون عملهم على هذه النية مكفّراً لما صحبه من سيىء عمل، لا سيما إذا كان ذلك عن غير قصد منهم ولا عمد.

وقد روي في الإسرائيليات أن رجلاً عصى الله تعالى مائتي سنة في كلها يتمرّد ويجترىء عليه، فلما مات أخذ بنو إسرائيل برجله وألقوه على مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اغسله وكفِّنه وصلِّ عليه في جميع بني إسرائيل، ففعل ما أُمر به، فعجب بنو إسرائيل من ذلك وأخبروه أنه لم يكن في بني إسرائيل أعتى على الله منه ولا أكثر معاصي، فقال: قد علمت ولكن الله أمرني بذلك. قالوا: فاسأل لنا ربك، فسأل موسى ربه فقال: يا رب قد علمتَ ما قالوا. فأوحى الله إليه أن قد صدقوا أنه قد عصاني مائتي سنة إلا أنه يوماً من الأيام فتح التوراة فنظر إلى اسم محمد مكتوباً فقبّله ووضعه على عينيه فشكرت له ذلك فغفرت له ذنوب مائتي سنة.

وروي عن العباس رضي الله عنه أن أبا لهب لما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزِن عليه وأهمّه أمره. فسأل الله تعالى حولاً أن يُريه إياه في المنام، قال: «فرأيته يلتهب في لظى فسألته عن حاله فقال: صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يُروِّح إلا ليلة الاثنين في كل الليالي والأيام فإنه يرفع عني العذاب، قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد رسول الله فجاءتني أميمة تبشرني بولادة آمنة إياه ففرحت بولادته وأعتقت وليدة لي فرحاً مني به فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة الاثنين لذلك» فإذا أدركت رحمة الله تعالى كافراً قطع عمره في عداوته وإذايته بسبب فرحه بولادته فما ظنك بمؤمن صدّقه في مقالته ولبّاه في دعوته؟ جعلنا الله تعالى من أمته برحمته.

وما طلبتم مني من الدعاء للمسلمين فيما أصيبوا به من البلايا أن يفرِّج عنهم ما نزل بهم وأشدّ ذلك إعراضهم عن ربِّهم فلا أدري ما أقول لكم، الخلق كلهم مشتركون في هذا البلاء، فلا ينشرح صدر أحدهم إلى رغبة ولا دعاء، ولو انشرح لكان له في ذلك أعظم العزاء مما دهينا به من فنون الأرزاء. وقد قال بعضهم: أنا من أن أُحرم الدعاء أخْوَف مني من أن أُحرم الإجابة، وهذه

سحابة ستنقشع إما عاجلاً وإما آجلاً. نسأل الله تعالى اللطف في القضاء.

وأما ما ذكرتم من كلام سيدي عبد القادر فالذي ظهر لي فيه خلاف ما ظهر لكم ولهم، ومعنى قوله: «الكبر الطبيعي أسهل من الكبر المكتسب» أي هو أقل ضرراً وأخف شرّاً من الآخر، لأن الكبر الطبيعي قد ينحو إلى معنى التعزز المحمود الذي أشار إليه في ابتداء الكلام، لأن صاحبه إذا صرف وجهته إلى ذلك تمكَّن منه وقدر عليه فيكون كما وصف الله تعالى به الصحابة رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: الآية 29] وإن لم يصرف وجهته إليه لم يؤثر فساداً كثيراً بالنسبة إلى ما يؤثره الآخر. واقتصر الأمر فيه على حد لا يتجاوزه ولا يتعدّاه.

والكبر المكتسب أبلغ في الضرر وأبعد غوراً في الشر لأن صاحبه قبل تعاطيه أسباب الكبر أحقر شيء وأذله وأقله، فإذا وجد شيئاً مما يتكبر به لم يقدر أحد أن يلحق إلى رأسه كما قيل «أنف في السماء وإست في الماء» فلا تسأل عن الفساد الذي يحدث بسبب تكبُّره وتجبُّره، واعتبر ذلك بحال أخسّاء الناس وأرذالهم إذا تولوا ولاية أو تقلّدوا حكماً من الأحكام من المتبربرين والمتحضرين فإنك تجد أحوالهم في ولايتهم بخلاف أحوال رفعاء الناس من ذوي أنساب السلاطين والكبراء من بني مرين، هؤلاء يخشون من العار وأولئك لا يخافون من عار ولا نار، وقد قالوا: «الشريف إذا تنسَّك تواضع والدنيّء إذا تنسَّك تكبَّر» واعتبر أيضاً بحال أغنياء الناس وفقراءهم، إذا استغنوا تجد بين الفريقين اختلافاً عظيماً وتبايناً كثيراً، وقد قالوا: «خذ الدنيا من يد مَن شبع ثم جاع ولا تأخذها من يد مَن جاع ثم شبع».

وما أشرتم به من ارتفاع الخلاف في مسألة الغنيّ الشاكر والفقير الصابر وعدم تفضيل أحدهما على الآخر بالنظر التوحيدي الذي ذكرتم، وتسويتكم بين الفقر والغنى بما ذكرتم معهما من المنع والعطاء والشدة والرخاء في كون كل واحد منهما حالاً ينبغي أن يستحليها كل مَن أقيم فيها خطأ منكم أصابتكم فيه غفلة، لأن الفقر والغنى اللذين وقع الخلاف في أفضلية أحدهما على الآخر أمران يمكن اكتسابهما وتصرُّف العبد في اختيار أحدهما على حسب ما لا

تقتضيه الشريعة والطريقة. وكون العبد غريقاً في بحر التوحيد والجمع لا ينافي هذا التصرف المذكور فيستقيم بقاء الخلاف فيه مع هذا النظر بخلاف المنع والعطاء، والشدة والرخاء، فإن العبد لا مدخل له في شيء من ذلك، ولا طريق له إلى محاولة اكتسابه، فهناك تستوي عنده الأحوال، ولا يؤثر فيها تفاوتاً ولا تبايناً. فإن كان أولئك القوم ظهر لهم هذا الذي قلت لكم فحسن، وإلا فلا أدري ما قالوا ولا بماذا استدلوا.

وما ذكرتم من المشي إليكم ورؤيا الرجلين الصالحين اللذين ذكرتم فالله تعالى يصدق ذلك وييسر أسبابه الظاهرة والباطنة، لأن التنقُّل من حال إلى حال مما تستريح إليه النفس وتجد بسببه الانشراح والأنس، ولكن حيل بيني وبين ذلك بتقييدات وتعلقات من وجه تقول معتبرات، ومن وجه تقول غير معتبرات. وبالجملة فأنا شخص قد استولى عليّ الضعف في القلب والبدن، والوقت على ما تعلمه من الظلمات والفتن. والمقاصد التي يرومها الإنسان غير محققة حصول الفوائد الدينية أو الدنيوية فيها، فإذا تفكر الإنسان في هذا الأمر بقي مبهوتاً لا يدري أين يتوجّه ولا ماذا يفعل، فلا راحة يجدها في الحال، ولا راحة يقدرها في الانتقال، فقلبه مقلع وشمله مصدّع حتى يبلغ الكتاب أجله ويرى كل واحد منَّا ما قدِّر له. هذا حالي في الجملة، وأما التفصيل فالحديث فيه طويل.

وأما فلان فقد كنت ذكرته في الكتاب الطويل الذي بعثت به إليكم قبيل هذا ودعوت له فيه بتمام الراحة والعَوْد إلى الوطن مصحوباً بالراحة والسلامة، ودعوت فيه أيضاً لـمَن قام بأمره وعاناه في شدته وعسره، وذلك لما وجدت عليه من الشفقة على ما أصابه من المرض في بلاد الغربة. وقلت لكم فيه لا أسلم له فيما حدثتْه به نفسه من المجيء إليَّ وكل ذلك شفقة عليه وجلباً للمصلحة إليه، إلا أنه بقي عليَّ من حاله شيء لم يعجبني وتغافلت عن ذلك لما تعلم من حالي، فلما وقع منه تشوُّف إلى أن أسأل عن حاله حسبما قلتم في كتابكم اغتنمت هذا منه ووجدت مفصلاً للتنبيه له كنتم ذكرتم لي فيما تقدم من كتبتكم أنه جاء إلى هنالكم برسم كذا، وأي شيء يفعل بكذا أو كذا حتى يشتت

حاله ويفارق أهله ووطنه ويركب البحار ويقتحم الأخطار، ولو قعد في موضعه وتشاغل بنفسه والنظر إلى مَن تعلق به ويسعى عليهم بكسب يديه وصحة بدنه ولم يتعرض للناس ولم يتصدر لهم بالطلب والحرص ويوقع نفسه من ذلك في بلايا هو في غنًى عنها وكفاية منها، لا سيما في هذا الوقت المسكين الذي لا تقر لأحد فيه عين ولا ينقلب مما يأمله إلا صِفر اليدين لكان أجمل به وأبلغ في الوصول إلى مطلبه «فالقناعة مال لا ينفذ».

وفي الحديث: «**استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك**»(1) وخرَّج مسلم من طريق عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنه بايع رسول الله ﷺ في جماعة، وذكر حديثاً طويلاً: «**أَسَرَّ كلمة خَفِيَّة ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فلا يسأل أحداً يناوله إياه وقد كان بعضهم يسأل منه أن يسأل فلا يسأل ويعطى فلا يقبل**»(2) يروى أن سالم بن عبد الله دخل البيت الحرام فصادف فيه هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: «سل حاجتك» فقال: «إني أكره أن أسأل في بيت الله غير الله» وفي كتاب أبي داود «المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان في أمر لا يجد منه بدّاً» ولقد صدق الذي يقول:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغِنى بسؤال(3)

ورئي بعضهم في يوم قار وهو يرتعد من البرد، فسئل عن ذلك، فقال:

قطعُ الليالي مع الأيام في خَلَق والنَّومُ تحت رواق الهَمِّ والقَلَقِ

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، عن ابن عباس برقم (12257) [11/ 444] ورواه الشهاب في المسند، باب استغنوا عن الناس. . .، حديث رقم (687) [1/ 399] ورواه غيرهما.

(2) رواه ابن ماجه في السنن، باب البيعة، حديث رقم (2867) [2/ 957] ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ذكر من اسمه عوف [47/ 48].

(3) قائل هذا البيت هو أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي أبو إسحاق، شاعر مكثر من طبقة بشار وأبي نواس، توفي في بغداد سنة 211 هـ. [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

أوْلى وأجدر بي من أن يقال غداً — كيف التمست الغِنى من كفِّ مختلقِ
قالوا قنعتَ بذا قلتُ القنوعُ غنًى — ليس الغنى كثرةَ الأموالِ والوَرِق
رضيت بالله في عُسري وفي يُسري — فلست أسلك إلا واضح الطرق[1]

فهذا ما أردت أن أنبِّه عليه وأذكره له، فإن كنت في ذلك مصيباً فالحمد لله، وإن كنت مخطئاً فيه فأنا أستغفر الله. ولولا ما حرَّكني بذلك بما حكيتموه إليَّ عنه لم أذكر له من ذلك كله شيئاً. وإيش المقصود وقت يمضي ولعبة تنقضي ومن ورائها البعث والحساب والثواب والعقاب. والله تعالى المسؤول أن يُصلح أحوالنا ويُنوِّر بصائرنا، وأن يلهمنا رشد أنفسنا بمنِّه وكرمه.

* * *

الرسالة الثالثة عشرة

أما بعد: فقد بلغني كتابكم وتعرّفت منه أموراً لا بد من الكلام عليه على حسب العادة، **منها**: أنكم قلتم عما كان أصابكم من القبض قِبَل ذلك الكلام الذي صدر منكم بقولكم فذكرتُه لكم لتخبروني بالسبب، فقد كنت علمتُ ذلك ولم أتغافل عن التنصيص عليه إلا أني رأيت ذلك الكلام الطويل العريض متضمناً له فاكتفيت بذلك.

وقولكم: لأن إخباري كان على جهة أني لم أرضَ ذلك الكلام منكم ولم أستحسنه واعتقدت فيكم أنكم قلتموه عن هوى. . . إلى آخره، فلم أتوهم أنه وقع منكم شيء من ذلك حتى تحتاجوا إلى تبرئة أنفسكم منه في كتابكم بقولكم: حاشى وكلا، كيف ولو قلتُ لكم المِلح بالنخال لاعتقدت فيكم أنكم تقولون: هذا هو السحر الحلال، فضلاً عن أن تنسُبوا إليَّ ما ذكرتم من التضييع والإغفال والإلغاء والإهمال.

---

(1) جاء في تهذيب الكمال في تراجم الرجال للحافظ المزي: قال لي بشر بن الحارث يوماً وأنشد هذه الأبيات [3/ 62].

وقولكم: وما قصدي إلا لتخرج فائدة، فقد خرجت فوائد كثيرة ولكنكم لم تَعُوها لقولكم: إلا أنه ظهر لي من كلامكم أني حرمت فوائد كثيرة، حتى قلت: يا ليتني لم يصدر مني ما صدر، ولم يمنعني من ذلك ما وقع منكم، وإنما منعني منه أن التكلم على الأحاديث والأخبار لا يؤمن فيه من الخطأ والعثار، ولا سيما من حيثية ذلك المقصد الذي قصده أولئك القوم لأنه يستدعي طويلاً زائداً على المقدار، وتأويلاً لا يتجاسر على ذكر مثله اليوم إلا مَن يَقذِف بالأخبار، ولك أن تضبط هذا اللفظ بفتح الياء وكسر الذال، ونعني به المجنون أو الأحمق، أو بضم الياء وفتح الذال، ونعني به المرجوم لكن لا بالحق. «وماذا عسى أن يجري الفارس الفرس الجواد فكيف مَن هو مثلي راكباً على أبي زياد؟» فرأيت الإضراب عن ذلك أوْلى، نعم، وهو من جهة راحة النفس من تعب الكتْب في طرس أعلى وأبو زياد كنية الحمار، اقتضى سياقتها في المعنى المستعار القافية والمضمار، والمعنى الذي استعير له ذلك هو النظر والفكر والتصرف بفنون العِبَر هي في حق المحقِّق فرس فارِه وفي حق مثلي حمار تافِه، فاعلم ذلك.

وأما قولكم في الاستحلال منهم، فهذا لم يخطر ببالي قبل كتبكم، فكيف بعده؟ يفهم منه أنكم استسهلتم أمر الغيبة، وزادكم استسهالاً لها ما كتبت به إليكم لقولكم: فكيف ينبغي لي أن أستحلّ منهم بعد بيانكم لي ما تضمنه كلامي من الدعاء إلى الله وكذا وكذا، ثم قلتم: فإن فعلت شيئاً من ذلك استحقت أن يباس بكتفي حقيقة. فإن كنتم تعتقدون أنكم براء من تباعة ما وقع منكم من الغيبة فخلاصكم من مفسَدة اعتقادكم لذلك بعيد، واقتداؤكم بي في ذلك لا يفيد، لأني معترف بقلّة الدين، منحرف عن السبيل المستبين.

وإن كنتم تعتقدون أنها في رقبتكم كصياح العام وأنكم تعرّضتم بسببها للعقاب والملام وإنما وقع منكم التساهل فيها بالقياس إلى ما وقع منكم من الاعتراض على القدر والجزع مما أجراه عليكم الواحد المقتدر، فقد تسلمون بهذا الاعتقاد وتستوهب لكم تباعة ظلامتكم في المعاد لكن بشرط أن لا تعلقوا قلبكم بسلامة ولا استيهاب ولا يكون لكم نفس تناضلون عنها باستدفاع ما تعرضتم له من العقاب.

ولهذا الشرط شرط آخر، وهو أن لا تعتقدوا في أنفسكم كونكم على هذه الحال فيكون هذا الاعتقاد عليكم زيادة في الوبال والنكال ويخاف عليكم من الدعوى التي هي أعظم البلوى. فإن شاهدتم سلامتكم من هذا الاعتقاد الآخر وسكنتم إلى ذلك الشهود الظاهر فقد نشبتم في الوحل والطين بعد أن أشرفتم على التخلُّص من الهلاك المبين. وإن لم تسكنوا إليه ولم تعولوا عليه بل كنتم بين الرجاء والخوف وشاهدتم اللطف في عين العنف، فقد سلمتم من حيث لا تشعرون وتخلصتم من تباعات ما تأتون وما تذرون.

وقولي: وشاهدتم اللطف في عين العنف هو بيت القصيد لأنه إشارة إلى الحال التي بها تكمل عبودية العبيد. فإن صاحب هذه الحال لا يسمع بأُذنه ولا ينظر ببصره ولا يتكلم بلسانه ولا يبطش بيده، ولا يمشي برجليه، بل ولا يعقل بقلبه. فإما أن يحبس مقيداً في مارستان أو يجلس على منصّات أهل العرفان. وكلتا الحالتين لا تساوي فيهما الأكوان حبّتين ولا خرُّوبتين لأن صاحبها مشاهد قرة العين.

وقد قيل في معنى قوله تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [طٰه: الآية 40] فأريناك عين الجمع حتى زال عنك ما داخلك من الغم. هذا كله كلام سمح به الخاطر الذي ليس بعاطر، فخذوا أنتم منه الفائدة ودعوا صاحبه لا يحلى منها بجدوى ولا عائدة، نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

وما ذكرتموه عن فلان وفلان فقد علمتَ أن التقليد المسكين يؤول بصاحبه إلى ما هو أعظم من ذلك، لأن المقلِّد بمنزلة الأعمى الذي تتجاذب عصاه الأيدي وهو مع كونه أعمى البصر أعمى القلب لا ينظر إلى حال مَن له يتبع وبه يهتدي. والغالب في هذه الأزمنة الفاسدة أن لا تقع عصاه إلا في يد أعمى مثله، فإما أن يقعا جميعاً في وحل أو يترديان من قنّة جبل أعاذهما الله تعالى من هذه الحالة.

وأما الكتاب الذي أردتم أن تكتبوه له ثم أضربتم عن ذلك فمن سداد العمل لأنه لا يفيد، بل لا يزيد إلا ضرراً ليس عنه محيد، لأنكم تطلعون

فيه وتهبطون وتقولون فيه ما تعتقدون وقد لا تصيبون وتغلطون، ولو كتبتم له بهذا النص لكان أقرب إلى إصابة الغرض من التشفي مما علق بقلبكم من جهته من المرض.

فتقولون من فلان إلى فلان، أما بعد: فقد بلغني أنكم لم تقرؤوا الكتاب الذي بعث به إليَّ فلان وأمرني أن أكتب به إليكم، وقد عزَّ عليَّ ما فعلتم من ذلك لأني أعتقد أنه لا يكتب لأحد إلا بنصيحة يلقيها إليه، وكم من كتاب كتب به إليَّ زال عني بسببه شبه وإشكالات في عقائدي وأعمالي. والكتاب الذي وجِّه إليَّ وطلب مني أن أكتب إليكم بنسخة منه، وإن كان متضمناً لخشن الكلام، ولكنه لا يخلو من فائدة، ونصيحة لا ينبغي أن يلغى ولا يُهمل. لقد عزَّ عليَّ ردكم له وأكربني، ولو رددتم كتابي عليَّ لكان أهون عليَّ من ردكم لكتابه لأن له منزلة بقلبي لا يبلغها غيره، فلذلك تجاسرت على الكتْب به إليكم، ولو أنكم كتبتم إليَّ بمثله وأمرتموني أن أوجِّه به إليه لبادرت إلى ذلك ولم أحتشم منه. فما الذي يمنعكم من قراءة كتاب فلان مع أنه لم يبلغني عنه إلا محبة الخير لكم وتكرار ذكركم؟ وهلّا نزلت قراءته بمنزلة تأشمّست لأني أعهدكم تذكرون في بعض الأوقات التي يخلو فيها سركم وتتفرغون من شغلكم أو تسمعون من يذكره ما يجري بين القبائل من المعارك والحروب وغير ذلك، فلا أقل من أن تجعل قراءة كتابه بمنزلة ذلك، لقد شقّ ذلك عليَّ كثيراً.

فإن قلتم إنه حاد عن طريقة سيدي الحاج ابن عاشر ـ رحمه الله ونفع به ـ فإن الله حليم لا يعجل، ومَن الذي بقي على طريقة سيدي الحاج حتى يبقى هو عليها؟ وقد كنتم مواصلين له قبل وفاة سيدي الحاج وبعده مع علمكم بأنه لم يتّبع طريقته اتِّباع غيره بل كان في أكثر أحواله أمة واحدة، ثم مَن لكم اليوم بمثل سيدي الحاج؟ أو مَن يتّبعه حذو النعل بالنعل في هذه الأزمنة الفاسدة؟ لو فتشتموه بالفتيلة لم تجدوه. فينبغي أن يعطى لكل زمان حقه ولا تحملوا القط حِمل الجمل.

وإن ظهر لكم أن ذلك الكتاب إنما بعثه عليه باعث الهوى فلذلك لم ينبغي لكم أن تقرؤوا كتابه فإن الرجل أعرف فيه إنصافاً إذ يفعل ذلك معي في

كتب كثيرة يعلِّمني فيها بعلم أو يأمرني فيها بأمر فأجده يتحرّى في ذلك غاية التحرِّي ويحتاط غاية الاحتياط ويقول لي: هذا ما فهمت وانظر أنت لنفسك، وأنا قاصر في نظري وبليد في ذهني أو ما معناه. هذا يفعل هذا معي وكثير من المسائل، وإن شئت أن أطلعك على ذلك أطلعتك، والإنصاف في الإنسان اليوم حال الكمال، وأي الرجال المهذب؟ ولو طلبتَ اليوم وجد أنه لأعوزك. فهذا ما عرض لي أن أقوله لكم، وبعدما جاءني فلان وأكربني بذلك الكلام ولكم الفضل في تصفُّح ما كتبته لكم ومجاوبتي عليه، والله تعالى يدلكم على أرشد الأمور، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

فهذا كله هو اللائق أن تكتبوا به إليه إن أردتم ذلك، لكن ما صدر منه ومن غيره لم أبال ولم أعبأ به. وتقول العامة: «كل شيء يهون إلا الغزل المعفون» وإنما كان يعز عليَّ ما ذكرتم من حال فلان لأني كنت ربّيت عنده طبقة في الكتاب الأول الذي كنت كتبته له أول مرة وعمرت عنده حانوتاً حتى حمله ذلك على أن وعدني بموعد رأيته منيتي وسألتْ عليه لعبتي وهو إن شاء أن يخبركم به أخبركم، فلم آمن إذا مشى إلى فلان أن يذكر له ذلك فيرده عما كان نواه بمقاله، أو لا يذكر له ذلك فيصرفه عن ذلك بلسان حاله، ولسان الحال أفصح من لسان المقال.

هذا كله إن بطل اعتقاده فيَّ وسقطت من عينه، وإن لم يبطل اعتقاده ولا أسقطني ذلك من عينه بل كانت لي عنده حالة ليس بها بأس «فشاشيتان لا تسعان في رأس» لأن فلاناً تمسّك بأشياء أطلقتها أنا من يدي وتمسكت أنا بشيء ربما أطلقه من يده أو لم يهتدِ إليه ولم يعثر عليه. وعلى كلا التقديرين، أعني إن بطل اعتقاده أو لم يبطل، لا يصح له إنجاز موعدي ولا إبلاغ مقصدي، ومَن هو قليل السعد ما عنده ما يعمل.

وهذا كله مزاح معكم ومعه إذا قرأتموه عليه ولم تعرضوا عن مجالسته والإتيان إليه حسبما أعرض هو لما وقع عندكم من التخليط وقام بينكم من البليط، حتى آل بكم إلى الدخول فيما لا يعني بما حكيتموه عن فلان إذ نسب إليه أمر لا يتحقق ولا يستبين، ولا ينكر عليَّ المزاح بمثل هذه الأشياء، فإن

ذلك عادتي التي تعوّدتها معكم، وفراق العادة صعب، ومَن أتبعها فيما يجوز ويُستحسن ليس عليه عتب، وإلا فهذه الأحوال التي نقلت عنه وعن غيره أو يمكن أن تصدر من التقلب والتلوُّن والتخليط والسقوط من العين وعدم إنجاز الموعد وتعويق المطالب لو لم تقع في الوجود، ولا كان لأولئك القوم على التقليد جمود، بل كان لهم في جهتَيْ اعتقاد حسن وحال مستحسن، فإنه يكون أحب إليّ مما قاله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لنافع مولاه: «لو حفظت عني كما يحفظ عكرمة عن ابن عباس لكان أحب إليّ من أن يكون لي درهم زائف» قيل له: «أفلا جعلته جيداً؟» فقال: «هكذا كان في نفسي».

ويكون أيضاً أحب إليَّ مما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لرجل دخل عليه وعنده بنون ثلاثة كأمثال الدنانير فجعل ينظر إليهم ففطِن له عبد الله، فقال: «كأنك تغبطني بهم» فقال له: «وهل يغبط الرجل إلا بمثل هؤلاء؟» فرفع عبد الله رأسه إلى سقف بيت له قصير قد عشّش فيه خطّاف، فقال: «لأن أكون نفضت يدي من تراب قبورهم أحب إليَّ من أن يقع بيض هذا الخطاف فيتكسّر». وبينما هو يوماً في صفة له وتحته فلانة وفلانة امرأتان ذواتا منصب وجمال وله منهما ولد كأحسن الولد، إذ شقشق على رأسه عصفور ثم قذف داء بطنه فنكثه بيده، فقال: «لأن يموت آل عبد الله ثم أتبعهم أحب إليَّ من أن يموت هذا العصفور».

فإذا كانت أعمالهم الموافقة وصفاتهم المرضية ومعاملتهم الحسنة معي بتلك المثابة عندي من الدرهم الزائف وتكسُّر البيض وموت الطائر، فإن ما خالف هذه الأحوال منهم يكون عندي من تلك النسبة، فلا جرم لا أقبح لهم قولاً ولا فعلاً ولا أعاتبهم جداً ولكن مزحاً وهزلاً، وهذا كله تقرؤونه عليه إن أردتم سلامتي وسلامتكم من التباعات والآفات وإلا فقد هرب الذي قاله ومات، والله تعالى ولي العفو والمعافاة.

وأما ما ذكرتم أنه نُسِب إلى زيد أو عمر من اعتقاد أفضلية موسى عليه السلام على نبينا محمد ﷺ، فهو من الأمور الشنيعة والأحوال الفظيعة التي

تشمئز القلوب عن سماع ذكرها وتَشْرَئِبّ إلى تغطية عُوارها وسترها، ولعل ما اتّهم به من ذلك لم يصدر منه ولا صحّ بنقل الثقات أو غير الثقات عنه، لأن هذا مذهب ركيك يشبه الكفر ـ أو قل هو هو ـ أو قل هو له شريك. فإن اعتقاد مثل هذا موجب لمعتقده وجود التهمة لنبينا ﷺ في أمرين كلاهما هو منزَّه عنه، **أحدهما**: أن يقع منه نوع غش لأمته بتلبيس حالته، **والثاني**: أن لا ينصح لأهل دعوته في تبليغ رسالته. وإذا أدى هذا المذهب إلى وقوع هذين المحذورين قطعاً كيف يلتفت إليه مؤمن موحِّد مصدِّق بنبوة نبينا محمد ﷺ؟ فإنه يَكُرّ على إيمانه وتصديقه بالبطلان فيكون حينئذ بمنزلة ما قيل: «ساق جزارو على حمارو».

ثم إنه إذا طولب على صحة مذهبه بدليل صحيح أو سقيم لا يجده، وغايته أنه يحتج على ذلك بآيات مطلقة تحتمل التقييد أو عامة تقبل التخصيص لا يحصل في اليد منها إلا دلالتها على أن موسى عليه السلام شريف المنزلة رفيع المرتبة حيث لا يلحقه في ذلك كثير من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. ولو لم يكن في ذلك إلا تكرار ذكره في القرآن وسَوْق قصصه وأخباره في مواضع كثيرة منه، ومَن أحبّ شيئاً أكثر من ذكره. لا أنّ فيها إشعاراً بأفضليته على محمد ﷺ حاشى وكلا، وليت صاحب هذا المذهب ـ إن صحّ عنه ـ توقف عن التفضيل بحيث لا يرجِح أحدهما على الآخر في كثير ولا قليل، ومع ذلك لا يسْلم من الوقوع في الضلال والتضليل لما فيه من إطفاء نور الله وتمزيق خُلَعه وكُفران نِعَمه.

وما أشبه هذه النازلة ـ لو صحّت ـ بمنزلة رجل فقير يتطلب وقع هنا بيدي فيما سلف كان يفضّل علياً على أبي بكر رضي الله عنهما، لكن كان لا يصح بذلك بل كان يعرض به كثيراً، فإذا سمع أو ذكر عنده خبر من أخبار علي رضي الله عنه يظهر عليه من الهزّة والسرور والاستبشار ما لا مزيد عليه، وإذا سمع أو ذكر له خبر من أخبار أبي بكر لم يرَ عليه شيء من ذلك، فكنت أشمّ عليه رائحة البدعة. وشبه هذه المسألة بالتي ذكرناها شبه صوري وإلا فبينهما بون بعيد في المعنى. وما أحسن ما دعا به فلان حين ذكرتم له تلك القصة، فقال: نسأل الله

العافية، فإن ارتكاب المرء في ضلاله وجهله أقرب إليه من شراك نعله. فنسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة، إنه ولي حميد.

فإن قلت: ما قدّمتم ذكره من أداء هذا المذهب إلى المحذورَين المذكورَين أمر مجمل لا بيان فيه لذلك فعساكم تبيِّنون ذلك بياناً شافياً نخرج به من التقليد الذي هو عندكم من ثلج الصدر بعيد، لا سيما في هذه المسألة التي يعظم فيها الخطر ويكثر الضرر، وقد كنت أظن أن الأمر في ذلك لا يبلغ إلا الفساد في الاعتقاد، ولم يتعرض لهذا المذهب أحد باعتراض ولا انتقاد «وبرأس الأحمق يجاز الواد».

فأقول: عليَّ بيان ذلك بتوفيق الله ومعونته، أما المحذور الأول من الغش للأمة والتلبيس للحالة ثم يؤول ذلك إلى الطامة التي نذكرها فهو لازم عن هذا المذهب طوق حمام، لأن النبي ﷺ من لدُن مبعثه إلى أن استأثر الله به لم يزل يسمع على لسانه من الأخبار وما أُنزل عليه من كلام الجبار ما يؤذن ظاهره باختصاصه بالمرتبة العليا وأفضليته على جميع الأنبياء الشيء الكثير الذي لا يأخذه حصر ولا تقدير، ووجود هذا مقطوع به، فلو كان هذا المذهب صحيحاً لكان فيما صدر عنه مما ذكرنا غاشّاً لأمته ومُلبساً عليهم، لأنه يكون حينئذ أبطن خلاف ما أظهر وستر ما كان يجب أن يشهر، وهذا مما ينزّه عنه آحاد العقلاء الفضلاء، فضلاً عن خيرة الأنبياء، ثم إنه إذا أطلع مطلع يوماً ما على أفضلية موسى عليه السلام عليه ربما نسبه إلى الحسد له والنفاسة عليه فيكون حينئذ من مقتضى شفقته على أمته أن يحفظ منهم موضع هذه الفتنة بأن يشهر أمر موسى عليه السلام يشيع بينهم أفضليته عليه وهو ﷺ لم يفعل شيئاً من ذلك، ولو كان لنُقل، ولو نُقل لبلغنا كما بلغنا حديث الرجلين الأنصاريين اللذين حفظ النبي ﷺ موضع الفتنة من قلوبهما، وقال لهما: «**إنها صفية**» وهذا الحديث مشهور، وليس ما نحن بسبيله بأقل موقعاً من هذا، ولا ما يؤول إليه هذا من المحذور بأشد مما يؤول إليه ذلك، وغاية ما وقع منه ﷺ قوله في قصة اليهودي الذي قال بحضرة رجل من الأنصار: «والذي اصطفى موسى على البشر» ثم لطمه الأنصاري وقال: «تقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهارنا» ثم

رفع ذلك إليه: «**لا تفضِّلوا بين الأنبياء**»[1] أو «**لا تخيِّروني على موسى**»[2] وهذا لا يدل على ثبوت الأفضلية لموسى عليه السلام والله تعالى أعلم بالحكمة في نهيه عن ذلك. هذا كله إن صدر منه كلام يقتضي ظاهره وجود الأفضلية له ﷺ ويكون باطنه بخلاف ذلك.

وأما ما صدر عنه من كلام تكون فيه نصوصية على الأفضلية فينضاف إلى هذا المحذور فيه نسبة وقوع الخلف في القول إليه في إخباره بذلك، إما لمصلحة أو لغير مصلحة، فيؤدي ذلك إلى أن لا يوثق بقوله ولا ما يأتي به عن ربه من أمر أو نهي أو خبر لتجويز وقوع ذلك فيه، وهذا أمر عظيم، وليس لقائل أن يقول: لو لم يخبر بأفضليته ومرتبته وثبوت مزيّته لم يستجب له أحد إلى آخر الأبد، لأنَّا نقول بعد تسليم إنه يجوز وقوع مثل هذا منه لأجل هذا الغرض مع أنه ليس كذلك، وحاشاه من ذلك المقتضي للاستجابة له واتباعه دعواه للنبوة مع ظهور المعجزة على يديه فقط.

وأما الإخبار بالمزيّة والأفضلية والمرتبة فلا مدخل له في ذلك. وليت شعري الأنبياء المتقدمون عليهم الصلاة والسلام ما عدا موسى عليه السلام على مذهب الخصم لما أخبروا أممهم بحال نبينا محمد ﷺ وأفضليته عليهم، هل أثر ذلك في صرف مَن لم يتبعهم من أممهم عن اتباعهم؟ ومعلوم أنه لم يؤثر ذلك في صرف، إذ لو أثّر في ذلك ما أخبروهم به، وإخبارهم بشأنه معلوم على القطع. وأيّ فرق بين إخبار النبي بأفضلية مَن يأتي بعده أو إخباره بأفضلية مَن تقدّم قبله؟ فلما لم يؤثر إخبار السابق في الزمان بأفضلية اللاحق فيه في عدم اتباع ولا استجابة، لم يؤثر إخبار اللاحق بأفضلية السابق في ذلك بل التأثير في إخبار السابق بأفضلية اللاحق لو تصوّر لكان أشد لأن من حجة المدعو أن يقول: إنك أيها النبي بزعمك أخبرتني أن نبياً أفضل منك يأتي بعدك فدعني

---

(1) أورده علي القاري في مرقاة المفاتيح، الفصل الأول، حديث رقم (5709) [10/ 381].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي، حديث رقم (2280) [2/ 849] ورواه مسلم في صحيحه، باب من فضائل موسى عليه السلام، حديث رقم (2373) [4/ 1844] ورواه غيرهما.

أبقى على حالي فلعلي ألحقه وأتبعه ولا حاجة بي الآن إلى اتباعك مع أن ثَمَّ مَن هو أفضل منك. وإذا أخبر اللاحق بأفضلية السابق أيّ شيء يقول المدعو؟ فيلجئه الحال إلى أن يتبعه شاء أم أبى، إذ لا مطمع له في لقاء مَن تقدمه وفاته.

فثبت بما ذكرناه أنه لا يصح لقائل أن يقول هذا القول، بل نزيد ونقول: الذي يناسب إخبار النبي بأفضليته أن لا يتبع ولا يستجاب له، لأن أهل الرياسة من أمته لا ينسبونه إلا إلى التكبُّر والترؤُّس عليهم، فلا تسمح نفوسهم لما هم فيه من التكبُّر وشموخ الأنف أن ينقادوا إلى مَن يشاركهم في الرياسة والتكبُّر. وعدم إخبار النبي بأفضليته أو وجود إخباره بأفضلية غيره عليه هو الذي يناسب اتباعه والاستجابة له لأنه ينسب في ذلك إلى التواضع والإنصاف ومعرفة قدر لذوي الأقدار.

ألا ترى أن أهل الرياسة من قريش إنما كفر مَن كفر منهم بنبينا محمد ﷺ وحسده مَن حسده منهم بمجرد سماعهم لقوله: «**أنا رسول الله إليكم**»[1] حتى قال أبو جهل: «تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، أطعموا وأطعمنا وكذا وكذا حتى إذا كنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبيّ يوحى إليه، فمَن الذي يلحق هذا؟» وقالوا: «كيف يكون يتيم أبي طالب رسول الله؟» ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزّخرُف: الآية 31] ثم رموه بالعيوب ونسبوا له أنواعاً من النقائص والآفات، فقالوا: شاعر وساحر ومجنون ومفترٍ كذّاب. ذلك نقش فصّ بصرهم لا لونُ وجهك صلّى الله عليك.

وقد كان عندهم قبل أن يدّعي هذه الدعوى ويقول هذه المقالة، صدوقاً مقدَّماً أميناً معظَّماً، فما ظنك لو قال لهم: «**أنا سيد ولد آدم**»[2] أو أنا خيرة

---

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر تذكيب المشركين رسول الله ﷺ. . .، حديث رقم (6564) [14/ 522] ورواه أبو يعلى في المسند عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، حديث رقم (7353) [13/ 337] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، حديث رقم (2287) [4/ 1782] ونصه كاملاً: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع» ورواه غيره.

الأنبياء والرسل، أو ما أشبه هذا؟ فلو وجد الرسول ﷺ إلى دعوتهم سبيلاً من غير أن يقول لهم: «**أنا رسول الله إليكم**»(1) ما قال ذلك ولا فاه به ولكن لا سبيل له إلى ذلك. ولما قال ذلك الغلام الذي قدّم إليه العنب في الطبق: «أنا من أهل نينوى» قال له النبي ﷺ: «**قرية الرجل الصالح يونس بن متى**»(2) فقال له الغلام: «وما علمك بيونس بن متى؟» قال له النبي ﷺ: «**هذا أخي، أنا نبي وهو نبي**»(3) ولم يزده على ذلك. وهذا كان شأنه في ابتداء الإسلام، والله تعالى أعلم، أعني الاقتصار على الدعوة والإخبار بالرسالة فقط.

فلما تمكَّن الإسلام واستحكم أمر الإيمان وظهر دينه على جميع الأديان صدع بما أُمر به من الإخبار بمنح الرحمٰن وهبات المنّان، ولم يحفل في ذلك بمَن برق ورعد، ولم يبالِ بمَن قام وقعد ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضّحى: الآية 11] فهذا آخر الكلام على أحد الوجهين المحذورين.

وأما المحذور الآخر وهو كونه ﷺ لم ينصح في دعوته وتبليغ رسالته، فهو لازم من هذا المذهب السخيف لأن ممن حادّه وشاقّه وناصبه الحروب وكايده بالمكائد وبذل جهده في المعاداة والمباعدة والمضادّة والمعاندة اليهود، لا سيما الرؤساء منهم ككعب بن الأشرف وابن أبي الحُقَيق وحُيَيْ بن أخطب وغيرهم، ولو كان هذا المذهب صحيحاً لم يبلغ بهم الأمر هذا المبلغ بل ربما أذعنوا له وآمنوا به واستجابوا لدعوته، لأن النبي ﷺ كان يمكن أن يستألفهم ويزيل نفورهم وأنفهم بما يذكره لهم من أفضلية موسى عليه السلام عليه، لأن ذلك يقع منهم موقعاً عظيماً وينسبونه في ذلك إلى الإنصاف لما يسمعونه منه من الإقرار والاعتراف، ومعلوم من حال النبي ﷺ كان يتلطّف في الدعوة ويستألف القلوب النافرة بكل ما يمكنه مما له أن يفعله حتى لا يبالي في جنب ذلك بفوات حظوظه التي لا ينقصه نيلها من مرتبته الرفيعة حبة خردل، وبلغ على

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه الطبري في التاريخ، ذكر الخبر عما كان من أمر نبي الله عند ابتداء أمره [1/ 554] ورواه ابن كثير في البداية والنهاية، في ذهابه إلى أهل الطائف [3/ 136] ورواه غيرهما.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

حرصه على هداهم مبلغ الهلاك والسماحة بالنفس. قال الله عزّ وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشُّعَرَاء: الآية 3] أي قاتل نفسك، وقال عزّ من قائل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: الآية 6]. . . الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وكان يبذل لهم الأموال ويعاملهم بالحسن من المقال والفعال، فإذا كان حاله في الاستئلاف ما ذكرناه كيف يمكن أن يبخل على بعض أهل دعوته بكلمة يأخذ بها من قلبه ويُفل بها من غربه؟ ومعلوم أن شيئاً من ذلك لم يقع له ﷺ بل تركهم تتلظى صدورهم من الحقد والحسد، وتتفتّت قلوبهم من الأسف والكد، ولم تُدركه عليه الصلاة والسلام بسبب ذلك عليهم رحمة، ولا كشف عنهم بكلمة توافقهم ويرضون بها عنه غمّة، بل واجههم التقبيح والتعيير وقال لهم: «**يا إخوة القردة والخنازير**» ثم بعد ذلك حكَم فيهم السيوف وجرّعهم كؤوس الحتوف.

وقد كان ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم ينزل عليه فيه وحي، وليس ذلك إلا لما ذكرناه من الاستيلاف والمناظر أبداً إذا وافق خصمه على شيء من مذهبه وما قال به لم يتباعد عنه كل التباعد، وأمكنه أن يستجره بذلك إلى أن يقول بقوله، ويتبعه في رأيه، ويشبه مسألة المناظر، وإن كان من حق الأدب أن لا تذكر في هذا الموطن مجرّدة عن الاعتذار أنَّ مُسيْلمة الحنفي لم يمكنه أن يدّعي الاستقلال بالنبوة في زمن رسول الله ﷺ حتى شرك نفسه معه واحتجّ لدعواه بكلمة قالها النبي ﷺ في جهته، إذ كان قد وفد عليه في جملة مَن وفد عليه من قومه، وإنما قصد بذلك أن يستجرّ إلى ضلاله مَن آمن بمحمد ﷺ واتبع دينه، والنبي ﷺ لم يفعل شيئاً من ذلك، بل لم يزل ﷺ صادعاً بخصوصيته ومخبراً بأفضليته شاء مَن شاء، وأبى مَن أبى. فكان يقول: «**أنا سيد ولد آدم**»[1]، و«**أنا سيد الناس**»[2]،

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبداً شكوراً، حديث رقم (4435) [4/ 1745] ونصه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم =

= فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا، فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سمّاك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول: إن ربي عزّ وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلّمت الناس في المهد صبياً اشفع لنا ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمد ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله عليّ من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سَلْ تُعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أَدْخِل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال: «**والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبُصرى**».

و«آدم ومَن دونه تحت لوائي»[1]، و«لو كان موسى وعيسى حيَّين ما وسعهما إلا اتباعي»[2]، «رحم الله أخي فلان، ورحم الله أخي فلان، ورحم الله أخي فلان»[3]، و«أُعطيتُ خمساً أو ستّاً أو سبعاً»[4] وكم من هذا وكم، ولو لم يرد عنه في ذلك إلا حديث الشفاعة الطويل لكان في ذلك ما يشفي الغليل، فلا جرم ثلجت بإخباره بذلك صدور المؤمنين ووافقت على الشهادة له بذلك بصائر العارفين لأنهم لما خصُّوا به من الشهود والاطلاع على أسرار الوجود علموا أن محمداً ﷺ هو لباب اللباب وأن سببه من الله تعالى أقرب الأسباب، فسلكوا بذلك الصراط المستقيم ولم يحتاجوا إلى تطلب حديث صحيح ولا سقيم، كما احتاجه أولئك القوم حسبما أخبرتم به.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[5]

فهذا ما أردتُ أن أذكره لكم في شأن غلط مَن تمذهب بهذا المذهب الرديء، ولعل صاحبنا من ذلك بريء، وإنما طولت الكلام في هذه المسألة وإن كان من حقها أن لا يسلك فيها مسلك المناظرة في الأمور المشكلة وأن يقتصر مع كل مَن صحّ أن ذلك من مذهبه من عقوبته وأدبه على ما هو اللائق به، لأن هذه هي عادتي معكم في كثير من الكتب أتفنن في العبارات الكثيرة وأذكر الكلام الطويل في الحجة القصيرة، فاقبلوا في ذلك العذر واسألوا الله تعالى العفو والغفر.

---

(1) رواه أحمد في المسند عن ابن عباس، حديث رقم (2546) [1/ 281] ورواه أبو يعلى في المسند عن ابن عباس، حديث رقم (2328) [4/ 215] ورواه غيرهما.

(2) أورده أبو الفرج عبد الرحمٰن الجوزي في المدهش [1/ 125].

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، حديث رقم (427) [1/ 168] ورواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (521) [1/ 370] ورواه غيرهما.

(5) أحد أربعة أبيات للمتنبي: أحمد بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي أبو الطيب المولود سنة 303 هـ والمتوفى سنة 354، والأبيات من البحر الوافر وتفعيلته:
بحور الشعر وافرها جميل مُفاعلتن مُفاعلتن فعولُن
[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

وأما الوسوسة التي ذكرتم أنها تصيبكم في جانب الربوبية فلا أدري من أين تجيئكم الوسوسة في ذلك، لأن الوسوسة إنما تعتري أصحاب الرسوم الذين لهم عند أنفسهم معقول ومفهوم، فلا جرم يجدون الوسوسة المنوعة والمجنسة لأنهم لا يفارقون التوهُّم والتشبيه والتمثيل. وأما أصحاب الحقائق وأهل السلوك لطريقهم فلا يصيبهم شيء من ذلك لأنهم في نظرهم أشباح خاوية لا ينعمرون إلا بما عمّرهم به مولاهم، ولا يرون إلا ما أراهم ربّهم الذي تولاهم، وليس ذلك إلا الحق الصريح والعرفان الصحيح. فلا يحوم حولهم وسواس ولا يصيبهم شك ولا التباس.

وما ذكرتم في مسألة الأولاد وأنكم تتشكُّون منهم في كونهم لم يسوقوا لكم شيئاً وأنكم لا تطلبون منهم، وأن الاضطراب لم يزايلكم لأجل ذلك، فذلك منكم دليل على ضعف كثير واستيلاء خَوَر وجبن، ثم ظهر لي منكم في كلامكم أنواع من الجهالات لم تفارقكم.

منها: كونكم عملتم على أن لا تطلبوا منهم شيئاً وليس هذا بمقام يليق بحالكم على ما أنتم عليه من الضعف.

وقولكم: فمرّة أرجح الطلب ليسكن اضطرابي، جهالة أيضاً، فإن الاضطراب لا يسكن بالطلب وإنما يسكن بالثقة بالله عزّ وجل، وسواء طلبت أو لم تطلب.

وقولكم: ومرة أقول لا أطلب، ما لي فيه رزق لا بد أن يصل إليَّ، جهالة أيضاً مثل الأولى.

وقولكم: فتغلب هذه الحالة عليَّ لكن الاضطراب لا يفارقني، جهالة أيضاً لأن غلبة هذه الحال لا تكون إلا بوارد قوي يستوفي العبد، ولذلك لا يكون له اضطراب، ولعلكم تعنون بتلك الغلبة أنه يخطر لكم ذلك فتعملون عليه وتتكلّفونه ولذلك لا يسكن معه الاضطراب لأنه ليس لكم بمقام. وكذلك شكواكم إلى مَن تشكون إليه جهالة أيضاً إلا إذا كانت على ظاهر اللسان من غير أن يحملكم على ذلك باعث قلبي، لأن مزاولة هذه العلوم وتردادها على

الخاطر يفيد القلب سروراً ويُكسبه نوراً فلا يكون حينئذ فيه مساغ لشكوى، لأن منشأ ذلك إنما هو ما يصيبه من الغمة والظلمة.

وقولكم: فأي الحالتين أوْلى الطلب منهم والاجتهاد فيه مع السكوت عن التشكِّي أو السكوت مع التشكِّي؟ جهالة أيضاً، وأي إشكال في هذا حتى تسألون عن الأولية بين هاتين الحالتين، ولا خير في كل واحد منهما. والوجه أن تطلب اتِّباعاً للسنَّة وفراراً من الدعوى في ترك الطلب وتسكت عن الشكوى، إما لأنها لا تفيد، وإما لأن فيها نوع تسخط لأقدار الربّ المجيد.

وقولكم: وقد يحصل مع السكوت في بعض الأوقات المجاهدة حتى أسكت عن التشكي، فليس هذا من مواضع المجاهدة في شيء، والمجاهدة إنما تكون محمودة إذا ثارت النفس بشهواتها ودواعيها بعد قيام العبد بما يجب عليه من أحكام الشريعة والحقيقة، فإن مات في جهاده هذا مات شهيداً وإن مات في الجهاد الذي ذكرتم مات جيفة.

وقولكم: ويتبين لي قبح حالي، صحيح أنه قبيح، فإن كان يتبين لكم قبحها من الوجوه التي أشرت لكم إليها فقد هُديتم إلى الصواب وإلا فلا أدري ذلك.

وقولكم: فأخمد وأستحيي وأخزي نفسي، جهالة أيضاً ولكن لا على مذهب عامة الناس. وقد أشرت لكم إلى ذلك في مواضع من كتب.

وقولكم: مع أني أقول إن جميع هذه الجهالات التي أنا فيها لو كان هنا فلان لكنتُ كذا وكذا من أعظم الجهالات، أرأيتَ لو مات فلان ذلك ما الذي كنت تصنع فما كنت صانعاً إذ ذاك فاصنعه الآن، ثم إن فلاناً لو كان عندك حاضراً وبائتاً وقائلاً لم تطمع منه أن يذكر لك عُشر مِعشار ما يرسمه لك في الكتب ولا أكثر تدقيقاً وتحقيقاً منه، ولك أن تقول للحضور معنى زائد لا يتصور وجدانه في حال المغيب، وخذ ذلك من شأن المحب مع الحبيب.

ولما كتبتُ ما تقدّم ورد عليَّ كتاب منكم تخبرونا فيه بأمور، منها قصة ذلك الرجل وكيف لقيه زيداً وعمرو وما الذي قاله له، وقد وجدت في خاطري غلبة ظن بما نسب إليه إلا ما ذكرتم عنه في هذا الكتاب من قوله: إن الأنبياء

كلهم ما يفضّل بعضهم على بعض، فإن هذا خلاف ما فهم عنه، وهو أيضاً ضلال لا ينبغي أن يلتفت إليه، كيف والأفضلية بينهم ثابتة بنص القرآن؟، **وقوله**: لأن مشوبهم واحد، قد يكون ذلك صحيحاً ولكنه لا يقتضي نفي الأفضلية. **وقوله**: لكن لا ينبغي له أن يقول إلا أنه أفضل من الذي قبله ليحصل لمتبعيه تعظيمه وإلا لم يتبعوه، كلام لا يساوي سماعه، وقد تقدمت الإشارة إلى وجه فساده ولا بأس إذا وقعت المفاوضة معه في هذا أن تتلطفوا في إطلاعه على كلامي في ذلك، إما من جهة فلان أو غيره لأرى ما الذي يجيب به، والاطلاع على الأمور فيه راحة.

ومما تعرفت منه ما ذكرتم من سؤاله عن تفسيره قوله: «**الشرك في أمّتي أخفى من دبيب النمل**»(1) وتفسيره هو بقول من حكاه عنه: «الشرك فيمن ائتمّ بي وقلّدني» فهذا تفسير لا أفهمه، فإن كان أشار به إلى المذهب المذكور وأن نفس الائتمام به والتقليد له شرك أخفى من دبيب النمل لثبوت الأفضلية لغيره فهو تفسير منكر وإلا فلا أدري ما هو. وإنما المفهوم في تفسيره أن كون «الشرك في أمّته أخفى من دبيب النمل» إنما هو من حيث علو مقدارهم ووفور أنوارهم بخلاف غيرهم من الأمم. فإن الشرك فيهم جليّ أو خفيّ لكن ليس بأخفى من دبيب النمل، ويكون ذلك الكلام مسوقاً في معرض المدح لهذه الأمة لا كما يحتجّ به أكثر الناس ويسوقونه في معرض الذم. وإنما وُجد هذا النوع من الشرك فيهم وهم على هذا الحال لأن الواصلين منهم إلى صرف التوحيد قليل، وذلك هو الذي يوجب انتفاء وجود الشرك الجليّ والخفيّ وما هو أخفى من الخفيّ، وهو من الهبات السَّنية التي لا ينبغي أن يسقط مَن فقدها عن درجة الخصوصية، هذا هو الذي ينبغي أن يفهم في معنى الحديث. وقد نبَّه بعض علماء الصوفية على أن الحديث مسوق في معرض المدح ولكن لم يحرره هذا التحرير الذي قلناه.

---

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء من طريق حسان بن أبي سنان [3/ 114].

وأما ما سألتم عنه من كلام أبي يزيد، وذكرتم عن ذَيْنك الرجلين أنهما سمعاه في «الحلية»، فإن ذلك الكلام لم أره في النسخة التي بيدي من «الحلية» ويبعد أن ينقله عنه فيها لأنه اشترط أن لا يذكر من كلامه إلا ما ليس ببعيد عن الفهم أو ما معناه هذا، وهذا الكلام الذي حكيتم عنه لا ينبغي أن يفهم على ظاهره بل لا بد من تأويله بأن يقال: عجبتُ لمَن عرفه كيف يرى عبادته له؟ لأن المعرفة تبطل هويته وتمحو أنيته، وأظنّهما رأيا ذلك الكلام أو سمعاه في المجموع الذي ألّف من كلام أبي يزيد رضي الله عنه.

وأما ما سألتم عنه من قول رسول الله ﷺ للصحابي: «**عرفت فالزم**»[1] فمعناه ـ والله أعلم ـ وصلت إلى عين اليقين الذي تنبني عليه أعمال المتقين فالزم تلك الأعمال ودُم عليها، وأعطِ الأدب حقه، ولا تتطلّع إلى ما وراء ذلك حتى يكون الله عزّ وجل هو الذي يتولّى ذلك لك كما تولى لك ما قبله، وحينئذ يكمل لك مقام العبودية وتصل إلى صريح الحرية.

الرسالة الرابعة عشرة

وقد بلغني منكم أربعة كتب، الأول منها عامة ما فيه مكرر قد تقدم منا لكم التكلم على ما احتيج إلى التكلم عليه من فصوله، إلا أنكم لما أخذتم في تقرير بعض المسائل التي تكررت في غيره استفدت من سياقتها أموراً لم أستفدها من الكلام المتقدم لكم. **منها**: الوصية التي وصّى بها ذلك الإنسان ولده عند اشتداد مرضه، وتلك الوصية والنصيحة لم يجىء بها تاريخ بل هي من أعاجيب الزمان ونوادر الأيام. **ومنها**: ما ذكره فلان من أنه علق بقلبه شيء من مذهب ذلك الرجل لكنه دفعه فاندفع. **ومنها**: جوابه له لما سأله: هل رأى شيئاً

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، عن الحارث بن مالك الأنصاري، حديث رقم (30426) [6/ 170] ورواه الطبراني في الكبير، عن الحارث بن مالك الأنصاري، حديث رقم (3367) [3/ 266] ورواه غيرهما.

استحسنه إذ قال له كلام فلان على ابن عطاء. وهذا مما لعله يوجب لي حصول الفرح إذا استحسن كلامي.

وكذلك ما ذكرتموه من جواب فلان لذلك الرجل لما سأله: هل حصل عندكم أو بيدكم شيء من كتب القوم؟ فقال له: لا، غير أن فلاناً وضع كذا وكذا، فينبغي لنا أيضاً أن نفرح به لأنه قرن كتابي بكتب القوم، واستثناه من جملتها. **ومنها**: ما ترددتم فيه من معنى «عرفت فالزم» إذا قلتم: ما عرفت، ولا تبُح أو الزمه فقط ولا ترجع من اليقين إلى غيره، هذا هو نص كلامكم، وهذه الوجوه كلها ضعيفة، وما ذكرته لكم في جوابها قد يكون أضعف منها إذا نظر فيه محقق بصير، ولكن فساد الزمان وخلاء المكان من السكان قوَّاه وعضده كما شاء الله تعالى وحكم. **ومنها**: أن فلاناً لم يزل في شدة مرضه مشغولاً بالذكر وأنه لم يترك عادته من قيام الليل مع نهي مَن نهاه عن ذلك، وقد زادني كلامكم هذا فيه غبطة، وتعرّفت فيه ومن أمور أُخر اطلعت عليها من غير كتابكم أن بينه وبين الله تعالى جانباً مرعياً محفوظاً، فالله تعالى يزيده من فضله. وقد بلّغني أخوكم سلامه، فعسى أن تبلِّغوه سلامي. **ومنها**: جوابكم على قولي: لو أننا وإياكم نلناها كنا من الفائزين، إذ قلتم فيه: أما أنتم فنلتموها والحمد لله، فذلكم من حسن ظنكم بي ورؤيتكم لي بعين الكمال.

وعين الرضى عن كل عيب كليلة[1]

وكذلك قولكم في جواب قولي: لا جرم لما وقع مني ومنكم اعتماد على هذه الأسباب، أما أنتم فمبرؤون... إلى آخره. فمن نظركم لي أيضاً بعين الرضى، ولو انكشف الغطاء لا أدري ما الذي كان يكون، وعند ذلك لا تستنكر مني أن أناديك بالسيادة بخلاف ما جرت به العادة، لولا خشيتي مما

(1) وتتمة هذا البيت: ولكن عين السخط تبدي المساويا
والبيت الثاني هو:
فلست ترى عيناً لذي الودّ كلة ... ولا نغضبه يوماً إذا كنت راضياً
وأنشد هذين البيتين أبو الفضل أحمد بن علي الرازي الحافظ يوم الجمعة بكازرون كما في تاريخ دمشق لابن عساكر [38/ 226].

خافه عمر رضي الله عنه على الذي سأله أن يأذن له أن يدعو بعد صلاة الصبح فقال له: «أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا» أو كلاماً هذا معناه، لبينت لك ذلك، ولكن خلِّ الحُك على غطاه واسأل الله تعالى لصاحبك العفو عما جناه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وهذه الخشية التي ذكرت عندي متوهمة لا حقيقة لها، وما كنت لأظن بكم ذلك.

وأما الكتاب الثاني: فهو الذي ساقه إليَّ أخوكم، وقد تعرّفت منه أموراً، **منها**: وصول ذلك الكتاب الطويل إليكم وقد كنتُ متشوِّفاً إلى ذلك لأني دفعته إلى رجل دفعه هو إلى رجل ضمن له رجل آخر أن يوصله ذلك الرجل إلى شخص يدفعه ذلك الشخص إليكم، وفي علمكم أنه إذا كثرت الوسائط في الإسناد فإن ذلك يكون مظنة للقدح في صحة الحديث المروي، وأن المحدثين يحرصون على تقليل الوسائط ما أمكنهم.

ومنها: كلامكم الذي طربت له وبلغ مني التعجُّب منه كل مبلغ وضحكتُ لمّا قرأته ضحكاً لم أملك نفسي فيه وهو سؤالكم لمولاكم أن يمنّ عليكم بالجلوس على منصّات أهل العرفان، وقلتُ في نفسي: لأي شيء اختار فلان هذه الحالة على الحالة الأخرى مع تساويهما في المعنى المقصود الذي ذكرته له، فلم أدرِ بماذا أجيب نفسي عنكم، وخفت إذا عيّنت جواباً أن لا يكون مطابقاً لما عندكم، ثم قلت: وأي شيء يقع في الوجود إذا عينت ما ليس بمقصود.

ولستُ بأول مَن أخطأ ولا مَن غلط، ولا مَن كان إدراكه في أعلى عليِّين ثم هوى وسقط، أظنكم استثقلتم الحصول في المارستان، وفرّقتم بينه وبين الدخول إلى البستان، وقلتم: إذا كان الأمران بالنسبة إلى قدرة الله تعالى شرعاً سواء فالأوْلى لي أن أطلب الحالة التي فيها الراحة واللذة والمنفعة دون الأخرى، ونعني بقولي: والمنفعة، أي تنفعون غيركم بالإرشاد والهداية لأنكم تتمكنون من ذلك في هذه الحالة فإن كان هذا مقصودكم فقد غلطتم.

أما الأول: فلأجل سؤالكم مقام الأكابر، وهذا فيه ما فيه.

وثانياً: أن هذا النظر الذي نظرتم إنما هو في حال الحجاب الذي بُلينا

به، فلو قد ارتفع الحجاب لبطل النظر ولكنتَ تقول إذ ذاك: أي شيء عملتُ بنفسي طلبتُ من ربي ورغبت إليه أن ينقلني من سقر إلى جهنم؟ وهل الحالة التي كنتُ عليها والحالة التي استحسنتها إلا سيّان ما دامت لي إرادة واختيار فلان لما زال عني ذلك رأيت مضرتي في عين منفعتي، فما كان أَوْلى بي أن أسأل الله تعالى أن يختار لي أحد الأمرين من غير أن يكون لاختياري مدخل في ذلك، بل ما كان أَوْلى بي أن لا أسأله أن يختار لي شيئاً لأن الأمر مفروغ منه، فإني أرى اختياره لي حاصلاً قبل سؤالي الخيرة، فأكون حينئذ قد أعطيت الأدب حقه في عدم سؤال تحصيل ما هو حاصل.

وهذا الكلام كله وإن ظهرت حقيَّته ليس له حاصل أيضاً، لأن معانيه كلها إنما تظهر في عالم الحجاب، ولكن ضرورة التعبير حملت عليه، لأن مَن هو في محل الشهود لا يترائى له شيء من التوهمات التي توجب له سياقة هذه الكلمات التي لا يعتقد حقيّتها مَن له أدنى نصيب في العرفان، والله المستعان.

ومعنى هذا الكلام كله موافق لمعنى ذلك الكلام الذي تقدم لي معكم حين ذكرت الدرة والعقرب، ولكن اختلفت العبارات فيهما، فإن شئت أن تسوق ذلك إلى هنا أو تحمل ما هنا إلى هنالك أو تدعهما جميعاً في أماكنهما، والبستانان اللذان يقع التفرج والتنزه فيهما لا يضر في حصول هذه المنفعة بهما كونهما متباعدين، كما أن ذلك حاصل فيهما إذا تجاورا وتقاربا، وأنا في هذا الكلام كما قيل: «حمد الله وأثنى على نفسه» وإن كان مقصدكم خلاف ذلك فلا علم لي به.

وذكرتم في كتابكم أنكم قرأتم على فلان ما كنت أشرت عليكم أن تقرؤوه عليه ولم تخبروني بما فهمتموه عنه حينئذ، ولم تشر إليه بكلمة ولم يكن ذلك بعادة لكم، وذلك كان المقصود وما مثلي في ذلك إلا مثل مَن «أدلى دلواً في بئر ليُخرج به ماءً فيرى هل هو عذب فيشربه أو أجاج فيجتنبه، وهو عطشان، فبينما هو في مكابدة إخراجه بعد أن غرف من الماء ما يحتاج إليه وقرب أن يأخذ الدلو بيده إذ انقطع وسقط في البئر» فيحتاج لا محالة منذ قبل إلى تعب آخر في استخراجه أو تطلب دلو آخر يقوم مقامه وقد ينقطع عنقه من

العطش قبل أن يصل إليه، ولكن العجلة في الكتب مع شغل الخاطر تحملكم على مثل هذه الأشياء، لا سيما إن كان الكتب على ضوء السراج.

وقولكم: وقد تبيّنت لي هذه الجهالات التي غمرت قلبي إلى أن قلت حتى صرت أقتبس منكم ومن علومكم ما يزول به عني الوسواس ويقربني من ربي ويبعدني عن الناس، وأي شيء عمل لكم الناس مساكين حتى تحب البُعد منهم، ولولا ما قصدتم من مراعاة التفقير الذي في قولكم الوسواس والناس لكان الأوْلى بكم أن تقولوا النفس بدلاً من قولكم الناس لأن الفساد كله إنما يجيء من قبلها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: الآية 53].

وقولكم في مسألة أبي يزيد والجواب الذي جاوبتموني به قد كنتُ جاوبتهما به بنصه مع تأويلات أخر، كلها راجعة إلى ذلك المعنى وما منعني من ذكرها إلا خشية كذا وكذا، فلا تفعلوا ذلك معي أبداً بل تذكرون لي كل ما فهمتم، فإن كان عندي صواباً صوّبته، وإن كان خطأ بيَّنت خطأه، وإن كان عندي زيادة زدتها، ولا يمنعني كلامكم فيها من التكلم عليها، والكلمة تجر الكلام، وسلوك هذا المسلك يتضمن تكثير الفوائد من غير شعور منكم بذلك، فأنتم قصدتم إلى استجلاب الفوائد من غير وجهها.

وقولكم: وأيضاً منعني من ذكره أن مثلي لا ينبغي أن يفسّر كلام العارفين خشية حلول المقت من رب العالمين، فأنا هو رأس الحمار الذي يتجاسر على ذلك من غير اكتراث مني بالعقوبة التي تؤدي إليه، وأهلاً وسهلاً بذلك إذا كنتم مصغين إلى كلامي مستحسنين له، ولعل في ذلك خيراً من حيث لا نعلم.

وأما المسألة التي وقع فيها النزاع بينكم وبين مَن ذكرتموه وأنكم قلتم: لا شيء أشرف من مقام العبودية، وقال هو: ثمَّ مقام آخر أعلى منه، وقلتم أنتم: الحرية والعبودية مقام واحد أو أحدهما راجع إلى الآخر، وقال هو: إنما هما شيئان، وقلتم أنتم: التسمية باسم عبد أتمّ، وقال هو: التسمية باسم نبي ورسول أتمّ، وطلبتم مني ما يظهر لي في ذلك. والذي يظهر لي أنهما شيئان، وأن مقام الحرية أعلى وإن كانت إشارات القوم تدل على أن مرجعهما إلى شيء واحد لأن مقام العبودية لا يخلو من تفرقة ما، ولو لم يكن في ذلك إلا ملاحظة

المقامات والألطاف والكرامات أدنى ملاحظة، ولا يُخرجه ذلك من مقام العبودية. وأما الحرية فيقدح ذلك فيها فلا يسمى حراً إلا المتمحِّض في التجريد، المتحقق في الجمع والتوحيد، الغريب الهمَّة فيما بين العبيد، فلا مقام له ولا حال، ولا صحة ولا اعتلال، ولا حلّ ولا ارتحال. فهذا هو الذي حاز مقام الحرية إذ لم تبقَ عليه منه بقية، ولم يسترقه شيء من الآثار الكونية، الظلمانية ولا النورانية، ولا حرج على مَن يقول التمحض في العبودية هو حقيقة الحرية، ولعلها العبودية التي يشير إليها القوم، وأنها أرفع من مقام العبودية، كما قال ابن الفارض رحمه الله:

وكل مقام عن سلوك قطعتُه عبودية حقّقتها بعبودة

وأما قولكم تسمية النبي ﷺ باسم عبد أتمّ، وقوله: هو تسميته باسم نبي ورسول أتمّ، واستدللتم أنتم على مذهبكم بما قلتم، واستدل هو على مذهبه بما قال، وذلك كله والله أعلم قصور في النظر. والحق عندي في ذلك أن نرجع إلى تسمية الله عز وجل له فنعتقد أن كل ما سمّاه به من ـ أي اسم كان ـ في غاية الشرف والجلالة، لا ينبغي أن يفضل بعض الأسماء على بعض لأن الموطن الذي ناسب أن يسميه باسم مخصوص غير الموطن الذي ناسب أن يسميه فيه باسم آخر، فكل اسم يقع في موطن من المواطن لا شيء أشرف منه، والمواطن التي تناسبها الأسماء أو الأسماء التي تقتضيها المواطن ليس لنا علم بجملها ولا تفاصيلها، وعلم ذلك إلى الله سبحانه.

فإذا سمعنا قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية 1]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية 36]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجنّ: الآية 19]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [الأنفال: الآية 41] وما أشبه هذا، علمنا منه أن موطناً من المواطن اقتضى التسمية بهذا الاسم لا يناسب أن يسمى فيه بنبيّ ولا رسول، وكذلك إذا سمعنا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، و﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ على قول، و﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ على قول، و﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ على قول، وما أشبه هذا، علمنا منه أن موطناً من المواطن اقتضى التسمية بهذه الأسماء لا يناسب أن

يسمى فيها بعبد، والعبرة بتسمية الله تعالى لا بتسمية غيره، فإذا سمى الله تعالى مَن اختصه بخصوصيته باسم ـ أي اسم كان ـ فهو أشرف أسمائه، فلا ينبغي على هذا أن يقال إن تسمية الله تعالى نبيه يونس عليه السلام بنبي ورسول أشرف من تسميته إياه بذي النون وصاحب الحوت ولا وصفه إياه بالصلاح والاجتباء. ووصف آدم عليه السلام بالاصطفاء والاجتباء والهداية بأعلى مرتبة من وسمه آدم عليه السلام بسمة العصيان، ووسمه يونس عليه السلام بسمة الإيباق على ما نطق به القرآن.

ويجري مجرى الاسم والوسم فيما أثبتنا لهما من الشرف والجلالة جميع ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال وحركات وسكنات، لأن الخصوصية تنافي أن يكون صاحبها في مرتبة منحطة، فأرباب الخصوصيات كلهم في غاية الكمال ونهاية العلوّ في المقامات والأحوال لأنهم أحباؤه، وإذا كانوا أحباؤه كانوا مرضيين عنده، وإذا رضيهم أخذهم عنهم وسلبهم منهم فكانوا إذ ذاك متصرفين في قبضته يتولى الله تعالى لهم ذلك، فكانت أحوالهم كلها في غاية الكمال، لا مجال فيها لوقوع شيء من الخلل والنقصان، وكل ما يظهر منهم من خلل أو نقصان فإنما ذلك بمنزلة الخيلان في وجوه الحسان لا تزداد معها إلا جمالاً وكمالاً، وإن لم يظهر لنا ذلك، ولعل الكمال الذي ننسبه إليهم من هذا القبيل، أعني أنه كمال في نظرنا لا في نفس الأمر. وحال كمالهم أجَلّ وأعلى من ذلك، فينبغي لنا أن ننزِّههم عن تنزيهنا كما نفعل ذلك في جانب الربوبية «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[1] وقد أدمجتُ لك في هذا الفصل ما يربي على جميع ما أطنب فيه القاضي أبو الفضل، وهو ـ وإن كان خالياً من الدليل والحجة ـ فقد سلكنا من التحقيق فيه أوضح المحجة، وبالله التوفيق لا ربّ غيره.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (486) [1/ 352] ورواه ابن خزيمة في الصحيح، باب نصب القدمين في السجود. . .، حديث رقم (655) [1/ 329] ورواه غيرهما.

ولعلك تتلمح من مساق هذا الكلام مذهب ذلك الرجل في نفي الأفضلية بين الأنبياء عليهم السلام، ولعمري إنه لتلمُّح قريب إن لم يبادر في الفور إلى تعميته وتغطيته علق بالخاطر وارتبك فيه كل ذي عقل قاصر. فنقول: إنما وقعت الأفضلية بينهم بحكم الله تعالى بأفضلية بعضهم على بعض لا من أجل علة موجبة لذلك وُجدت في الفاضل وفُقدت من المفضول. وللسيد أن يفضّل بعض عبيده على بعض وإن كان كل واحد منهم كاملاً في نفسه بالغاً من ذلك الغاية التي تليق به من غير أن يحمله على ذلك وصف يكون فيهم، وذلك مما يجب له بحق سيادته. والتمثيل بالسيد أمر تقريبي إذ لا يخلو من البواعث والأغراض، والله تعالى منزَّه عن جميع ذلك.

ثم إن الله تعالى أعلم بما يقتضيه هذا الحكم منه بالأفضلية، فهذا هو الذي يظهر لي في سبب وجود الأفضلية بين الأنبياء عليهم السلام. ولا يتصور عندي إنكار لذلك، وأما أن يعتقد في سبب وجود الأفضلية اتصاف الفاضل بصفات هي مفقودة في المفضول أو أن صفات الفاضل ناقصة وصفات الأفضل كاملة، فهو عندي تكلُّف وتعسُّف، ولا يسلم من الوقوع في سوء الأدب. وما زلتُ قط أستثقل ما تواطأ عليه الجماء الغفير من العلماء والمحققين حيث يقولون إن فلاناً من الأنبياء حاله كذا وحال نبينا كذا وشتان ما بين الحالين، أو يقولون: إن كان اختص بكذا فعند نبينا ما هو أعظم من ذلك، كما قالوا في انفجار الماء من الحجر لموسى عليه السلام، وانفجار الماء من بين أصابع نبينا محمد ﷺ، ولم يفرقوا بينهما بسوى أن الحجر مألوف منه انفجار الماء والأصابع لم يؤلف منها ذلك. حتى إن بعض أهل العصر الذي يلي عصرنا نظم قصيدة مليحة طويلة استنبط فيها من أحوال نبينا محمد ﷺ ومعجزاته ما وازن به جميع معجزات الأنبياء عليهم السلام وشريف أحوالهم، وسلك في ذلك مسلك ما ذكرناه من التباين بين قدر نبينا محمد عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام، وقد أحسن في ذلك وأساء، أحسن من حيث ذلك الاستنباط، وأساء لما يفهم منه من الغض والانحطاط.

فإن قالوا: ذلك مما تقتضيه أفضلية نبينا محمد ﷺ، قلنا لهم: ومن أين

لكم ذلك؟ وإنما نعرف ذلك من قبله، ثم إنا لم نعرف من قبله إلا أموراً جملية لا يعلم حقائقها إلا مَن فضّله، وأموراً تفصيلية ربما نعلمها كقوله: «**أُعطيت كذا، وأُعطيت كذا، وفضِّلت بكذا، وفضِّلت بكذا**» أو ما معناه هذا. فإذا اعتقدنا أفضليته بإخباره إيانا بذلك ووقفنا على ما أخبرنا به من بعض البعض مما يقتضيه حكم الله تعالى له بالأفضلية، ومَن لنا بالاطلاع على كنه ما يقتضيه ذلك الحكم منه ثم اقتصرنا على ذلك ولم نتجاوزه إلى أن نتعرّض لالتماس ما يوجب وجود الأفضلية من قبل نظرنا إلى ما أعطي من الآيات وما طبع عليه من محامد الصفات وما اتصف به من محاسن الحالات، وما فقد غيره من الأنبياء من بعض هذه الأشياء كنا في ذلك مصيبين سالمين من سوء الأدب مع خواصه وأحبائه، وإلا فإن سوء الأدب والوقوع في النشب لازم لنا لزوماً ضرورياً لا محيص عنه كما فعله أئمتنا رضي الله عنهم. ولا أقول إنهم في ذلك بمنزلة مَن هدم قصراً وبنى مصراً أو بنى مصراً وهدم قصراً، ولكنهم بمنزلة مَن هدمهما جميعاً، لأن الأفضل لا يحب أن يفضل بشي لم يجعله مولاه سبباً في وجود أفضليته، ولا يحب أيضاً أن يحط الفاضل عن مرتبته كما قال: «**لا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيِّروني على موسى**»[1]، «**ولا يقولنّ أحدكم أنا خيراً من يونس بن متى**»[2] والمفضول أيضاً لا يحب أن يُجعل لمفضوليته علة لم يجعلها مولاه وهو فقده ما اتصف به الأفضل، ولا يحب أيضاً أن يفرَّق بينه وبين الأفضل وهم جميعاً رسل الله عزَّ وجل، وعدم محبة كل واحد منهم. لهذا كله إنما هو لحق الله لا لهم فآل سوء الأدب معهم إلى سوء الأدب مع الله، وهذا عظيم. فهذا كلام جرّ إليه ما كنا بصدده من بيان الأسماء التي سمّى الله تعالى بها نبيه

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ حديث رقم (3215) [3/ 1244] ورواه مسلم في صحيحه، باب في ذكر يونس عليه السلام. . .، حديث رقم (2376) [4/ 1846] ولفظه: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» ورواه غيرهما.

محمد ﷺ أو واحداً من أنبيائه ورسله، لا يقال في بعضها إنه أشرف من بعض من حيث تسمية الله تعالى بذلك. أما من حيث تسمية غيره كما إذا سمى ذلك الشخص المختص نفسه فلا ينبغي له أن يسمي نفسه إلا باسم العبد ولا يختار إلا ذلك كما قاله ﷺ: «**خيِّرت بين أن أكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاخترت أن أكون نبياً عبداً**»(1)

ولو وجد ﷺ اسماً يتضمن من التلاشي والعدم أشد مما يتضمنه اسم العبد لتسمّى به، واختاره، ويكون اسم العبد من هذه الحيثية أشرف أسمائه كما قال الشاعر:

لا تـدْعُـنـي إلا بِـيَـا عَـبْـدِهـا   فـإنــه أشــرف أســمــائــي(2)

أي أشرف أسمائي عندي لا عندها، إذ ما عندها لا تخيُّرَ له فيه، والعبرة بما عندها لا بما عنده.

وقد أسأتم في سياقة ذلك البيت وأجحفتم بوزنه ولفظه، وتطرق بسبب ذلك الخلل إلى معناه، وذلك أنكم أنشدتموه على هذا النحو:

لا تـدعُـنـي إلا بـيـا عـبدهـا   فإنه أشرف أسمائي عندها(2)

ومن أين يدري أنه أشرف أسمائه عندها؟ ولعلها لا تسميه بذلك وإنما تسميه عدوها ومنازعها وما أشبه هذا مما تسمى به كل مدّعٍ مغرور. ولا بأس إذا كان هذا الكلام كله مناسباً لذلك الكلام الذي تقدم مناً في بيان غلط ذلك الرجل أن تطالعوه به مع الكلام الأول، فإن كان في معتقده ذلك موافقاً مذهبي ـ أعني أن يعتقد وجود الكمال في كل واحد من الأنبياء عليهم السلام ـ مع اعترافه بالأفضلية بحكم الله عز وجل، فهو صاحبي، ودعنا نكون أنا وهو

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما أمره الله به من اختيار الآخرة على الأولى ولا يمد عينيه إلى زهرة الحياة الدنيا. . . ، حديث رقم (13099) [7/ 48] ونصه: «بعث إلى النبي ﷺ ملك لم يعرفه فقال: إن ربك تعالى يخيرك بين أن تكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً، فأشار إليه جبريل عليه السلام أن تواضع قال نبياً عبداً» ورواه غيره بألفاظ أخرى متقاربة.

(2) ورد هذا البيت في مصادر عدة دون الإشارة إلى اسم قائله.

بصيرين أو أعميين. فإن كنا بصيرين فنحمد الله تعالى على ذلك، وإن كنا أعميين فنسأل الله تعالى أن يهدينا إلى أرشد المسالك، وإن لم يوافق مذهبه مذهبي فليس لي بصاحب على الحقيقة لكوني أنا وهو متخالفي الطريق، والله تعالى الموفق لا ربّ غيره.

ولا معنى عندي لقول مَن قال في معنى قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1] ولا فخر لي بالسيادة، وإنما الفخر لي بالعبودية، لأن الفخر أمر مذموم مطلقاً وهو الذي نفاه ﷺ ونزَّه نفسه عنه، فقال: «**ولا فخر**» لأنه لما قال: «**أنا سيد ولد آدم**»[2] خاف أن ينسبه بعض مَن يسمع ذلك إلى أنه افتخر بذلك فحفظ ﷺ موضع الفتنة من قلوب السامعين فقال: «**ولا فخر**» أي إنما أعلمتكم بسيادتي لتعلموا بذلك منزلتي ومكانتي ولنقوم بواجب حق ربي ونعمل بأمره في التحدث بنعمه وإشهار أمرها وإشادة ذكرها، ولم نقصد بذلك ما اعتدتموه يا أصحاب النفوس المتكبرة والمتجبرة من أن مَن ساد منكم لا يدعه تجبُّره ولا تكبُّره من أن يفاخر ويباهي بذلك مَن لم يسُد، ولأجل ذلك أنِف أشراف قريش من اتباعه والإيمان به وحسبوا أنه تفاخر عليهم بادعائه الرسالة والنبوة كما قلنا في الكتاب الذي تقدم.

وأذكرني هذا المعنى الذي ذكرته الغباوة والجهالة التي أصابت وفد بني تميم، فإنهم لما وفدوا على النبي ﷺ قالوا له: «جئنا لنفاخرك» فلما تكلم خطيبهم وشاعرهم بما تكلما به من ذكر مآثرهم التي هي عندهم مآثر وقام خطيب النبي ﷺ ثابت بن قيس بن شماس وشاعره حسان بن ثابت وقالا مقالاً عرفوا حينئذ المناقب والمآثر كيف تكون ولم يزيدوا على أنفسهم بما تعاطوه من المفاخر سوى التسبب في إثارة مقابحهم وإبداء فضائحهم حتى قال لهم

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين، حديث رقم (4189) [2/ 660] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار بأن الأنبياء أولهم وآخرهم يكونون في القيامة تحت لواء المصطفى ﷺ، حديث رقم (6478) [14/ 398] ورواه غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

النبي ﷺ: «**ما كان أغناكم عن هذا**»[1] أو كما قال ﷺ، لا أذكر الآن نص الحديث.

وقوله: «**إنما الفخر لي بالعبودية**»[2] كلام لا أفهمه، لأن العبودية نسبتها إليه وإلى غيره نسبة واحدة، فإن قيل: إنما عنى بذلك العبودية التي هي حاله ومقامه فقلنا: إنما يصح الفخر بها إن صحّ من حيث كونها منَّة من الله تعالى عليه، فإن صحّ الفخر بها من هذا الوجه فلِمَ لا يصح افتخاره بالسيادة وهي أيضاً منَّة من الله تعالى عليه. فالظاهر أنه نفى التفاخر النفي المطلق ولم يخصّ ذلك بسيادة ولا غيرها كما قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[3] و«**أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر**»[4] و«**أنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»[5] و«**أنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر**»[6] و«**أنا أول مَن يحرك حلق الجنة فأدخلها مع الفقراء المؤمنين ولا فخر**»[7] و«**أنا أكرم الأولين والآخرين فلا فخر**» فبان لك بهذا كله أن إطلاق الأولوية والأشرفية في بعض الأسماء دون بعض من غير نظر إلى ما ذكرناه من تسمية الله تعالى وتسمية غيره قصور في النظر، وإن ثَمّ وراء مقام العبودية مقاماً أعلى منه.

وأما ما قيّدتم من ذلك التفسير فقد طالعته ورأيته وفهمت من قوة ذلك الكلام أنه كلام رجل متأخر لاح له شيء من هذا الطريق ثم تعاطى تفسير كتاب الله عزّ وجل على حسب ما يظهر له وادّعى في ذلك أنه غير مقلّد أحداً ثم إنه

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) رواه الترمذي في السنن، باب في فضل النبي ﷺ، حديث رقم (3616) [5/ 587] ورواه الدارمي في السنن، باب ما أعطي النبي ﷺ. . . ، حديث رقم (47) [1/ 39].

(4) رواه الحاكم في المستدرك، أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما، حديث رقم (4429) [3/ 72] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر المصرح بأن هذا القول إنما زجر عنه من أجل التفاخر. . . ، حديث رقم (6242) [14/ 135] ورواه غيرهما.

(5) هذا الحديث سبق تخريجه.

(6) رواه الترمذي في السنن، باب في فضل النبي ﷺ، حديث رقم (3616) [5/ 587].

(7) هذا الحديث سبق تخريجه.

لم يوفِ بما التزم من سلوك الطريق الأوسط بين إفراط المتنطّعة الباطنية وبين تفريط الحشوية الظاهرية فإنه فسّر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البَقَرَة: الآية 58] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: الآية 161] وذكر في ذلك أن المراد بالقرية جنة المعارف، يفهم هذا من قوة كلامه، ونص على أن الأرض المقدسة هي الفهم في الكتاب وأن الرغد المذكور هو الاتساع في التأويل، وهذا كله توغُّل في الباطن الذي لم يرتضهِ وجعل معتمده دون الظاهر أعور بالعين اليسرى. ثم نحى في تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البَقَرَة: الآية 212] والآية التي بعدها منحى الظاهر وهو أيضاً لم يرتضهِ وجعل معتمده دون الباطن أعور بالعين اليمنى، لأن كون الكفار مترفين منعمين لأجسامهم فيها، وإن المؤمنين هم الذين من شأنهم أن يكونوا في الدنيا زاهدين وفي الآخرة راغبين وبوعد الله تعالى واثقين أمر معلوم مع أن كلامه في ذلك التفسير ناقص لأنه فسّر الذين كفروا بالمكنزين المنعمين لأجسامهم، وفسّر الذين آمنوا بالمصدقين بمجيء الرزق، وهذه جزئية واحدة من جزئيات اتصف بها الكافرون والمؤمنون، ثم فسّر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البَقَرَة: الآية 212] بالتقوى للدنيا، ثم ذكر الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفّفين: الآية 29] وقال فيها: فجر أمتهم بالإكثار من متاع الدنيا وزينتها، ولم يفسّر الإيمان فيها، ولكن لما فسّر الإيمان في الآية الأولى بالإيمان بمجيء الرزق علمنا منه أن تفسيرها عنده كذلك، فخصصها أيضاً كما خصص الأولى، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريَم: الآية 73] ويفهم من سياق هذه الآية أنه أخذ منها التفسير المتقدم الذي تضمن التخصيص المذكور لأنهم افتخروا عليهم بمتاع الدنيا، وهذا كله إجحاف بالآيات وبخس بحقوقها، لأن الآيات التي تحتمل معنيين فأكثر لا ينبغي أن يُقتصر في تفسيرها على بعضها، بل تتبع تلك المعاني ويبين تناول الآية لجميعها، ويبقى حكم الآية على عمومه فتكثر بذلك الفوائد.

والآيات التي لا تحتمل إلا معنى واحد يقتصر فيها على ذلك إلا أن يستقيم تأويلها وردّها لمقتضى الآيات التي تتضمن المعاني الكثيرة، فهذا هو وجه التفسير والتأويل، ثم إنه أخذ الإشارة إلى ما قصده من تفسير الآيتين مما ذكره من قوله ﷺ: «**يسبق فقراء أمتي. . .**» الحديث[1] وقد يكون هذا المأخذ صحيحاً، ثم إنه أتى بأمر مستثقَل جداً يكاد لثقله يتمزق الكاغد الذي فيه رُسِم ويتكسر القلم الذي به كُتب ورُقِّم، وهو ذكر عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عليه في هذا المعرض، أعني من تقدير كون الحياة الدنيا مزينة للكفار، ثم فسّر الكفار بالمكثرين من الدنيا، ثم ذكر المجرمين وفسّره بذلك، ثم ذكر المجرمين وفسّره بذلك، ثم ذكر الكافرين مرة ثالثة، والمراد بهم عنده ذلك، ثم ذكر الأغنياء من هذه الأمة وساقهم مساق الذم وأنهم مسبوقون إلى الجنة بخمسمائة عام، ثم أدرج عبد الرحمٰن بن عوف في جملتهم، وهذا عندي أقبح ما يكون، ولا يزيل هذا القبح منه قوله بأثره «وهو معدود عنده لنوائب المسلمين» يعني ماله، لأنه في ذلك بمنزلة مَن جرح إنساناً جرحاً بالغاً ثم أخذ خِرقة فألصقها عليه، فأنّى تفي كرامته بجنايته، ومنفعته بمضرته، فلو أجرى الآيات على ظاهرها وأبقاها على عمومها وإطلاقها ولم يخصص شيئاً منها ولم يقيده ولم يُأوله لكان أبلغ له فيما قصده، وأنسب لما اعتمده.

ولو انتدب أحد إلى أن يتعرض لأن يُنزل هذه الآيات على خلاف ما ذكره من المترفين ويستنبط منها معاني أُخر يكون فيها تمام ما ذكره من مقتضى التفسير الذي أثره مع كونه مخالفاً له في الظاهر لساغ له ذلك لأنه بقي عليه من الدنيا التي زينت للكفار العظمة والكبرياء والترفُّع والاستعلاء، وهذا هو أعظم لذّات الدنيا وحظوظها التي لا مدخل لتنعُّم أجسامهم فيها إلا بالعرض، ثم يتطرق بسبب ذلك إلى أن يأخذ منه الإشارة إلى ما بُلِي به عوام المسلمين وخواصهم من هذا النوع من الدنيا ويتدرّج من كثيفه إلى لطيفه، ومن كثيره إلى قليله، حتى يعلم من ذلك أن دقائق التكبُّر التي مرجعها إلى رؤية النفس

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

واستحسان أمرها لا يتصور أن ينفك عنها صديق فمَن دونه إلا مَن رحم الله تعالى وهي أعظم مزينات الدنيا لمَن زينت له فتكثر بسبب ذلك الفوائد التي لم يعهد مثلها في تفسير يتضمن ذكر الأمور البيِّنة المألوفة التي يعرف أمثالها صبيان المكاتب كما فعله الآن هذا الصاحب.

فيقول ـ أعني ذلك المنتدب المذكور ـ قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البَقَرَة: الآية 212] أي الرياسة فيها وحب الجاه والمنزلة، فتراهم يتوصلون إلى ذلك بما أمكنهم حتى يتركوا في جنب ذلك تنعُّمات أبدانهم بجملتها كما يفعله القسيسون والرهبان في هذه الأزمنة فإنه ذكر عنهم أنهم لا يتزوجون النساء ويتركون كثيراً من شهوات الدنيا ليتوصلوا بذلك إلى نيل الرياسة على أتباعهم فينقادون لهم ويتبعونهم ويتخذونهم أرباباً من دون الله. وهذه هي دنياهم التي زينت لهم، فإذا رأوا مَن ليس على طريقهم من أهل ملّتهم سخروا بهم واستحقروهم، ولا شك أنهم من أهل الإيمان أعظم سخرية واستحقاراً، لأنهم يشاهدونهم عبيداً منقادين للأوامر والنواهي، فإذا نزلت الآية على هؤلاء الكفار المخصوصين يقول على مذهب أرباب الاعتبار ويأخذ بحظ وافر من معنى ما ذكرناه أناس من المسلمين قليل علمهم بخدع النفس ومكايد الشيطان، إذا علم واحد منهم مسألة أو صلّى ركعة أو ترك لقمة أو حبّة واستشعر بعمله ذلك حصول مكانة ووجاهة عند الناس مع ما يرجو بذلك من الفوز والنجاة في الدار الآخرة، رأى في نفسه عظمة وخنزوانة لاتصافه بصفة الكمال عنده وهي هذه دنياه التي زينت له. فإذا رأى أحداً من عامة الناس متشاغلاً بطلب الدنيا بطّالاً عما تشاغل هو به من التعلُّم أو التعبُّد أو التزهُّد سخر به واستحقره مع أن هذا العامي مؤمن بالله عزَّ وجل، وعلامة إيمانه خوفه على نفسه واحتقاره لها، ورؤيته أنه هالك وغير ناج، ويرى أن هذا العالِم أو العابد أو الزاهد قد فاز فوزاً عظيماً وأن شراك نعله خير من ملء الأرض من مثله ـ أي من مثل هذا العامي ـ ومعلوم أنه إذا كان يوم القيامة يكون ذلك الرجل المتقي ـ أي الذي أعطي التقوى والخوف والحزن وحيل بينه وبين دعاوي النفس ووساوس العدو بوقاية قوية لا يصل بسببها إليه مَن يضره ولا مَن

يغرق ـ فوق هذا العالم أو العابد أو الزاهد، إذا انكشف له حجاب جهله وبان له سوء عاقبة فعله ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البَقَرَة: الآية 212] أي يرزق الرزق الحقيقي ـ وهو رزق الآخرة ـ من يشاء، أي مَن يريد من غير أن يكون لذلك موجب من علم أو عمل إذا نوقش فيه صاحبه وحوسب عليه صار هباءً منثوراً فلا يحاسب هذا المرزوق ولا يطالبه لمّا حسن حاله بإيمانه ويقينه.

وكذلك يسلك هذا المسلك في تفسير الآيات الأُخَر فيقول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [المطفّفِين: الآية 29] أي أتوا بالجرم العظيم، وهو التعرض لمنازعة الربوبية بالتكبر على الناس والتعظيم عليهم بما اتصف به من علم أو عمل أو زهد ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المطفّفِين: الآية 29] بالله تعالى إيماناً ساذجاً من غير تكلُّف دليل لكنه خال عن التشبيه والتمثيل، وهذا هو حال عامة الناس إذا رآهم متشاغلين بطلب المعاش من وجهه يضمُّون الدرهم إلى الدرهم والحبة إلى الحبة ليصونوا بذلك وجوههم عن المسألة ويستدفعوا به الشدائد المعضلة ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية 47] منهم ويسخرون بهم مع أنهم متصفون بصفة كمال لا يشقُّون لهم فيها غباراً كما تقدم في الآية الأخرى، ثم ينتهج هذا المنهج في تمام تفسيرها، ثم يقول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأنفَال: الآية 31] أي على هؤلاء الذين يتكبرون بعلوم أعمالهم ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [يُونس: الآية 15] في حال كونها بينات لا يخفى ما فيها من المواعظ والزواجر عن تلك الأحوال الرديئة التي اتصفوا بها، حيل بينهم وبين فهمها ولم يعلق بقلوبهم شيء منها ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعـراف: الآيـة 146] فيدخل لهم مَن أذن ويخرج من أخرى ويبقون على حالهم السيىء من التباهي والتفاخر فيقولون للذين آمنوا كذا وكذا ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ [مريَم: الآية 74] كانوا على منهاجهم وسلكوا على أدراجهم ﴿هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ [مريَم: الآية 74] أي أكثر علوماً وأعمالاً لمّا قابلناهم بالعدل وحرمناهم المنّ والفضل جعلنا ذلك كله هباء، ولم يجتنوا من ثمرة سعيهم إلا شقاء وعناء، ثم صيّرناهم عبرة للمعتبرين ومثلاً للآخرين كما فعلنا بإبليس وبلعام وبرصيص.

ثم يعضد هذا التفسير بما قيل في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآيتان 2، 3] ويأخذ الإشارة منهم ويُنزلها على القوم الذين ذكرهم. فهذا أسلوب من الكلام على هذه الآيات التي تولى هذا الرجل تفسيرها وحملها على بعض متناولاتها وهو الاستكثار من المال للتمتع والتنعُّم.

وله أيضاً أن يتكلم على تلك الآيات بما هو أعلى من هذا كله على طريقة أرباب الإشارات فيقول: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البَقَرَة: الآية 212] أي الذين كفروا بنعمة الله تعالى عليهم بالإيمان الذي مقتضاه أن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن كل ما خلا الله باطل ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي الظنون والحسابات التي يتنعّمون بتذكارها ويستضيؤون بأنوارها وهو توهمهم أن منهم فعلاً أو جعلاً وهذه دنياهم التي زينت لهم ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية 212] أي آمنوا ببطلان كل ما يتوهمونه تحقيقاً لمقتضى إيمانهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ [البَقَرَة: الآية 212] هذه الأماني ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البَقَرَة: الآية 212] حين ينكشف الغطاء ويبدو الخفاء ويظهر لهم الرابح في صفقته والخاسر فيها، أهم هم الذين أشركوا أو مَن استهزؤوا به وسخروا منه؟ وهم الذين وحَّدوا الله ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البَقَرَة: الآية 212] أي العلوم والفهوم التي لا يحصرها حسبان.

ثم يُجري الآية الأخرى في التكلم عليها على هذا الأسلوب فيقول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ [المطفّفِين: الآية 29] أي فعلوا الجرم العظيم، وهو دعواهم أن لهم حولاً أو قوة ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المطفّفِين: الآية 29] أي آمنوا بالله واعتقدوا وحدانيته ولم يشركوا به في مقال ولا حال ﴿يَضْحَكُونَ﴾ لأن أحوالهم مباينة لأحوالهم التي ارتضوها لأنفسهم من التمسك بالخيال والتشبُّث بالمحال، لو رأيتموهم لقلتم مجانين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: الآية 31] أي إذا رجعوا إلى الأعمال التي أنِسوا بها والأحوال التي استحلوها سرُّوا بذلك وفرحوا واغتبطوا إذ يرون بأيديهم من الذخائر والنفائس ما ليس عند غيرهم من أهل الإفلاس والفقر عندهم.

ثم يقول في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: الآية 15] أي على

هؤلاء الذين وصفناهم ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ [يُونس: الآية 15] أي بينات لأرباب البصائر خفيات على هؤلاء الظاهريين الذين تمسكوا بالقِشر ولم يعثروا على اللب وكفروا بنِعَم الرب ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرط جهلهم بحقائق الأمور ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي لأجل الذين آمنوا لأنهم يرونهم بعين النقص ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريَم: الآية 73] نحن أم هم؟ ولا شك أن العوالم كلها توافقهم ويسلم لهم ما ادعوه من الخيرية والأحسنية فيما ذكروا لأن من شأن هؤلاء الذين تفاخروا عليهم أن لا تُقِلُّهم أرض ولا تظلّهم سماء، ولا يهتدي إلى معرفتهم كثير من أولاد آدم وحواء، فكيف لا يوافقونهم ويرافقونهم؟ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريَم: الآية 74] ممن كان أشرف منهم أحوالاً وأزكى أعمالاً، فأخذناهم عنهم واقتطعناهم عن رؤية أعمالهم ومشاهدة أحوالهم وتركناهم أشباحاً خاوية ورسوماً خالية، وذلك مما تقتضيه عزّتنا ولا تعجز عنه قدرتنا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية 16] ثم يأخذ الإشارة إلى هذه المعاني مما قيل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية 13].

فهذا الخطاب كله مما يمكن أن يتمَّم به كلام ذلك الرجل، فيعلم من ذلك أنه لم يأتِ بزيادة تجعل في السفط(1) أو يشد عليها اليد واحد متلفظ، وعجباً له كيف سأل من مولاه أن يبصره الحق من لدنه من غير واسطة سوى كتابه وصحيح ما جاء عن نبيه، وأين يجد في الصحيح حديث **«يدخل الجنة حبواً»**(2) أو حديث: **«ويلٌ لمَن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته»**(3).

وما استحسنتموه من كلامه في التقليد ليس بحسن ولا محقق، لأن كل ما

(1) السفط: الذي يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء.

(2) رواه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمٰن بن عوف، حديث رقم (264) [1/ 129] ورواه أحمد في المسند عن السيدة عائشة رضي الله عنها، حديث رقم (24886) [6/ 115] ورواه غيرهما.

(3) عزاه الغزالي في الإحياء إلى الثعلبي من حديث ابن عباس (إحياء علوم الدين، بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى [4/ 117].

احتج به على إبطال التقليد ضعيف، ثم إنه جعل التقليد يسوغ في بعض الأحوال، والتقليد مذموم على كل حال، ولولا تطويل الكلام الذي لا يفيد لذكرنا لكم على كلامه ما هو أوسع من هذا ولكنا نقتصر على هذا القدر. ونحن نستغفر الله تعالى من جميع هذا لكن أنا مع هذا كله محب أن أرى كلامه في تفسير الآيات على أي حالة كان، وقد يخرج لي في أثناء ذلك فوائد من حيث لا شعور لي بها الآن ولا أدري كيف يتأتّى الوصول إليه. وقد أردت أن أذكر لكم نُبذة ظهرت لي في التقليد تكون تتمة لهذا الكتاب وأسوقها مساق سؤال وجواب لتتم لك الفائدة في المسألة التي استحسنتها من كلام ذلك المصنف.

فنقول، ونعوذ بالله من الفضول: إن قلت أراك ذممت التقليد في كل حال وكنتُ أعرف منكم الحكم بالضلال على كل مَن التمس معرفة الحق بالرجال، فيلزم من ذلك أن يكون الخلق كلهم ضالِّين في تقليدهم للأنبياء والعلماء، ثم إنك تعرف مني أني أتلقى كلامك باليدين وأجعله على الوجه والعين، وأتقبّل كل ما تقوله لي من صدق أو مَين، بحيث أنك لو قلت لي الواحد أكثر من الإثنين لقبلت، أو صلِّ إلى غير القبلة لفعلت، وأيّ تقليد أعظم من هذا؟ فإن كانت هذه الحالة مني معك مذمومة فلمَ أقررتني عليها وأتعبت نفسك في كل جواب جاوبتني به ومراسلة راسلتني بها، لقد أثرت عليَّ إشكالاً عظيماً وشوّشت عليَّ معتقداً كان في نظري صحيحاً مستقيماً، فلا بد لك من بيان هذا الأمر المعضل، وأن تتكلم فيه بكلام يطبق المفصل حتى أتعرف بذلك ما الذي تشير إليه وتحوم عليه؟

فأقول: هذا هو السؤال الذي ينبغي لك أن تقصده، والمقال الذي يجب عليك أن تعتمده، لأنه أصل من الأصول، وكأنَّ التشاغل بغيره قبله نوع من الفضول، ويندفع عنك هذا الإشكال بأن تعرف معنى التقليد لا غير. والتقليد عبارة عن اتباع الغير واعتقاد صحة ما يقوله من غير دليل ولا حجة، وهو أمر مذموم قادح في العبودية لربّ العالمين مُبطل لشرائع المرسلين، وإنما كان ذلك لأن الله تعالى لما أوجد بريته هيّأ لهم السبيل إليه بما شاء من هدايته ولم

يُحْوِجْهم في ذلك إلى غيره «**كل مولود يولد على الفطرة**»(1) فلما أعطوا هذه الهداية تهيّأ لهم أن يعرفوا كونهم عبيداً مربوبين لربّ واحد، ومن مقتضى هذا رؤيتهم لعجزهم وفقرهم وشهودهم لباطنيتهم، فلو قد تحققوا بهذا لكمل لهم أمر العقيدة ولكانوا منها على يقين وبصيرة ولم يكن بقي لهم بعد تقرير حصول هذا إلا تصرفهم على مقتضى العبودية كيف يكون، لكن لما أراد الله تعالى ضلال مَن شاء منهم فتح لهم باب التقليد للآباء المتهودة والمتنصرة والمتمجسة، فانصرفوا بذلك عن التهيؤ لاعتقاد الوحدانية إلى التعدد والإثنينية، وانحرفوا بذلك عن سنن العبودية، فابتعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين وأيّدهم بالمعجزات والبراهين ليقرروا لديهم ما نسوه من أمر التوحيد وينفِّروهم عن التمسك بحبال التقليد وليبيِّنوا لمَن اتبعهم كيف يتصرفون على مقتضى العبودية للربّ المجيد، إذ لا بد من معلّم لذلك يعلمهم بجميع طرق التعليم ويفهمهم بأبلغ وجوه التفهيم.

ومن ضروريات ذلك وجود العصمة لهم عن أن يكونوا بحال تخالف حال العبودية وكمال الخصوصية، إذ لو كانوا بحال تخالف ذلك لم يستقم لهم دعاء إليها ولا تحريض عليها، فلا جرم لما كانوا على هذه الحال كانت أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم ألسنة ناطقة مبيِّنة لما ذكرناه، فكمل للخلق دينهم الذي طلب منهم ولاحت لهم السبل باتباعهم الرسل، ولم يبقَ لهم ما يتطلعون عليه أو يتشوّفون إليه، إلا أن هؤلاء المعلمين المرشدين لما كانوا ليسوا من الخالدين كان بالخلق حاجة إلى مَن ينوب منابهم ويكون خلفاً لهم على مَن صدّقهم وأجابهم.

ومن ضروريات هذه النيابة والخلافة أن تكون مؤيدة بكون صاحبها له أنموذج من حال الأول ويكون كاملاً فيه على حسب ما يقتضيه طوره، وذلك

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه. . .، حديث رقم (1292) [1/ 456] ورواه مسلم في صحيحه، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. . .، حديث رقم (2658) [4/ 2047] ورواه غيرهما.

بأن يكون على وصف العبودية من غير أن تكون له محبة لرياسة ولا يكون فيه كبرياء ولا جبرية، ويكون محفوظاً في حاله هذه، وبذلك تستقيم متابعته من غير خلل ولا اعوجاج. ولهذا افترض الله تعالى على الخلق طاعة الأنبياء وورثتهم من العلماء، إذ لا يستقيم لهم حال العبودية إلا بذلك. **فحاصل الأمر** أنهم لما أبصروا الحق أبصروا عند مَن هو الحق فأخذوه عنه واتبعوه فيه فاهتدوا، وهذا هو الاستبصار الذي ليس يجري مع التقليد في مضمار لأن البراهين لاحت لهم والأنوار أشرقت عليهم وهؤلاء هم السعداء. وأما الأشقياء فهم الذين نُفُوا عن الهداية وبقوا في الضلالة والغواية، فلما بعثت إليهم الرسل وجدوا التقليد للآباء والرؤساء قد رسخ فهم وصادف ذلك منهم هوى وإرادة لأجل ما بُلُوا به من دعواهم الاستقلال بعقولهم التي كادها بارئها فأعجبوا بآرائهم واستكبروا على أنبيائهم فأعماهم ظلمة ذلك عن النور الباهر الذي جاء به النبي الذي أُرسل إليهم فلم يبصروه. فلما لم يبصروه لم يؤمنوا بما جاء به وإن كانوا قد آمنوا بالنبي الذي قبله، لأن المعاصرة لها مدخل عظيم في المفاخرة مثل ما وقع من أحبار اليهود وغيرهم، وكذلك مَن كان ذا رياسة تزيلها عنه نبوة ذلك النبي، كحال عبد الله بن أُبي بن سلول المنافق وأبي عامر الراهب الفاسق في زمان رسول الله ﷺ، ولعلهما لو لم يكونا معاصرين له بحيث يأمنان من زوال رياستهما لآمنّا به واتبعناه. ولما علم النبي ﷺ عدم الخيرية في بعض الآباء المعاصرين رجا أن يكون الخير في أبنائهم، فقال في الحديث المشهور عنه: **«بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله لا يشرك به شيئاً»**[1] وكذلك كان، حتى بلغ من إيمان بعض الأبناء به أن قال: «لو أدركناه ـ يعني النبي ﷺ ـ لما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا» أو ما معناه هذا.

ولأجل هذا الذي ذكرناه كان أتباع الأنبياء ضعفة الناس لا أشرافهم كما

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة. . .، حديث رقم (3059) [3/ 1180] ورواه مسلم في صحيحه، باب ما لقي النبي ﷺ. . .، حديث رقم (1795) [3/ 1420] ورواه غيرهما.

قاله هرقل لما سأل أبا سفيان عمّن يتبع رسول الله ﷺ، لأن التكبُّر والتعظُّم مفقود منهم فاستقام لهم من أتباعهم ما لم يستقم لغيرهم، وبعض الأشقياء لما شاهدوا من غلبة أمر الرسل عليهم السلام وعلو كلمتهم ما شاهدوا جوَّزوا أن يكونوا في دعواهم صادقين فمالوا إليهم بعض المَيْل، إلا أن الحزازة لم تفارق قلوبهم فاقترحوا عليهم من الآيات ما عساه تطمئن به قلوبهم، وآية واحدة تكفي وتشفي لو ساعدهم التوفيق، ومَن كان ذا غباوة شديدة منهم التجأ إلى التقليد كما فعله كفار قريش في سؤالهم اليهود عن أمر محمد ﷺ وقالوا: «إنهم أهل كتاب عندهم ما ليس عندنا فتعالوا نسألهم عنه» فلما سألوهم وأجابوهم بما أجابوهم به من اختبارهم له بتلك المسائل أبى الله إلا خذلانهم والتشويش عليهم وإبقاء الشبهة والريبة عندهم بما جرى يومئذ، والخبر بذلك معلوم، وهكذا سنَّة الله تعالى في مَن لم يقبل الحق أول وهلة حين يلوح له برهانه.

فهذا كله من شؤم التقليد الذي أدى إليه النفاسة والكبرياء ومتابعة الأهواء، وسفلة هؤلاء وأراذلهم تبع لهم في ما يأتون ويذرون وإن كانوا لا يتعظمون ولا يستكبرون.

ويجري هذا كله في عوام المسلمين مع علمائهم حذوك النعل بالنعل، فهم وإن كانوا مؤمنين بالأنبياء الماضين ومتبعين للعلماء المنقرضين إلا أن التكبر والتعظم مانع لهم من متابعة الحاضرين والانقياد إلى المعاصرين، ولو كانوا من العلماء الراسخين ولا سيما مَن كان منهم غير عزيز ولا مكين ولا مذبوح بغير سكين، فإذا مات وانقرض دهره وعصره أو حدثت له وِجاهة ومكانة عند مَن يمتثل أمره أو كانت له عزَّة نفس وإباء وشموخ أنف وكبرياء فحينئذ يعرفون له المقدار وتعرفون له بكمال الاستبصار ويصير عندهم علماً في رأسه نار فيعتمدون عليه في التصحيح والإبطال، ويرجعون إليه في الحكم على مَن شاؤوا بالهداية والإضلال، ولا يعرفون أن بعض هذه الأوصاف التي قدّموه بها هي التي توجب تأخيره عند الله تعالى وردّه إلى أسفل سافلين وبقاءه في لعنة اللاعنين، وهذا كله من ركاكة العقول وسخافتها وعمى البصائر وآفاتها.

فمبدأ التقليد الذي هو من الهداية والرشد بعيد أن يتحلّى الفجار بحلية

الأبرار ويظهرون لجهلة الناس أن باتباعهم في مذاهبهم يفوزون بالجنة ويزحزَحون عن النار، لأن العامة لما يرون من لباسهم لتلك الملابس الفاخرة يعتقدون أن لهم الزلفة والقربة في الدار الآخرة، وأن انخراط النفوس في سلك هواها مغتفَر، وأن تطهيرها من دقائق آفاتها غير معتبَر، وأن مَن خالف طريقهم فهو في ضلال، وقد يكون عند الله تعالى من الصفوة الأبدال. فاختلّ بسبب ذلك أمر الدين وانسلّ الناس منه انسلال الشعرة من العجين، لأن ذلك يسدّ باب العبودية لله ويوقع في الاستخفاف بحرمة أولياء الله، ومَن كان في ابتداء نظره ضالاً كيف يكون في انتهائه؟ فلا جرم لما جعلوا هواهم أصلاً يبنون عليه الاتباع والاقتداء كان المتبوع لهم كل مَن يستحسنون حاله ولا خير فيما يستحسنونه لعدم إدراكهم، فاتبعوا مَن لم يأذن الله في اتباعه من الرؤساء وأصحاب الأهواء فضلُّوا باتباعهم عن طريق العبودية لربِّهم كما ضلُّوا هم.

فإذا كان يوم القيامة وقال المقلَّدة لأتباعهم: إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البَقَرَة: الآية 166] وقالوا لهم ما قاله متبوعهم الأعظم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: الآية 22] ويقولون لهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: الآية 21] فهذا هو التقليد الذي اقتضى الحال أن يكون محرّماً مذموماً لأنه صارِف عن العبودية مغبر في وجه الشريعة المحمدية. فالضلال كله منحصر في التقليد لأن الهوى فيه عتيد، والهداية كلها منحصرة في الاستبصار، إذ له من وجوه التوفيق أعوان وأنصار.

فقد علمت بهذا أن المتبوع الذي يهتدي به مَن يتبعه لا بد وأن يكون على أحوال المهديين، وأي شيء أحوال المهديين أن لا يكون لأنفسهم عندهم مقدار ولا قيمة لما استولى على أسرارهم من التجليات العظيمة، فهؤلاء هم الذين يفهمون عن الله، وبقدر فهمهم عن الله يفهمون عباد الله، ولا يسمّى هذا تقليداً إذ لا يتناوله رسم التقليد الذي ذكرناه أولاً، لأن العلامة على صدق حاله ومقاله لائحة، والحجة لمتابعته ـ وإن خفيتْ عن أعين العميان ـ واضحة.

وتعرّفت منه أن مَن فيه ذرة من كبر وحب وجاه ورياسة ليس بأهل أن

يقرَّب ولا يُدنى ولا يقرّ له أحد بمتابعته علينا لأنه من أولياء الشيطان الذي هو رأس الضلال وبسببه كان كل عماء وضلال، وهذا هو التقليد الذميم، إذ لا حجة لصاحبه تستقيم. ومعرفة هذه الأحوال في مَن توجد فيه لا تخفى على أحد له أدنى إدراك، فإن شاهد ما يوجب الاتباع فليتبعه وليمتثل أمره في كل ما يأمره به مما يقتضي ترخُّصاً أو تشديداً لأنه ثقة. وقد قالوا: العلم الرخصة عن ثقة، أما التشديد فكل أحد يحسنه. وتكون هذه المشاهدة له حجة تقضي بأنه في اتباعه إياه وانقياده له غير مقلِّد، وإن لم يشاهد ما يوجب الاتباع فليدعه وليطلب غيره حتى يعثر عليه ويكون حاله حينئذ التوقُّف والاحتياط، فلا يقدم على فعل ولا يعقد بقلبه على شيء حتى يتهيّأ ذلك له من جهة الهداة المرشدين الذين ذكرنا أحوالهم وصفاتهم.

وبالجملة فالتقليد كله مذموم ولا حاجة بأحد إليه وهو ضار لصاحبه غاية الضرر، وإنما يطلب الأعمى مَن هو أعمى مثله، فلو بقي على عماه من غير أن يتعلق بأعمى مثله لكان خيراً له، على أن هذا نوع إبصار يمكن أن يخرج عن حال العماية ويكون له ذريعة إلى الهداية.

فإذا تقرّر هذا علمت منه أنك فيما قلته واعتقدته من انقيادك إليّ وتعويلك عليّ منشوب لأني لست على حال مَن يُهتدى باتباعه، ثم أقول ما قاله ذلك الرجل الذي دعي إلى تولي القضاء ـ وأظنه أبا حنيفة رحمه الله ـ حين عرض عليه ذلك: «لا أصلح للقضاء» فروجع في ذلك فقال: «إن كنتُ صادقاً فقد قلتُ لا أصلح وإن كنتُ كاذباً فالكذّاب لا يصلح للقضاء».

وأما قولك: فلِمَ أقررتني عليها؟ فإني لم أقرك عليها لأني في كل وقت أتبرأ إليك من صحة كل ما أقوله لك، وهذا هو الذي يلزمني لا غير. وأما أن أخزن لساني أو أكفّ بناني مع كونك محبّاً في هذيانهما وترهاتهما فمما لا أعرف له وجهاً. وأما قولك أتعبت نفسك في كذا وفي كذا، فللتعب خُلقنا وأيّما أكثر تعباً أن يأخذ الإنسان قلماً بيده ويحركه على صفحة كاغد بما يسنح في خَلده أو الطحن بالرحى والخدمة بالمسحا؟ فالحمد لله الذي قلّل علينا التعب والنصب وصرف عنا من الأمور الشاقة على الجسد ما يؤدي إلى الهلاك

والعطب. فهذا ما أردنا أن نذكره لكم من حال التقليد مما يصلح أن يكون تماماً لما تكلم به ذلك الرجل في شأنه حسبما فعلناه في الآيات التي فسّرها، والله الموفق لا ربّ غيره.

ونُعلمكم بأن فلاناً كان أكربني حاله كثيراً لما انتشب[1] مع أولئك القوم بالجهة الفلانية ثم بلغني عنه بعد ذلك أنه جاء إلى الجهة الفلانية على حال سيئة، فلما بلغني ذلك أدركتني شفقة عليه وقلتُ: الرأي أن أكتب له كتاباً أتكلم فيه معه بما يخلق الله تعالى من الكلام لعل الله تعالى ينفعه بذلك، فخاطركم معه لعل الله تعالى يراجع به، وربما كان لكم تشوُّف إلى ما تضمّنه ذلك الكتاب فها أنا أذكره لكم بنصه:

«الحمد لله: من فلان إلى فلان، وقد بلغني حالك وما أنت فيه من الضيقة والمسكنة والكربات المتلوّنة، وما اعتمدته من الارتفاق بالظلمة والتورُّط في الفتن المظلمة. كل ذلك بعد أن بذلت جهدك واستفرغت جميع ما عندك في طلب الدنيا ومتابعة الشهوة والهوى فلم تنل طائلاً مما أمّلت بل أعقبك تعبُك واقتحامك وسماحتك بدينك الذي رميته من يدك ونبذته خلف ظهرك أن صرت لأخساء الناس من الظلمة والفسقة وأتباعهم موالياً وممالياً ومدانياً تلتمس بذلك لقمة من طعامهم يعطونها لك من سحتهم وحرامهم، بل لا تنالها منهم إلا بشق النفس ومجاوزة الحد في الذل والحرص مع التطوُّح في بلاد البربر وتشتت الحال وفراق الأهل والوالدين والوطن فضلاً عما وراء ذلك مما هو أشد منه. فانظر إلى ما آل إليه رأيك المبارك الذي لم تهتبل فيه بإشارة مَن هو أعرف منك وأشفق عليك من نفسك وأشد كراهية وبغضاً لما يصيبك وينوبك منك، بل أصررت على ذلك أشد الإصرار، واعتبطت بحالك التي أضرّت بها غاية الإضرار، ورأيت عياناً سوء عاقبة ذلك، فلم تحدّث نفسك بارتجاع، وأشرفتَ على المعاطب والمهالك، فما بان عليك أثر توبة ولا إقلاع

(1) نشب في الشيء نشباً ونشوباً ونشبة: علق فيه. يقال: نشبت مخالب الجارح في الصيد/ ويقال: نشب فلان فيما يكرهه وقع فيه (المعجم الوسيط [2/ 920]).

مع قيام الحجة عليك بما رزقك من العقل والفهم وما علّمك من العلم؟ ما هذا منك إلا أمر شنيع وحال فظيع لا يرضى به مَن له أدنى مسكة من معقول ولا يقع فيه إلا كل غبي جهول. فأفق من رقدتك وانتعش من حيرتك وارجع إلى الصلح، فأنت متمكن منه بما لطف الله تعالى به لك من تعويق المطالب وتعسير المآرب وتنغيص الحال وتكدير البال، إذ لو كنت صادفت غرضك المطلوب ووصلت إلى كل مراد ومحبوب لكان ذلك من الله تعالى طرداً لا يُرجى بعده تدارك، ووقوعاً في مهواة لا يكون لك منها تماسك كما قال أبو إسحاق الإلبيري رحمه الله تعالى في وصيته لابنه في قصيدته التائية:

فإن لم تنأ عنه نشبت فيه ... ومَن لك بالخلاص إذا نشبت

ولا شك أن الحالة التي أنت عليها منَّة من الله تعالى لديك، أوصلها بفضله إليك لما أراده ـ والله أعلم ـ من الإبقاء عليك، فاغتنم هذه الفرصة التي أمكنك اغتنامها وخلِّص نفسك من الورطة التي أرداك اقتحامها، واعمل على حسب هذه النصيحة التي ألقاها إليك مَن أعياه انتظار أَوْبَتِك وشاركك في منفعتك ومضرّتك، وتأكد لك عليه حق راعاه لك بما نبّهك عليه في هذا المكتوب، وبوده لو كان الأمر بيده أن يوصل إليك كل محبوب ومرغوب. ولا تخف مما تعمّرت به ذمتك من ديون بينك وبين الناس فإن الرب الذي ترجع إلى بابه وتتعلق بجنابه يخلصك من حيث لا تشعر ولا تحتسب ولا تقدر، وثِق بالله تعالى تنَل منه كل خير وإحسان، وتجرّد له من حولك وقوتك، فأمان الله تعالى على العريان، وإن لم تفعل ما ذكرته لك ودمت على إصرارك وجماحك ونفارك خفتُ عليك أن تقع في نشبة لا تطاق، وكربة يعجز عن تحمُّلها النطاق، ومَن أنذر فقد أعذر، ومَن بصّر فما قصّر. فالله تعالى يقلب قلبك ويُفرج كربي وكربك ويصرف عنك نزغات الشيطان ويجعلك في كنفه وحفظه حتى لا يكون له عليك سلطان بمنِّه وكرمه.

***

الرسالة الخامسة عشرة

وبعد، فقد بلغني كتابكم، وقد أحسنتم في نقل كلام ذينك الرجلين

الفاضلين في الفقر والغنى والعبودية والحرية لنتعرّف بذلك ما لنا وما علينا، لأن الاطلاع على نصوص القوم متعذر علينا في هذا الموضع من وجوه كثيرة، فإذا كتبت بشيء فإنما أكتب بما يظهر لي من غير أن أستعين على ذلك بكلام أحد في الغالب، فإن أصبت المفصل في ذلك فما مثلي أحد في الوجوه، وإن أخطأته فليس بملوم باذل المجهود.

وقولكم: وما ذكرت لكم كلام الرجلين إلا لأتعرّف ما عندكم فيه، والذي عندي فيه أني لا أدري ما الذي أقول لكم لأني إذا سلكت سبيل التقليد اعتقدت صحة جميع ما قالاه فبطل عليَّ جميع ما فهمته وقلت لك: حُل في الماء كل ما كتبت لك ورسمته، وهذا هو الصحيح الذي ينبغي أن يرجع إليه لكنكم لا توافقوني عليه. وإن سلكتُ في ذلك مسلك النظر معهما ـ مع علوّ شأنهما ـ كان ذلك مني سوء أدب لا محيص عنه، وفي ذلك ما فيه. ولو كانا من غير أهل هذا الطريق لكان الأمر عليّ أخف، فالأوْلى أن يسلِّم لهما ما قالاه وأن يعتقد أن كلامي وكلامهما لم يتواردا على محل واحد تناولاه، وإلا فإن الحرية التي ذكرها ابن عطاء وأنها تستلزم شهود الأغيار كيف يتلاقى ذلك مع ما ذكرتُ في معنى الحرية، والأغيار على ذلك التفسير لا وجود لها حتى تكون مشاهدة، وما ذكرته في معنى الحرية هو الذي تشير إليه نصوص القوم الذين يرجع إليهم ابن عطاء وغيره. وانظر باب الحرية في «الرسالة» تجد مصداق ما قلناه. وما محوتُ ما محوتُ بإثر ذكر معنى الحرية إلا لأني ذكرت فيه من معناها ومن ثمراتها ما يمكن أن ننازع فيه، فمحوته لذلك، ووقع ذلك مني قبل انفصال الكتاب عني بيوم بعد أن كان بقي في يدي مدة طويلة أرتقب فيها وجود الحامل كما كنت ذكرت لكم، فحمدت الله تعالى وقلت: كان ذلك التأخر لحكمة لم أشعر بها وأبقيت عوضاً من ذلك ما لا يمكن أن ننازع فيه، وقد وافقت في ذلك ما ذكره الغريب الفارسي عن بعض الملامتية في الكلام الذي حكيتموه عنه: ما دام بين العبد وبين الله بعد يسمّى عبداً، وإذا تحققت القربة يسمّى حرّاً، وقوله في الرد عليه لم أفهمه، كما لم أفهم أيضاً قوله: ووجه الفرقان والترجيح أن الحر إذا أطاع رجاء عوضاً. . . إلى آخر كلامه،

ولم يدخل لي ذلك في سملوخ فضلاً عن أن يكون له عندي ثبوت أو رسوخ. ولعلهما قصدا في كل هذا إلى تعمية هذه الحقائق عن الناس لأنها قد تضرُّهم، وإذ لا حاجة بهم إليها في سلوك الطريق الذي استمر عليه أسلافهم.

وقد يكون في كلامهما رموز وإشارات يفهمها أربابها، وتكليم الناس على قدر عقولهم دأب المعلمين المرشدين، فإذا جاء مَن هو قُلَيقلَة مثلي لم يعرف ما وراءه ولا ما قُدَّامه فتكلم بكلام ربما يتعجل به حِمامه، وإن وجد في حاله سلامة ربما يُعقبه ذلك في مآله تحسُّراً وندامة. وهكذا يفعل أصحاب الكيمياء فإنهم لا يفيدون بكلامهم مَن يحبون إفادته إلا من وراء حجاب الرموز، فإذا فكُّوا تلك الرموز ظهرت لهم الكنوز، فإذا سمع العوام كلامهم وأخذوا من ظواهره ما يرون أنه مقصودهم ومرامهم ثم أخذوا يحللون ويركِّبون على النحو الذي يعتقدون وبحسب ما إليه يذهبون لم يصادفوا المقصود ولا المراد. وقد ينهرق متاعهم في الرماد، فإذا انقطع من ثمرة عملهم رجاءهم وضاع في تحصيل أملهم سهرهم وعناءهم، أحالوا ذلك على جهل الراسم لتلك الكلمات ونبذوها من أيديهم كما تُنتبذ القذاة، ولكنه يسلم منهم باعتقادهم فيه الجهل بتلك الصنعة. وأما لو كشف لهم عن حقيقة الأمر وأطلعهم على مكنون السر ثم عملوا على حسبه فأصابوا حقيقة مذهبه لم يسلم منهم من الوقوع في مهالك لا تحصى ولا ينجيه منهم أن أغفلهم إلا أن يخلّي كساه في أيديهم ويُقوم عصى. فهذا هو أولى ما يتأوّل عليهما وعلى أمثالهما من المحققين العارفين. والله تعالى يمن علينا بالفهم عنهم والإصغاء إليهم والأخذ منهم، ويوفقنا لمعرفة أقدار أوليائه المقربين ويرزقنا من عنايته وخصوصيته ما نكون به محبين في المحبين بمنِّه وكرمه. وإلا فإن لم نتأوّل لهما هذا أو ما أشبهه فإنه لا محالة يكون في ظاهر بعض كلامهما قصور لا يمكن أن يصدر من أحد ممن شمّ شيئاً من هذه الطريقة فضلاً عن أمثالهما من المحققين، وإذا أحسنت تأمل ذلك الذي قيّدته من كلامهما رأيت حقيقة ما قلنا، ولولا العجلة لبيّنت لك ذلك.

وأما الملامتية الذين أشار إليهم الغريب، فهم الصوفية، وذلك اللفظ لم

أره لغيره وهو يستعمله في كتبه، نسبهم إلى السلامة، كما أن الملامتية طائفة أخرى نسبوا إلى الملامة، وإنما قيل لهم ملامتية لأنهم سلموا من الملامة التي ألفتها الطائفة الأخرى، وإنما قلت ألفتها لأنهم ألفوا لوم النفس أبداً وفي كل حال، وهذا هو عمدة مذهبهم. وقد اختلفوا في تفضيل إحدى الطائفتين على الأخرى، فمذهب الحاتمي والذي يظهر من مذهب هذا الرجل تفضيل الملامتية على الصوفية، حتى إن الحاتمي ذكر أن حالهم هو حال نبينا محمد ﷺ، وحال الصوفية هو حال موسى عليه السلام، وأظنه نقل ذلك عن الشيخ أبي عبد الرحمٰن السلمي من الجزء الذي وضعه في أحوال الملامتية.

ومن شيوخهم: حمدون القصّار، وأبو حفص الحداد، وعبد الله بن منازل، وقد عدَّ الحاتمي منهم: أبا يزيد البسطامي، وسهل بن عبد الله من المتقدمين، والشيخ أبا مدين، والشيخ عبد القادر من المتأخرين، وذكر معهم غيرهم لا أستحضر ذكرهم الآن. ومذهب السهروردي تفضيل الصوفية على الملامتية، وحججه على مذهبه أظهر من حجج الآخرين، والله تعالى أعلم.

ولم أدرِ هل اطّلع على كلامي في الحرية والعبودية الرجل الذي تنازعتم معه؟ وبتقدير اطلاعه ما الذي قال فيه؟ وعجباً لكم كونكم تركتم لكلامي تلك النصوص وما أردتم أن تجمعوه معها من كلام القوم وتضمُّوه إليها، وما مثلكم في ذلك إلا مثل مَن اطّلع على نصوص كثيرة نصَّ عليها اللخمي وابن يونس وابن رشد وغيرهم، ثم تركها وأخذ بفتوى بعض مَن ينتحل الطلب من أهل عصره، مع أنه لم يطّلع على شيء من تلك النصوص فضلاً عن أن يعرف لها معنًى أو تأويلاً، هذا هو التقليد المحض.

وقولكم: ولما قرأت السؤال الذي أوردتموه على لساني فرحت به من وجه لأجل كذا ولأجل كذا، صحيح، إن ذلك يقع منكم، وتلك الاعتقادات منكم من حسن الظن بي كما ذكرت لكم قبل هذا.

وقولكم: فلما تحققت ثبات تلك الصفة فيكم قلتُ: لقد حصلت في ورطة إذ يجب عليَّ ألا أعصيه ولا أخالفه. . . إلى آخره، فأي ورطة حصلتم فيها وأنا أحب أن تعصيني وتخالفني في بعض الأمور ـ بل في أكثرها ـ فإن قُدِّر

حصولكم بسبب ذلك في ورطة فأنا أول مَن يسبقكم إليها ويقع فيها، فإذا وقعنا فيها جميعاً فلا وجه لما ذكرتم من الانكماد والانغمار لأن حزن الجماعة فرح. والظاهر أن هذا التقدير باطل، فلتكونوا من ذلك في أمان ولا تخافوا منه خوف الصادقين ولا خوف المنافقين.

وقولكم: فناديت بلسان حالي ومقالي: يا أرحم الراحمين اقتطعني عن النظر في أحوالي وأقوالي، ضحكت منه حسبما كنت ضحكت في تلك المسألة التي كنت ذكرت لكم أنكم قلتموها ووددت لو كنت سمعتها منكم حين قلتموها بلسانكم المقالي، وقد أبى الغلط أن يزول عنكم. وليت عمري أين سمعت بذلك الدعاء عن أحد من محققي السلف؟ وهل يتصور الوصول إلى تلك الحال بطلب أو سبب؟ ولعلك لما ناديت بذلك الدعاء كنت على تلك الحال لكن على الوجه المرضي عند الله تعالى لا عندكم، ولذلك حصل لكم ذلك الكمد والانغمار، وتكون في ذلك بمنزلة الرجل الذي كان راكباً حماراً وهو ينادي ويقول: «مَن أصاب لي حماراً وركب على هذا؟» الذي ذكرت ها هنا الكلام الذي ذيّلت به تلك المسألة التي أشرت إليها والمسألة التي قبلها. فلا فائدة في تكرير الكلام عليها مرة ثالثة، مع أن المعنى في الجميع واحد «وكل طريق ينفذ إلى الجامع».

وقولكم: وهذا الأمر مما يكدّر عليَّ بعض الأوقات ثم أصرفه عني في بعض الحالات وأقول كذا. فاعلم أن الوقت الذي تكدَّر عليك أصفى من الوقت الذي صرفت فيه الكدر عنك، ولو بقيت بكدرك كان أحسن لك، ثم إنك التمست ذلك الصرف بمعنى ذلك الكلام الخلف الذي قلتم: الله عزَّ وجل الذي أشهدني خصوصيته وكشف لي حقيقته هو يمنّ عليّ بمتابعته وسلوك طريقته. وأيّ خصوصية لي أو حقيقة عندي؟ ولعلك لو اتبعتني وسلكت طريقي لكان الهلاك والشقاء أَوْلى بك وأحرى، ولم تبكِ إذ ذاك حزينة مع أخرى. فكفّ خاطرك عن الجولان وأرِح سرك من الغموم والأحزان وقلبك من التطلُّع ليكون وكان، وانصب هذا الكلام كله قبالة عينك كما تنصب المصباح والسراج، وكن يحيى السراج كما أنك يحيى السراج.

ولا أدري كيف يؤمر بتحصيل الحاصل من غير أن يسلك في التعبير عنه هذا المنهاج، فإن لم تكن كذلك لم يفارقك الاعوجاج وتلاعبت بك الأمواج، فإن طلبتَ مخلصاً أعوزك المعين والصاحب، وإن رُمت متعلقاً كنت كمن يتعلق بخيوط العناكب وكأنك بعد هذا لا تتمالك من أن تتكلم ببرصة أخرى أشرّ لغواً وأكثر هجراً، ولكن تراني قبالتك الوسواس الخنّاس حتى تتلفظ بكلام ليس به بأس، على أن هذا محال في الوجدان لأن شيخك ـ بزعمك ـ لم يتلفظ به حتى الآن، والتلميذ لا يتجاوز بحاله حال شيخه حتى يموت ذلك الشيخ، وأما ما دام في قيد الحياة فلا يزال يقع معه ويقوم ويغرق ويعوم، وليس على حالة واحدة مرضية يثبت ويدوم إلا إذا أدركتهما عناية الحيّ القيُّوم فيخرجهما إذ ذاك عن كل معلوم ومرسوم ويخرب أوطان إرادتهما وأمانيهما من النجوم إلى التخوم ويصيح في أرجاء تلك المنازل الخالية الببغاء والبوم. فإذا مرّ المارّ بتلك المتارب ونادى: أيتها الخربات أين أهلك الأحبة والحبائب؟ لم يُجِب نداها إلا صداها، فحينئذ يتحقق أنهما قد ذهبا في الذاهبين وورث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين، والحمد لله رب العالمين الذي حبّب إلينا الإيمان والإسلام وكرّه إلينا الفسوق والعصيان وعبادة الأصنام، حمداً لا يحصى ولا ينتهى إلى آخره ولا يُستقصى.

فهذا هو السبيل الذي سلكه المتأدب المتقرب، فإن خطر لك أن هذا من نعمه يسير قليل فأقول لك: قليل الله لا يقال له قليل، ثم إن كان ذلك قليلاً، فأنت أقل من كل قليل. فهذا منزع من الهذيان المعهود مني، والله تعالى يرحمني ويعفو عني.

وأما الذي تشير إليه فإني أقول: من أين يُعلم لفلان قط علم أو فهم أو تحصيل وهو لم يجالس المشايخ ولم يمارس الطلبة؟ ولولا فلان الذي هو عند أهل الاعوجاج نصف طبخة، ولا أدري كيف هو عند آخرين؟ لم يذكر شيء من ذلك، فالمسكين مسكين هو ولو نطق بالحكمة. وقد قلت لكم في بعض الكتب التي سلفت من الألفاظ العامية: الحمد لله على قلة الحسب، وذلك في نازلة وقعت في بعض الأزمنة كلّف فيها السلطان أهل الجاه والحسب بعض التكاليف

الشاقة فقال حينئذ بعض الأرذال والسوقة ذلك الكلام. والألفاظ العامية كثيراً ما أسوقها في كتبي وأصل بها الكلام الفصيح العربي لأن الأمثال العامية تشير إلى معانٍ حقيقية لا يمكن أن يستفاد مثلها إلا من الكلمات الحكمية، ثم هي أعْلَق بالقلوب والنفوس من كل منمّق من الكلام أودع الدفاتر والطروس، فلذلك اعتمدتها، فاعلم هذا.

***

الرسالة السادسة عشرة

أما بعد: فقد بلغني كتابكم المستوعب للأخبار بجزئيات كثيرة يمكن أن يتشوف إلى الاطلاع عليها، وقد جئتم في ذلك على الغرض والحمد لله.

منها ما قاله لكم فلان أو بلغكم عنه من تقبيح تقليدكم لي، وذلك هو الحق الذي ينبغي أن يُعتقد ولا يُنتقد، ولكن ما استدللتم به على حسن ذلك صحيح مستقيم موافق لما كنت قرّرته لكم في تلك المسألة لو وافق ذلك ما في نفس الأمر، لكن الظاهر أنه لا يوافقه.

ومنها ما تراجعتم فيه الكلام أنتم وفلان، وذلك من غليانكم الذي لا تكادون تنفكُّون منه، ولكنه غليان واقع في محله، إذ نتيجة ذلك وثمرته لا مضرة فيه، بل فيه كل المنفعة والفائدة. ولا أقول إن الفائدة فيه راجعة إلى أحد غيري من غير أن يكون لي فيها نصيب، بل أنا آخذ منها الحظ الأوفر والنصيب الأكبر.

أما أولاً فلِما عندي في مجاذبة الكلام ومراده من الراحة والانشراح، ولذلك أجد لكتابكم الذي يرد عليَّ ويكون فيه كلام كثير وتخبروني فيه بوقائع تقع عندكم انشراحاً زائداً لذلك، ويكون لي في اقتضاء الكلام مني كغريم ملازم على أنكم لا تنتبهون لنُكَتِ المسائل التي يحتاج فيها إلى مزيد نظر فيقع فيها من الكلام ما تستحقه، وما يكون فيه نوع غرابة بحيث يقول السامع له: أي شيء هذا؟ وفي مراده الكلام في هذا الجنس يكون الملك أو الهلك، فإن كان

الملك فغبطة دائمة ونعمة متصلة، وإن كان الهلك فميتة وحية، ولكنها رضية من قبل أنه يتسبب فيها عند مَن له أمر أو سلطان الأخشان من متطلّبة هذا الزمان الذين إذا سمع الحمقاء بذكرهم يمسحون بأيديهم على وجوههم تبرُّكاً بهم إذ يكون لقتيلهم نوع إسوة بما صدر من الناطق بالصواب حين قال: الحمد لله الذي لم يفعل كذا وكذا، ولا أقول إن القضيتين تتشابهان من كل وجه ولكن بينهما مشابهة خفية يعرفها أهل الحق، ولو شئت أن أقول هذا من الباذنجان لقلت: والله تعالى ولي الحفظ والعصمة برحمته، ولكنكم لا تلمُّون في كتبكم إلا بما يقتضي التكلُّم على أمور بيِّنة لا كبير غرابة فيها عند أهل المعرفة، بل هي عندهم من الواضحات الجلية، لكن ذلك من لطف الله تعالى بي ويُخيّر الله للعبد وهو كاره.

وأما ثانياً: فلِما لي في مجاذبة الكلام ومراده من الفوائد التي مرجعها إلى معرفة الحق من الباطل والصواب من الخطأ والحسن من القبيح، لأني في كل ما أتكلم به لا ألتزم له صحة ولا أعتقد فيه إصابة، وإنما أنا فيه بمنزلة مَن ينفّر عن أمور غائبة كمَن يحبس شيئاً في يده ويقول لجماعة من الناس: أي شيء في يدي؟ ففي تعيين ما في يده تتفاوت قرائحهم، فإذا قال واحد: في يدك كذا وكذا، وفهم ذلك من أمارات وقرائن لاحت له، لم يقطع بصحة ذلك، إذ لعل الأمارات والقرائن التي يفهم منها غيره خلاف ما فهمه هو أظهر وأبهر ولكنها عميت عليه فيرجع حينئذ عن قوله إلى قول صاحبه طوعاً أو كرهاً. أما الطوع: فمن صاحب النفس المهذبة المنصفة، وأما الكره فمن صاحب النفس التي تخالف ذلك ولا يسعه خلاف الرجوع المذكور لأن كل مَن لا يرجع إلى الحق إذا فهمه ليس من العقلاء في شيء بل هو من أغبى الأغبياء وأحمق الحمقاء، هذا مع أنه يجوز أن يكون ما تضمنه يد الخابي شيئاً آخر ولكنه لم يكلف أحداً إصابة ما في نفس الأمر بل ذلك فتح من الله تعالى لأرباب الكشف والشهود، وإنما كلف أن يعتمد ما أداه إليه صحيح النظر ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 286].

فإذا تقرر هذا كان من الواجب على كل عاقل لم يبلغ إلى منازل

المكاشفين أن لا يستقل بنظر، وأن يكون له تعطُّش تام إلى ما ربما يمكن أن يكون فيه تكميل فائدة من كلام مَن هو أكبر منه أو أصغر:

فلقد يصح ويرتضى ... قول الغلام أو الغلامة

فإن وقع ذلك الذي طلبتم منه ـ وما أبعده أن يقع ـ فما أفرحنا بذلك وأشد اغتباطنا به لأني قد أرجع بسبب ذلك عن خطأ أنا عليه مستمر ومقيم، فإني أعتقد صحة قوله عزَّ وجل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية 76] لا سيما وأنا في هذا الموضع كمَن هو في البادية، إذا أردت مراجعة مسألة من كتاب أو طلب حديث نبوي أو أثر من آثار السلف الصالح عسر ذلك عليَّ أو تعذّر، وفلان وفلان من الأملياء بهذا كله، فإذا وقع منهما التنبيه لي بشيء من هذا الجنس الذي هو قليل في يدي كان ذلك أعظم غنيمة عندي، والله تعالى الموفق لقبول الحق والسلوك لمسالك أهل الصدق ولا ربّ غيره ولا إله إلا هو.

وعند هذا يقع في الوجود أمران غريبان عجيبان وإن هذا الزمان لزمان الغرائب والعجائب. **إحداهما**: أن تزول عنا المسكنة والذلة، **والثانية**: أن تتعمّر سوق شلّة. أما زوال المسكنة والذلة فلِما يتضمنه وقوع ذلك من ثبوت العزة لي في قلوب الناس، ولكن الذين ليسوا بأكياس لأنهم يرون عالِم أهل المغرب ومفتيهم ورئيسهم الذي يرجعون إليه في الحل والعقد قد قصد إلى كلام أقل الخلق وأذلّهم وأصغرهم وأحقرهم، يستفيد منه فائدة بحيث ربما يكون في يده كتاب من كتب الفقهاء ينظر فيه مسألة عظيمة من كتاب الأيمان والنذور أو مسائل إرخاء الستور، ويكون استفتاه فيها أحد الخلفاء أو الأمراء وجمع للنظر فيها مَن في زمانه من العلماء فيضعه من يده ويأخذ تلك المجلدة التي لم يقصد بها واضعها وجه الله تعالى ولا ثوابه، ولو شاء أن يحلف على ذلك في الكعبة أو بين الركن والمقام ـ بتقدير وصوله إلى ذلك الموضع الشريف ـ لفعل، وحينئذ ينعزل فلان عند الناس المذكورين من المكانة والوجاهة التي له في قلوبهم مع أن نعله التي يقذفها من رجله أطهر وأطيب من ذلك الواضع الفضولي، ولو شاء أن يحلف أيضاً على هذا في الموضع المذكور لفعل،

ويكفي في حصول هذه العزة والمرتبة لي أن يفهموا كون فلان جعل ذلك الكلام أهلاً أن ينظر فيه ويصرف له جزءاً صالحاً من وقته كيف ما كان ذلك النظر الصرف.

وأما تعمير سوق شلّة: فهو منا تمثيل وكناية، فإن سوق شلة إذا تعمّر في الوقتين المعلومين في السنة لا تكاد أن تسمع فيها بأُذن من كثرة الصياح والضجيج، ولكن كان هذا فيما خلا من الزمان، وأما اليوم فهو بمنزلة أحد أسواق الغبار الضعيفة التي تكون في البوادي، ولا شك أنه إذا وقع ذلك تتصدّى لا محالة المسائل المشكلة والنوازل المعضلة. وتنجلب من حيث لا يظن ولا يتوهم، فإذا تصدّى لنا ذلك احتجنا لا محالة إلى الكلام الكثير الذي يكون امتلاء ذلك اليد من الكاغد الذي وجهتم به منه أسهل عليَّ من شربة ماء إن لم يمنعني من ذلك مانع، وإذا كنتُ إذا كتبتم لي بأقل القليل أجْلبُ عليه أساطير الأولين وأتكلم فيه بالغث والسمين فما ظنكم بمثل هذه؟ ولكني أجدني مليّاً بهذا ما دمتُ غائباً عن تلكم المعارك. وأما لو حضرت هنالك فقليلاً ما يكون ذلك كما قال المتنبي:

وإذا ما الجبانُ خلا بأرض — طلب الطعن وحده والنِّزالا

وحينئذ تتمنُّون غيبتي عنكم كما تتمنُّون الآن حضوري معكم، ثم إنه ينضاف إلى ذلك أن ينتعش فلان ويشتعل في باطنه وقود ولكنه ليس بوهّاج فيخرج حينئذ عن حسِّه ويزيل الشاشية عن رأسه وتخرج منه تلك الأخلاق المباركة إذ لا قدرة له في هذه الحال على التغافل والمتاركة لا سيما إن صادف غلبة وعزّاً أو عضده ونصره أحد بتازَوْزا. وأما إذا سمع فلان ذلك ويحقق ما هنالك فلا تسأل عمّا يقع عندكم من كلام وصياح من غير مبالاة بما يكون فيه من فساد أو صلاح فيكون ذلك شبيهاً بانعمار السوق المذكور لكن في سالف الأوقات والدهور.

وإنما قلتُ: وما أبعده أن يقع، لأن وقوعه متضمِّن شيئاً من الحق يقع في الوجود مع أنه منذ أزمنة كثيرة معدوم مفقود ثم هو متضمن أيضاً وقوع شيء من هذه الأمور الغريبة التي ذكرناها مثل العزّ والعزل وغير ذلك، وهي وإن كانت

من الأمور الباطلة التي أُلِفَ وقوع أمثالها في العادة ولكنها بعيد وقوعها في أنفسها ولعل في ذلك خيراً.

وأما ما قيّدتموه من «تاريخ الخطيب» فقد أحسنتم، لأني كنت متشوفاً إليه ذلك الوقت، وقوله فيه: ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة في الصفات، إنما أنكرت واستشنعت على مذهب أهل الظواهر والرسوم الذين ليسوا بحجة على هؤلاء القوم. وأما كلام الذي ذكر أنه حفظ عنه ـ فإن صح عنه بذلك النص من غير أن يكون فيه تحريف أو تغيير أو تبديل بسبب سوء السمع منه أو قصد الطعن عليه ـ فالأقرب فيه أن يعتقد أن ذلك من إلقاء الشيطان على لسانه في أثناء كلامه ووعظه من غير قصد منه لذلك لتتشوش به قلوب الحاضرين وتقع به الفتنة للمستمعين، ويفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد. ووقوع مثل هذا لا ينبغي أن ينكر.

وقولي: بسبب سوء السمع، نعني به سماع العوام منه لأنهم أكثر مَن يصحب الأولياء ويغلب على القرب من مجالسهم وهم لا يعون ولا يدرون ما يسمعون، وإذا سمعوا شيئاً على وجهه لم يعرفوا كيف ينقلون، ومثل هؤلاء لا يقبل منهم ولا يؤخذ عنهم.

وقولي: أو قصد الطعن عليه، فنعني به مَن عنده حظ من فهم وفطنة يمكن أن يتلقّى به الكلام على وجهه، ولكن لِمَا خامر باطنه من الطعن والاعتراض وتطلب الزلات والعثرات لا ينقل ما سمعه على وجهه بل يغيّر فيه ويبدّل ويزيد وينقص، وإن كان في الكلام نوع تلفيف وإدماج سبكه على وجه يتمُّ به غرضه من الانتقاد والطعن، فتطرقت التهمة إليه من قِبل هذا، فوجب أن لا يقبل من مثله، فإذا أمكن وقوع أحد هذين الوجهين ـ أعني أن يكون الكلام محرَّفاً عن وجهه من قِبل الأمرين المذكورين ـ أو يكون ذلك إلقاء على لسانه من غير أن يقصده أو يعقد عليه، أو كان الغالب وقوعه لأن التحريف في الكلام كثير والطعن على الأولياء عتيد، ولأن وقوع واحد من اثنين أقرب من وقوع واحد معيَّن لم يُجز أن ينسب ذلك الكلام الشنيع إليه أنه قاله بنصه وبقصدٍ إليه حتى تقع فيه له مراجعة ويكون له عليه إصرار وثبوت. ولم ينقل ذلك

الحافظ الخطيب شيئاً من هذا، فتبديع الناس له وهجرانه بمجرّد سماع هذا الكلام منه أو من غيره ناقلاً عنه من غير تثبُّت في ذلك لا وجه له، وامتناعه هو من التكلُّم على الناس بعد ذلك حسن جميل لأنهم هم الذين نفروا عنه، وقد قيل: حدِّث الناس ما حدقوك بأبصارهم.

وأما إزالة تلك الظلامة عن الناس فهي من أفضل النعم عليهم ـ نعم وعلى غيرهم ـ ولولا وقوع ذلك الكلام ممن وقع منه في ذلك لسرى ذلك في البلاد ولتضرّر به العباد، فالله تعالى يجازي الآخذين في ذلك أفضل الجزاء وينيلهم غاية ما أمّلوه من جزيل العطاء. ولعمري لو أنَّ كل فساد وظلم هو موجود الآن وصار كالسنَّة المستعملة بُودِر إلى التكلُّم عليه ومحو رسومه عند ابتداء ما يراد أن يحدث، لم يكن الآن في الوجود شيء منه ولكانت الدنيا مطهّرة عنه، لأن القلوب من أرباب الأمر قابلة لفعل الخير مهما دعيت إليه من ألطف وجه وأقربه لا سيما إن اقترن به صدق الداعي وحسن نيته كما وقع في هذه النازلة، ولكن من سلف عمِي قلبه فسكت عن ذلك واشتدّ عماه فمالأ وداهن ووافق عليه فاستمرّ بسبب ذلك الفساد ولم يرج زواله ولا بطلانه إلى يوم التناد لأن استمرار العادة على العمل بالشيء يوجب ثبته ورسوخه، فالله تعالى ينصف الناس منهم.

وقول فلان لفلان: هذا يجب عليكم، أُنظر الناس فيما هم فيه فكيف يستسقون؟ كلام يحتاج إلى نظر لأن قوله: هذا يجب عليكم، صحيح ولكن لِما ذكرناه الآن من المبادرة إلى إزالة الفساد في أول حدوثه قبل أن يستحكم لا لما ذكره هو من قوله: أُنظر الناس فيما هم فيه فكيف يستسقون؟ لأنه يفهم منه أنّ ما وقع من الظلم منافٍ للاستسقاء وأجابة الدعاء وأنّ جريان الناس على العدل هو الذي يناسب الاستسقاء وإجابة الدعاء، وقد جرى هذا في أوهام الناس مجرى الدم في الجسد، وليس ذلك فيما يظهر لي بصحيح لأن الذي ينافي الاستسقاء إنما هو المنكرات التي يفعلها عوام الناس والرعية، ولا أحتاج إلى ذكرها لكثرتها فيكون ما أصيبوا به من القحط عقوبة لهم أو تأديباً على ما صنعوا من ذلك فيحتاجون عند أخذهم في الاستسقاء إلى التوبة والإقلاع عما

اقترفوه من ذلك لعلهم يرحمون، ولذلك أكثر ما يكون في الاستسقاء الاستغفار. وقد استسقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يزد على الاستغفار.

وأما منكرات الظلم فهي من منكرات الخاصة وأرباب الأمر وهي من جملة العقوبات أو التأديبات للرعية والعامة بمنزلة القحط الذي ابتلوا به، فأي منافاة بينها وبين الاستسقاء حتى يتقدّن بإزالته بين يدَي الاستسقاء بل لعلها مما تقوّيه وتؤكده لأنهم إذا قصدوا للاستسقاء لم يكن حالهم إلا طلبهم من مولاهم الإقالة من الذنوب التي أوجبت لهم العقوبة بعدم نزول القطر، وكذلك الإقالة من الذنوب التي أوجبت لهم العقوبة بظلم أولي الأمر فيتقوّى لهم حال الاضطرار لِما توالى عليهم من المصائب والعقوبات بارتكاب الأوزار فيكون ذلك أسرع إلى إنابتهم وأبلغ في إجابتهم، قال الله عزَّ وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل: الآية 62].

وأما عقوبات الظلمة على منكراتهم فقلَّ ما تكون بشيء من هذا، ولكن عقوبتهم إنما تكون بالإملاء والاستدراج وإسباغ النعم والتمكين من ظلم الأمم حتى إذا استوفى أحدهم ما قدر له من ذلك أن يستوفيه وحان حين أن يحيق به من عقوبة الله ما كان نسيه، أخذه الله بغتة من حيث لا يحتسب ولا يقدر، وجعله آية وعبرة لمن يتقدّم ومَن يتأخّر. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزَّ وجل يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**»[1] ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هُود: الآية 102].

وعجباً لفلان كيف سلّم له ما قاله على حال وفور فهمه ونفوذ ذهنه وقوة فطنته، وجاوبه بشيء آخر مما لا مدخل له في ذلك من قوله: هذا الشخص ينقل عنه كذا. . . إلى آخره، وما فعله فلان في محاولة ذلك الأمر حسن كله

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ حديث رقم (4409) [4/ 1726] ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (2583) [4/ 1997] ورواه غيرهما.

ليس لأحد فيه ما يقول، والله تعالى يتلقى له ذلك بالقبول ويعطيه بسببه غاية الأمل والسؤل بمنِّه وفضله.

وقوله: وما يعطى برسم الجهاد إنما يكون بطيبة نفس برضى المعطي له، صحيح، ولكن كيف يعطى الآن بطيبة النفس ورضى المعطي له وقد استولى البخل والشح على النفوس وصار القيراط الذي في يد مَن يعجبك شأنه في هذا الوقت آثر عنده من دينه الذي لا خلف له منه، وقد عوين في هذا الوقت مصداق ما قلناه بالضعفاء والمساكين الذين يموتون بالجوع والبرد وأكثرهم أطفال صغار لم يبلغوا أوان الحلم ولم يخط عليهم قلم، وأصحاب الآلاف المؤلفة والقناطير المقنطرة يشاهدونهم على هذه الحال ولا تدركهم عليهم شفقة الإيمان ولا تسمح لهم نفوسهم الشحيحة بمواساة ولا إحسان. هذا في ما يتوصّل إلى القيام به بمجرد المال.

وأما الجهاد الذي يحتاج فيه إلى مباشرة أمره بالنفس مع المال فكيف يتصور أن تسمح بذلك نفوس الناس اليوم؟ فيضطر الحال الأمراء لا محالة إلى أن يأخذوا ذلك من الناس على ما أحبوا أو كرهوا، ولا شك أن هذا الأخذ فاسد وما ينبني عليه أيضاً فاسد مع أنهم ـ أعني الأمراء ـ اعتادوا غاية التوسع والترفُّه في الدنيا وبلوغ نهاية الأوطار فيها، ولا أقول الأمراء بل أتباع أتباع أتباعهم، وبأي شيء يصلون إلى ذلك؟ أتراهم يصلون إليه بكدِّهم وكسبهم؟ أو بغزل أمهاتهم؟ لولا ما يأخذونه من الناس بالظلم والقهر أو تُكلِّفوهم أن يكونوا من الترك للدنيا والتقشُّف فيها مثل عمر بن عبد العزيز هيهات هيهات، فبحقكم إلا ما أخبرتموني كيف يكون هذا الأمر مستقيماً ومن مخالفة الدين المحمدي سليماً؟ لا تجدون ذلك أبداً ولا يمكن أن تجدوه في مجرى العادة إلا بما أقول لكم، وذلك إذا استقامت أحوال علماء الوقت بزوال الغرَّة والعمى عن قلوبهم، فإذا زالت عنهم الغرَّة والعمى وشاهدوا ما الخلق فيه من هلاك الدين والدنيا أشفقوا عليهم شفقة الإيمان وحرصوا على تنحيتهم مما تعرضوا له في الآجل من التهافت في النيران وفي العاجل من استطالة الظلمة وأهل العُدوان مع أنهم قادرون على ذلك من أقرب وجه وأسهله وأيسره وهو أن يعمدوا إلى أرباب

الأمر فيقولون لهم: أي شيء حاجتكم؟ فيقولون لهم ـ لا محالة، ولا يسعهم أن يقولوا خلافه ولا يجدون خلافه ألبتة ـ: حاجتنا أن يستقيم أمر سلطنتنا ونحصل على جميع فوائدها ويصلح مع ذلك حال رعيتنا لأن بصلاحهم صلاحنا، فيقولون لهم: وهذا أيضاً هو الذي نريد وجئنا لندلكم عليه وهو موافق لرضى الله تعالى مؤدٍّ إلى سلامة العواقب وبلوغ الآمال والمآرب مع حصولكم على جميع أغراضكم، فيقولون لهم: ـ لا محالة ـ نعم دلُّونا عليه ومَن الذي يكره هذا؟ وقد ضمنتم لنا حصول الأغراض والمقاصد مع السلامة من المظالم والمفاسد. فيقولون لهم: أما ما ذكرتم من استقامة سلطنتكم وتحصيل فوائدها فلكم طريق إلى وصولكم إلى غاية أملكم من ذلك بما نعيّنه لكم من أموال كثيرة جمعها مَن تقدّمكم بالظلم والغصب قد مكّنكم الله تعالى من أخذها عفواً صفواً وجوّز لكم ذلك بل أوجبه عليكم من غير أن تخافوا بسبب ذلك مضرّة ولا تتوقّعوا غائلة، وتلك الأموال يعلمون أين هي وهم قادرون على أن يعيّنوا مَن هي بيده ويُبيِّنوا كيف يتوصل إلى أخذها منهم، ولكن يمنعهم من ذلك سَرَيان الأمر إلى بعضهم، ولكن الحق أحق أن يُتَّبع ـ وهذا كلام عرض ها هنا وليس من مقالتهم التي أخذنا في تقريرها ـ ثم يقولون لهم: وأما ما ذكرتم من صلاح رعيتكم الذي استقامة أمركم منوط به فهو أن تعمدوا إلى كل مَن شهُر عندكم بدين وعلم وفضل فتجعلوا منهم خطباء وواعظين ومذكِّرين ومحتسبين ومتصرفين في الحكم والأمر والنهي. فإنكم إذا فعلتم ذلك انقاد الناس لهم ومالوا إليهم بكليّتهم، فتعلّم أهل الجهل منهم ما جهلوا، وتذكّر أهل الغفلة منهم ما عنه غفلوا، فسرى في بواطنكم مما جاءت به الرسل شيء من النور، وكان للشريعة المحمدية في هذه الأزمنة الردية بعض ظهور فيقدرون بذلك على بذل أموالهم وأنفسهم في مرضاة الله تعالى ومجاهدة أعداء الله ومواساة الضعفاء من عباد الله، فيؤدي قيامهم بذلك إلى نموّ أموالهم وصلاح أحوالهم وحصول البركة في جميع متناولاتهم كما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية 96] وقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْۚ﴾ [المائدة: الآية 66]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: الآيتان 16، 17] إلى غير ذلك من الآيات التي فيها أمثال هذه المواعيد الصادقة التي رتبها سبحانه على الإيمان والتقوى والطاعة والاستقامة.

فصلاح الدنيا إنما يتمّ بصلاح الدين، وصلاح الدين إنما يكون بصلاح الأمراء، وصلاح الأمراء إنما يكون بصلاح العلماء، وصلاح العلماء إنما يكون بأن ينزع الله تعالى عن قلوبهم الغرّة والعماية كما ذكرناه، فإذا نزع ذلك عنهم شاهدوا أزمنتهم وما اختلّ فيها وما انتقص منها وعرفوا مبلغه ومقداره فاشتغلوا بأهمّ الأمور وما يؤدي أخذهم فيه إلى صلاح حال الخاصة والجمهور، وذلك أن يأخذوا مع مَن استخلفوا عليهم في معاملات وعلوم تكون سبباً في تصحيح إيمانهم وتقوية إيقانهم وصلاح أديانهم.

أما المعاملات: فأن يتصرفوا بينهم بالعمل بأخلاق الإيمان التي استفادوها من تعليم مشايخهم ورياضتهم لهم من الشفقة عليهم والرحمة لهم والرفق بهم وإدخال المسرّات عليهم وإيصال المنافع إليهم واستدفاع المضار عنهم. وبالجملة يعاملونهم حسبما عاملهم مَن هم خلفاء منهم من الأنبياء والمرسلين، وخذ ذلك من قصة الأعرابي الذي بال في المسجد والأعرابي الذي قال له: «لا أحسنت ولا أجملت» وغير ذلك مما لا يحصى كثرة.

وأما العلوم فأن يتشاغلوا معهم بعلوم تؤدي إلى أن يكونوا على هذه الأحوال السنية والشيَم المرضية التي هي من أخلاق النبوءة، ويعلِّمونهم كيف يتعبَّدون لربِّهم وكيف يتأدّبون بين يديه في حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم ومقاصدهم، ويعلِّمونهم كيف يعظِّمونه ويُجِلُّونه تعظيم مثلهم وإجلاله، إذ ليس في طوقهم ولا وسعهم أن يقدروا الله حق قدره، ويذكر لهم آلاء الله ونعماه فيحبِّبه بذلك إليهم ويبيِّن لهم كيف يتوصلون إلى الغبطة بلقاء الله تعالى بعد الموت فيزهدوا لذلك في الدنيا ويتجافوا عنها ويستحلوا مفارقتها، وكم أعدّ من هذا وكم؟! وجميع ذلك موجود في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام الأولياء والعلماء.

فليجعلوا النظر في ذلك معهم هجيراهم ويستخرجوا لهم جميع ذلك من منطوقاتها ومفهوماتها وإشاراتها وتلويحاتها فلهم في هذا المجال رحب بحيث لو أعطي أحدهم عمر نوح يتشاغل فيه بذلك لم يبلغ عشر معشاره، ويشتغلون بذلك عن كل فضول هم بصدده الآن ولا يأخذون معهم في الدقيق من مسائل معاملاتهم التي مرجعها إلى استيفاء حظوظ دنيوية توجب سماحتهم بها لخصومهم عند الحاكم والقاضي والسلطان الأجر الجزيل والذكر الجميل حتى يحكموا ما ذكرناه من إصلاح عقائدهم وتحسين أحوالهم لأن ذلك هو الأصل والأساس الذي ينبني عليه ما خلقوا لأجله. ومعلوم أنهم في هذه الأزمنة الغبسة[1] لم يفعلوا شيئاً من ذلك بل نكسهم الله تعالى على رؤوسهم وأعمى أبصار قلوبهم فلم يهتدوا إلى العلم الحقيقي الذي به يُعبَد الله تعالى ويُدان لربوبيته، بل عمدوا إلى مسائل لبّسوا بها على العامة العمياء وقالوا لهم: النظر فيها هو العلم الذي تواطأ عليه العلماء، فاستبدلوا بكلام الله تعالى وكلام رسوله كلام الناس الذين هم منشوبون مثلهم أو قُل أكثر منهم، وتصرّفوا فيه كما تصرّف أرباب العقول والألباب في الكتاب والسنَّة من البحث والنظر والتدقيق والتحقيق حتى يستخرج أحدهم من إشارات المدوّنة ومفهوماتها من الأقوال المتعددة ما لا يؤيده برهان ولا بيان، ويستنبط منها من الأحكام ما لم يُنزل الله بها من سلطان ولا ينجي اعتقادها والعمل بها من مطالبة الملِك الديّان، ولو استعمل أقل من ذلك في القرآن والحديث لكانت أنفاسه كلها حسنات ولحظاتها كلها قربات، ولكان في ذلك من المصالح التي مرجعها إلى إقامة الدين والنصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله وللخاصة والعامة من المسلمين ما لا يحصى ولا يُحصر، ولكن:

يا صاحبي يا صاحبي　　ليس الفلاح بسائب

وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الفقيه كل

---

(1) غَبَسَ والغبسة: لون الرماد وهو بياض فيه كدرة، وقد أغبس وذئب أغبس إذا كان ذلك لونه، وقيل: كل ذئب أغبس والذئبة غبساء. (لسان العرب).

الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤمِّنهم من عذاب الله، ولا يرخِّص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره». وما أوجب إكبابهم على ما أكبُّوا عليه من ذلك الضلال المبين في مثل هذا الوقت المسكين إلا أنهم وجدوه من الآلات الجيدة في محاولة أمور الدنيا ووجدوا فيه ما لم يجدوه في الخدمة بالفأس وما أشبهها من الحرف الشاقة بأضعاف مضاعفة، فترى الواحد من الطلبة أشبه شيء بالعذراء المخدّرة لا في الخفر والاستحياء بل في الترف ونعومة الأعضاء، وهو قد جمع من البيضاء والصفراء الآلاف والمئين، وهي تتضاعف وتتزايد على مرّ الأيام والسنين، وهو في اكتسابها لم يتعب له فيها يمين، ولم يعرق له فيها جبين، ولم يُراع في طلبها وكسبها ما طارت فيه عينه، وكلٌّ فيه ذهنه من القوانين الفقهية ومسائل المدونة والعُتبِية والموازية بل شدُّوا أعينهم وتركوها مغلقة مطبقة وأخذوا الأموال من غير مبالاة بشرع ولا ورع من أيدي الظلمة والفسقة. فإذا جاءهم المسكين محتاجاً إلى فتواهم في نازلته دقّقوا فيها النظر وتصرّفوا فيها بوجوه العِبَر والفكر وأكثروا فيها من الهوس والخبط لئلا يجيء «يدهم في الحيط» وليقال لأحدهم: فلان ما أفهمه وما أفقهه وما أدقّ نظره وما أكثر تحقيقه، فتتعمّر له الحانوت التي فتحها وتقرّ له منصوبة الشبكة التي لفّقها وأصلحها.

فلا جرم لما جعلوا علمهم وسيلة إلى طلب الدنيا كيف ما كانت، واستغرقوا في ذلك ووجدوا في أنفسهم تمام القابلية عليه سلبهم الله تعالى حلاوة الإيمان وأوقعهم في حبالات الشيطان، واتصفوا من الصفات الذميمة بما لا يأخذه عدّ ولا حسبان، فترى المتفقّه الغبي أحرص الناس على الدنيا وأتبعهم للهوى وأعدمهم من الله تعالى حياءً وأصفقهم وجهاً وأكثرهم تجهماً وأفظهم وأغلظهم وأجفاهم وأثقلهم بروح وأقلّهم بشكل، ثم انتقلت هذه الصفات الرديّة عنهم وسرت سُمِّيتها منهم إلى أتباعهم وأشياعهم والمقتدين بهم فعظم الداء وعُدِم الدواء وحلّ الشقاء والبلاء فعمي الطريق الواضح ونسي ما كان عليه السلف الصالح. ورأى الأمراء هذه الأحوال من العلماء مع ملازمتهم لأبوابهم ومصاحبتهم لكلابهم فسقطوا من أعينهم ولم يحفلوا بهم لأنهم رأوهم

شاركوهم فيما هم بصدده من الفساد وعاونوهم على مظالم العباد، فأي فلاح يُرجى مع هؤلاء أو صلاح؟ فكلما جرى من الفساد في الدنيا والدين من لدن استأثر الله تعالى بالأنبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين إلى «هلُمَّ جرًّا» معدود في فضائحهم مسوّد به وجوه صحائفهم، ففساد الناس بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء بحبِّهم للدنيا بما استولى عليهم من الغرّة والعمى ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التّوبَة: الآية 30]، ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التّوبَة: الآية 105].

وقد خرجنا عن المقصود وطال بنا الكلام وذهب كل مذهب لكني فيه طبّقتُ المفصل ونبَّهت على داء مُعْضِل قد اشتدّ ضرره في الوجود وصار أهل الحق بسببه أمثال اليهود، وسقتُه على أسلوب غريب ومنزع عجيب يعترف بصحته كل منصف لبيب، فمَن ترجم هذه النبذة بالمذهب المهذّبة في مسائل معجبة تضمنت إبداء بعض مقابح المغترّين من الطلبة ليتجنّبها كل مَن قصد الحق وطلبه فهو مصيب في ترجمته، متعرّض بسبب ذلك لأن يتغمّده الله تعالى في رحمته لا سيما إن حفظها في الدامون وأخذها بالرواية عنه المسلمون.

والمقصود الذي بعدنا عنه أن طيب الأنفس بإخراج الأموال التي تصرف إلى الجهاد لا سبيل له إلا إقامة خطيب مرضي الحالة عند الناس، ناصح لله تعالى في التعليم والوعظ، فحينئذ يصلح من الراعي والرعية الأحوال ويقاتل عدوّ الله تعالى بالنفوس والأموال. ومَن لم يقدر على هذا قاتل بخاطره ودعائه وربما كان ذلك أبلغ ممن باشر ذلك ببلائه وغنائه. فلو اتفق أن يكون فلان خطيباً بجامع القرويين ـ عمّرها الله تعالى بذكره ـ ثم يخطب بالخطب التي أضعها له ولا يتفقه فيها بحيث يزيد فيها أو ينقص منها لرأيت من الصلاح في الراعي والرعية ما تخرق له ثيابك من الفرح وتقول حينئذ بنشافك وحماقك ما قاله ذلك الرجل الذي ضلّت راحلته بما عليها ثم وجد ذلك عند شدة حاجته إليه، وتكون فيه مسامحاً معذوراً، وترى الناس حينئذ كيف يسمحون بأموالهم وأنفسهم في مرضاة الله عزَّ وجل وحينئذ يرجع إلى الدين الحنيفي بعض الشباب

ويظهر في هذا الوقت المسكين ما لم يكن لنا في حساب، وهل هذا إلا شيء عجاب؟ وإنما قلت خطيباً بجامع القرويين لأن فاس هي أم البلاد الغربية وواسطة عِقدها ومنها يسري الصلاح والفساد إلى سواها ولكن الزمان بخيل بمثل هذه الحال حتى أن وجوده من حيّز المحال، ولهذا كان الأوْلى أن لا نتكلم بمثل هذا ولكني فيه كما قال الشاعر:

مُنًى إن تكن حقاً تكن أعظم المُنى　　وإلا فقد عِشنا بها زمناً رغدا[1]

وقد أردت أن أذكر لكم ها هنا نص كتاب كتبته إلى فلان كما كنت كتبت لكم نص كتاب فلان لأني أرى ذلك مما يعجبكم، إلا أن هذا الكتاب لم أوجّه به إليه بعد لأنه لم يتّفق حامل، ولكن لا أذكره حتى أذكر لكم شيئاً من بعض كتابه الذي ينبني عليه ما أقوله.

قال في كتابه: وأنا والله متعلّق القلب بما يرد عليَّ من بركتكم التي لم تزل من قلبي وهي من أعظم نعم الله تعالى عليَّ، ومتفرق الحال لا يكلّف جمع حاله، ثم توسّل بأولئك القوم الذين كنتُ سمّيتهم لكم. ثم قال: وأعرفكم يا سيدي أن كتابي هذا هو ثالث كُتبي إليكم ولم أرَ من قبلكم جواباً وقد ضاق الصدر لذلك وأنتم تعلمون شوق عُبيدكم إلى ما يرد عليه من جنابكم وشدة احتياجه لذلك. ثم قال:

أمـا كـتـابـك إن إتـانـي زائـراً　　فحياة نفسي وهو في الدنيا سوا
لا تـقـطـعـوه بـحـقِّـكـم عـن هـائـم　　خشي النوى وإلى جنابكم أوى
يا ليت شعري بعد بُعدي منكم　　هـل تـسـمـح الأيـام لـي أن أدنـوا

والسلام.

فقلت أنا بعد الحمد لله وحده: من فلان إلى فلان ـ أخذ الله بيده ـ سلام عليكم وعلى مَن ذكرت أنه سلّم عليَّ من أولئك الفقراء. وقد بلغنا كتابكم صحبة فلان وقد تعرّفت منه حالك، ولم يرد عليَّ منك غير هذا الكتاب لا ثان

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذا البيت.

ولا ثالث كما ذكرت، وذلك من لطف الله بي لأنه كان يحقّ عليّ أن أجيبك، وأنا لا أريد إجابتك لأني رأيتك في كل ما فعلته منذ فارقتني قد خُنتَ الله ورسوله والشريعة والطريقة، وكان الواجب عليك لمّا أقامك مقام الفقر وهيّأ لك من الانتساب إلى الدين والتصوف ما لم يتهيّأ بعضه لغيرك حتى جرى منك استحسان حال أولياء الله تعالى مجرى الدم، أن تحفظ تلك الإقامة وتصونها عن كل ما عساه يقدح فيها من محبة الدنيا وإيثار هوى النفس على حقوق المولى، وأنت لم تفعل شيئاً من ذلك بل سلكت مسلك المضادة بالكليّة ولم تبق للصلح بقية، ثم لم تقتصر على ذلك حتى رفضت دينك كل الرفض بما لاح لك من دنيا لا يرتضيها لنفسه كثير من الحمقاء فضلاً عن العقلاء، ثم مع هذا كله خُنتني وبعتني ببصلة ـ بل ببعرة ـ إذ ربما يكون للبصلة منفعة معتبرة، مع أني كنت معك وكنتَ معي على ما تعلم ولا أحتاج أن أعرفك بتفصيله، وكنتُ أراعيك ظاهراً وباطناً، وأفرح لفرحك وأغتمّ لحزنك وترحك وأشاركك في سرّائك وضرّائك، وأساهمك في شدّتك ورخائك، ولم يكن عندي أحد ممن أعرفه يعدلك. ولما مشيت إلى البلدة الفلانية، مع أني كنت أكره أن تمشي إليها، لما لك في ذلك من المفاسد التي وجدت بعد ذلك، ظننت فيك أنك تلازم حال الفقر والمسكنة وتسعى بجهدك في مصالح مَن توجهت إليه بالموعظة الحسنة والنصيحة المستحسنة، وتدلّه على انتهاج سبيل الخير والتجنُّب على الشر بكل ما يمكنك من لسان حالك ومقالك لأجل ما كنت ادّعيت بينك وبينه من المعرفة والصحبة في مواطن كثيرة فاغتفرتُ لك جميع ذلك لأني رأيت أن هذا أنفع للإسلام والمسلمين من كل ما عساك تتعاطاه من أعمال الدين.

فلما حصلت هناك بدّل الله بك ونزع عنك ملابس الحيا وصرت من أحرص الناس على الدنيا من غير مبالاة ولا ارعِواء، فلما جئت إلى البلد الفلانية ورأيتُك لم أشك ولم أرْتَب في أن الله تعالى مسخ قلبك وسلبك عقلك ولبَّك، ولم أرَ فيك قابلية لشيء من الخير في وِرْد ولا صدر بما رأيتُ من حالك وشمائلك وما كنت أشبهك إلا بأحد أعلاج السلطان الذين لا تحقق عندهم في إسلام ولا إيمان، فلما رأيتك على هذه الحال السيئة علمتُ أن

الذخيرة النفيسة التي كانت في يدي سقطت في البحر، والدرة الخطيرة التي كنت ضنيناً بها تخطّفها مني الطير، وزادني ذلك مرارة وبشاعة شماتة الأعداء التي هي من أعظم المصائب والأرزاء، ولم أكن أجد عنها سلواناً ولا عزاءً لأن الذي فعلته لا يرضى به عاقل ولا مَن له همم القبائل وإلا فأي مناسبة بين بيع الصابون وفتل الحبال وركض البراذين[1] والزوامل[2] في الأوطية[3] وعلى قرون الجبال؟ كل ذلك في الفساد وفي مظالم العباد، لأن حالك الأولى التي انتقلت عنها كانت في طاعة الله تعالى واتباع مرضاته، وحالك الأخرى التي انتقلت إليها كانت في سخط الله تعالى ومرضاة عدوِّه إبليس، ولعل ما أصيب به ذلك الرجل الذي صحبته من العين الردية كان ببركتك حتى صدر عنه من العسف على الرعية والظلم لهم ما نسأل الله تعالى أن يوفقه للتوبة منه والإقلاع عنه وأن يصرفه عن ذلك صرفاً جميلاً وأن ينهج له إلى الشفقة والرأفة برعيته سبيلاً، فما أبرّك ما كانت عليه صحبتك المسكينة، إذا دامت عليه أهلكت الحرث والنسل، فبينما أنا أؤمّل منك أن تصل إلى منافعك إليه إذا بك صرت من أشأم الناس عليه، فلما غلب عليَّ الإياس منك وكان عندي كالمستحيل زوال الضلال عنك حسبت أنك لم تكن في الوجود واحتسبت مصيبة فقدك عند الله تعالى كما تُحتسب مصيبة كل مفقود، وكنت في حقك بمنزلة مَن كان له أخ أو عمّ أصيب بسهم أو غرق في لجة يم، فصرتُ بعد ذلك لا أسأل عنك ولا أصغي إلى كلام يرد عليَّ منك لأني نزّلتك بمنزلة المعدوم. ثم ذكرتُ له تلك الرؤيا بنصها أو بغير نصها ثم قلت بأثرها: فهذه الرؤيا فهمتُ منها على الجملة وقوع خلل وفساد في حالك ودينك، والله تعالى أعلم.

لكن مع هذا كله المشيئة الأزلية لا أحصرها والقدرة الإلٰهية لا أحجرها، فإذا أراد الله تعالى أن يخالف الظنون في توبتك وأوبتك فليس ذلك عليه بعزيز

(1) برذن البرذون الدابة والأنثى برذونة (لسان العرب).

(2) الزِّمل: الحِمل/ الرديف/ الزاملة: تعبير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه عليه (مختار الصحاح والمعجم الوسيط).

(3) الأوطية: البسط السهل أوطية متخذة من الصوف/ أوطية من الأرض وسهول.

ولا مستحيل لا يقبَل التجويز لأن الله تعالى يقول للشيء كن فيكون في أسرع من لمحات العيون، مع أنه تعالى أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، يغفر ذنوب المذنبين ويتقبّل إنابة المنيبين سبحانه جلّ وعلا. ثم إن وقع ذلك فما أشد فرحنا به وأعظم سرورنا بسببه لأنه إذ ذاك تتجدّد لنا أوقات السعود وتعود أعياد الإقبال التي لم نكن تظن أن تعود ونتمكّن من سماع النفحة التي طال عهدنا بها حيث يكون الماء والعود.

وقد حملني حامل على أن قلتُ في معارضة أبياتك أبياتاً على وزنها فيما أظن لأني لا أحسن نظم الشعر حسبما تعلم مني وأنت إذا قرأت هذه الأبيات وجدتَ أثر الضعف بادياً عليها وهي هذه:

أمَّا إيابُك تائباً متنصِّلا	فحياة نفسي وهو في الدنيا سوا
لا تفسدنّه بنكث عزمك عندما	يبدو هوى يدعو لطاعة مَن غوى
كمثال فعلك إذ نكثت وقبله	كنت الحريص على مخالفة الهوى
فالنكث عار وهو ضار كل مَن	قصد المثاب ومن جهالته ارعوا
فإذا استقمتَ على السبيل فإنه	أشهى لذا ظماء من العذب الروى
فيتمّ لي المطلوب وهو بنفحة	من نعمة تشفي كما يشفي الدوا
تحت الظلال وحيث جرى جداول	في روضة غنّاء طيّبة الهوا
لا تعجبنّ لمقالة قد قلتها	بالجدّ ذاك وحاش لي أن أهذوا
فالخير إن يمّمتَه أدركته	وكذا يكون لمَن نوى ما قد نوى

إلا أنَّ ما ذكرناه من توبتك وأوبتك لم يظهر له شيء من الآثار والعلامات حتى الآن ـ والله المستعان ـ لأنك لم تحدّث نفسك بذلك إلا بعد أن تنغّص عليك حال الدنيا ولم ترَ فيها ما تقرّ به عينك وتهوى، فلو قدّرنا أنك وجدت فيها جميع أمانيك وأغراضك على غاية الكمال والتمام لم يقع شيء من ذلك فيما أظن، فإن كنت في دعواك هذه من الصادقين فاخرج إلى الله تعالى خروج الحازمين ووطّن نفسك على المكاره والشدائد التي تلحقك في مرضاة ربّ العالمين، ولعل بذلك يتكفّر لك جميع ما أسلفته في المدة التي خلعت فيها

عن رأسك لجام التقوى في اتباع الهوى ومحبة الدنيا، فكما أطمعت نفسك في إنالة حظها الحلوى والسلوى فأذقها في مرضاة ربّك مرارة اللأواء والبلوى لعلك بذلك تخرج كفافاً لا لك ولا عليك، وإن لم تفعل ذلك فدعواك هذه كاذبة والدنيا عنك ذاهبة والآخرة لك طالبة ولكنها ليست فيك براغبة، فما أخسر صفقة عبد باع آخرته بدنيا، وأخسر منه صفقة عبد باع آخرته بدنيا سواه، وأخسر منهما صفقة، وأكثر غبناً وأسود سعداً وأشد بُعداً مَن حرم حظه من مولاه:

على نفسه فليبكِ مَن فات عمره   وليس له فيها نصيب ولا سهم[1]

وأما أنا فلا أقدر لك إلا بالدعاء، لكن إن أعنتَني عليه بصدق الرُجعى وحينئذ يحصل المرام على التمام ويكون في صحيفة حسناتك ما تكابده في ذلك من المشقات والآلام، بل لا ترى من ربك إلا إكراماً على إكرام وإنعاماً على إنعام. وأما غير ذلك فلا سبيل لنا إليه ولا معوّل لنا عليه لأن الدنيا كلها ظلام في ظلام لا يسمع فيها من أحد كلام ولا يبلغ فيها مقصد ولا مرام، لا سيما فيمن كان عند هؤلاء القوم من الجنادرة والخدام، وهذا آخر ما أقول لك والسلام.

***

الرسالة السابعة عشرة

وبعد: فقد بلغنا منكم كتابان اثنان، أما الكتاب الأول فقد سرّني وروده من وجهين وافق كل واحد منهما مرادي، أحدهما أني تعرّفتُ منه جزئيات غير واحدة والاطلاع على الأمور لي فيه راحة، والثاني وهو أعظمهما كونكم لم يمنعكم من ذلك ولم تتكاسلوا عن إشباع الكلام في أمور كثيرة ما الناس فيه من الضيق والضرّ وشدة الأمر في هذا الوقت الذي يشبه من وجه ما يذكر في القيامة من تشاغل كل أحد بهمِّه وغمِّه وغرق كل منهم في يمِّه، وكل واحد منهم يقول بلسان حاله: نفسي نفسي.

---

(1) سبقت الإشارة إلى قائل هذا البيت.

وقد استفدتُ من ذلك أحد أمرين: أما كونكم موجودي في الحال من جهة المرافق المحسوسة وليس ذلك إلا أن يكون عندكم زرع يكفيكم من غير أن تحتاجوا إلى أحد، وهذا الوجه مرجوح عندي لما ذكرتم من الديون التي لزمت ذمتكم من غير أن يكون عندكم وفاء بها، وكيف تكون لكم سعة في معيشة مع كونكم على هذه الحال الضيق فلم يبقَ إلا أن تكونوا موجودين من جهة القوّة التي ربما تحصّلت لكم من تشاغل بالكم بمعارف حقيقية توجب لكم من السكون والطمأنينة إلى موارد الأقدار ما لا يوجد مثله ولا أقلّ منه في مزاولة العلوم الظاهرة التي ألفها الناس، بل لا يزداد الآخذ فيها في قلبه إلا ظلاماً على ظلام، وفي جسده إلا شدة مكابدة واقتحام، فإن كنتم على هذه الحال فأنتم في نعمة يعجز شكركم عن مكافأتها ومراعاة حقها، والظاهر أن الأمر كذلك، فبادروا بالحمد لله قبل كل شيء لأنّا لو فرضنا خلافه لم يتصور منكم تهدُّن خاطر ولا فراغ القلب لإيراد ذلك الكلام الذي فهمت من قوّته صرف همتكم إليه الصرف التام، ولو قدّرنا أن يكون لكم مال قارون مثلاً كما هو المألوف من أكثر الناس في هذا الوقت الصعب فإنهم نسوا دينهم بمكابدة دنياهم وتشاغلوا بهموم أنفسهم عن مراعاة حق غيرهم، ولولا أنهم يتسلُّون فيما يتوقّعون من تزايد الشدائد وترادف الفتن والمحن بما يرون من أحوال المعدمين والمفلسين الذين لا يجدون ما يسدُّون به الرمق، ويتسارع إليهم الهلاك والفناء، أو أحوال أهل العافية الذين يموتون بالطاعون الذي يتخطفهم واحداً واحداً وجماعة جماعة لماتوا قبل أن يموتوا، والله أعلم، ولكنَّ الله تعالى لطف لبعضهم ببعض والله لطيف بعباده. فهذا هو الوجه الثاني من الوجهين اللذين فيهما موافقة مرادي كما ذكرتُه لكم. ولا بد من وقوع شيء من الكلام منا على بعض فصول كتابكم المذكور على حسب العادة ثم على بعض فصول الكتاب الآخر إن شاء الله تعالى.

أما ما استأذنتموني فيه من اطلاع مَن أحببتم على كلامي وخصوصاً ذلك الكتاب الكبير فقد وكّلت الأمر في ذلك إليكم ووقفته عليكم فافعلوا من ذلك ما أحببتم، ولكن الظاهر أنكم أنتم تفسدون ذلك وتكدِّرون صفوه حتى لا تحصل فائدة، وربما تكون فيه مضرّة زائدة وذلك من شدة حرصكم على أن يقال لكم

إذا قرأتموه على أحد لبّيك وسعديك، وعدم تمالككم عن أن تثنوا على ذلك الكلام الثناء الكبير بين يدي الصديق والعدو، وهذا وأشباهه هو الذي يثير العصبيّة التي تثمر الفتن وتهيج الإحن ويكون عاقبة ذلك الغمّ والحزن فيقع الفساد من حيث رجاء الصلاح ويعضل الداء فلا يكون لمداواته تأثير ولا نجاح ولكن التدبير الحسن في هذا الأمر إذا أحببتم ذلك أن لا تعرضوا على أحد ممن ليس بينكم وبينه مودة ومحبة شيئاً من كلامي حتى يقع منه سؤال لكم عن ذلك، فحينئذ تقرؤونه عليه بطمأنينة وسكون وتكون ضابطاً لحالك بحيث لا يفهم منك صاحبك شيئاً من الانحراف الذي يظهر منه بسببه عدم الإنصاف، ولا حرج عليكم أن تقولوا له ابتداء من غير أن يكون منه سؤال لكم إذا وقع بينكم وبينه محادثة ومجالسة ووقع بينكم كلام في مسألة تكلمتُ فيها: إن فلاناً تكلم على هذه المسألة ولا تزيده على هذا شيئاً، فإن سألكم أن تطالعوه به فلتخلفوا منه حرصكم على ذلك جهدكم ولتطالعوه به، وقد يستحسن منكم بالنسبة إلى بعض الأشخاص شيء من المطل والتسويف و«**مطل الغني ظلم**»[1] إلا في مثل هذا، فقد يكون من العدل فيه المطل اليسير ولا يكون فيه من الظلم قليل ولا كثير، وإن أحببتم أن ينقاد لكم بذلك كل طبع فاضل وتستجلبوا به كل قلب قابل فلتتوخوا إيراده عليه في المفاصل، ففي هذه الحال يكون السامع له حَرياً أن يتفهمه ويتقبله وإن اقتضى منه عملاً أن يستعمله.

وأما إن ألقيتم الأمر جزافاً، فقلّ ما تجدون من أكثر الناس إنصافاً وقبولاً واعترافاً. فبهذا التدبير يُرجى حصول الفائدة لكم ولغيركم ممن ربما تطلعونه على كلامي ممن ليس بينكم وبينه صداقة ومودة، فإن كان منه قبول لذلك انتفع به، وإن كان منه اعتراض عليه كان ذلك الاعتراض على وجهه من غير أن يكون فيه ارتكاب ضد أو مجاوزة حد. وأما مَن بينكم وبينه صداقة ومودة فأنتم

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحوالات، حديث رقم (2166) [2/ 399] ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم مطل الغني. . . ، حديث رقم (1564) [3/ 1197] ورواه غيرهما.

معي في راحة من هذه التكلُّفات التي أحوج إليها تباين القرائح وتخالف الطبائع، على أن من شِيَم الأحرار عدم تطلب العثار والإغضاء عن الزلات والتماس الأعذار، فإن قُيِّض لنا أحد ممن يكون هذا وصفه فضّلنا بهذه الخاصية واعتقدنا له التقديم والمزية من غير أن نكون نحن شراً منه، وإن بادر أحد إلى الاعتراض والمناقشة كان هذا عيباً فيه مُختصاً به لا يجتوزه إلى غيره يمكن أن يقابل به العيب الذي عندي في رسم الكلام الذي هو معرّض للاعتراض فيتقابلا فيتساقط، فإن وقع مني على ذلك الاعتراض جواب صحيح مقنع كنا بذلك أفضل منه، وكذلك إن لم يصادف اعتراضه محلاً فسمحنا له وصفحنا عن زلله كان لنا بذلك الفضل عليه أيضاً.

والحاصل: أني إن لم أكن خيراً من المعترض لم أكن شراً منه، وإنما أكون شراً منه لو تلطف في إيراد اعتراضه وأورده مورد الاسترشاد وطلب الهداية إلى منهج السداد، ثم يكون مني بعد فهم توجُّه الاعتراض على شيء من العناد وعدم الانقياد، ومثل هذه الحالة المرذولة، والحمد لله لم يبتلني الله تعالى بها فيما مضى وأرجو أن لا يبتليني بها فيما بقي.

فإذا علمتم هذا كله كانت كراهتكم لوجود اعتراض معترض على كلامي لا وجه لها، لأن المعترض الذي يصادف باعتراضه الغرض محبوب مقبول عند أرباب العقول، وأما غيره فلا يزيد باعتراضه إلا أنه سفّه نفسه وجهلها، فاعلموا هذا كله واعملوا عليه، وكُتُبُنا إليكم والحمد لله ليس فيها ما يستنكره أحد له عقل ولبّ، فإن اتفق أن يكون فيها طامة من الطوام التي تعجز عنها أفهام العوام، فموجود مثلها أو ما هو أشد منها عند أئمتنا الأعلام، فليُدخل المعترض رأسنا مع الرؤوس وليضرب على الجميع بالدبُّوس، فأما أن يكون فيها شيء يقتضي التحقيق ستره وكتمانه فحاشى وكلا.

والسِتر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير مِن ستر[1]

---

(1) قائل هذا البيت هو زهير بن أبي سلمة المتوفى سنة 13 ق. هـ، وهو حكيم الشعراء في الجاهلية وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. والبيت من البحر الطويل =

وأما ما تكلمتم به على المسألة التي وقع المزاح مني معكم فيها فكلام صحيح موافق للحق، والحكاية التي قابلتم بها ما حكيته أنا عن مُسَيْلمة صادفتم في ذكرها الغرض. وأما جواب فلان عن الكلام الذي تضمّن الكتاب الذي كتب به إليكم فهو الذي يقتضي منه الحال أن يجيب به، إلا أن ما وصف به نفسه في قوله فيه: وأنا أعرف من نفسي أنه غلب عليها الحرمان واستفزّها الشيطان وكذا وكذا إلى آخر ذلك المعنى، قصد به أن يستبعد تلمُّذه لي، واعترف فيه بأنه لا أهلية فيه لذلك. فإني أقول له: يا أخي ما وصفت به نفسك من تلك الصفات الذميمة أنا متصف بمثلها وبأضعافها ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فَاطِر: الآية 14] فإن أنت صدّقتني في هذا الإخبار عن نفسي ولم يصُدّك ذلك عما عزمت عليه من أن «لا تخلّي الوقت عطال» فتعال فلنصطحب صحبة المجاذيم بعضهم لبعض، فإن المجذوم إنما يألف المجذوم لما له في ذلك من الراحة لأنه بذلك يقطع وقتاً صالحاً في دنياه، طيّب العيش قرير العين ناعم البال، لأنهم يحصل لهم من رؤية بعضهم البعض سلوان عظيم يمنعهم من التطلع والتشوف إلى الكون على ما هم عليه أصحاب الأجسام الذين لا تصيبهم بحوحة في الكلام، فهم يهربون من الأصحاء لئلا تزيد رؤيتهم لهم في بلواهم، والأصحاء أيضاً يهربون منهم لأنهم يخافون من عدواهم، ويفعل الله بعد ذلك معهم ما يشاء. فإما أن يبقيهم على حالهم أو يصح جميعهم أو يصح بعضهم دون بعض، فإن أبقاهم على حالهم أو أصح جميعهم فلا كلام، وإن أصح بعضهم دون بعض فمقتضى الكرم والفتوة في حق مَن أنعم الله تعالى عليه بالصحة أن لا يحل يده بصاحبه ولا ينقطع عنه ولا يبخل عليه بشيء مما يمكن أن يكون فيه إقامة قلبه وجبران كسره، وقد كان وهو معه في الحارة لا يستأثر عليه بذرّة ويقسم بينه وبينه البلوطة المرّة.

= وتفعيلته:

طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

إن الـكـرام إذا مـا أسـهـلـوا ذكـروا   مَن كان يألفهم في المنزل الخشن[1]

فهذا التمثيل الذي وقع منا بين هذا القبيل وهذا القبيل يتبيَّن كيف تكون معاملة بعضنا لبعض في ابتداء الأمر وانتهائه، لا سبيل لنا في تحصيل فائدة الصحبة في هذه الحالة سواه.

وأما إن صدّك تصديقك لي فيما أخبرتك به عن نفسي عن التلمُّذ والصحبة فقد استرحت منك واسترحت مني، فاطلب أنت طبيباً يداويك وأطلب أنا طبيباً يداويني، والله تعالى هو المداوي للجميع لا ربّ غيره. وأما إن لم تصدّقني في ذلك الخبر فالمباينة التي لا يُرتجى زوالها بيني وبينك حاصلة، لأن الطبيب العليل لا تسمح نفسه بأن يداوي غيره من علة هو بها أشد ظناً وأكثر ضرراً من صاحبه إلا إذا كان ناقص العقل معكوس النظرة، وعند ذلك لا يكون له فيه غناء ولا تعقبه معالجته له شفاء كما هو حالي مع فلان، فإن ما فيَّ من الاعوجاج حسّن عني هذه الحالة السيئة ولم يوجب لي ما اقتضته من الجهالة والغباوة عنها نفوراً ولا لها كراهية، فلا جرم لم يحظَ مني بطائل يكون فيه شفاء الصدور وتيسير الأمور على أنك لو سألته عن هذا الذي قلته لك من أنه لم يحظَ مني بطائل لأخبرك بخلافه، فإن أخبرك بخلافه فقل له: يا فلان لِمَ لم تقرّ عيناً بحالك؟ بل أنت من أمرك في عذاب تبعث بكتاب وراء كتاب ويجيئك جواب بعقب جواب حتى أتعبت نفسك وشيخك وحصل بيدك ويده من الكواغد ما كان الأوْلى أن يكتب فيه أحزاب من القرآن أو جملة من الأحاديث الصحيحة والحِسان، فإن كنتَ يا فلان لم تقصد بذلك استجلاب الفوائد التي لا أهلية فيك لها لما فهمت من ربك من تيسير أسبابها لك فاتبعت إذنه في ذلك لك ومراده، وقلت ما قاله أيوب عليه الصلاة والسلام حين كان يغتسل عرياناً فخرّ عليه رجْل جرّاد من ذهب، فجعل يُحثي في ثوبه منه، فلما قال له ربُّه: ألم

---

(1) قائل هذا البيت هو الشاعر العباسي إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول أبو إسحاق، ولد سنة 176هـ وتوفي سنة 243هـ. والبيت من البحر البسيط وتفعيلته:
إن الـبـسـيـط لـديـه يـبـسـط الأمـل   مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن
[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

أكن أغنيتك عن هذا؟ قال له: «بلى ولكن لا غنى بي عن بركتك» فأنت كافر بنعمة ربك التي أنعم بها عليك على يد ابن عبّاد، لأنك استحقرت ما بيدك وأنت تأبى إلا الازدياد لكن على غير الوجه المحمود الذي ذكرت لك.

فهذا كله مما نقوله لأخي يحيى لعله بذلك ينتعش ويحيى، فتجيئه الفائدة من حيث لا يظن، لأني لم أخاطبه بذلك إلا على لسانك يا أخي أبا القاسم، وإن كان هذا كله مذكوراً في كتابه الذي لا ينتزعه من يده ويدّعيه لنفسه إلا ظالم، ولعلك تزيده على ذلك من رأسك وتلقاء نفسك، ومن مقتضيات منامات رآها هو أو أنت أو غيركما ما يوافق ما ذكرناه ويطابقه. والحكمة ضالّة المؤمن لا يتعين لها موضع يجدها فيه. فهذا ما أردت أن أتكلم به على فصل من فصول كلامك، وجوابك لأرب لي في ذلك وهو بحمد الله يتضمن تنبيهك وتنبيه غيرك على ما شاء الله تعالى من الأمور، وهو تعالى عليم بذات الصدور، وباقي كلامك الذي أملأته عليه وسألته أن يكتب به إليَّ لما قرّرته لديه علمت منه مقصدك حين ذكرت المتبوع الذي صحبته ثم أعرضت عنه، وغير ذلك من الأحوال، والأمر في ذلك غريب، والله تعالى ينفعك بما نويت ويبلّغك ما أمّلت ورجوت بمنِّه وكرمه.

إيه. . . فالمطلوب منك يا فلان أن تقرؤوا هذا كله على فلان أو يقرأه ولتبلِّغوه عني السلام، وهذا الذي ذكرتُه ها هنا إذا تأملتموه من أبدع الكلام وإن كان يشبه ما تقوله العامة: «من أين أذنك يا جحا؟» لأني قلتُ لكم وطلبت منكم أن تقولوا له ما طلبته منه أن يقوله لكم ولكن «إلعق العسل ولا تسَل» واشكر مولاك عزَّ وجل.

وأما ما فهمتموه في الكلام الذي نُسب إلى الشيخ أبي طالب ثم اعترض عليه فهو في غاية السقوط، لأن ذلك المعنى الذي قرّرته من صحة نسبة الضرر إلى الله تعالى كما يصح نسبة النفع إليه بمعنى أنه هو الضار النافع أمر معلوم لا ينبغي أن يورد في تقديره ذلك اللفظ الشنيع الذي قلتم إنه فارق الأدب مع أن الأدب عندهم له موقع عظيم، كيف وهو قد أتى به على صيغة أفعل الذي مقتضاه في الغالب انقسام ذلك الأمر بين الربّ تعالى وبين غيره، فيكون معنى

الكلام: أن الخلق مضرورون من وجهين: من قِبَل الخالق ومن قِبَل غيره، إلا أن ضررهم من قِبَل الخالق أشدّ، وهذا شنيع وبشيع مفارق للدين والأدب من كل وجه، لأن مشاهدة الضرر منسوباً فعله إلى الله عزّ وجل يبطل بالكلية شهوده من غيره، فكيف أن تجعل له منه حِصة ولغيره منه حِصة، ومثل هذا الكلام الركيك بتقدير أن لا يفيد ولا يُفهم منه إلا المعنى الذي ذكرتم، لا يجوز أن يُنسب إلى رجل جرت الفصاحة والبلاغة وحُسن الأدب في العبارة منه مجرى الدم، ومَن مارس كتابه المعلوم عرف ذلك قطعاً، مع أن ذلك المعنى المستفاد معلوم عند الحاضر والباد، فالأوْلى من هذا كله ـ والله أعلم ـ على تقدير صحة ذلك الكلام عن الشيخ رحمه الله وأنه لم يبدّل ولم يغيّر أن يتجوّز في لفظ أضرّ فيحمل على أن يكون المعنى لا شيء أفنى أو أهلك للمخلوقين من الخالق، لأن الربّ تعالى عند ظهور أمره وتجلِّيه لا يثبت معه شيء، بل يتدكدك ويضمحلّ ويتلاشى، وفي تدكدكه واضمحلاله وتلاشيه يحصل له من الدنو والقرب ما هو غاية المطلوب ونهاية الأمل والمرغوب، فالمخلوق وإن عمل في الوصول إلى هذه الحالة ما عسى أن يعمل لم يفده في ذلك ما يفيده خالقه إذا أظهر له ذرّة من جلاله وعظمته، فيجوز أن يعبّر عن هذه الحالة بالضرر وإن كان فيها غاية النفع على الحقيقة، كما قيل: مَن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، ويكون ذكر الشيخ رحمه الله لهذا الكلام في حال غلب عليه لم يتمالك فيه ولم يقدر على ضبط لسانه ومنعه من أن يتكلم بكلام مستبشع في ظاهره، ويعبر بعضهم عن مثل هذا بالشطح، وذلك أمر مألوف وحال معروف من أهل هذا الطريق، بل هو الغالب على مَن هو منهم بحال السكر، فإن كان وقع هجرانه وترك حضور مجلسه بسبب غلبة الحال وإطلاق اللسان بما يضاهي عندهم المحال فقد فعلوا ذلك مع غيره، وقد أكرموه وأجلُّوه حين لم يعاجلوه ويقتلوه، فهذا أوْلى ما يتأوّل به ذلك الكلام على تقدير صحته عن ذلك الإمام، والله تعالى الخبير العلام.

وما ذكرتم أن فعله فلان من وعظه للناس تقريعهم وتوبيخهم وخروجه إلى الاستسقاء ومداومته على ذلك لما ترك الآخر الخروج حتى رُحموا بالمطر الذي

قلتم إنه نزل عليهم في المصلى، فهو شيء حسن، ولقد زادني كلامكم هذا فيه غبطة، فالله تعالى يجزيه خيراً. وما أقرب إلى الحق وأشبهه لو كان الأمر بالعكس، ولكن هذا بعض البعض مما اقتضاه عمى البصائر من أرباب الأمر الذي أوجبه مداهنة مَن وكّل الله أمر إصلاح عباده إليه بحيث صار ذلك طَوْقاً في عنقه حسبما ذكرته لكم قبل هذا، على أن الله تعالى لم يبع لهم ذلك بدَين ولم يُرِهم في حالهم على الحقيقة قرّة عين، بل عاجلهم بالرزايا الكبار، وألزمهم الذلّة والصغار حين صيّرهم أسرى لهواهم ومسترقّين لدنياهم، وخذ الإشارة إلى هذا المعنى مما قاله ذلك الرجل الصحابي الجليل الذي شكا إليه أخاه: «أشَعَرْتَ أن الله نصرك على أخيك؟» قدم على معاوية فأعطاه مالاً ووُلد له ولد ذكر، أو كلاماً هذا معناه، فإن قال واحد منهم شيئاً خلاف لا إله إلا الله فأسود من السودان وعُبدان السلطان يذيقه من الخزي والهوان ما ينسى به تفريعات مسائل الإيمان والطلاق واللعان ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية 127].

وأما ما حكيتموه عن ابن البنّا وقلتم إن كلامه لم يُشكل عليكم معناه لوضوحه، إلا أن اللفظ هو الذي أشكل عليكم فقط، فإن قولكم: لو كان لفظه حتى يتمكن في المذكور أو حتى يتمكن الذاكر لكان اللفظ صواباً، يدل على أن معناه لم تشعروا به ولم تعثروا عليه، ولا أدري كيف تستقيم هاتان العبارتان اللتان ذكرتموهما بحيث يكون فيهما نوع مطابقة للمعنى المقصود، والضمير المستتر في قولكم: يتمكن في المذكور، لا أدري على ماذا يعود؟ فإن عاد إلى العبد الذاكر أو القلب الذاكر لم يستقم مع ما في الظرفية التي بعده ويكون ذلك مؤدياً إلى معنى مستحيل على الرب جلّ وعلا إلا أن يقدّر هنالك مضاف محذوف كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يُوسُف: الآية 82] وعند ذلك لا يكون له معنى معتبر.

وقولكم: أو حتى يتمكن الذاكر، هو ألْيَق من عبارتكم الأولى لكن لا معنى لها بالنسبة إلى ما قصد من معنى التمكُّن ها هنا، وأظنُّكم لا تعرفونه، والتمكُّن المذكور ها هنا هو مأخوذ من تمكُّن الشيء في المكان وثبوته

واستقراره فيه، ولما كان الحق تعالى منزَّهاً عن المكان والتمكُّن فيه احتاج الشيخ ابن البنّا أن ينفي ذلك ويتحرز منه بقوله: وليس ذلك بتمكُّن حلول واتحاد، بل حكمة وقدرة من عزيز عليم، ثم بيَّن ذلك بياناً شافياً إلى أن قال: فيصير القلب بيت الحق ويمتلىء منه، وهذا هو معنى التمكُّن الذي ذكره، ويؤخذ هذا من قول الله عزَّ وجل فيما يُروى عنه: «**لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن الليِّن الوادع**»[1] أو كما قال عزّ وجل. وقد تقدمت منا الإشارة إلى قريب من هذا المعنى بعبارات مختصرة لطيفة في كتاب صغير الجرم عظيم العلم كتبتُ به إليكم قبل هذا، ولا أدري أوصلكم أم لا؟

وأين هذا كله من قولكم: حتى يتمكن في المذكور أو حتى يتمكن الذاكر، بينهما ما بين باب المحروق وباب الفتوح، على أن كل طريق ينفذ إلى الجامع، إلا أن تلك الطرقات مختلفة في الطول والقصر والاستقامة والانحراف، بل الوجود كله نقطة واحدة لها حقيقة واحدة وسر واحد عرفه مَن عرفه وجهله مَن جهله، فديتُك يا مَن يفهم.

وقد أدركني بعض تعجُّب من إخباركم عن أولئك الناس أنهم يقرؤون ذلك التنبيه ويواظبون على القراءة عليه لأن بعضهم ـ وهو فلان ـ ممن كنت أعرف منه بعض نفور عن كلامي حين كان يسمعه، إذ كان يأتيني إلى تلك الغُرفة، ثم تبدّل ذلك إلى أن صار يقصد إلى استماعه والتشاغل به مع ما ذكرتم من أحواله عند سماعه، وكذلك الآخرون كما ذكرتم، مع أني أعلم أن ذلك المجموع الذي سمّيتموه شرحاً ليس فيه كبير غرابة بحيث تقع من سامعه تلك الأحوال الغالبة عليهم، فإني قرّبت الأمر فيه غاية التقريب، وسُقتُه قريباً من مساق غيره من المصنفات المألوفة، وثَمّ شيء آخر وهو أني عند أخذي فيه هالني أمره وأدركتني جبانة لأني أحتاج إلى النظر التام في كل مسألة منه، وليس فيه مسألة ولا مسألتان ولا عشرة ولا مائة، فإذا تكلمت في مسألة منه بكلام غريب يظهر من سَوْقه أني قد استوفيت المعنى الذي يقتضيه ظاهر كلام

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2256) [2/ 255].

المصنف فيها، رأيت أني في ذلك حزتُ القدح المعلى وقلت بلسان حالي: سبحان ربنا وعلا، ثم رميت بذلك خلف ظهري وتشاغلت بغيرها على هذا النحو، فجاء ذلك المجموع بسبب ذلك الوهم الذي أدركني في أكثر مسائله محذوفاً مقطوفاً بحيث يمكن لو أعيد النظر فيه مراراً أن يزاد عليه أضعافه وأن تبدّل فيه عبارات بعبارات أكثر منها تحقيقاً وتحريراً، ولأجل هذا وقعت الزيادات مني فيه في مواضع ضرورية واعتبر ذلك بمسألة العلم ـ أي مقدار كانت ـ ثم إلى أي مقدار رجعت، والله تعالى يضع فيها البركة، فإنه وقع مني بعد ذلك كلام كثير في ذلك المعنى بحيث لو أضيف بعضه إلى بعض لخرج منه كُراسة، ولكن لعل في الواقع من ذلك خيراً.

وهذه الكتب التي أكتب لكم بها قد تفوق ذلك المجموع لأني ضمّنتها نكتاً عجيبة وحقائق غريبة لم يقع مني إلمام بشيء منها في ذلك المجموع، وما ذلك إلا من قبل أن نظري انحصر في كل واحد منها، والموجب لانحصاره أني عند نظري فيه لا يكون لي شعور بما يكون في كتاب يكون بعده فيجيء كاملاً أو شبه الكامل، ولا يكون فيه قطف ولا حذف، فإذا تشاغلت بالكتاب الآخر عملت فيه ما عملت في الأول فيحصل بسبب ذلك المرام على التمام، وذلك المجموع بخلاف هذا كله، كنت إذا تشاغلت منه بمسألة طالبتني المسألة التي بعدها والتي بعدها، فما تكون لي همَّة إلا في التخلُّص منها والتفرُّغ عنها. فاعلم هذا.

ولو كان في فلان فطنة تامة وتأمُّل ألفاظ الكتب التي أكتب له بها لعرف أن أكثر الألفاظ المذكورة فيها مقصود ذكرها مفيدة لمعان لا يفيدها غيرها فتحرز بها عن أشياء لا ينبغي إظهارها ولا يستحسن إشهارها، ولكن لما مات فلان ـ رحمة الله عليه ـ لم يبقَ لي سعد في أحد حتى فلان، فإن شأنه الذي قطع به معي زمانه إذا ورد عليه مني كتاب يكون فيه كلام عجاب يقرؤه من فوق فوق ثم يطويه ويجعله في الشكارة أو في الصندوق ثم يتشاغل مع الأولاد فيما هو بسبيله معهم، أما أول النهار فبالتصحيح والإصلاح، وأما آخره فبالعياط والصياح، فإذا تفرغ منهم جاءته أشغال مهمة وأهمها هَمّ اللقمة، فلا يتفرغ

لمعاودة النظر والتصرُّف بالفكر والعِبَر إلا في يوم الجمعة والخميس، لكن إن خلاه لذلك إبليس، فإن شعر أحد بأنه جاءه مني كتاب شدّ عليه يد الضنين ولم يره أسير ولا مسكين، هذا هو الظاهر من الأمر، والله تعالى وليّ العفو والغفر.

وقولكم في الكتاب الذي كتبته إلى فلان: وما بيّنتم فيه لا يقدر أحد ممن تقدّم أن يبيِّنه، لا الغزالي ولا ابن عطاء ولا غيرهما... إلى آخر ما حكيتموه عن سيدي أبي الحسن أنه قاله في سيدي أبي العباس، جميع ذلك تغالٍ منكم. واعلم أن الغزالي له في قلبي عظمة زائدة.

وأما استئذانكم لي في قراءة ذلك الكتاب على أولئك الثلاثة نفر وتحفيظه إياهم وتفهيمه لهم، فقد أذنت لكم واستحسنت منكم ما قصدتموه من ذلك، والمراد منكم أن لا تتشاغلوا معهم ولا مع غيرهم بشيء من ذلك المعنى حتى تشترط عليهم شرطاً واحداً، وهو أن لا يطالبوني بتباعة أتقلّدها منهم في رقبتي بسبب ما ربما يصيبهم من فترة في عبادة أو تقصير في طاعة بسبب ما تضمّنه من الكلام الذي ربما يوجب لأرباب النظر القاصر أن يرضوا بأحوالهم الذميمة محتجين لذلك لنفوسهم اللئيمة لأن هذه الطريقة مخصوصة لمخصوصين، أتدرون مَن هم؟ هم أصحاب الذكاء والمروءة والحياء والفُتُوّة، فهؤلاء هم الذين يصلون إلى الله تعالى بذلك في وقت أسرع، وأما غيرهم فلا يليق به إلا العصا والمقرع كما قيل: «الحرّ يُلْحَى والعصا للعبد» وعند ذلك يقنع منهم بأخف الضررين وأيسر الشرين، وأما أن يقع لهم تخليص أو تمحيص فضلاً عن تخصيص تام فلا.

وينبغي أن تعلم أن المعنى الذي تضمّنه ذلك الكتاب وغيره والذي أنا أحوج عليه في نكت كلامي كلها لم أرَ أحداً قرّره ولا بسط الكلام فيه البتة وإنما تشاغلوا مع الناس بأمور أُخَر رأوها لائقة بهم وأنا تجاسرت على ذلك المعنى حتى أخرجته للوجود لكن بعد أن بذلت في غيره المجهود فلم أرَ من ذلك ما يسُرّ بل ربما لا يخلو من أن يضر، فمهما أجلتُ فكري في أمر الدين وما يمكن أن يأخذ به آخذ من معاملات يصل بها إلى رب العالمين، لم أجد سوى ذلك المنزع، لأن كل فائدة دينية ودنيوية في ضمنه موجودة، وكل رعونة

وجهالة ودعوى منه مفقودة. والدعوى هي التي تكدّر صفو الأعمال وتوقع فيه الاعتلال حتى لا تزن عند الله تعالى أدنى ذرّة من مثقال، وسيأتي بيان معنى الدعوى أي شيء هو.

وعندي أن المتحقق في هذه الحالة التي آثرناها على ما سواها يعيش طيب العيش في دنياه لا سبيل عليه لجبّار عنيد ولا شيطان مريد، مهدِّن الروعة من أمر آخرته وعقابه، لا سبيل عليه لمنكر ولا نكير، ولا تستقيم محاسبته ولا مساءلته عن نقير ولا قطمير، وأما الصراط المستوعر المنتظر الذي هو أحدّ من السيف وأرق من الشعر فيجوزه بفضل الله تعالى في أسرع من لمح البصر، ولكونه ممن سبقت له من الله الحسنى وحلّ من ولاية الله له في المنزل الأسنى لا يُحزنه الفزع الأكبر وهو من الذين يقال لهم إذا دخلوا الجنة أو أشرفوا على دخولها: هل حوسبتم، هل جزتم الصراط، هل كذا هل كذا، ارجعوا فإن وراءكم هذه الأشياء كلها، فينفضون في وجوه هؤلاء الذين تعرضوا لهم أكمام الإدلال ويقولون لهم: قد أجارنا الله تعالى بفضله من جميع تلك المشقات والأهوال، فاطلبوا غيرنا من أرباب الأشغال والأحمال الثقال، فلا سبيل لكم إلينا بحال.

والمفلس من تلك الحالة الحسناء هو الذي جرى عليه سوء القضاء ودرك الشقاء فبقي في مكابدة أمر نفسه يشاهد الدرجات الرفيعة في دنياه التي حازها سواه فيتأسّف ويتحسّر منها على ما فات، ويشاهد المقامات العالية التي يتوهمها مقامات فيتقطع عليها إن لم يصل إليها حسرات، فإذا رام الوصول إلى شيء من ذلك بنفسه وبجدِّه وجهده لم يقدر عليه مع الوبال الواصل بسبب دعواه إليه، فلا يزال من أمره في عذاب أليم وتعب مستمر ومقيم، ويكون حاله شبيهاً بحال أصحاب النار كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السَّجدَة: الآية 20] وهذه من المعيشة الضنك التي يبتلي الحق تعالى بها مَن أعرض عن ذكره واستهان بأمره وذهل عن آلائه وبرِّه ولم يعلم أن ما ناله من حظه منه يغرق فيه أمله ويتلاشى في شكره ومراعاة حقه وقدره عمله. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: الآية

124]، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: الآية 127].

وأما ما سألتم عنه من بيان علامات وجود الدعوى في العبد، فاعلم أن مَن عرف معنى الدعوى أيّ شيء هو لم يشكل عليه شيء من علاماتها. والدعوى عبارة عن رؤية النفس وترفيع قدرها وتعظيم أمرها، فالعبد إذا رأى من نفسه تمام إدراك أو وفور قوّة رؤية توجب له أدنى سكون أو ركون إلى ما يلوح له من علم نافع أو عمل صالح فهو مدّعٍ لأنه إذ ذاك شاهد كمال نفسه من حيث قيام ذلك العلم أو العمل به، ويلازم ذلك أن يطلب على ذلك حظّاً من الحظوظ الدنيوية أو الأخروية، فإن كان ما اتصف به من علم أو عمل شيئاً كثيراً وافراً فرح بذلك لما له فيه من الحظ الكامل الذي رجاه وأمّله، وإن كان ذلك شيئاً قليلاً أو عدمه البتة حزن لذلك لِما فقده من الحظ، ولولا مشاهدة نفسه لم يتصور منه رؤية كمال إدراك أو وفور قوة يفرح بوجود آثارهما ويحزن لفقده، لذلك فأكثر الخلق مدّعون سواء كانوا عالِمين أو جاهلين أو صالحين أو فاسقين، لأن العالِم والصالح يريان بأيديهما من الذخائر النفيسة ما يحصل لهما بسببها مملكة عظيمة فيفرحان بذلك، والجاهل والفاسق يريان أنهما قد فاتتهما تلك الذخائر النفيسة التي في قوّتهما أن تكون بأيديهما لتحصل لهما بذلك المملكة التي حصلت للآخرين فيحزنان لذلك.

هذا كله فيمن كان عنده علم أو عمل أو كان فيه قابلية ذلك وأهليته لكنه تشاغل عنه ورأى إفلاسه منه. أما غيرهم من الجبابرة والفراعنة ومن المترفين في الدنيا المستغرقين فيها فلا كلام عليهم، إلا أن مَن ذكرناهم أولاً قد يفوقوهم في الدعوى، ورؤية النفس فوقية تامة، ولذلك تجد كثيراً من الظلمة والفسقة والمستكثرين من أعراض الدنيا وأوساخها يتواضعون ويتذللون للآخرين ويرون أنهم خير منهم بألف ضعف بل لا يرون بينهم وبينهم نسبة البتة، وبقدر تواضعهم وتذللهم ورؤيتهم الخيرية لهم عليهم يتكبّر الآخرون ويتعزّزون وينظرون إليهم بعين الاحتقار ولا يرون فيهم أهلية لرحمة الرحيم الغفار، فما أوْلى أحد الفريقين بأن يخسر الدنيا والآخرة جميعاً، وما أحرى

الفريق الآخر أن يربحهما جميعاً ويكون ذلك فضلاً من كريم رحيم وعدلاً من حكيم عليم. واعتبِر ذلك بقصة الخليع والعابد.

ولا تحصل للعبد البراءة من الدعوى إلا بوجود الصدق الذي يقابلها، وذلك إذا حصل له حظ من المعرفة بالله تعالى، لأن من مقتضيات هذه المعرفة أن تمحو كل ما عداها إذ «**كل شيء ما خلا الله باطل**»[1] وهناك يحصل للعبد التجريد التام والتحرر من كل ما كان منسوباً إليه قبل ذلك، ويصير جميع ما كان يشاهده من سنى حالاته ومحاسن أفعاله وصفاته بوراً وهباءً منثوراً بحيث لا يرى تفرقة بين وجود ذلك وعدمه من حيث رؤيته لنفسه في الفعل وطلب الحظ، ويتحقق بمعنى قول النبي ﷺ مما يرويه عن ربه عزَّ وجل: «**يا عبادي كلكم ضال إلا مَن هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا مَن أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا مَن كسوته فاستكسوني أكسكم**»[2] فإن هذه الكلمات صحيحة، فيدخل المهديون والمطعمون والمكسون في الظاهر مع الضالين والجائعين والعارين إذا لم يشاهدوا هداية الله، ولا إطعامه ولا إكساءه، فإذا شاهد العبد هداية الله وإطعامه وإكساءه خرج منهم، فالعبرة بما هو مشاهَد من الله تعالى من هذه الأشياء، ولا عبرة بها من حيث تلبُّسها بهم فإنها من هذه الحيثية لا تُسمِن ولا تُغني من جوع، بمنزلة الضريع الذي هو من طعام أهل النار يضارع الطعام الحقيقي، أي يشبهه في الصورة وليس بطعام على الحقيقة.

فكم من شخص كثير التدقيق والتحقيق يقصد بنفوذ عقله كما يقول العامة: «في النملة عرق الباسليق» وهو بغفلته عن هاديه من أكبر الضالين. وكم من شخص قد يتتخّم من أكل الحلوى والمنّ والسلوى وهو بغفلته عن مطعمه في عداد الجائعين، وكم من شخص يلبس ثياب الحرير والصوف والكتّان

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب أيام الجاهلية، حديث رقم (3628) [3/ 1395] ورواه مسلم في صحيحه، حديث رقم (2256) [4/ 1768] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (2577) [4/ 1994] ورواه الترمذي في السنن، حديث رقم (2495) [4/ 656] ورواه غيرهما.

والقطن المندوف وهو بغفلته عن كاسيه من جملة العارين، فلا عبرة بظواهر الأشياء وإنما العبرة بالسر المكنون الذي به صار الضال مهدياً والمهدي ضالاً والمطعَم جائعاً والجائع مطعماً والمكسوّ عارياً والعاري مكسوّاً، وليس ذلك إلا بظهور أمر الحق وارتفاع غطائه أو استتاره وخفائه، فإذا تحقق ذلك التجلي والظهور استولى على الأشياء الفناء والدثور وانقشعت الظلمات بإشراق النور، فهناك يبدو عين اليقين ويحق الحق المبين، وعند ذلك تبطل دعوى المدّعين كما يفهم العامة بطلان ذلك في يوم الدين حتى يكون المُلك لله ربّ العالمين.

وليت شعري، أي وقت كان المُلك لسواه حتى يقع التقييد في قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحجّ: الآية 56] وقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: الآية 19] لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة، وإذا وقع استتار وخفاء ظهر وجود الأشياء وانتسخ بالظلمة الضياء وعميت ألباب الألبّاء، هنالك تنتعش النفوس وتتجرّد أوقات النكوس والنحوس وترى أمواج الهوى كيف تتلاطم وظلمات الدعوى كيف تتراكم، فحينئذ تسقط منك القوى وتغرق في بحار الدعوى وتهوي في الهاوية مع مَن هوى فترفض دينك وإيمانك رفضاً، وترى جهنم ذاتك كيف يأكل بعضها بعضاً، ونعوذ بالله من هذه الحالة.

فهذا ما ظهر لي في معنى الدعوى التي هي أعظم البلوى، فإن أردتم أن نذكر لكم شيئاً من علامات وجودها في العبد فاعلم أن من أظهر علاماتها أن يكون عنده شيء من التدبير والاختيار ورؤية حول نفسه وقوتها في الإيراد والإصرار والمباهاة والتفاخر والتظاهر والتكاثر والجدال والمِراء ورؤية الخلق بعين الازدراء والحقد والحسد والرياء والعجب والبخل والشح وخوف الفقر وكراهية الموت، وأن يحزن على ما فاته من دنياه ويفرح بما أتاه من مقتضيات هواه. ومِن أخفاها أن يحبس الناموس ويتقيّد بزي مخصوص ويمدح نفسه بذمِّها بالمقال ويرفعها بجلوسه في صف النعال، وأن يُظهر زهده بإخفائه وتواضعه بما ربما يتعاطاه من تكبُّره واعتداله. وأخفى من هذا كله حتى ربما يُعدّ في القربات والأعمال الصالحات أن يفرح بما عمله من الحسنات ويحزن على ما اقترفه من السيئات لا لله بل لأجل ما يفوته من جزيل الثواب ويُصيبه من

أليم العذاب في آخرته. فهذا ما ظهر لي في بيان حقيقة الدعوى وذكر بعض علاماتها الجليّة والخفيّة وأخفى من الخفية. ذكرت ذلك لكم ولِمَن سأل عنه من غيركم ولِمَن أحببتم أن تطلعوه عليه سواء سألكم أو لم يسألكم فقد أطلقت الأمر في ذلك لكم فأضيفوه إلى ذلك الكتاب واجعلوهما كفصل واحد أو باب، والله تعالى يوفقنا للمتاب إنه الكريم الوهاب الرحيم التوّاب.

وأما الكتاب الثاني فتعرّفت منه عثوركم على الحق، لا في ما ذكرتُ أنا لكم ولا في ما ذكرتم أنتم لي، ولكن في قولكم: ثم ألهمت أنَّ هذا وأمثاله مما تحذروني منه، بعد قولكم: أصابني بعض كرب، فالحمد لله الذي عرَّفك الحق ونسأله أن يرشدنا وإياكم إلى استعماله ويرزقنا وإياكم الطمأنينة به بمنِّه.

وأما ما ذكرتم من أنكم أخذتم في درس ذلك الكتاب لتحفظه وتجعله نصب عينيك، فنِعْمَ ما تفعل، وقد أخبرتك ببعض فوائد ذلك المعنى الذي قصدنا التنبيه عليه في ذلك الكتاب قبل، ولو أضفت إلى ذلك نُبذاً مفيدة مكتوبة في أثناء الرسائل التي أبعث بها إليكم فليست بدون ذلك لكان منكم حسناً.

وقولكم: وها أنا أدرسه وأحفظه وأجعله نصب عيني، لو عقبتم ذلك بإن شاء الله وسكتُّم عن قولكم بعده، بعد تقديم اللجاء والافتقار إلى الله لكان ذلك حسناً، فإن فيه رائحة من الدعوى، ومَن أنتم حتى يقع منكم اللجاء والافتقار، ولو عقّبتم ذلك بقولكم: إن شاء الله أيضاً لم يكن فيه دعوى. وما ذكرتموه من تقديم ذلك على ما ذكرتم صحيح لا بد منه في كل ما أنت له طالب، فمَن تحقق بذلك فقد ظفر بجميع المطالب ووصل إلى غاية المآرب ما توقف مطلب.

وقولكم في المسألة التي اعتذرتم عنها: فلما نهيتموني عن ذلك وأمثاله، أرجو أن أنتهي بفضل الله ومنَّته، في غاية الملاحة، أعني قولكم: أرجو. . . إلى آخره، ولو وزن قولكم: أرجو، بالذهب والياقوت، لوزنهما، لما فيه من التبرِّي من الدعوى التي تقدّم الكلام عليها، وإياكم الآن أن تشاهدوا هذا التبري فتقعوا في أعظم مما فررتم منه، وكن على حذر من ذلك.

وقولكم: وعسى تبينوا لي ما عند ذلك الشخص من التغالي، فليس

بمتأكد علينا التكلم عليه بل لا يحسن منا ذلك، لا من جهة أن ذلك الشخص يكرهه إذا سمع به لأنه عندي أجَلُّ من أن يتأثر بذلك أو يكرهه مني، بل من جهة أنه لا فائدة لكم في التكلم على ذلك، وقد يكون في ذكره ضرر ما، فرأيت الإضراب عن ذلك أوْلى.

وقولكم: وأما تفسيركم لتلك الآيات فليس ذلك بتفسير، وإنما هو تلفيق مني وقع بين تلك الآيات التي أشكل الجمع بينهما.

وقولكم: فمن بديع الكلام ومستحسنه، صحيح ذلك من فضل الله ومنَّته، وقد كنتُ لما ورد عليَّ ذلك السؤال منكم لم أدرِ ما أقول فيه، ثم إن الله تعالى ألهمني لمعنى ذلك الكلام، وأنا لم أطوِ كتابكم بعد، وأما ترتيب ألفاظه فبقيت في ذلك بعد ظهور ذلك المعنى أكثر من ساعة زمنية.

وأما ما ذكرتم من إنذار فلان الناس وتنبيههم على حال الوقت وما فعله من خلع ثيابه، فنِعم ما فعل، والله تعالى يجزيه خيراً. وقد تقدم منا ذكر الأولوية فيما قلتُ هنالك، ولكن الدنيا مبنية على الانعكاس والاعوجاج، ولولا انعكاسها واعوجاجها لم يغض ذلك الإنسان الذي أتى إلى القاضي برسم تثبيطه عما همَّ به من العمل بما ندبه إليه فلان من العمل بالحق الواجب الذي لا يسعه خلافه في نظر الدين مستنداً في تثبيطه إلى ما لا تقول له قائمة من الشبهات والخيالات، فليت ذلك الرجل الذي همَّ بذلك أصابه عمى أو عور أو وقع في بئر أو تعثّر في حجر حتى يتشاغل بنفسه عن السعي فيما يعود بالضرر على المسلمين في دينهم ودنياهم، ولولا انعكاسها أيضاً واعوجاجها حين ألهمهم الله تعالى إلى ذلك العمل المبرور وصدّهم عنه وقوفهم مع تلك الخيالات التي أقامها ذلك الرجل أمامهم كالشور كانوا يبادرون بالكتب بذلك إلى السلطان فليس بينهم وبينه شهر ولا شهران، ولعل منفعة ذلك تعمّ جميع البلدان ويكون ببركة عمله بذلك وإذنه فيه مما يكابده من مكابدة عدوِّه الذي هو بصددها في أمان. وهذا المعنى من جملة ما يكون فيما يكتب له من التنبيه والبيان ليكون ذلك جاذباً لقلب السلطان إلى إمضاء هذا الخير الذي صدّ عنه ذلك الإنسان، ولولا انعكاسها واعوجاجها أيضاً حين لم يقع شيء من ذلك

كان يبادر أولئك الجماعة الذين انتهضوا للقيام بهذا الأمر فيفعلون ما فعله القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله في وقته، فإنه ضمّ إلى نفسه من أهل الفاقة والضيعة ما رآه يجيء في قسطه من بين المسلمين، ولكن أبى الله إلا ما ترون:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أراد[1]

وقد رأيت في مواضع من كتبكم شيئاً أردت تنبيهكم عليه، وهو أنكم تقولون فيما حكى الله تعالى عن فلان كذا، وحكى عن فلان كذا، وقد يقع مثل هذا في كلام الأئمة، وهذا عندي ليس بصواب من القول لأن كلام الله تعالى صفة من صفاته، وصفاته تعالى قديمة، فإذا سمعنا الله تعالى يقول كلاماً عن موسى عليه السلام مثلاً أو عن فرعون أو أمّة من الأمم لا يقال حكي عنهم كذا لأن الحكاية تؤذن بتأخرها عن المحكي، وإنما يقال في مثل هذا: أخبر الله تعالى أو أنبأ الله أو كلاماً معناه هذا مما لا يفهم من مقتضاه تقدُّم ولا تأخُّر.

الرسالة الثامنة عشرة

وقد بلغني كتابكم أمس تاريخه وأنتم تذكرون فيه أموراً منها أنه طال انتظاركم وتشوُّفكم لما يرد عليكم من جهتي واعتقدتم في ذلك توهُّماً أو تحقُّقاً أن سبب ذلك ما ذكرتموه من قصة فلان وعددتم ذلك منكم سوء أدب معي ولم تصادقوا في شيء من ذلك الغرض، وما أبطأ بالكتب مني لكم إلا عدم وجود الحامل.

(1) أنشد هذا البيت أبو الدرداء كما في تفسير القرطبي، سورة البقرة، آية 1، [1/ 154] وفي كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: قيل لأبي الدرداء: ما لك لا تقول الشعر، وكل لبيب من الأنصار قال الشعر؟ فقال: وأنا قد قلت شعراً، فقيل: ما هو؟ فقال هذا البيت (الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر [4/ 211]).

وأما اعتقادكم أن ما وقع منكم مما ذكرتموه من قصة الرجل سوء أدب معي فليكن عندكم مقرَّراً أن كل ما يقع من أحد من الناس في جهتي من معاملة بقول أو فعل يظهر فيه سوء أدب لا أراه سوء أدب من غيركم فضلاً عنكم، فلا يؤثر ذلك عندي انقباضاً عما ربّما اعتيد مني في جهته ولا أنبهه عليه إلا أن يتعلق به حق لله تعالى أو مصلحة للصادر منه ذلك، فقد أنبهه عليه وقد أتغافل عن ذلك تساهلاً وتسامحاً لمحبة النفس المسكينة للاطلاع على أمثال ذلك، وأن لا يخلو علمها عنه مثل القصة التي ذكرتموها، والله تعالى وليّ التجاوز برحمته، فهذا هو حالي أخبرتكم به لئلا يكون في قلبكم شيء مما يكربكم، فتكلمكم إذاً وتكلم غيركم معي بالغثّ والسمين بالنسبة إلى ما يرجع إلى شرع سواء، وإليكم النظر فيما وراء ذلك.

وقولكم: حتى توهّمت أنكم وجدتم عليه بعض الوجد، فما أسرع ما أُنسيتم وما اطلعتم عليه من قولي: لو رأيت رجلاً في غاية الصلاح وآخر في غاية الفساد.. إلى آخر المعنى الذي ذكرتُه، وإنما يجد عليه في ذلك مَن هو مُبرَّأ عند نفسه من الآفات والعيوب ولم يتحقق بالأصل الذي نبّه عليه الشيخ أبو الحسن الحوالي رحمة الله تعالى عليه في المسألة التي سألتم عنها وسأتكلم عليها إذا وصلتُ إليها، لأني أتتبع مسائل كتابكم أولاً فأولاً

وأما الكراسة التي وجّهتم بها فقد ختمتها بالمطالعة ساعة وقوفي عليها لضوء السراج، ولم يزد واضعها على أن ذكر جملة من أحاديث نبوية يفهم منها الاستدلال على مذهبه في جزئية واحدة من معاملات ظاهرة، ويفهم أيضاً من رسمها وكتبها وإشهارها بين الناس دعاؤه إياهم إلى اتباع مذهبه إذ يريهم بذلك استناده إلى الأحاديث الصحيحة التي لا مطعن فيها، وغاية ما عمل أن جمع أحاديث متفرقة متفقة المعاني ومختلفتها بحسب الأحوال، وجعلها في موضع واحد، ولم ينص على ماذا أراد بها، فالتكلم عليها بحسب ما يفهم من قصده بذلك خطأ من العمل، وإنما يتكلم مَن يتكلم عليها من غير نظر إلى ذلك على وجه التفسير لها من حيث هي من غير نظر إلى تعلقها بالأشخاص والأحوال والأزمان، ومثل ذلك لا ينفع في مقصدنا، فلو صرّح بمقصده أو أومأ أو أشار

لاستقام الكلام عليها من حيث التعلق المذكور، وحين لم يفعل شيئاً من ذلك فالسكوت أوْلى.

واعلم أن ذلك المجموع قد يضلّ به كثير من الناس من قِبل سوء فهمهم وعدم علمهم، ومن أين للبرابر وأهل البوادي ومَن أشبههم من غيرهم أن يكون لهم حظ من علم أو فهم يحملون به الأحاديث محملها، ويعرفون مُفصَّلها ومجملها حتى تكون أحوالهم على السَّداد وينتهجوا في عقائدهم وأعمالهم سبيل الرشاد، ومَن ظنّ منهم أنه عالم محقق فهو جاهل مغرور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية 40] ولقد نصح لرسول الله ﷺ وحديثه مَن قال من العلماء ما معناه: لو كان لي حكم لفعلت بكل مَن يذكر من العوام حديث رسول الله ﷺ محتجّاً به ومستدلاً كذا وكذا ثم ذكر من العوام مَن لا يشق له علماء وقتنا غباراً ولا يخوضون له تياراً.

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: الحديث مضلّة إلا للفقهاء، يعني لسوء فهم مَن عدا الفقهاء ولذلك استثناهم. وأما اعتقاد أن الحديث من حيث هو ضلال أو أن المتّبعين له ضُلال فمن اعتقادات الحمقاء الجهّال، وما سمُّوا به ذلك المجموع من «تحفة الصالحين وسراج المتقين» صحيح، وصلاحهم وتقواهم يمنعهم من أن يحكِّموا فهمهم القاصر على حديث رسول الله ﷺ حتى يأخذوا معانيه عن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فهم الذين يعلمون مواقعها ويضعونها مواضعها كما قال مَن قال، وأظنُّه ابن وهب: لولا مالك والليث لضللتُ، وفي الحديث المشهور: «**يحمل هذا العلم من كل خلَف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»(1) أو كما قال.

وأما المناظرة التي جرت بينكم وبين زيد وعمرو فهي مناظرة مستقيمة أو كالمستقيمة إلا أنكم أخطأتم فيها من وجه واحد، وهو وقوعها منكم لهم، لأن المناظرة إنما تستقيم مع مَن يرجى معه حصول فائدة المناظرة، وهو الأخذ

(1) رواه الطبراني في مسند الشاميين من طريق علي بن مسلم البكري، حديث رقم (599) [1/ 344] ورواه الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح 248- (51) [1/ 82].

بالحق إذا تبيّن، وأولئك القوم جرى عليهم القدر بجمودهم على التقليد حتى لا مساغ فيهم لكلام أحد غير مَن قلّدوه واستحسنوا رأيه، ألا ترى إلى قوله لكم: لا أقبل منكم شيئاً ولا مقدار تبنة! فأي فائدة للمناظرة مع مثل هذا، وإن كان ما علمتُ ناشئاً على الخير طالباً للحق مجتهداً في أعمال البر فلا يستفيد الأخذ في المناظرة مع مَن شأنه التقليد إلا تهويس رأسه وحرمان نومه ونعاسه، وزاد في قبحها منكم كونها كانت في المسجد حتى ارتفعت الأصوات فيه بما لا يُجدي منفعة، والهدى هدى الله، ولعل فلاناً الذي أقامكم من ذلك الموطن وحلف عليكم في القيام منه كما ذكرتم كان أنفع لكم من الرجل الذي أقامكم حين أحاطت بكم العامة المتعصّبة قاصدين إلى إذايتكم، وإنما تستقيم المناظرة مع مَن هذا شأنه على سبيل التفرُّج معهم في موضع يليق به ذلك من غير المسجد من غير أن يعتقد المناظر لهم أنه يردّهم بذلك إلى حق أو يصدّ عن باطل، لأن مقابلة الفساد بالفساد من وجوه الصلاح والرشاد، ولا شك أنه في هذه الحالة لا يستغرق في ذلك ولا يبلغ به إلى حد يكون استغراقه في ذلك وإبلاغه يتهوّس به رأسه ودماغه.

ومن أعجب العجائب الرأي المسكين الذي دعاني إلى الخروج من بلد يعتاد فيه وقوع أمثال هذه الأمور، وهي وإن كانت خلاطاً وخباطاً فإن لي في رؤيتها وسماعها ووقوعها من وجه فرحاً واغتباطاً، **وقولي**: من وجه، نعني به من حيث استناد ذلك إلى مشيئة الله تعالى وقدرته، لا من حيث تضمنت وقوع شيء من مخالفته ومعصيته، فليت الحمار الذي كان حملني وساقني عطِب في بعض الفجاج حتى لا يمكنني إلا الرجوع على الأدراج بشرط أن يرضى بذلك مولاه الملك أو يعطاه قيمة ما أصابه من ذلك، ولم أقِم في بلد أشبه شيء بالبادية ذات الذئاب العاوية والسباع العادية، ولولا تعاهدكم لي بالإخبار عما يقع عندكم من أمثال هذه الأحوال لكان يصيبني من القنط ما يضيق عنه الوسع والاحتمال، ولكن لعل في الواقع من ذلك كله خيراً.

وأما الكتاب الذي ذكرتم أن فلاناً بعثه أو يبعثه إليَّ، لأبيِّن له فيه أشياء، فلم يقع بيدي إلى الآن منه شيء، ولو وقع ما أظنُّني أجيبه حتى لا يكون له

هوًى في إصابة أحد هذين الفريقين وخطأ الآخرين فحينئذ قد أشتغل بذلك، وربما كان فيه مفسدة زائدة، ومُجمَل القول فيهم أن جماعتهم لا بد من اشتمال عقائدهم وأعمالهم على شيء من الباطل، قُل قليل وقُل كثير، فإن قبل مني هذا الكلام وإلا فلا عتاب عليهم ولا ملام.

وأما قولكم: أريد منكم أن تنظروا كيف يكون سدّ هذا السد الذي انفتح بين هؤلاء الناس، فكيف يستقيم من أحد أن يسُدّ ما فتح الله تعالى في زمان يليق به ذلك؟ بل أقول: وأيّ سدّ انفتح لولا الوهم الذي غلب عليكم حتى استعظمتم ما ليس بعظيم؟

وقولكم: وأنا ما طلبت إلا ما أقمع به نفسي، تعنون به عن الكلام في ذلك مهما خفتم ما يثيره عليكم فلا شيء أقمع لها من الإياس من رجوعهم عن حالهم التي هم عليها إلا إن شاء الله تعالى ذلك بأمر من عنده.

وقولكم: ثم فهموا عنا أنَّا نقع في فلان، غباوة منكم ممزوجة بشيء من التصنُّع والرياء، والله تعالى يغفر لكم، لكن الطائفة الفلانية لا أوافقهم ولا أسلِّم لهم في تساهلهم الكلي حتى يكون ذلك مؤيَّداً بالشرع، وكل ما صدر مني من كلام مسطور عندكم وعند غيركم دليل على ما أقوله من ذلك، فليتطلب مصداق ذلك مَن أحبه، فمَن فعل منهم شيئاً بهواه وما يفهمه عني وأسند ذلك إليّ، فلست عليه بحفيظ ولا وكيل، وأمره في ذلك إلى الله عزَّ وجل، ولا أتعرض له بأمر ولا نهي، ولا أهجره ولا أبغضه، لِما أنا معترف به في نفسي من التساهل وقلّة الدين، والله تعالى يتجاوز عني بفضله.

والمراد منكم أن تقرؤوا هذا كله على فلان وفلان حتى يعلموا أني تكلمت بالقبيح فيهما أو فيمن كان على مذهبهما، وكذلك عساكم تبعثون بنسخة منه إلى فلان مع مَن تثقون به أنه يوصلها إليه، وغرضي من ذلك أن يقرع أسماعهم كلامي فيهم فقط، ليس لي غرض سوى ذلك، والله تعالى واسع المغفرة قابل المعذرة، ليس بمستبعد في كرمه أن يلحق المسيء بالمحسِن فيتساوى في نَيْل رحمته وجنّته الطائع المجتهد والعاصي المدمِن والعواقب مجهولة مبهمة، وأسرار القلوب لا يعرفها إلا نبيّ أُعلِمه أو وليّ أُلهِمه.

والحق عندي أن مَن حاد اليوم عن طريقة سيدي الحاج ابن عاشر رحمة الله تعالى عليه في معاملاته الظاهرة والباطنة مع الحق تعالى ومع الخلق، فهو سقيم الأحوال فاسد الأعمال، لأن معاملاته كلها كانت جارية على ما اقتضاه ظاهر الشرع من غير إفراط ولا تفريط، فجميع ما تضمّنته أحاديث تلك الكرّاسة كان عاملاً بها مع مراعاة آداب مشروعة مأخوذة من تلك الأحاديث وغيرها لا يصحّ عمله بتلك الأحاديث إلا بها، ولو أن الغرض المقصود بهذا الكلام كله ليس إلا التفرُّج معكم وإدخال المسرّة عليكم لا أني أقصد به هداية أحد ولا إرشاده لأنَّ الوقت لم يساعد على ذلك، لذكرت من أحوال سيدي الحاج التي تأيّدت بالآداب، وتقيّدت بالسنَّة والكتاب ما أعلمه، وهذا كله مما تقرؤونه على مَن ذكرت لكم وتكتبون به إن أحببتم.

وأما ما طلبتم مني من رسم أدعية موافقة لسجدات القرآن حسبما فعله الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه، فقد أغنانا عن ذلك وكفانا المؤنة فيه من أئمتنا الصوفية رضي الله عنهم محمد بن علي الترمذي الحكيم في كتابه «نوادر الأصول» عند ذكره لحديث تضمَّن ذلك ولا أدري أيّ حديث هو، فانظره في كتابه الذي كنت أعهده عند ابن فلان، وأظنُّه ذكر فيه أدعية جميع سجدات القرآن المتفق عليها والمختلف فيها، والظن عندي أنه في السفر الثاني من الكتاب المذكور، وما تولاه غيري لا سيما مثل ذلك الإمام لا ينبغي لي أن أتشاغل بمثل ما عمله، فإن في ذلك من سوء الأدب ما لا يخفى مع أن خاطري قد كلّ وذهني قد ملّ، والله تعالى يجبر أحوالنا بمنِّه.

وأما ما ذكرتم عن الشيخ أبي الحسن الحرالي رحمة الله عليه، فهو كلام صحيح مليح، ولا مناقضة بين نظر العبد بعين التوحيد إلى الخلق وتمهيد العذر لهم فيما يقع منهم من سوء خرق، وبين أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر حتى لا يمكن اجتماعهما، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يتعلق بما يكون في المستقبل، وأما ما مضى فلا تعلُّق له به، فيقول الآمر والناهي: افعلْ ولا تفعلْ، ولا يقول له لِمَ فعلت إلا لقصد تعليم أو تفهيم يظهر أثره فيما يستقبل، وأما ما فات فقد فات، فحَجّ آدم موسى، فنظر الموحّد وعذره يتعلق

بما مضى، ونظر الآمر والناهي متعلّق بما يأتي، فلا مناقضة بينهما لاختلاف الجهتين، وأيضاً النظر بعين التوحيد والعذر حقيقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شريعة، ولا مخالفة بين الشريعة والحقيقة، ولا أدري كيف خفي عليكم هذا مع وضوحه.

وأما ما ذكرتموه عن بعض شيوخ المشارقة من كلامه ذي العبارات الرائقة والمعاني الحسنة الفائقة، فهو إشارة إلى نفَس عالٍ من أنفاس القوم، لا يليق ذكره ولا رسمه بهذا الوقت خشية وقوع المقت، فاقنعوا منه بما ذكرتم أنكم فهمتموه من فوق فوق، ولا تكلِّفوني ما يخرج عن الوسع والطوق.

وأما الكتاب الثاني فأكثر ما فيه مكرَّر في الكتاب الأول، إلا أنه بقي منه أنكم طلبتم منا استنساخ نسخة من «التنبيه» ومقابلتها، لأنكم أردتم درسها في اللوح، والذي أراه أنكم مستغنون عن ذلك بما عندكم من النسختين اللتين أعرفهما عندكم، فإن أردتم التصحيح لإحداهما فابعثوا بها إليّ، وإن أردتم أبعث لكم النسخة التي عندي لتتولُّوا أنتم ذلك، أو تقابلونها من النسخة التي يرد بها عليكم فلان لأني قابلتها معه مقابلة لا بأس بها، وأما إنفاق دراهم على فضول لا معنى له فلا أرى له وجهاً، على أن من ارتضى خطه ها هنا ممن هو متصدٍّ للنسخ معدوم.

وأما كونكم أردتم قراءته باللوح فلا أهلية فيه لذلك لأنه وضعُ جاهل قاصر لم يؤيِّده توفيق ولم يساعده تحقيق، فتُتعبون أنفسكم بما لا فائدة فيه، والزيادة في الشيء كالنقصان منه، وإنما يقرأ في اللوح كلام محقق عارف يمكن أن يُستنبط من منطوقه ومفهومه ورموزه وإشاراته معارف وعلوم لا تُنتقَد، بل تُعتمد وتُعتقد، وينبني عليها من معاملة العبد مولاه ما يؤدّيه إلى الأمان والفوز بالرضوان، وإذا كان سيدنا أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه يقول فيما كان يتجارى فيه مع إخوانه من أهل المعرفة من العلوم والفهوم التي لا يقدر أحد اليوم أن يرد موردها أو يحوم: طاحت تلك الإشارات وبطلت تلك العبارات. . . إلى آخره. فما الذي يقول مَن يتكلم مثلي بكلام خلفَ صدر عن قلب جلف، فلا حول ولا قوة إلا بالله وإنَّا لله وإنا إليه راجعون، تفجُّعاً منا من

الكون في زمان يُعد فيه ما أرسمه وأفوه به من الكلام المعتبر حتى يُكتب ويُقرأ ويُتصرف فيه بفكر القلب وإصغاء السمع ورؤية البصر، وإنه لعَلَم سوء على ذهاب الأخيار وفقد العلماء والعارفين من هذه الديار والأقطار، كما قال الشاعر:

لَعمرُ أبيكَ مَا نُسِبَ المعلّى ... إلى كَرَمٍ وفي الدنيا كريمُ
ولكنّ البلادَ إذا اقشعرَّت ... وَصَوَّحَ نبتُها رُعِيَ الهشيم[1]

ثم إنه لا حاجة بكم إلى الدرس لأن تكرار النظر فيه على الدوام وتعاقب الليالي والأيام مما يوجب لكم الحفظ ويحصل لكم من ذلك أكمل الحظ، والله تعالى يرشدكم إلى الخير ويهديكم إليه بمنِّه.

وقولكم فيه: وإن كان وحدثت لكم نية فيما طلبته لكم في التآليف التي كنت ذكرت لكم، لأن هذا الأمر شاع وبلغ إلى حد العداوة، فالجواب عنه تفهمونه مما تقدَّم لنا في هذا الكتاب، والأمر أصغر من ذلك وأحقر.

وقولكم: ينبغي أن يبيِّن ما هو الحق والصواب ليسلكه مَن أراد الله تعالى أن يهديه إلى الصراط المستقيم، فإن كان الحق لم يتبيَّن إلى الآن فالله تعالى لا يبيِّنه ولا يزيده إلا إشكالاً، وهذا دعاء لا خبر، فالحق بيِّن ولكن أهواء النفوس هي التي حجبته وغطّت عليه، فإن كانت لكم قدرة على إزالتها من صدور أكثر الناس فافعلوا ذلك، ولكن لا قدرة لكم عليها ولا سبيل لكم إليها، وهو شيء استأثر الحق تعالى به لم يكِله إلى ملك مقرّب ولا نبي مرسل. قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأعلاهم منزلة لديه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القَصَص: الآية 56] جعلنا الله تعالى منهم بفضله.

---

(1) هذان البيتان لدعبل الخزاعي أبو علي من العصر العباسي ولد سنة 148هـ وتوفي سنة 246هـ شاعر هجّاء، أصله من الكوفة، أقام ببغداد. [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

الرسالة التاسعة عشرة

وبعد: فقد بلغني منكم كتابان اثنان وأعلمتمونا في أحدهما أنه أدرككم خوف شديد وانقباض بسبب ما تكلمتم به من الكلام الذي كان سبباً لتكلُّمي على أحوال أولئك القوم واتهمتم أنفسكم في معرفة حالهم، وقلت: لعل ما فهمته عنهم غير صحيح، فيكون ذلك كله في صحيفتي.

واعلم يا أخي أنكم إذا خفتم من مثل هذا مع مرجوحية احتمال خلافه مع أنه لم يقع منا في جهتهم إلا ما في باطنه منفعتهم وفائدتهم سواء كان ما ذكرته عنهم صحيحاً أو مكذوباً فيه فما ظنكم يكون خوفكم لو وقع منا ما طلبتم من التكلم على تلك الأحاديث بحسب ما يفهم من صورة الحال في جمعها ونشرها وما يفهم من إرادتهم بذلك لا شك أن خوفهم إذ ذاك يكون كثيراً وتخلصكم منه عسيراً لا يسيراً، وقد قال ذلك البدوي الذي أهدى التين إلى بعض الملوك حين أمر أعوانه أن يضربوه بها: «سلامة أدّي ما كانت سفرجل». فإن أردتم أن تتخلصوا من ذلك وتمحوه من صحيفتكم حتى تصير كما كانت بيضاء نقية فاستحلُّوا من أولئك القوم مَن حضر منهم ومَن غاب وكذّبوا أنفسكم، وقل لهم ما قال ذلك الطائر لأليفته من الطيور حين عتبت عليه ما جناه عليها: أخطأت لا أعود، أخطأت لا أعود. ولا شك أنك تجد عندهم مرادك من التحليل، لا سيما إن قصدتم في ذلك بتمسكن وتذلُّل فتسلم بذلك من تباعاتهم وتتخلّص من مطالباتهم.

والنصيحة من شأنها أبداً أن تُتلقى بالقَبول، ودَعِ الملقي لذلك يكون صادقاً أو كاذباً فيما يفعل ويقول، لأن مَن كان له حبيب يبتغي إليه الوسيلة والقربة بما يليق بجانبه من المعاملات التي تُدنيه منه وتقرّبه إليه ويعلم أنه يسقطه من عينه الإخلال بقلامة ظفر مما يجب لجماله وكماله مع أنه قاصر في نظره عن إدراك بعض ما يرضيه عنه فيفعله أو يسخطه عليه فيتركه، فهو غير آمن بسبب قصوره أن يقع في أمر يسقطه من عين حبيبه فيفوته منه ما أمّله من حظه ونصيبه، فلا جرم يكون له أعين نظّارة وآذان سمّاعة لكل مَن يمكن أن يصدر

منه تنبيه على ذلك كائناً ما كان، والحكمة ضالّة المؤمن، وخذها من غير فقيه «أصابت امرأة وأخطأ رجل» وبمثل هذا النظر كان أرباب البصائر يستفيدون معرفة عيوبهم على ألسنة أعدائهم، فهب أنك والمتكلِّم على كلامك من الأعداء الكذّابين، أليس من حق مَن تعرّضتما له بكلامكما لتُسمعاه إياه أن يكون لمضمّنه من السامعين المنقادين لرجوع فائدة ذلك إليه لتعرّفه بذلك ما يرضى عنه به حبيبه وما يسخطه عليه، وهل نفس سماع ذلك والانقياد إليه في مقتضى المحبة والمعرفة إلا موجب لكمال الحال الذي لا يقدر على الوصول إليه بمحاولة العمل على ما لاح له من خيال أو محال مع عدم سماعه لذلك وانقياده أو إطراحه وإبعاده.

فإن قلت: كيف لا أنقبض وأخاف وقد عصيت ربي وأطعت عدوَّه إبليس بما وقع مني من غيبة القُرّاء واتهام البُراء قاصداً بذلك الإخبار بكوائن واقعة وأمور مستشنعة لصاحب لي لا يملك لي ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً تحصيلاً لأرَب يمكن أن يكون له فيه غرض ولم نُبالِ في ذلك بخسران ديني وفَوْت طاعة ربّي؟

فأقول: القدر نفذ عليك بذلك وجرى القلم به، فلو رُمت صرفه عنك بحيلة السماوات والأرض لم تقدر على ذرة منه، ولا بدّ من وقوعه منك وجريانه على يديك شئت أم أبيت أوَ ما سمعت ما قاله الشيخ الحرالي في تطلُّب العذر لأهل المعاصي واطّلعت على ما فسره به شيخك ابن عمك من أن تمهيد العذر لهم من الرضى بقضاء الله تعالى والتسليم لأحكامه، ولا يضر ذلك شيئاً إذا استعمله فيما مضى من حاله، أتلومني على أمر قد قدِّر عليّ قبل أن أُخلق؟ وأيّ فرق بين النفس والغير في هذا على التحقيق؟ إلا من جهة طلب الشرع لعدم تمهيد العذر للنفس بخلاف الغير، وأنت لم تقصد بذلك اتباع الشرع، إذ لو اتبعته في ذلك لم يصدر منك ما يخالفه فيما هو أشد عليك من هذا، فإن صدر كان خوفك عليها فيه أكثر، فإذا عذرتها فيما مضى واستقام ذلك منك لم يتوجه عليك طلب إلا فيما تستقبل، فتب إلى الله تعالى من ذلك الفعل ولا تعُد.

وأما أنا فقد وقع مني ما وقع، ويقع مني أضعافه وأضعاف أضعافه ولا أكلّ من ذلك ولا أملّ، وأحب أن يطّلع على ذلك الحنّ والبنّ والإنس والجن حتى يصرفني الله تعالى عن ذلك بما شاء من قدره، ودع كل مَن يقع في عِرضي يقع وكل مَن يتكلم معي يتكلم، فلم أقصد بذلك تنقُّص أحد ولا عيبه ولا السخرية منه ولا الاستهزاء به، فإنما يتصوَّر ذلك ممَّن أخذ كتابه باليمين وكان من فوز نفسه ونجاتها على يقين، كيف وأنا لا أعتقد في نفسي إلا أنها من شرّ ما خلق، وأنها أوّل مَن من مراشده وفوائده شرد ومرق، فليتحقق ذلك مَن لم يكن تحقق، وإنما قصدتُ بذلك التفرُّج معكم بالحديث ليقع بذلك لي ولكم بعض الأنس ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء، فالعبد عبده، والأمر أمره، والمُلك مُلكه، والفعل فعله، فهذا ما يتعلق بهذا الفصل من أحد الكتابين، ولا أدري أتحصلون بما أردتم من الجواب عن ذلك على قرّة العين أم يرجع ذهنكم وعقلكم عن ذلك «بخُفَّيْ حُنين» لا سيما إن لم تعاودوا النظر فيه فوق المرّتَين، وتأمّلوا منه كل حرفين وكلمتين، ويكون ذلك كما ذكرتموه في كل خميس وفي كل اثنين. فهذا هو الذي ينبغي أن يقرأ في اللوح ويحفظ ويشدّ عليه يد الضنين ولا يُلفظ.

وأما ما ذكرتموه من العُرس والوليمة فإن صاحبها غير خارج عن الاستقامة في تخصيصه بعض الناس بالتُحَف والطُرَف دون البعض، لأن ذلك من إنزال الناس منازلهم التي يستحقونها عند أنفسهم وفي دنياهم، كقصة عائشة رضي الله عنها مع الغني الذي قدّمت بين يديه الطعام والمسكين الذي ناولته كَسْرَة الخبز، ولا شك أن المربّخين وأصحاب العمائم لا يشبهون فلاناً وفلاناً وفلاناً، ولا مَن كان معهم، لأن أولئك المربّخين ألوان الطعام بين أيديهم في كل يوم يتلاعبون بها في ديارهم ومنازلهم وبين خَدَمهم وحَشَمهم ويُريقون ما فَضِلَ منها في المجاري والقنوات، فهم إن لم يختصوا بشيء يقلّ وجوده في أيديهم ساءهم ذلك ولم يقع منهم ما يُقدِّم إليهم موقعاً.

والجماعة المباركة التي ذكرتها على خلاف ذلك، لأنهم قد يجوعون ولا يشبعون ويَمضغون ولا يبلعون، وأيضاً فإن فلاناً صاحب الدار والمحل، وفلاناً

متصوِّف ولا همَّة له في تخيُّر ما أكل، وفلاناً متقشِّف يرضى من دنياه باليسير، وفلاناً زيّاز «لا في العير ولا في النفير». ولقد كان عند رئيس ذلك الدِست وقيِّمه من خواص الأصحاب والآن ليس له عنده باب، ولعل له في ذلك خيراً، وما بقي من القوم الذين حضروا معهم هم من هذا النمط المسكيني، فالطُوَيفِرات الصغار في حقهم بمنزلة طَيَافِير العادة وما اشتملت عليه من أراذيل الطعام بمنزلة الدجاج المسمّنة التي قُدِّمت لأولئك الكبراء والسادة، فلم يخرج بذلك عن القانون الحِكمي والنظر المصلحي، فاشتغال مَن اشتغل به من أجل ذلك لم يصادف به غرضاً، ولم يشفِ عنهم من الخطأ في اعتراضهم عليه مرضاً، وقسمه على فلان باليمين وإجلاسه بمرأى من أولئك الحاضرين المربّخين من الخير الذي ينبغي أن يُشهر، والأمر الذي يجب في مجرى العادة أن يُعلن به ولا يُستر.

وأما كتابكم الآخر فليس فيه ما يقتضي كلاماً إلا أنكم قلتم به إنكم لا تجدون حبيباً تستأنسون به، وتبُثُّون شكواكم إليه وأنكم أنِستم بالناس لِما أنتم فيه من الإفلاس... إلى آخر المعنى الذي ذكرتم. فالله تعالى يُغنيكم عنهم ويصرف همّتكم عنهم ويجعل في باطنكم من النور الذي يعمره ويغمره ما يتجلّى لكم به في كل غير، وكون مظهره وقدره ومنشئه ومُصوره حتى تكوّن في هذا العالم كائناً بائناً لا تجد له بَرداً ولا حرّاً ولا تتوقع من قبله نفعاً ولا ضرّاً، ويستحق الأرض أربابُها ويزعج عنها بالفرار والهرب مستلِبوها وغصّابها، وما ذلك على الله بعزيز.

وقولكم: وعسى إن ظهرت لكم فائدة يكون إعلامكم لي بها يقتضي منفعة زائدة... إلى آخره، فإن كل ما أتكلم به إليكم فوائد، ولكني لما أشاهد منكم من الطيش والاضطراب أرى كل ما ألقيه إليكم من ذلك كأنما ألقيه لكم في بئر أو تتحمّلون به عند محاولتكم أن يكون ما تضمّنه حالاً لكم، حمل بعير، بل جَبَل ثبير، وإلا فكم من كتاب وصل إليكم وفائدة أوردت عليكم ثم ما يشفِ ذلك لكم علة، ولا نقع لكم غفلة، بل شأنكم أن تقولوا: ما أفعل ما أصنع ما أصابني ما دهمني؟ يا ليتني يا ليتني، إن لم تلفظوا ببعض ذلك مقالاً تقولونه

حالاً، ولكن لمّا كان الأصل مختلاً كيف لا يكون ما ينبني عليه مختلاً ومعتلاً؟ أتدرون ما الأصل الذي ذكرتُ وإليه أشرت أنا وكلامي وإقدامي وإحجامي وفعالي ومقالي وعملي وحالي؟ فالله تعالى يتداركنا برحمته ويعاملنا بلطفه ومنّته، ويبدّل حيرتنا ويُقيل عثرتنا ويرحم غربتنا ومسكنتنا ويجزي خير الجزاء كل مَن أدركته علينا شفقة الإيمان من المؤمنين، وقال عند سماع دعائنا آمين، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين.

***

الرسالة العشرون

وقد بلغني كتابكم وتعرّفت منه ما ذكرتموه من حالكم في ضيق المعيشة وعدم سكون النفس إلى سابق القسمة، وذلك يا أخي هو حال أكثر الخلق اليوم، فلا تكاد تجد أحداً تشكو إليه إلا وهو يشكو إليك مثل ما تشكو إليه أو أكثر، كما قال الشاعر:

كلما رمت لأشكو علّتي   لا أرى غير ذي قلب قريح
كلهم يشكو الذي أشكو به   يا لقومي ما عليها مستريح[1]

وسبب وجود هذه الحالة لهم ـ أعني جزعهم وشكواهم ـ ما ألفوه من الأُنس بالعالم المحسوس والتمتُّع به وقضاء الوطر منه، فلما تغيّر الحال عليهم في جميع هذه الأمور وقع منهم ذلك، وما لم تعتده النفوس يصعب عليها موقعه، فإن لم يقارن هذه الحالة منهم صبر جميل أو توبيخ للنفس وعتاب لها على ما يصدر منها من الجزع والاضطراب حسبما وقع منكم كان ذلك في حقهم عقوبة حلّت بهم من منتقم جبّار، وإن قارن ذلك ما ذكرناه كان في حقهم تأديباً أدّبه به حكيم مختار، فاعرف قدر النعمة عليك بهذا وانظر إلى ما فات غيرك منه مع تقلُّبه في الشدائد والبلايا والمصائب والرزايا ظهراً لبطن، فالسعيد مَن وعظ بغيره.

وثَمَّ حالة أخرى لو أننا وإياكم نلناها لكنا من السابقين الذين لا يشق لهم

(1) لم أقف على اسم قائل هذين البيتين.

غبار ولا يحوم حول مقامهم صالحون ولا أبرار، وهي أنهم قد يجزعون ويضطربون ولكن لا يوبّخون ولا يعاتبون لأنهم يشاهدون أنفسهم أسرى في قبضة الحق، لا شعور لهم بشيء مما ينسبه الوهم إلى الخلع مع سلامتهم من مطالبة الشرع، فهؤلاء هم الذين تكون حسنات غيرهم سيئات لهم، يعلمون قبحها من أنفسهم فيستغفرون الله تعالى ويتوبون إليه منها، لأن ذلك يتضمن شيئاً من الثبوت لأنفسهم عندهم وذلك من أعظم الذنوب المبعِّدة من حضرة المحبوب كما قال الشاعر:

إذا قلتُ ما أذنبتُ قالتْ مجيبة وجودك ذنب لا يُقاس به ذَنْب[1]

ولا تظننّ أن هذه الحالة تُنال بحيلة واكتساب أو يتوصَّل إليها بسبب من الأسباب، إذ لو تصوّر ذلك لكنتم أحق الناس أن تنالوها وتصلوا إليها، لأنكم لمّا انتشبتم معي وانتشبت معكم شممتم من جهتي رائحة شيء لا تشبه رائحة تفّاح ولا ياسمين ولا أقول مسكاً ولا عنبراً، فلما شعرتُ بهذا منكم توهمتُ أن حاسّة شمِّكم فيها استعداد لإدراك حقيقة هذه الرائحة، فصرتُ أتسبّب في توصيلها إليكم بأمور لم يجسر عليها متجاسر وأحتال على ذلك بحيل ولا «كحِيَل بني شاكر» فلا جرم لمَّا وقع مني ومنكم اعتماد على هذه الأسباب وضُرِب بيننا وبين إدراك حقيقة الحقائق الذي هذا كله مما يُنفر عنه ويغبّر في وجهه بحجاب صِرتُ في ذلك كما قال امرؤ القيس:

ألِمّا على الربع القديم بعسعسا كأني أنادي أو أكلِّم أخرسا

ومن أمثال العامة: «قِربة لا تَهدَى وزبد لا يخرج» لكن البيِّنة من قرض الدَين، وشيوخ هذه الأزمنة لا يحصل لتلامذتهم منهم ولا لهم من تلامذتهم قرة عين، فلنحمد الله تعالى على قلة الحسب ولنعتقد أن لنا في ذلك خيراً من حيث لا نحتسب.

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذا البيت وأورده القشيري في تفسير لطائف الإشارات، سورة الأنعام، آية 120 [1/ 309] وأورده الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن عربي الحاتمي في التفسير، سورة البقرة، آية 285 [1/ 115].

وما اعترضتم به على فلان فهو اعتراض متوجه عليه، كما أن الاعتراض الذي كنتم ذكرتموه في الكتاب الأول لا يتوجه عليه، وقد كنتُ بيَّنتُ لكم كيفية عدم توجُّهه في الكتاب الذي بعثته مع فلان وفلان، وأما بيان توجُّه هذا الاعتراض عليه فهو أن الوقت على ما تعلمونه من الشدة وغلاء السعر وكثرة الفتن وغلبة الحرام، فالإنسان اليوم إذا طلب ما يتقوّت به يلقى شدّة وعنتاً فضلاً عن اكتساب ما وراءه من الفضول، ولا شك أن النفقة التي أنفق في تلك المأدُبة مال طائل بحيث يتصور أن يصنع به في أوقات الرخاء والسعة مآدب وولائم، فإنفاق مثله في هذا الوقت لا يخلو من إسراف، وقد قالوا: لا خير في السرف، فإن قال: وقد قالوا لا سرف في الخير، واعتلّ لذلك بما ذكره من أنه قصد بذلك جبر قلب فلان وفلانة، فلم يصادف في ذلك كله الغرض، وكان الأوْلَى به في قصد جبر قلوب أولئك القوم مع موافقة رضى الله تعالى وعدم الانقياد إلى الخيالات التي اعتادها الناس أن يعمد إلى ذلك المال فيقسمه ثلاثة أقسام: قسم يقيم به السنَّة في وليمة العرس، ثم يدعو إليها مَن يعُدّ وجود تلك الأطعمة المختلفة والتمكن من أكلها غنيمة، ويجعل ذلك اليوم الذي يأكلها فيه عيداً فيقع الأمر في محلِّه وتعود بركة ذلك على العريس والعروسة وآبائهما وأمهاتهما ومَن قام في ذلك الأمر وقعد وأعطى وأخذ، وقسم يتطوّع به لفلانة بعد التزامه لأرفع الصدقات وأعلاها من غير إلزام فيجعلها لها في تُحفة وطُرفة تقر به عينها وعين أبيها وأمها إن كانت، وقسم يتطوّع به لفلان فيهبه له ويجعله رأس مال يحاوله له في تجارة أو زراعة يتحصّل له من ذلك فوائد يتمتع بها مع أهله ويقطع بها عُمراً صالحاً على حال ما هو عليه من الضعف والعذر، وإن فرضنا أن عنده ما يغنيه عن ذلك كله، فيكون هذا زيادة خير إلى خير، ثم إن الزمان لا يؤمَن منه الانقلاب والتغيُّر، فيجد ذلك الولد عند الحاجة والفاقة ما يردّ إليه يده ويقيم به أوْده، لأن مثله حين عدم القوة على الصناعة إن لم يكن له احتراف بتجارة أو زراعة لم تتشوّف همّته إلا أن تكون له إمرة مطاعة ينال الرفق من جهتها ويحصل له قوام حاله من ناحيتها، وهي إما تدريس أو فتوى، وكون هذين الأمرين ـ أعني التدريس والفتوى ـ إمرة مطاعة ستأتي الإشارة إليه فيتعلق

لا محالة بالمخزن ويتعرض لأنواع الفتن والمحن كما كان فلان فنجّاه الله عزَّ وجل بعد اللّتيّا والتي، **وقولي**: بعد اللّتيّا والتي، يُعبّر به عن مكابدة الأمور الصعبة ولم يكابد هو صعوبة في ذلك في ظاهره والله تعالى أعلم. وإنما كابد ذلك في باطنه عندما تعارضت الأدلة لديه واشتبهت حتى أنقذه الله بكلام تكلَّم به بعض تلامذته وهو فلان بعد أن رمى بنظره خلف ظهره واعتمد العمل بما قيل له بسرِّه وجهره، فما ظنُّك إذا اجتمعت مكابدة الظاهر والباطن؟

هذا كله إذا قصد إلى جبر قلوب أولئك القوم بأمر مألوف لا يجهله مَن له أدنى تمييز لأنه لم يجاوز عالم الحسّ والوهم. وأما لو قصد إلى جبر قلوبهم بالأمر الحقيقي الذي يجدون الاغتباط والفرح به إذا عملوه، والحزن والكآبة من أجله إذا أهملوه عند تغميض أعينهم بالموت، فإنه يعمد إلى ما قرع سمعه وجرى على لسانه وتحقق بالإيمان والتصديق به قلبه من قوله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا. . .﴾ [التّحْريم: الآية 6] الآية، وقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ. . .﴾ [التّغَابُن: الآية 15] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ. . .﴾ [التّغَابُن: الآية 14] الآية، فيعمل بجميع ذلك ويوفيه حقه وينصح لله ولرسوله ولمَن استرعاه له، ويرجع حاصل ذلك إلى أن يقرّر لهم ما تقرّر عنده من صحة قول رسول الله ﷺ: «**لا خير إلا خير الآخرة**» ويُعلمهم أن الآخرة هي التي ينبغي أن تُعتبر ويُسعى لها ويُقدَّم إليها، وأن الدار الدنيا خيال زائل وسراب ذاهب، وأن العاقل الكيِّس مَن جعل جميع ما أنعم الله به عليه من اتساع مال أو صحة حال في طاعة الله تعالى وما يقرّب منه، لا في طلب الشهوات واتباع العادات، ويقصد إلى مَن أصيب منهم بشيء من مصائب الدنيا وبلاياها كما جرى لولده وقطعة كبده، فيقرر عنده أن بلايا الدنيا هي التي يغتبط بها أولياء الله عزَّ وجل إذ لا يعدلها شيء من العبادات في التوصُّل بها إلى الأجور والثواب، وأن الحق تعالى لا يختص بذلك إلا مَن أحبه واصطفاه ورضي عنه واجتباه، وإن مَن ابتُلي فيها بفقد بصره لا جزاء له في الآخرة إلا النظر إلى وجه الله الكريم، ويحقق أمثال هذه المعارف عندهم كأنهم يرونها فيتسلُّون بذلك عن ما تعلقت به هممهم

وأوهامهم من متاع الدنيا وزخرفها الذي لا شبيه له إلا لعب الخيال، ويكون ذلك في صحيفته مدّخراً له عند الله تعالى أجره وثوابه مع سلامته من مناقشة السؤال واستيلاء الخجل عليه بين يدَي ذي العزَّة والجلال، ويكون هذا أنفع له في عاجله وآجله من كل طاعة وقربة يعامل بها مولاه عزَّ وجل.

فهذا كله يُبطِل ما اعتلّ به من جبر القلوب، وسواء كان ما أنفقه ماله أو مال غيره لأن حكمه بيده ومرجع أمره إليه، فإن اعتلّ أيضاً بأن فلاناً وفلاناً فعلا مثل ما فعله وكانا من الصلاح والعلم في رُتبة عالية، فلا يسلّم له ذلك أيضاً لأن مثله في حذقه ونُبله ونفوذ إدراكه لا يليق به التقليد للغير، وهل هذا إلا تقليد محض؟ كيف والمعهود منه في مسألة من المسائل العلمية لا يعتقدها ولا يعتمدها حتى ينهي النظر فيها إلى غايته لكنه لحدة ذهنه وسرعة إدراكه يفرغ منها في أقرب زمان، ولو صحّ له الاكتفاء بالتقليد في هذه النازلة مع وضوح ما ذكرناه من المعاني التي لا توافق مذهب التقليد بل تدفع في صدره وتغبّر في وجهه لكان الأوْلى أن يكتفي بالتقليد لمشايخ الصوفية رضي الله تعالى عنهم، فيعتمد طريقهم ويوالي حزبهم وفريقهم وينفي عن ظاهره وباطنه ما يضادّ مرادهم وينافي إصدارهم وإيرادهم مع ما يعضد طريقهم من البيان والبرهان، وليس الخبر كالعيان.

ومعلوم ـ والله أعلم ـ كونه أصلحه الله لم يصرف إلى ذلك كليّة همّته إذ لو صرفها إليه لكان له في ذلك أعظم شغل عن أن يقطّع قليل ما بقي من عمره الذي هو أنفس من كل نفيس بنحو مما قطع به ما مضى منه من التشاغل بمسائل ليس لأهل هذا الوقت كبير حاجة إليها لأنهم إلى ما يصحِّح إيمانهم بالله واليوم الآخر أحوج منهم إلى ما يضطرهم إلى التشاغل به ولأخذ فيه فضول الدنيا واتباع الهوى يستفتون في دم البراغيث وهم قد أراقوا دم الحسين، ثم إنهم إذا ملكتهم شهوة إلى شيء سدُّوا أعينهم وعملوه، وأصلحهم وأدينهم مَن يطلب التأويل البعيد ويتعلق بخيوط العنكبوت، فتراهم إذا طالبوا أنفسهم بانتهاج سبيل ما علموه من مقتضى الشرع راغت عن ذلك روغان الثعالب ولم تطاوعهم فيما دعوها إليه من الأمر الواجب، فلم يزيدوا على أنفسهم مع عنائهم وتعبهم إلا

تكثير الحجّة والانحراف عن جادة المحجّة، لكن سيول الفتن إذا تراكمت، وبحارها إذا تموّجت واضطربت، لا تدع لذي عقل عقلاً، بل تذر موضعه من صدورهم هواءً غفلاً، ويرجع جميع علومهم باتباعهم لأهوائهم جهلاً ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هُود: الآية 43] فصحّ بهذا كله أن اعتراض مَن اعترض على فلان من الوجه الذي ذكرتم في كتابكم الأخير متوجّه لا محيص عنه بخلاف الاعتراض الآخر وفلان في إزالته ما علق بقلبه وتهوين الأمر عليه الظاهر أنه لم يصادف الغرض ولم يقم بحقّ النصح المستحسن. والمفترض هذا كله من أوله إلى آخره كلام على مقتضى ما ظهر من الأمر، وأما ما بطن منه فالله تعالى أعلم بالنيّات والمقاصد.

فإن قيل: هذا كله تشاغل بما لا يعني وتعريض أو تصريح بالغيبة في أشخاص معنيين لم يصلوا إليك بعيب ولم يذنبوا لك ذنباً في شهادة ولا غيب. فلنُسلّم لهذا المعترِض ما ذكره ولنوافقه على ما فهمه وقدّره ونحن نستغفر الله تعالى من جميع ذلك، على أن الاستغفار مع الإصرار توبة الكذّابين لأنا نتشاغل بالجواب عن هذا الاعتراض بوجه إقناعي قد يصح وقد لا يصح، والوجه الإقناعي أن نسلك في ذلك مسلك التقليد الذي هو من ثلج الصدر بعيد. ونقول: قد رأينا طلبة هذه الأعصار الذين يتكلمون في العلوم الظاهرة تفقُّهاً فيها وتدريساً لها إذا مرُّوا بمسألة خلافية فروعية أو أصولية وتعرّضوا إلى ترجيح بعرض أقوال مَن تكلم فيها ممن تقدّمهم على بعض يقولون: قول فلان راجع، وقول فلان صحيح، وقول فلان ضعيف، وقول فلان فاسد، ووهم فلان، وأخطأ فلان، وقول فلان تدفعه الأصول، وقول فلان ليس له طائل ولا محصول، وإن حسّنوا العبارة قالوا: قول فلان فيه نظر، وقول فلان خفي لا يظهر، وقول فلان لا أعرفه ولا أفهمه، وقول فلان أخطأ فيه الكاتب الذي يرسمه... إلى غير هذا من العبارات التي مقتضاها التصحيح أو الإبطال، مع أن أولئك القوم قد ماتوا وانقرضوا منذ أعصار طويلة يتصوّر فيها أن يكون ما نقل عنهم من أقوالهم في المسألة المفروضة مكذوباً عليهم أو موهوماً في نسبة ذلك إليهم، ولعلهم لو عاشوا لم ندرِ ما الذي كانوا يقولون؟

وقد تكون هذه المسألة من المسائل التي لا حاجة إليها ولا يتوجه لأحد طلب من الشرع باعتقاد لها ولا عمل بها، فاحسب أني في هذه النازلة كذلك ولا مانع لك من هذا الحسبان لأنا لم نزد فيما ذكرناه على أن صححنا مذهباً ذهب إليه بعض أهل العصر ورجّحناه على مذهب آخر في مسألة قدِّر أنها غير مفيدة كما يجري لهم في بعض مسائلهم مع ما انضاف إلى ذلك من أمور اندرجت في أثناء هذا المقول يعترف بصحتها مَن له أدنى تمييز ومعقول، فأنا فيما ألزمتنيه أيُّها المعترض قد نحوت نحوهم وقصدت قصدهم وانتهجت من طريق تقليدهم سننه وجعلتُهم لي أسوة ولكنها ليست بحسنة، فإن كانوا مصيبين فقد سلكتُ طريقهم الأقوم وإن كانوا مخطئين فاجعل رأسي مع رؤوسهم واضرب على الجميع بالميجم[1]

فإن قلت: كيف ذهبت في جوابك مذهب التقليد الذي قلت إنه من ثلج الصدر بعيد، وعدلت عن التحقيق الذي يهدي إلى سواء الطريق وأنت قادر على ذلك ومتمكن منه لو أردته؟

فأقول: التقليد كاف لنا في جوابك أيها السائل لأن الذي يغلب على الظن أنك من المستأنسين به الطالبين الحق من قبله، وإلزام الخصم ما يقول به في الرد عليه وجه من وجوه النظر.

فإن قلت: ما ذكرته صحيح، أنا من أهله وأستغفر الله تعالى من مثله ولكني بمنزلتك في الاستغفار الذي استغفرته، أعني أني كذّاب مثلك لأني ألتمس منك أن تبيّن لي ما بقي عليك بيانه من ثبوت أهلية مَن ذكرته للتقليد بوجه إقناعي.

فأقول: عليّ بيان ذلك إذا كنت منصفاً معترفاً بذلك، ولكني أبيِّنه لك بشيء يشبه درهم مقيق لا يشترى به ماء ولا دقيق.

فاعلم أن الرياسة بها قوام العالم، إذ لولا وجود الرياسة في بعض

---

(1) يقولون للذي يُدَق به الوتد: ميجم وهو مفعل من نجم الشيء إذا بدا وظهر كأنه نتأ على العود الذي يقبض عليه الضارب. [تصحيح التصحيف وتحرير التحريف 1/ 293].

أشخاص الآدميين لعمل كل واحد ما أراد ولحصل من أجل ذلك في العالم غاية الفساد، ولهذا كان بالمملكة نظامه وبالسلطنة قوامه، وهؤلاء القوم الذين اعتمدناهم في التقليد قد حازوا من الرياسة الحظ الأوفر والنصيب الأكبر بحيث إن رياسة الأمراء والولاة كانت مستحقرة في جنب رياستهم، أعني في الزمن الذي كان فيه بعض الصلاح والفلاح. وأما اليوم، فأقلّ حرسي وشرطي يربط أكبرهم بحبل ويجعل على رجليه الكبل ولا يخاف من أن تخسف به الأرض ولا أن تنزل عليه صاعقة من السماء في أسرع من الغمض.

فلما كانوا من الرياسة في العالم بهذه المثابة كان من المتعيِّن في طريق المصلحة أن تسلّم لهم رياستهم، وتوفّر عليهم جبريتهم، ويجتنب كل ما يقدح فيها ويغض منها، ولهذا يجب على مَن قطع ذَنَب بغلة القاضي في أرش الجناية بالشرع ما لا يجب في قطع ذَنَب غيرها وإن كانت أجود منها وأكثر قيمة، فلا جرم لمَّا شعروا هم بهذا ورأوا ما خصُّوا به من الغناء الأكبر في هذا العالم السفلي وأن الناس بالنسبة إليهم كالغنم والبقر بالنسبة إلى رعائها، وافق ذلك منهم شهوة وهوى، فسارعوا بسبب ذلك في وسائل هذا الأمر من تعلُّم العلم وتقلُّد القضاء والحكم، وجدُّوا واجتهدوا، وقاموا في ذلك كله وقعدوا، واتفق أن كانت سلاطين الأزمنة محتاجين إليهم في نيابتهم عنهم في القيام بما ربما لا يحسنونه ولا تستقيم له سلطنة ولا مملكة إلا به من التشاغل بتعليم الناس ظاهر العلم وقطع النزاع بينهم بإمضاء ما شرع فيه الحكم.

وما ذكرناه من جدِّهم واجتهادهم كان أيضاً في الزمن الذي كان فيه بعض الصلاح، وأما اليوم فأنت تعلم ما الذي أريد أن أقول فيه، ثم هو بالنسبة إلى ما بعده كالزمن الأول بالنسبة إلى هذا الزمان، والله تعالى المستعان، فآل أمرهم بما ذكرناه إلى أن حصل لهم نصيب من السلطنة لمّا ضعف أمرها ولم يكن لها من الاستقلال ما يتمحّص به حكمها وقهرها وكلهم أو جلهم يعتقد فيما هو آخذ فيه أنه بذلك مُتّقٍ لله تعالى وعامل بطاعته ومسارع في مرضاته، وهيهات هيهات تلك أمانيّهم حققها عندهم ما هم فيه من الرياسة والنفاسة لا

يطؤ بساط الحضرة مَن هو معتنق بجيفة وحامل النجاسة إلا مَن سبق له بالتوفيق والهداية القدر وتحقق أن الدنيا قنطرة تُعبَر ولا تُعمر.

فلما كانت لهم هذه المنزلة في هذه الدار الدنيّة المسترذلة وكانوا أصحاب الطيالسة والعمائم وأرباب الأوامر النافذة والسيوف الصوارم حقَّ على كل مَن عداهم من أهل الذلّة والمسكنة أن يكون بينهم خفِيّاً، وأن ينتبذ عنهم مكاناً قصيّاً، ومَن بُلي بمقاربتهم ومعرفتهم فليجرِ على منهاجهم وليتّبعهم في صوابهم واعوجاجهم لعله يعيش فيهم عيشاً هنيّاً، وقد يكون عندهم مرفعاً حظيّاً، ومَن لم يفعل ذلك فلا تسأل عما تعرض له من الضرر الذي يجب عليه منه الحذر، وقد يخاف عليه منهم عند مباينته وخلافه أن يزيلوا منه ما شطّ على أكتافه. وقد قال سفيان الثوري رضي الله عنه في مثلهم: لو خالفتُ أحدهم في رمّانة، فقلتُ حلوة وقال حامضة لخشيتُ أن يهريق دمي، أو ما معناه هذا.

فهذا هو بيان ما طلبته من ثبوت أهلية مَن ذكرناه للتقليد على وجه إقناعي قد يفيد وقد لا يفيد، وهذا كله من المُلَح التي جرت العادة مني معكم بذكرها وعدم التحاشي منها لما تعرّضتم في كتابكم إلى ذكر ما انْبَنَتْ عليه ذهبت فيها مذهب المزاح والمطايبة، وقصدت بها نوعاً من التفرُّج والمداعبة لعلك بها تحيى يا سيدي يحيى، فتعيش بذلك نفساً وتتخذه في ظلمات كروبك سراجاً وقبساً حين يرجع نهار حالك ليلاً داجياً وينقطع طمعك من اقتراب الفرج فلا تكون له آملاً ولا راجياً.

فهذا هو المقصود بالذات وإن كان ثَم مقصود آخر، فلا مبالاة به إن فات، ولكل مقام مقال، ولكل عمل رجال، ولله در ابن الفارض حيث يقول:

فلا تكُ باللاهي عن اللهو جملة ... فهزل الملاهي جدّ نفس مجدّة
وإياك والإعراض عن كل صورة ... مموّهة أو حالة مستحيلة

وإن رجعت إلى الحقيقة رأيت هذا كله علماً ينبغي أن يُقرأ ويُنسخ ليثبَّت معناه في الصدور ويرسخ، لأنك قلّ أن تجد أحداً يسلك هذه المسالك في المكاتبة والترسيل أو يسلم من وقوع خلل أو ملل في تقصير أو تطويل. وكتبنا بحمد الله وتوفيقه ثم بخاطر فلان تقصُر فلا تخل وتطول فلا تمل، فإنها إن

قصِّرت بصَّرت، وإن طُوِّلت نُوِّلت، وإن لوَّحت أوضحت، وإن صرَّحت أفصحت، وإن وعظت أسمعت، وإن ضربت أوجعت، وإن جدّت أقنعت، وإن هزلت أمتعت. وقد قالوا: عقول الناس في أطراف أقلامهم، بها يستدل على معرفتهم وأفهامهم وبتواليفهم وأوضاعهم يُعرف القِصر والطول في باعهم ويُدرى اختلاف طباعهم، فمنهم مَن كلامه مقعّر موعّر معقّد مُبْعَد، ومنهم مَن كلامه سهل هيّن سلس ليّن تستطيبه إذا تذوّقته وتستحليه متى رمقته، وربما تستعيده ونيّتك تستفيده. ولا يغرّنك مني هذا المقال فإن كل قرد في عين أمه غزال، والله تعالى يتجاوز عنا بفضله.

الرسالة الحادية والعشرون

وقد بلغني كتابكم وذكرتم فيه أشياء اقتضى الحال التكلُّم عليها على حسب العادة، **منها**: ما سألتم عن الوجه الثالث الذي قلت لكم فيه: لا أحب أن أذكره لئلا أنتشب معكم بسبب ذكره، وقد كنت أردت أن لا أذكره ولكن لما رأيت سؤالكم عنه وتشوُّفكم إليه وحرصكم على أن لا يفوتكم شيء، ورأيت أن التغيُّر الذي أشرت إليه بقولكم: إن كنتم تخافون عليّ من تغيُّر حال فلا أقول لكم اذكروا لي شيئاً من ذلك مما يرجع أمره إليّ من غير أن يعود عليكم بضرر، وجب عليَّ أن أذكره لكم ولا أكتمه منكم.

فالوجه الثالث: أن كتابكم إذا ورد عليَّ مستوعباً بحيث تكون فيه جزئيات كثيرة، يعجبني ذلك لأني أحب الكلام عليه، لا لمجرد قصد أن تستفيدوا بذلك، ولكنني أعمر به وقتاً ربما يمضي عليَّ فارغاً من الأشغال، ويقول الناس: «الجلوس بلا شغل يحمّق» مع أني لم يحصل لي في الوقت توفيق إلى عمل صالح ولا سعي رابح، فلا تحسبوا أن لي عليكم في الكتب إليكم منَّة لأني في الغالب لم أقصد بذلك إلا حظي وراحة نفسي وترجية وقتي بالترهات والهذيانات كما يفعله المتفرغون من أهل الدنيا إذا تشاغل بلهو أو لعب بنرد أو شطرنج أو غيرهما، بل بمنزلة أكثر الفقراء والفقهاء إذا تشاغلوا كل واحد منهم

بمراسمه المعلومة لهم، وإن كان كل واحد منهم يعتقد فيما هو آخذ فيه أنه موافق لمحبة الله تعالى ورضاه، وهذا هو الفرق بيني وبينهم، أعني أنهم لم يخلوا في فعلهم ذلك من تلبيس وغرور، وأظنني خلوت من ذلك، وهذا من نِعَم الله تعالى عليَّ العظيمة، فشأني إذا ورد عليَّ كتاب منكم وقرأته وتأمّلته، إن لم يكن بيدي شغل مما يرجع إلى محاولة ما يحتاج إليه من أمر الغذاء وغيره مما يناسبه، أن أبادر إلى الجواب عليه بما يهيّئه الله عزَّ وجلَّ، فأُبيَّض أوّلاً ما أحتاج إلى تبييضه ثم أكتبه ثانياً هو وما انضاف إليه في القطعة التي أبعث بها، لا أشغل بشيء سوى ذلك، فربما تبقى تلك القطعة بيدي أياماً كثيرة، أرتقب لها حاملاً، فأبقى إذ ذاك عاطلاً، وهذا هو الغالب وقد يُيسّر الله تعالى في الحامل فيقع كتبها وحملها في زمن قريب، وإن كان بيدي شغل من جنس ما ذكرته أخّرت ذلك الجواب حتى أتفرّغ من ذلك الشغل.

فهذا هو الوجه الثالث الذي قلت لكم أني إذا ذكرته لكم أنتشب معكم، والذي فزعت منه وقعت الآن فيه كما شاء الله وحكم، لأنكم إذا تحققتم ذلك وعلمتم أن لي في ذلك نوع استراحة وغرضاً مقصوداً لا تدعوا مسألة مشكلة ولا نازلة معضلة إلا وسألتموني عنها، فإذا وردت عليَّ اقتضى الحال التكلُّم عليها، وقد يكون لي في ذلك ضرر من حيث أشعر ومن حيث لا أشعر. فأنا أرى منَّة الله تعالى عليَّ في أكثر المسائل التي عافاني الله تعالى من الكلام عليها بسبب تغافلكم عنها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ [البَقَرَة: الآية 216] إلا أني سلَّيْت نفسي في هذا الأمر الواقع بما تعلمون من ضعف بصري، وأني أتكلف النظر به والكتب غاية التكلف فربما تدرككم شفقة عليَّ بسبب ذلك فتضربون صفحاً عن كثير من المسائل التي يحتاج فيها إلى كلام، والله تعالى وليّ الإنعام.

وما ذكرتم من أحوال الفقراء المانع ذلك لكم من قراءة كلامي عليهم فذلك أمر معلوم، فإنّ فساد الخيال واعتقاد الباطل والمحال هو المألوف في هذا الزمان، والله المستعان.

ولعل مَن صحّح كلامي منهم وملَّحه إذا سألتموه عن حقيقته وحاصله وما

الذي أشير به إليه وقلتم له قرِّروا لي ذلك، لم يدرِ ما يقول، فإذا تكلم لم يصادف الغرض وكان كلامه في جهة وكلامي في جهة، ولكن مع هذا كله ذلك خير كثير منهم، لأنهم لم يهملوا شيئاً من هذا الأمر ولم يجعلوه منهم بظهر بل سلكوا مسلك العقلاء في البحث والتفتيش عن غير واحد من الأشياء، وأين أنت من هذا الموضع الذي ليس فيه إلا الخلاء والجلاء كما كنت ذكرت لكم قبل هذا على أنه ينبغي لي ولك أن نستغفر الله تعالى من هذا كله ولا يقع منا لهم إنكار حال ولا عيب في مقال ونسلك في ذلك نحواً مما يسلكه أصحاب التهمة لنفوسهم من الرجوع عليها بالذمّ والعتب واللوم كما قاله أبو سليمان الداراني رضي الله عنه لما قال له أحمد ابن أبي الحواري: إن فلاناً وفلاناً لا يقعان على قلبي، فقال له أبو سليمان: ولا على قلبي ولكن لعلنا إنما أوتينا من قِبلي ومن قِبلك فليس فينا خير وليس نحبّ الصالحين.

ولقد ضحكت ضحكاً لم أملكه حين قرأت قولكم: فلولا ما أخافه من الملاطمة معه لأسمعته... إلى آخره، **وقلت**: إذا كان هذا حال فلان مع مَن يوافقه ويطابقه في الأظهر فكيف يكون حاله مع مَن يقول له: أخطأ فلان أو لم يعثر على حقيقة ولم يعلّمه الله طريقه، أو ما أشبه هذا؟ لا أشك في أنه تثور عليه المِرّة السوداء ويعتريه شبه المالِخوليا[1] ويكون أسلم أحواله أن يُحْرَم الفائدة التي قصد أن يفيده بها ذلك المعترض لأنه ينظر إليه بعين الازدراء والمقت، ولعل الحكمة أجراها الله تعالى على لسانه في ذلك الوقت.

ولمّا وقفت على ما ذكرتم لي من حال فلان لم أتمالك أيضاً أن قلت: بارك الله فيه، مرتين أو ثلاثاً في مرّات مفترقة، وصادف مني ذلك الدعاء قريحة لو أنها كانت من ذي حال مستقيم لفتح له من السماوات الأبواب ولم يكن بينه وبين الاستجابة حجاب، ولكن قد يستجيب الله تعالى الدعاء من الشخص

(1) الماليخوليا: حالة عقلية موجودة في كذا مرض من الأمراض العقلية وأنشطة حركية تتميز بالانطواء والشعور بالدونية واحتقار الذات والقلق والرغبة في الانتحار، تتعالج بالصدمات الكهربائية في عصرنا الحالي. (وكيبيديا الموسوعة الحرة - الأنترنت).

الملفّق إذا قارنه معان أُخر كما ورد في دعوة المظلوم والمسافر وغيرهما، ولعل هذا الدعاء مني يتضمن بعض ذلك، بل أرجو أن لا تقتصر إن شاء الله تعالى إجابة ذلك الدعاء عليه، بل ينعطف أثر من ذلك على الداعي، كيف وقد ورد منصوصاً إجابة دعاء الشخصين أحدهما للآخر، وقول الملَك: «له ولك بمثله» وقول الله تعالى له: «بك أبدأ». ولست أفهم من هذا النص أن الداعي للغير ينال ما طلبه له، ولا بد إذا كان قصده في دعائه له مجرد أنه يحصل له في نفسه مقتضى ذلك الوعد الصادق لأنه إنما قصد حظه وحصول المنفعة له وجعل دعائه لغيره واسطة في ذلك، ومثل هذا يبعد أن ينتظم في سلك مَن يستجاب دعاؤه لا محالة، وليته سلم في ذلك من المطالبة والمناقشة عند احتياله بهذه الحيلة المباركة بل لا بد أن ينضمّ إلى ذلك لطائف أُخر تؤخذ من معنى الأخوة التي أشار إليها في الحديث المذكور فيه قول الملَك: «ولك بمثله» ومن العبودية التي نبّه عليها في قول الله تعالى: «يا عبدي بك أبْدأ» ومن جملة ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أن يلوح للداعي شيء من عظمة تحمُّله تلك العظمة على محبَّة الخير التام لكل مَن أدركته من الله تعالى عناية وحفّت به رعاية، فيكون في دعائه له عاملاً بمقتضى ما فهمه عن الله تعالى من محبته له واختياره إياه. ولا تظنن أني لما ذكرت هذا تحقّقت به ولكني شممت منه رائحة يمكن أن يتعلق بمثلها الطفيلي فيسوغ له من التشبُّه والتوسُّم ما لا يسوغ لغيره، ولا تظُنّن أيضاً أن كل أحد يُسمح له في التطفُّل به لا يُسمح إلا لمَن فيه رشاقة وخفة نقرة بحيث أنه إذا أوغل واندغر على قوم في موطن راحتهم ومجلس أنسهم ولذّتهم لا يتكدّر به بال ولا يتغيّر بسببه حال، ولذلك إذا تعرّض أحد لأن يطرده من ذلك الموطن أو المجلس لم يقدر عليه ولم يجد سبيلاً إليه، فإنْ ناظره غلبه بالحجة وسدّ عليه المحجة.

وأما لو تجاسر على ذلك وادعاه مَن ليس فيه هذه الصفة لم يُسلم له ذلك، وأول ما يلحقه عند تعاطيه لذلك من الأذى أن يُشَنْقَر في وجهه وينبح عليه كلاب ذلك الموضع، فإن عارضها أدنى معارضة لم تدعه يتخطى خطوة أو خطوتين حتى تمزّق أدمه وتهريق دمه، وليس كل سيئة يمكن أن يغتفرها الكرم،

ولا كل حسنة يقال لصاحبها: أُدخل الجنة بسلام، لأن العدل والحكمة يأبيان من ذلك، والكرم والفضل لا يضادّان ما هنالك، قال الله عز وجل: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: الآية 3] فرتّب الفضل على الفضل وكل من عنده لا إله غيره ولا خير إلا خيره.

وقولكم: فلما ورد عليَّ كتابكم انقطع رجائي مما كنت أؤمّل وتحقّقت الرؤيا. . . إلى آخره، فأقول: لا ينقطع رجاء من الروح باق في جسده، ولا يتحقق الرؤيا من التوهمات، والتخيُّلات دائرة في خلده، فالواجب أن يكون العبد ابن وقته لا يتشاغل بما يكون وما كان، ولعل فرج ربه يأتيه في أقرب زمان من حيث لا يحتسب ولا يقدّر، على هذا سار الموفّقون، وعليه درج الصادقون ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية 37].

وقولكم: ثم إني شرعت في نسخ تلك الكتب وجعلتها كالمبيضة، حسن ما فعلتم من ذلك الغرض الذي قصدتم، ولا بأس إذا كان ذلك قصدكم أن تضيفوا إليها الكتب الثلاثة التي توقّفتم في نسخها، وذلك ليحصل فيها مزيد، ولعل أن يقع فيها تبديل أو تغيير أو زيادة أو نقصان يتضمن جميع ذلك وجهاً من الصواب لم يكن لنا عند رسمها حِساب.

وقولكم: وهذا كله من نظري لنفسي ومحبتي لما أراه يكون فيه صلاحها فلا حول ولا قوة إلا بالله، بعد أن ذكرتم حالكم وتلوُّنكم بين الحزن والفرح وانقباض خاطركم من مشاهدة الأولاد الصغار الذين يموتون جوعاً، وكونكم لا تسمحون بمثقال ذرة ولا حبة لو اجتمعت الإنسان والجن أن يفهموا منكم صحة هذا الكلام ما قدروا على ذلك، ولقد قاربت أن تدخل به في المضمار ولكن ما أخوفني أن تفهموا تلك المسألة على غير وجهها ولم تحيطوا علماً بكنهها، لأنكم قلتم قبل هذا على سبيل الإنكار: لا يحسُن عندهم إلا مَن يتكلم معهم بالمخاوف والزواجر، ويقولون: هذا هو الواجب علينا والمطلوب منا، وأي شيء تنكرون من هذا؟ كيف وأكثر مخاطبات القرآن والسنَّة وأقوال السلف إنما جاءت على هذا النحو؟

وقولكم في أثنائه: بل في أمور يرجع حاصلها لإثبات النفس أو كذا وكذا، ربما يتوهم منه أن المخاوف والزواجر، **وقول القائل**: هذا هو الواجب علينا والمطلوب منا موافق لذلك وراجع إليه، وهيهات هيهات، بل المواعظ والزواجر لا تؤول بهم إلا إلى محو النفس وإسقاط قدرها وتحقير أمرها، ولكن قرائح النفس مختلفة وطبائعهم مفترقة وإدراكاتهم متفاوتة، فمنهم مَن فهم حقيقة الأمر بأدنى إشارة ورمز فعمل عليه ولم يحتج إلى تكرار المواعظ والزواجر، وهؤلاء أقلّ ما يكون. **ومنهم** مَن لم يفهم ذلك من أسهل طريق فاحتاج من أجل ذلك إلى ما ذكرناه وهؤلاء هم الأكثرون ممن لم يكن حاله مثل حال صهَيب، وأيّ الناس يكون حاله مثل حال صهيب؟ ولو فتشته بالفتيلة لم تجد منهم واحداً.

وقولكم: ويقول: هذا هو الواجب علينا والمطلوب منا، كلام مستقيم ليس بينه وبين ما ذكرتم من إثبات النفس وترفيع قدرها وتعظيم أمرها ارتباط ولا مناسبة بل هو بعيد منه أشدّ البُعد.

فإن قلتَ: فقد زدتني في هذا الأمر إشكالاً بعد أن كنت ظننت أني فهمته، فإني لا أعلم للمواعظ والزواجر معنًى إلا أن يمتثل ذلك العبد فينجو من النار أو يستحق دخول الجنة دار القرار، وكذلك من قول العبد: هذا هو الواجب علينا والمطلوب منا، لا معنى له، إلا أنه إذا فعل ما طلب منه وما وجب عليه نجا من النار واستحق الجنة، وأي إثبات للنفس وترفيع لقدرها وتعظيم لأمرها أشد من هذا؟ فإن كان هذا صحيحاً فلِمَ ورد في القرآن والسنَّة ما يُضاده، وإن كان مختلاً كان جميع ما تحاوله وتومي إليه وتبدي وتعيد فيه متّضِحاً فساده، مستنكراً اعتقاده واعتماده.

فأقول: ما ورد في الكتاب والسنَّة من تكرار ذكر الجنة والنار والتبشير والإنذار لا يدلّ ذلك على أنه كل المقصود، وأين يوجد في الكتاب والسنَّة مَن لم يعمل على الرجاء والخوف؟ بل عمل على خلاف ذلك، فليس بمصيب، وما تضمّنه ذكر ذلك وتكراره من إثبات النفس واستحسان طلب حظوظها وأغراضها الأجلة لا يدلّ ذلك على أنه ليس بمعيب ولكن السرّ في ذلك ما تضمّنه مثال أذكره لك فتأمله واكتفِ به إن شئت.

فأقول: مثال النفس وصاحبها الذي تمسّك بها وشدّ يد الضنين عليها مع جهله بالشرّ الهائل والسمّ القاتل الذي يؤول إليه ما ذكرناه من التمسُّك وشد اليد مثال صبي صغير رأى عقرباً فأعجبه صورتها وشكلها وسوادها وعُقدها، فمدّ يده لأخذها فأخذها فلمحه أبوه في تلك الحال وتفطّن له أنه استحسنها، وعلم أنه لا تدعه شهوته أن يطرحها ويدعها، وإنه إن صاح به ونبّهه على السمّ الذي فيها بثلاث خاءات لم يُصدّقه واتَّهمه لما جُبِل عليه من الغباوة والجهل بالأمور، بل يخاطبه الصبي بثلاث نونات ويشدّ يده عليها فتلسعه فتقتله، فلا يجد الأب حيلة في استخلاصها من يده وسماحته بطرحها إلا أن يريه شيئاً مما يمكن أن يستحسنه، ولا يكون له في استحسانه وطمعه في نيله كبير مضرّة، ويعرفه بما أمكنه من العبارة والإشارة أن هذا الذي أراه إيّاه وأطمعه فيه خير له من ذلك الشيء المليح الذي أخذه بيده فتحصل له منه موافقة على هذا القدر، فإذا تحقق ذلك الصبي رمى ذلك من يده لمّا أراه ما هو أملح منه، وذلك هو مراد الأب، فلما حصلت في الأرض بادر إليها الأب فشدخها برجله وأزال تعلق قلب ولده بها بأن أعدمها وفرّق أجزائها في الطين والتراب، لكن بقي قلب الولد متعلقاً بما أطمعه فيه أبوه عوضاً مما تركه من أجله، فبينما هو في أثناء ذلك إذ كبر وحصل له نوع تمييز وإدراك فعرف بذلك المضرّة التي اشتملت عليها ما كان أخذه بيده واستحسنه، وعرف أن أباه نصحه حين تلطّف له في استدراجه إلى أن يسمح بطرحه ورميه، فتقلد منه منَّة يا لها من منَّة وعرف أنه بمجرّد نصحه له وإن لم يكن منه إطماع منعم عليه غاية الإنعام، فكيف وقد أعطاه بدل ذلك ما تتحصّل له به الغبطة التامة واللذّة المستصحبة، فبينما هو في أثناء هذا عاملاً عليه ومغتبطاً به إذ ظهر له بإشارات خفية من والده أن هذا الذي تمسّك به فيه رائحة من السُّميَّة العقربية الذي كان أبوه تلطف به في انتزاع ما اشتمل على تلك السُّمية من يده وعرف أن ما كان أطمعه فيه مما ترك ذلك الشيء لأجله لم يكن للأب فيه غرض إلا صونه عن الهلاك الذي كان تعرّض له بسبب تمسُّكه بما استحسنه من تلقاء نفسه وبموافقة نظره على الجملة. فلما رأى أن هذا المعنى حاصل فيما أخذه الآن وتقيّد به قلبه رمى كل شيء من يده

ولاذ بحَقو والده فتعلق به ولازمه وفوّض أمره إليه واتبع إشارته في كل ورد وصدر، ولا يسعه خلاف ذلك ولا يمكنه سواه.

فهكذا ـ والله أعلم ـ حال العبد مع ربِّه لأن العبد في ابتداء أمره موصوف بالجهل وقلة العقل متمسِّك بالنفس، آنس بعالم الحس، بمنزلة ذلك الصبي الغبيّ، بذلك جرت السنَّة، ولو شاء الله لم يكن هكذا، فتلطف الحق تعالى له في استدراجه عن ذلك لما وعده به من الثواب الجزيل الذي هو من جنس ما ألفه من شهواته وحظوظه، فسمح بالنفس في جنب ذلك وصار ذلك بمنزلة متاجرة ومعاوضة، **فمنهم** مَن وقف هنا واقتصر نظره على ذلك الوعد ولم يتجاوزه إلى سواه، وهذا هو حال الأكثرين، ولا ينبغي لأحد أن يستحقر هذا فإنما عنده من الإيمان والثقة بالوعد لا يقوم له شيء، **ومنهم** مَن لم يقف ها هنا ولم يقتصر نظره عليه، فلا جرم لمَّا لاح له لائح من الحقيقة ظهر له أن ذلك كله من جنس واحد لمَّا كان متعلقاً به ومستحسناً له من حيث هو فرمى بذلك كله من يده وغضّ بصره عنه وقال: أعوذ بك يا ربّ من كل شيء أستحسنه وأريده من قِبَل نفسي فإني شاهدت بإشهادك إيّاي ما يكون تعذيبك لي بأشدّ العذاب وأليم العقاب قليلاً مستحقراً في جنب ما تعرّضت له بسبب ذلك الاستحسان والإيثار من سوء الأدب بين يديك وفي حضرتك مع ما لزمني طوق حمام من المضرّة والمعرّة باستحسان ما استحسنته وإيثار ما أثرته، فلما استولى عليه أمر الحق تعالى ـ وكان أحق به من نفسه ومن كل شيء ـ صار الحق تعالى هو المتولِّي له وهو يتولّى الصالحين، فصارت صفاته كلها حميدة وأحواله كلها سديدة وأعماله كلها رشيدة ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية 4].

وإذا فهمت هذا في جانب الوعد بالثواب فهمت مثله في جانب الوعيد بالعقاب، فإن الناس مختلفون في هذا الأمر، **فمنهم** مَن ينقاد بالرجاء ولا ينقاد بالخوف، **ومنهم** مَن ينقاد بالخوف ولا ينقاد بالرجاء، واجعل وِزن المخوف في حق الصبي أن يريه الأب سبُعاً ضارياً أو شيئاً مما يهوله أمره ويقول له بعبارة أو إشارة: إن لم تلقِ تلك العقرب من يدك سلّطته عليك.

فإذا تقرّر هذا فلنرجع الآن إلى كلامكم الذي قلتم: وهذا كله من نظري لنفسي ومحبتي لما أراه يكون فيه خلاصها فلا حول ولا قوة إلا بالله، وننظر هل فيه دخل أم لا؟ والظاهر أنه لا يخلو من دخل لأن انقباض خاطركم من مشاهدة الأطفال الذين يموتون جوعاً ضرب من الشفقة، وذلك مطلوب في الشرع، أن يكون الإنسان عليه، فإن لم تعملوا على مقتضاه ولم توفّقوا لذلك، وكان الانقباض الذي ذكرتم بسبب ذلك فهو انقباض محمود في الشرع، لأنك تركت ما أُمِرت به أو نُدِبت إليه من مواساة المساكين بما فضل عن حاجتك إن كان هناك فضل، ولا يلزم من هذا أن لا تكون فيه إلا ناظراً لنفسك ومحبّاً لما تراه يكون فيه خلاصها لأنه قد يُمكن أن يكون ذلك منك لمجرّد حق الله عزَّ وجل لا لما ذكرت وأنت متمكِّن منه، وإن كان ذلك لمجرد نظرك لنفسك ومحبّتك لما تراه يكون فيه خلاصها فذلك مذموم، فإن كان قولك: فلا حول ولا قوة إلا بالله، تأسُّفاً على حالتك السيئة بأنها غير موافقة لرضى الله تعالى ومحبته، فيكون ما اقتضاه قولك: لا حول ولا قوة إلا بالله صحيحاً مستقيماً، وتكون الحَوْقَلة واقعة في محلِّها، وإن كان قولك ذلك تأسُّفاً على ما فاتك من هذا المقام الرفيع فأنت في ذلك غالط أشد الغلط، وتكون حَوقلتك حينئذ في غير محلها، وتحتاج حَوقلتك إلى حوقلة أخرى والأخرى إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية، لأن هذه المراتب كلها مشتركة في الاعتلال والدخل لأنك قصدت بذلك ما فررت منه من نظرك لنفسك ومحبّتك لما تراه يكون فيه خلاصها. ويكفي ذلك محبتك لهذه الحالة واختيارك لها، فما دامت لك إرادة واختيار ولو في رفض الإرادة والاختيار فحالك معلول وعملك مدخول وأنت في أسر نفسك مكبول، وأي فرق بين أن تعمل على خلاص نفسك وبين أن تعمل على خلاصك من رؤية خلاصك من حيث نسبت ذلك إليك؟ بل لو بقيت على الحالة الأولى لكان ذلك أسلم لك من الوقوع في خطر الدعوى التي هي أعظم البلوى.

فإن قلت: هذا أعجب من العجب، كيف تجعلون السلامة من الدعوى في البقاء على الحالة الأولى ولم تجعلوها في الحالة الأخرى؟ مع أنكم قلتم

حين تكلمتم في معنى الدعوى وذكرتم علامات وجودها في العبد أن من جملة علاماتها أن يفرح بما يعمله من الطاعات لرجاء الجنَّة ويحزن لما ارتكبه من السيئات مخافة من النار، وهل هذا إلا تناقض لا يستقيم؟

فأقول: ليس في ذلك تناقض، والكلام مستقيم في كلا الموضعين لأنك إذا عرفت أن منشأ وجود الدعوى في العبد رؤية النفس وترفيع قدرها وتعظيم أمرها أمكنك أن تعرف كيفية هذا الأمر، فابْنِ على ما ذكرت لك واحكم على كل مَن تجد فيه رائحة من ذلك بوجود الدعوى، فالعبد إذا عمل لرجاء الجنة وخوف النار مجرّداً من غير أن يبني ذلك على أساس مستقيم مدّعٍ لأنه ناضل عن نفسه وحرص على إيصال المنافع الأخروية إليها من غير مراعاة أدب ولا عمل بما يجب، لأن وجه الأدب والعمل فيما يجب أن يكون عمله لوجه الله تعالى واتباع مرضاته فقط، ويكون طلبه لما عدا ذلك اتباعاً لما أذِن له فيه مولاه حتى لو لم يأذن له في ذلك لم يُعِره طرفه ولو أن فيه حتفه، أو يكون طلبه لذلك أيضاً فراراً من الدعوى التي ذكرناها، فأعجب لأمر واحد يكون فيه الدعوى والبراءة من الدعوى، لأن التصدي لنيل مقامات الأولياء والحرص على التوصل إليها من الدعاوى العريضة، ومَن هو حتى يكون فيه أهلية ذلك؟ فلا يسعه حينئذ إلا أن ينتظم في سلك العوام ويطلب ما يطلبون ويهرب مما عنه يهربون، ولا يكون حينئذ عنده شيء من الدعوى لما تمسّك به من الأدب مع ربِّه بالعروة الوثقى.

وعلى هذين الوجهين وما أشبههما يحمل جميع ما لا يحصى كثرة، فما ورد عن الصحابة والتابعين والسلف الصالحين مما يقتضي ظاهره أنهم لم يُصَلُّوا ولم يصوموا ولم يحجُّوا ولم يغزوا ولم يعملوا عملاً من أعمال البر أو يجتنبوا شيئاً من الشر إلا لرجاء الجنة وخوف النار، وقد قال النبي ﷺ: «**حولهما نُدَنْدِن**»[1] ولا ينبغي لأحد أن يعتقد هذا الظاهر فيهم لأن في ذلك

(1) رواه ابن خزيمة في الصحيح، باب مسألة الله الجنة بعد التشهد وقبل التسليم والاستعاذة بالله من النار، حديث رقم (725) [1/ 358] والدندنة: الكلام الذي لا يفهم. والدندنة =

حظّهم والغضّ منهم، كيف وهم أعلم الناس وأعلمهم بالله وأقْوَمهم بالعبودية وأوفاهم بحقوق الربوبية؟ وإذا لم يكونوا هم سالكين سبيل الحق فمَن الذي يسلكه غيرهم؟

فقد بان لك من هذا الكلام الحالة التي يكون العبد فيها مدّعياً والحالة التي فيها بريّاً من الدعوى، فالحالة التي يكون فيها مدّعياً إذا جعل نفسه صَنَمَه وحرص على إيصال المنافع إليها من غير أن يكون له شعور بما يقتضيه الحق تعالى منه من القيام بحق عبوديته، سواء كان هذا الشخص سالكاً سبيل العامة أو الخاصة، إلا أنه عند سلوكه مسلك الخاصة أكثر دعوى لأنه لم يرضَ لنفسه إلا المقام الرفيع الذي جعله نصب عينيه وهو يحرص عليه ويجتهد في طلبه.

والحالة التي يكون فيها برياً من الدعوى أن يتصف بالعبودية لله تعالى وحُسن الأدب معه ولا يرى في نفسه أهلية لمقام ولا حال وهو بالحقيقة قد حصل على كل المقامات والأحوال، ثم يلزم الكون في درجة العوام من طلبه لزوائد الإنعام وعوائد الإكرام من غير أن يجعل لذلك سبباً من عمل يتعبّد به لربّه. فهذا هو الولي الأكبر والإكسير الأحمر الذي بريء من الدعوى وحصل في محل المشاهدة والنجوى من غير أن يكون لرقيب نفسه شعور بذلك ولا اطلاع عليه، إذاً لو شعرت بذلك واطلعت عليه لسوّدت سعده وأوجبت طرده وبُعده وحصل في أعظم الدعوى الذي هو أشد البلوى كما قد علمت.

فإن قلت: قد ظهر لي من كلامك المحل الذي يكون العبد فيه مدّعياً والمحل الذي لا يكون فيه مدّعياً وزال عنه ما كنت توهّمته من وجود التناقض في كلامك، ولكن مَن لي بأن أتحقق بما أكون به برياً من الدعوى، كيف وأنا في كل حال لا أسعى إلا لحظي وشهوتي؟ فتجدني أبداً أغتبط بالدنيا وأستحليها، وإذا نلت شيئاً منها فرحت بذلك أشد الفرح وإن فاتني منها شيء ولو لقمة أو حبّة ـ وإن لم يكن لي إلى ذلك كبير احتياج ـ تقوم عليَّ القيامة

= الصوت الخفي وهو أن يتكلم بما لا يسمع نغمته ولا يفهم. ورواه البيهقي في السنن الصغرى، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (467) [1/ 282] ورواه غيرهما.

وتخرج مني الأخلاق المباركة، فإذا كان هذا حالي فيما شأنه أن يفنى وينقضي مع تفاهته وحقارته، فكيف تكون حالي في الدرجات والمقامات التي تحصل لي بها اللذات الأبدية والغبطة السرمدية، إذا فاتني ذلك وغبنِّي فيه الصالحون والعابدون والزاهدون مع نفاسته وعظيم قدره ورفيع خطره؟ فلولا أن نفسي واقفة أمامي كالسور لم تكن هذه حالتي. فكيف يمكنني أن أكون برياً من الدعوى مع هذا؟ «خذ من الموقف ورد مشرف».

فأقول لك: يا أخي كلُّنا في الهوى سواء، فتعال فلنطلب لدائنا دواء، ولكن خلِّ هذا كله وأجبني عن شيء أسألك عنه، أليس قد تحصّل في رأسك «ودامونك» ما أشرتُ به إليك من أمر الدعوى والحالة المرضية فيها والحالة الأخرى؟ وكذلك مسيّلات محصورة يمكنك أن تغانن بها كثيراً ممن دبّ ودرج.

فإن قلت لي: لأسكت عنك ولم أعاود لك كلاماً، ولم أداوِ لك سقاماً، ولا يلزمني شيء من ذلك. **وإن قلت لي**: بلى أقول لك ما وجدته من ذلك مجاناً قد أعوز كثيراً ممن يعجبك شأنه وِجْدانُه مع بلوغ الغاية في الجدّ والاجتهاد ومواصلة الوظائف والأوراد والتردد في الفلوات والقفار وإدمان التفكُّر والاعتبار وصحبة الصالحين والأخيار، وأنت تضحك منهم وتستهزىء بهم وتعتقد جهالتهم وغباوتهم، من أين لك هذا؟ وبأي استحقاق نلته؟ وبأي وسيلة توسّلت حتى أعطيته، وأنت قد نشأت أعمى مع العميان وقطعت عمرك في محادثة النسوان ومخالطة الصبيان، بهيمة من البهائم وهائشة من الهوائش، في الدنيا من مثلك آلاف الآلاف لم يترك الله تعالى بأيديهم نعمة ولم ينظر إليهم نظرة برحمة، قد سلبهم دينهم ودنياهم بالبتات، وجعلهم صُمّاً وبُكمّاً في الظلمات من غير جناية سلفت ولا خطيئة اقترُفت، وأنت بعيوبك ومساويك تتقلب في النِعَم الدينية والدنيوية ظهراً وبطناً مبلِّغاً من أمانيك وشهواتك ما يمكن أن يكون غاية المتمني.

وقد قال بعضهم: كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إذا خطب يُقذِّر إلينا أنفسنا فيقول: «خرج أحدكم من مخرج البول مرتين» وأنا سلكت مسلكه في

ذلك ولكن بنسبة ما نحن فيه، وقد نسب الله تعالى الإنسان في مواضع كثيرة من كتابه إلى معائب ومثالب تضمّنتها نشأته واقتضتها فطرته من الجهل والضعف والظلم والكفر وغيرها، كل ذلك ليُذكره حاله التي يقتضي منه تذكارها ملازمة حُسن الأدب بين يديه وقصر همّته عليه، وأن لا يرى لنفسه استحقاقاً لشيء مما لديه، بل يرى أن قليل ما أعطاه كثير من كل كثير، بل لا يمتدّ نظره إلى شيء يمكن أن يقيس به ما أعطاه مما يحكم الوهم بأنه نزر يسير، وعند ذلك يحصل له من الفرح بربِّه ما يقتضي منه كل فعل حسن وحال مستحسن اقتضاءً سالماً متعلقه من الآفات برياً من المطالبات لأنه في ذلك لا يشاهد حول نفسه ولا قوتها، بل أين نفسه منه حينئذ؟ وإنما يرى ذلك من قبل الله تعالى فقط ثم ينقلب نظره في نفسه فلا يرى منها إلا الجميل، وكل ما كان يشاهد قبل هذا من الخلل والنقصان يراه الآن في غاية الكمال لأنه في عين الجمع، كما قال ابن عطاء في مناجاته: «أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك»، ولست أعني بذلك أن تصير المعصية طاعة والمخالفة تعود موافقة وإنما نعني بذلك أن شهود الأشياء من عين واحدة لا يتشتت فيها نظره ولا يتفرّق لأن مرجع ذلك إلى شهود الكمال المطلق.

فإذا كنتَ مُنصِفاً وبجميع ما قلناه لك ها هنا معترفاً، واستضأت بهذا المصباح النِّبراس ولازمتَ تذكار ما نبّهتك عليه ها هنا من شهود الإفلاس، وفعلت ما يفعل القلق إذا رأى الناس، لم يبقَ عندك ذرّة من دعوة تؤول بك إلى بلوى لأنك حينئذ تُحقِّق بعبودية المولى، وليس التحقُّق بها مما يقتضي تكلُّفاً وتعمُّلاً، إذ لو اقتضى ذلك لكان فيه أعظم الدعوى، وكيف يمكن إبطال الدعوى بالدعوى؟ بل هو محض هبة من الجواد الكريم. إما أن تكون هذه الهبة مرتّبة على هبة أخرى من عمل صالح يوفقه له، وهذا هو حال المريد، أو يهب له ذلك ابتداء من غير تقدم شيء، وهذا هو حال المراد.

ولا يلزم من حصول هذا المقام للعبد أن يشعر به بل قد يكون شعوره به مما يُكدِّر صفاءه ويُكسف ضياءه، ويكون من جملة صوارفه عن ذلك الشعور أن يجري على ظاهره من الرعونات والدعاوى ما يُوجب له نظره إليها أن يُسقط كل

ما بيده من حال أو مقام، ثم يُلقى في نفسه أن هذا النوع من الصرف مما لا يمكن أن يكون، ويكون مستنده في ذلك دلائل وأمارات لا تنحصر. كل هذا ليخرج عنه بالكلية ولا يبقى لنفسه من نفسه بقية.

فإن قلت: هذا كله خُرمان[1] وهذيان، ومن أين لك هذا؟ ويلزم على ما ذكرته أن مَن نسبني إلى مقام الولاية لا أقدر أن أرُدّ عليه لأني في الردّ عليه لا أعتمد إلا على ما تقرّر في نفسي أن عندي من الصفات المستقبحة والأفعال المستنكرة ما لا ينضبط لزمام مع أن ذلك يحتمل عندك أن يكون له محمل صحيح، ويلزم عليه أيضاً أن أرضى عن نفسي على أي حالة تكون، ويلزم عليه أيضاً أن يصح دعوى مقام الولاية لكل أحد ولا يتحاشى من ذلك.

فأقول: أما قولك: هذا كله خُرمان وهذيان، فقد يكون هذا منك صحيحاً، **وقولك**: فمن أين لك هذا؟ **فأقول لك**: أكثره من الدامون[2] ولستُ ألتزم لك أن كل ما ذكرته لك ها هنا قرآن لا يتبدل، وإنما ذكرت لك ما ظهر لي، وليس ما ظهر لي يكون حجة على غيري ولو قصدتُ أن يكون حجّة على غيري لانتشبتُ[3] مع أهل الدعاوى لأنه لا تسمح نفوسهم بانقياد إلى كلام ولا حجة عندهم عليه بل يضربون به وجه صاحبه ولا يبالون بذلك، وهل هذا الفعل منهم حسن أو قبيح؟ لا أتشاغل بذلك الآن.

وقولك: ويلزم عليه أن مَن نسبني إلى مقام الولاية، لا أقدر أن أردّ عليه... إلى آخره، فأقول: ما ألزمتنيه ألتزمه ولا أخشى من ذلك ضرراً بحمد الله تعالى، وإنما لا تقدر أن تردّ عليه لأنك لا تدري هل أنت ولي الله تعالى أو عدو، ولستَ بمأمور أن تعرف صحة الأمر في ذلك، والعبد من حيث هو عبد لا يلزمه أن يتعرّف هل مولاه راض عنه أو ساخط، إذ لم يؤذن له في ذلك، وإنما يجب عليه أن يبذل جهده فيما يوافق رضاه فقط، ودعه

(1) الخُرمان: بالضم الكذب؛ يقال: جاء فلان بالخرمان أي بالكذب (لسان العرب).

(2) اسم بلدة ذكرها ابن خلدون في التاريخ [6/ 235].

(3) نَشِبَ الشيء في الشيء بالكسر نشباً ونشوباً: علق فيه، ونشب الصيد في الحبالة، نشب العظم في الحلق/ ونشب الشر أو الحرب بين القوم نشوباً (المعجم الوسيط).

يكون عند ربه ما كان، وكما لا تقدر أن تردّ عليه لا تقدر أن تقبل قوله.

وقولك: ويلزم عليه أيضاً أن أرضى عن نفسي على أي حالة أكون، فأقول: ما ألزمتنيه من ذلك ألتزمه لأنك إذا كنت لا تشاهد إلا الله تعالى كنتَ محفوظاً، فرضاك عن نفسك من هذه الحيثية أمر مطلوب منك، فإن عملت على خلاف ذلك مع أنه لا يمكن ـ والله أعلم ـ ربما أوجب لك محاسبة ومطالبة.

وقولك: ويلزم عليه أيضاً أن يصحّ دعوى مقام الولاية لكل أحد ولا يتحاشى عن ذلك، فأقول: لا يلزمني ذلك وليس في كلامي ما يلزم منه صحة هذه الدعوى ممن ادعاها، وغاية الأمر أن يجوز وقوع ذلك، وهذا التجويز ليس له فيه متعلق ولا ينبني عليه حكم وهو من جملة أحاديث النفس وأمانيها ووساوسها.

فقد تحرر بما قلناه هذا الكلام وعلى رسول الله الصلاة والسلام. فهذا نوع من الكلام المألوف مني قد جاءك على لون غير معهود بعد أن كنت تركت الكلام على مثله، والله غالب على أمره. وأظنني وفيت فيه بالغرض وقمت فيه بالواجب المفترض بحمد الله تعالى وحسن عونه.

وما اعتمده فلان حين قرأتم عليه كلامي من كلام صاحب الرسالة حتى احتاج بسببه إلى ادعاء الحذف في البيت، فشيء لا يحتاج إليه، إذ لم يقصد صاحب الرسالة بذلك إلا أن اسم العبد أشرف الأسماء والمسمّى به دعه يكون مَن كان فيستقيم الاستدلال على ذلك بتسمية الله تعالى رسوله باسم العبد ويستقيم الاستدلال على ذلك بتسمية الشاعر نفسه باسم العبد. وما احتجّ به من أن في إضافة نفسه إليها سوء أدب ليس بشيء، ولا أدري كيف صدر هذا منه مع ما هو عليه من كمال الإدراك ونفوذ الفهم، ولكن تقول العامة: «الرُّجلة تحضر وتغيب» وكيف تكون إضافة الشاعر نفسه إليها سوء أدب وحاله في التسمِّي بذلك لا يخلو من أمرين:

أحدهما: أن يتسمّى بذلك لأنه فهم من محبوبته أن تسميته نفسه بهذا الاسم مرضي عندها فيكون في ذلك متبعاً لرضاها فلا يكون في هذا سوء أدب لأنه لم يُحدِث شيئاً مما لا توافقه عليه محبوبته، ولكن على هذا الوجه يكون

ادّعاء أن ذلك أشرف أسمائه عندها صحيح ويسقط ما كنت قلته في ذلك الكتاب من قولي: ولعلها لا تسمِّيه إلا عدوّها أو منازعها وما أشبه هذا مما تسمّى به كل مدّعٍ مغرور، لأن ذلك إنما صدر منه عن اختيارها وإذنها، إلا أن هذا الوجه مرجوح ومرجوحيته هي التي توجب بقاء كلامي ثابتاً لا يُحذف ولا يسقط.

وإنما قلت إن هذا الوجه مرجوح لأن صاحب هذه الحال التي فرضناها من كونه يطّلع على ما يرضي محبوبه وما يسخطه يكون قرير العين طيب العيش مع محبوبه مستغرق القلب فيه، فلا تكون له مساغ للتكلُّم مع الغير فضلاً عن الشكوى إليه به كما فعله هذا الشاعر المبارك لأن ذلك إنما يكون من نهاية البلاء الذي حلّ به من جهة محبوبه من الهجر والصدّ وما هو ممنوع به من قبله من الإبعاد والطرد، ألا تراه يقول:

يـــا عـــمـــرو ثـــأري عـــنـــد زهـــراء

كانت زهراء قاتلة له وهو يطلب من عمرو أن يأخذ بثأره منها.

والأمر الثاني: أن يتسمّى بذلك من قِبَل نفسه ولا يفهم حالها في ذلك هل رضيت به أو سخطته؟ وهذا هو الراجح بل المتعيِّن لما ذكرتُ لك. وليس في إضافة اسمه إليها باسم العبودية سوء أدب بل هو حقيقة حسن الأدب لأنه أنزل نفسه معها في المنزلة التي لا أحطّ منها بالنسبة إليها بحيث لا تكون له معها مشاركة في اسم ولا صفة، فلو ذكر بدل العبد الصاحب أو الخليل أو المجالس أو المحادث أو المحبّ لكان ذلك متضمناً ما ذكره من سوء الأدب. وغاية الأمر في تسميته باسم العبد أنه عرّض نفسه للمطاعن والملام فيقول له الطاعنون: يا أيها المدّعي لعبوديتها أنت كذّاب في دعواك لأنك لم تقم بحقوق ذلك ولم تراعِ ما يجب لها عليك.

هذا هو منتهى ما يمكنهم أن يطعنوا عليه به، لا جرم يقول لهم هو: صدقتم يا إخواني فيما قلتم وعندي من أنواع الكذب والبهتان في جهتها ما لا تعلمون بحيث لو نسب ما ذكرتم إليه لتلاشى في جنبه واضمحل.

فليت شعري أيّ شيء يقولون له بعد هذا؟ أيقولون له لا تسمِّ نفسك

عبدها؟ فإن قالوا له ذلك فيقول لهم: أيّ شيء أسميها دلُّوني عليه؟ فلا يجدونه البتة لأن الارتباط حاصل والنسبة ثابتة كما تقول العامة في مثل ذلك: «لا زوال من ذا نوال» فلا ينتقل عن ذلك الاسم الذي تسمى به إلا بالكفر بها واتخاذ غيرها بدلاً منها، وحينئذ يكون قد حسن الأدب معها كما زعمه مَن عدّ إضافة نفسه إليها باسم العبودية سوء أدب، ولعل كعب بن مالك رضي الله عنه وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا، لم يلقَ في تلك المدة التي هجره فيها المسلمون فلم يكلِّموه ولم يسلِّموا عليه ولم يوالوه من البلاء أعظم مما لقيه حين دفع إليه ذلك النبطيّ الكتاب الذي كتبه إليه ملك غسّان يقول له فيه: «بلغني أن صاحبك جفاك ـ يشير إلى النبي ﷺ ـ ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسيك» فإنه كلّفه من ذلك خطّه خسف وسامه فيه أن يخرج من كنف محبوبه ويترك الإيواء إليه ويتخذ غيره بدلاً منه، فظهر من هذا أن ما توهّمه صاحبنا من أن إضافة الشاعر نفسه إليها باسم العبد سوء أدب هو حقيقة حسن الأدب فضلاً عن أن يكون فيه سوء أدب.

وقوله: ومَن هو حتى يضاف إليها، هو شخص مسكين ذليل حقير قد قهرته بعزّتها واستولت عليه بقوّتها ولم تدع له عِرقاً ينبض ولا عضواً يتحرك، فأيّ شيء يفعل هذا المسكين؟ أيقدر على الخروج من قبضتها والإيواء إلى غير حضرتها؟ لا والله لو قدر على ذلك أو توهّم أن له قدرة أو أدنى شعور بها لم تلتفت إليه بعود ولم تعدّه كشيء موجود فضلاً عن أن تُطمِعه فيما لديها من كرم وجود، فالإضافة إليها حاصلة سواء قصد ذلك أو لم يقصده.

فبحقِّك يا أخي إلا ما أخبرتني على أي حال يكون هذا الرجل؟ فأيما بحسن الأدب سوى ما ذكرتُ لك، ابرزْه لي يرحمك الله، وأخبرني أيضاً لـمَ عددت إضافة نفسه إليها سوء أدب ولم يعدّ شكواه بها وطلبه من صاحبه أن يأخذ ثأره منها سوء أدب؟ بيِّن لي ذلك يأجرك الله. وما ادعاه من الحذف لا يستقيم لأنه لا يجوز حذف الحركات والحروف وتغيير صيغ الكلام الذي تتغيّر بسببه المعاني في نثر ولا نظم. وهذه المسألة ومَن قام فيها وقعد يشبه ما تقوله العامة: «الجنازة حفيلة والميت قطّ».

وقد كان خطر لي أن أؤخِّر الكلام في هذه المسألة حتى أرى ما الذي يتجدّد عند صاحبنا من نظر حين قال لك: خلّ هذا الكلام حتى أنظر فيه، ولكن شهوة الكلام في هذا حملتني على رسم كل ما تقدم، فإن تجدّد له نظر آخر فسأتكلم عليه إن شاء الله تعالى بما يخلقه لي إذ ذاك ـ والله تعالى ولي التوفيق ـ ولولا ما أسأتم في سياقة ذلك البيت أول مرة لم يقع منا هذا الكلام كله مع الكلام المتقدّم في الكتاب الذي قبل هذا ولا أدري هل ينقطع ها هنا أو يضع الله تعالى فيه البركة؟ فلو كنتم تعلمون علم العروض وأحسنتم في سياقه ذلك البيت لم يقع منا شيء من ذلك.

فإذا عرفت هذا لم يسعك أن تُنكر على مَن يقول: العلم حجاب، وإن كان المعنى في هذا الكلام يخالف المعنى الذي سقته من أجله ولكن خذ منه الإشارة فقط ثم تدرّج من هذا إلى أمر آخر، وهو أن تعرف أن الإنسان قد يحبّ شيئاً وليس له فيه فائدة ويكره شيئاً وفيه كل الفائدة، أرأيت لو أني تكلّفت مؤونة السفر من هذا الموضع الذي قرب وقت الانتفاع به من الوجه الذي كنت ذكرت لكم ومشيت لعندكم إلى فاس، بلد السادة والناس حيث ينفرد كل واحد منكم بداره وعرصته ومائه وخصّته، ويدعني مهملاً في تلك الغريفة القليلة المقدار، الضيقة الأقطار، المستحقَرة في أعين النظّار، التي ليس فيها أشجار ولا أنوار ولا أزهار. كيف يقع في يدك هذا الكتاب العجاب المشتمل على لباب اللباب الذي إذا فتحته ونظرته في أول وهلة لم تعرف لكثرة الكلام الذي فيه أولاً من آخِر، ولا باطناً من ظاهر، وما ذلك إلا لغيبتي عنك التي لا تحبُّها أنت ولا أحبُّها أنا، ولو كنت عندك لم تكد أن تسمع مني كلمة من مثل هذا ولا أن أكتب لك سطراً فيه، فظهر من هذا أن لي ولك في غيبتي عنك وغيبتك عني خيراً كثيراً، وإن لم نحب ذلك لا أنا ولا أنت.

وأما الخير الذي لي في ذلك فمن جهة الأغراض التي لي ها هنا وهي مفقودة هناك. وأما الخير الذي لك في ذلك فمن جهة ما يصلك من مثل هذا الكتاب الذي ربما يكون فيه هواك ومُناك، ثم ينضاف إلى هذا سلامة خاطرك من الهمّ الذي يصيبك من جهتي، ومن أهون ذلك أنك إذا دخلت عليَّ في تلك

الغريفة ووجدتني مهموماً مغموماً لا تقدر لي بحيلة ينتعش بها الروح ولا يسمح لك أحد من معارفك وأصحابك بمفاتيح عرصته إلا فلان ـ جزاه الله خيراً وأعظم له أجراً ـ ولكن هذا كله كان قبل اليوم. وأما اليوم، فقد عمّ البلاء، واشتدّ الغلاء، وضاق متّسع الفضاء، واستولى الذهاب والتلاشي على الأشياء، فخرج بذلك كل أحد عن عقله وحسِّه وصار بحيث لا يهمُّه إلا أمر نفسه. نسأل الله العافية:

فما الناس بالناس الذين عهِدتُهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعرف
فصبراً أخي في النائبات فإنها ... إذا ذهبت أوقاتها عنك تُصرف
وثِق يا أخي يحيى بربّك في الذي ... تؤمّل من فضل به يتعطّف
فإن مِلاك العبد حُسن يقينه ... بمولًى كريم وعده ليس يُخلف[1]

وهذا كله مزاح مليح ولي في ذكره ها هنا غرض صحيح، والله تعالى وليّ العفو والغفران بمنِّه وفضله.

***

الرسالة الثانية والعشرون

وبعد: فقد كنّا قدَّمنا لكم في بعض كتبنا إليكم ذكر بعض علامات وجود الدعوى في العبد، وأن من جملتها كراهية الموت، وهذا ليس على إطلاقه بل لا بدّ فيه من تقييد وتخصيص، فإذا أُخرج منه ما أُخرج يبقى سائر محتملاته غير متساوية بل متفاوتة الدرجات، متباينة المراتب، فأردتُ أن يقع منا لكم تنبيه على هذا كله لتتمّ بذلك الفائدة التي تتأكد حاجتنا إليها في هذا الوقت المسكين الذي كسد فيه سوق الدين وعميت بصائر الناس أجمعين إلا مَن رحم الله تعالى.

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذه الأبيات وتمثل عبد الله بن عباس بالبيت الأول منه كما روى ذلك ابن بطة في الإبانة الكبرى [4/ 245].

فنقول: كراهية الموت لا يخلو من ثلاثة أوجه: فقد يكره العبد الموت لبعضها أو لجميعها.

الوجه الأول: أن يكرهه العبد لما فيه من وجدان الآلام التي تذكر فيه.

والثاني: أن كرهه لما يفوته بسببه من هذا الضوء الذي ألفه وأنِس به.

والثالث: أن يكرهه لما يفوته بسببه من الأعمال الصالحة التي يرجو عليها الأجر والثواب في الدار الآخرة.

أما **الوجه الأول**: فالكراهية فيه كراهية طبيعية لا يتصور أن ينفك عنها بشر، ومثل هذا لا يدل على وجود الدعوى في العبد ولكن صاحبها لا يخلو من غباوة، إذ لا بد له من ذلك سواء مات الآن أو قدّرنا بقاءه آلافاً من السنين، ولكن بقي ها هنا شيء وهو أن كل ما ذكره الناس في الموت من الشدائد العظيمة المجاوزة للحد وخصوصاً المحاسبي في كتاب «التوهم والأهوال» والغزالي في كتاب «ذكر الموت» من «الإحياء» ينبغي أن يتأمّل ويُنظر فيه، ولا شك في حصول الآلام، ولكن حصول ذلك المقدار الذي ذكروه لم يظهر لي أن عندهم قاطعاً يدل عليه، إذ لم يذكروا في ذلك نصاً صريحاً صحيحاً يعتمد عليه، ولا رجع إليه أحد بعد الموت يخبرهم بحال الموت، وهذان الأمران هما القاطعان في هذا، وغاية مستندهم في ذلك حكايات لا حظ لها من الصحة، وأقيسة ليست في الغاية من القوة، فالنظر فيما قالوه واعتقدوه واعتمدوه لا يزيد صاحبه إلا تشويشاً في حاله وتكديراً في باله، فإذا صرف أحد إلى ذلك ذهنه سقط كل ما في يده وتحققت الكراهية التامة للموت، لا سيما إن شارفه أو قاربه فيُخالف عليه عند استشعاره بذلك من زوال عقله قبل أن يموت، وقد يقع في سوء الظن بربّه فيختم به بخاتمة السوء والعياذ بالله. فالحزم عندي للعبد أن يُعرض عن كل ما قالوه من ذلك المعنى ويلتمس أن يجد ما يغبّر في وجهه من نص صحيح أو سقيم أو أمارات أو علامات فيستفيد بذلك شيئاً من الراحة وسكون النفس وتهدُّن الخاطر، ولا يضرُّه ذلك شيئاً، فإذا أشرف على الموت بقي في عقله وذهنه ولم يحصل له كل تلك الكراهية.

فإذا وقعت المعاينة وقبض الروح كان إذ ذاك الأمر خارجاً من يده فيلقى ما قدّر عليه مما يوافق ما قالوه أو يخالفه.

والحاصل من هذا أن يحرص على أن لا يكون له هَمّ من هذا ما أمكنه، ولا يوقعه ذلك في مفسدة ولا يحرمه فائدة. وإني لأتعجب من الشيخ الغزالي في كتاب «ذكر الموت» فإنه أطنب في ذلك كل الإطناب وأبدأ فيه وأعاد ـ أعني في ذكر حال الموت ومنتهى شدّته ـ وساقه في معرض أن يستفيد منه الناظر فيه فائدة من ازدياد في طاعة أو نزوع عن مخالفة حتى ذكر في جملة ذلك حال النبي ﷺ في النزع، وكذلك أحوال الخلفاء الراشدين، وأظنُّه قال فيه ما معناه: فإذا كان هذا حالهم على ما هم فيه من الكرامة والخصوصية فكيف يكون حالنا؟ ولا أدري كيف يصح هذا؟ إذ لا مدخل لشيء من ذلك فيما قصده من دعاء الناس إلى الخير، إلا لو كانت طاعتهم تخفّف عنهم تلك الآلام وتخفض عليهم تلك الشدائد العظام، وذلك غير حاصل بدليل ما ذكروه مما لقي رسول الله ﷺ من شدة النزع مع أن أحداً لا يمكن أن يفوقه في طاعة ولا تقوى بل لا يزيد الناظر في ذلك إلا كربة على كربة وغمّة على غمّة.

وإنما تقع الفائدة من ذكر الموت لمَن تذكّره من حيث إنه يفجأ بغتة وأنه متوقع في كل نفس، فإذا نزل به لم يجد مجالاً للعمل فيتمنى الرجوع حيث لا ينفعه التمنِّي. وأما ذكر حال الموت وشدّته وكربه فلا مدخل له في ذلك البتة فيما يظهر لي بل العامة وهمج الناس الذين لا خبر لهم من ذلك البتة حصلوا على رأي سديد، ولذلك تجد نفس أحدهم في معارك الحرب ومواطن الطعن والضرب أهون من نفس ذباب، بخلاف مَن عنده خبر من ذلك أو استشعار له فإنه يفزع من ظله، فإذا نزل به ما لا طاقة له به فلا تسأل عن حاله. وهذا كلام جرّ إليه ما كنا بصدده من النظر في هذا الوجه وأنا فيه كالسائل المسترشد، وإن كنت في جميع ما تكلمت فيه كذلك فالمراد منكم أن تعرضوه على كل مَن أمكنكم ممن يُشار إليه بفهم أو علم حتى تنظروا هل يوافق عليه أو يخالف، وأخبروني بما يكون من ذلك.

وأما **الوجه الثاني**: وإن كانت الكراهية فيه كراهية طبيعية أيضاً إلا أنها

رعونة مذمومة دالّة على وجود الدعوى في العبد، لأن حبَّه البقاء في الدنيا على هذا الوجه إنما هو ليحصل له متعة جسده والتلذُّذ بماله وولده مدة مديدة ولو ألف سنة مثلاً كما هو شأن اليهود. وكل شيء ينقضي ويبيد لا فائدة فيه بل ربما كان عدمه خيراً من وجوده لأنه إذ ذاك يقع له إلف بالدنيا واستئناس بها فيحصل له ما ذكرناه من كراهية الموت، وبقدر توغُّله في ذلك تشتد كراهيته له، فإذا نزل به الموت كان حاله إذ ذاك حال مَن ينشر بالمناشير أو يقرض بالمقاريض، لا سيما إن كان له مال عريض وأزواج مِلاح يستشعر أن يُخلفه في ذلك أعدى الأعداء له، ثم إنه في كل نفس يبقى به في الدنيا بصدد أن يتعذّر عليه بعض ما ألفه وأنس به، وعند تعذُّر ذلك يلقى من البلاء ما قلّ منه وما كثر، وقد كان في راحة من ذلك كما قال ابن عطاء: «ليقِل ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه» وبقدر حبّه للدنيا يتحقق في وجود الدعوى، وهذه الدعوى وإن عظمت لا اعتبار بها إذا تحقق صاحبه أنه في حاله تلك على غير شيء، وظهر هذا التحقق منه على ظاهره، إما من استحياء وخجل أو اتّقاء وعمل، بشرط أن يكون هذا التحقُّق والظهور منه مراعاة لحق الله تعالى ليستجلب به حظّاً ولا يرى من نفسه فعلاً وإلا فيكون قد فرّ من دعوى إلى ما هو أعظم منها.

وأما **الوجه الثالث**: فالكراهية فيه وإن كانت عند عامة الناس من القربات فهي علامة على الدعوى العريضة من العبد، وفي مثل هذا يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، لأنه لو بقي عُمر نوح يضرب بجبهته ويعمل من أعمال البرّ فوق طاقته فإنَّ ذرّة من رضاه عن ربِّه فيما يفعل به أفضل من جميع ما يحاوله، بل لا نسبة بينه وبين ذلك، ولا أدري هل يتصوّر في هذا الوجه أن يصدر عنه ما ينفي به وجود الدعوى عنه حسبما تصوّر من الشخص الذي قدّمنا ذكره أم لا؟ والظاهر أنه لا يتصوّر. وغاية الأمر أن يكون أخذه لذلك تقليداً بحيث لا يكون له فيه طمأنينة قلب ولا انشراح صدر، ومثل هذا لا ينهض في براءته من الدعوى.

وأما ما ذكرتم من أنكم حين قرأتم على فلان ذلك الكتاب الذي فيه كلام على التفضيل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مرة ثانية برسم التفقُّه فيه، قال

لكم: كيف يقول فلان: ولعلها لا تسمِّيه بذلك وإنما تسمِّيه عدوّها ومنازعها وما أشبه هذا مما تسمّى به كل مدّعٍ مغرور مع أنها قد سمّته عبدها في البيت الذي ذكرتموه؟ فمن أعجب ما رأيته في كتابكم هذا وقد بلغ مني التعجُّب كل مبلغ وقلت: كيف يشكل هذا الأمر الواضح على ثلاثة من النبلاء العقلاء، فلان وفلان وفلان حتى قطعوا في ذلك وقتاً صالحاً ورضوا في زوال الإشكال الذي عرض لهم بما رأوه من كلام فلان ظاهراً واضحاً؟ فبينما أنا أنتظر منكم أن تتكلموا من تلك المسألة على ما أدمجت فيها من شيء تحار فيه الأذهان وتطير فيه العينان، إذا بكم قد جاوزتم ذلك ووفقتم مع شيء بلغ الغاية في الظهور والبيان، والله المستعان.

وإنما جاءكم الإشكال في الكلام الذي ذكرته ـ والله تعالى أعلم ـ من قبل أنكم توهّمتم أن قوله في البيت: لا تدعني إلا بيا عبدها، إخبار من المحبّ عن محبوبته، أنها إنما تقول له يا عبدي، تناديه بذلك وتسمِّيه، فقد سمّته عبدها، فكان ذلك من أشرف أسمائه عندها، وليس ذلك بصحيح، إذ لو كان صحيحاً لم يقل: لا تدعني، وإنما يقول: لا تدعينني، لأن على هذه الصيغة يكون الإخبار عن المؤنث كما تقول: هند لا تبغضينني ودعد لا تهجرينني. قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النَّمل: الآية 33] وحينئذ لا يتّزن البيت المذكور بل يكون له معنى تثلج به الصدور، ولو حفظتم البيت الذي قبله لطلعت لكم الشمس ولم يبقَ عليكم في الكلام إشكال ولا لبس، وهو قوله:

يا عمرو ثأري عند زهرائي ... يعرفه الحاضر والنائي

لا تدعُني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

فقوله: لا تدعُني إلا بيا عبدها، صيغة نهي يخاطب بها عمراً المذكور، فهو يقول له يا عمرو لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي عندي ولا أدري ما الذي هو عندها؟ فأين ما ذكرتم من تسميتها إياه عبدها في ذلك الكلام حتى احتجتم إلى ما يزول به عنكم الإشكال والإيهام، ولأجل وضوح هذا الأمر أدركتني ريبة عند رسم هذا الكلام حتى لا أدري أصافت فيه الغرض أو لم أفهم شيئاً مما اعترض به عليَّ المعترض، فطالعوه بذلك وأخبروني بما هنالك.

وما ذكرتموه من الكلام صحيح المعنى من وجه لو احتيج إليه، وإنما قلتُ: من وجه، لأنه ليس في كل حال من أحوال المحب يقع له الابتلاء والاختبار بل له مواطن كثيرة لا يستقيم فيها ابتلاؤه ولا اختباره، منها هذا الموطن الذي فرضتموه من أنها سمّته فيه عبدها ونادته بذلك، وذلك خبر منها، والإخبار منها في غاية الصدق، فما أخبرت عنه بالعبودية حتى علمت منه تحقُّقه في ذلك بالكلية، ومن مقتضى تحقُّقه فيه أن لا يكون له حظ ولا هوًى ولا ينبض عليه عرق برعونة ولا دعوى، ولو شمّت منه رائحة من هذا لم تسمّه بذلك الاسم البتة، بل لو كان سالماً من هذه الآفات كلها لكان من حقها أن تتيه عليه ولا تدع شيئاً من المقابح إلا وتنسبه إليه، ولا ترى من حسن نظرها إذا ظفر بها إلا أن تتبرقع بين يديه ولا تظهر شيئاً من محاسنها لديه، لكن مقتضى الكرم المألوف منها أن لا تفعل ذلك مع مَن فيه بقيّة من نظره لنفسه، فكيف بمَن لم تبقَ فيه بقية من ذلك؟ فإذا رآها لم تفعل معه شيئاً من ذلك مع وجود تلك البقية، علم من ذلك أنها آثرت قضاء حاجته وتغطية عورته، والعالم بهذا أيضاً لا يعتقد أيضاً فيما تعامله به من معاملة حسنة ابتلاءً ولا اختباراً، بل ربما يكون بهذا الاعتقاد والرؤية سيّىء الأدب منحطاً إلى أسفل سافلين من أعلى الرتب، وأي قيمة له أو مقدار حتى يقع منها له ابتلاء واختبار؟ فكل ما ذكرتموه وإن لم يقدر أحد من أهل عصرك أن يتوصل إلى أن يستنبطه أو يخترعه فيما يظهر، إذ لو قدر على ذلك لكان أوْلى الناس به ذانك الرجلان اللذان رضياه، ولم يجداه مطعناً فيه لا يخلو من قصور إذا حككته بالمحك الذي حصل في يدك وتعمّرت به كتبك يا فلان وجدته زائفاً لا يتفطّن لما فيه إلا مَن كان بالنفوذ عارفاً.

الرسالة الثالثة والعشرون

وقد بلغنا منكم في هذه الأيام كتابان اثنان بعد أن كنت متشوفاً إلى أن يرد عليَّ منكم ما يسرُّني فأبى الله ذلك ولم نزدد بهما إلا كربة وغمَّة من ثلاثة أوجه:

أحدها ـ وهو أعظمها ـ: أني لم أركم شممتم رائحة مما أنا أحِسُّ فيه وأحرق مزاجي معكم فجاء يدي بعد هذا كله في الحائط.

والثاني: كونكم كتمتم عني ما كانت تضمّنته تلك الأسطر الممحوَّة بعد أن ذكرتم الشخص الذي قصدتموه بها، ولو لم تذكروه لي لم أطالبكم بذلك.

والثالث ـ وهو أخفها ـ: كونكم لم تستوعبوا الإخبار بالجزئيات التي تعلمون أني متشوِّف إليها. فهذه الوجوه الثلاثة ساءتني منكم ـ ولا قوة إلا بالله ـ ولو سكتتُ ها هنا ولم أزد عليه حرفاً لأقابل بسكوتي ما ورد عليَّ منكم مما أوجب اغتمامي لكان ذلك مني صواباً ولا أخاف عليه عتاباً ولا عقاباً، لكن لا أفعل ذلك بل أتكلم لكم على تلك الوجوه وغيرها بكلام ينفعكم ولا أدري هل يضرني ذلك أم لا، فأقول:

أما **الوجه الأول**: وهو كونكم لم تشمُّوا رائحة مما ذكرت لكم، فقد فهمت ذلك من مواضع من كتابكم ومن جملتها سؤالكم عن المضمار الذي ذكرتُ أنكم قاربتم أن تدخلوا فيه أي شيء هو؟ ولو كنتم أحطتم علماً بألفاظ مختصرة ومطوّلة تضمنتها كتبي إليكم لم يشكل عليكم ذلك. وأي فرق بين تلك العبارات وبين العبارات التي ربما أعبّر بها في بيان ما طلبتم منا بيانه؟ فكما استعجمتْ تلك عليكم تستعجم هذه بالوجه الذي استعجمتْ تلك، وأي فائدة لتكرار العبارات مع نبوّ فهمكم عنها؟ وما مثل ذلك إلا مثال مَن أراد أن يُلصق طيناً في حائط يابس ولا شك أن أكثره ينبو عنه ولا يقبله، فإن اتفق أن يلتصق به شيء تافه لم يكن فيه فائدة يستفيدها منه الحائط، وقد تقدم مني إخباري لكم بأني عزمت على أن لا آخذ معكم في شيء من ذلك المعوى، فغلِطت في الأخذ في ذلك في الكتاب الأول الذي تضمَّن الموضع الذي أشكل عليكم «والغلط يرجع من التلبُّس». ومن المواضع التي فهمت منها إفلاسكم عما ذكرت لكم قولكم: إلا أن الغالب عليَّ أصابني فتور فإذا نظرت إلى حالي انقبضت لأجل ما فقدت من النور، فإذا أضربت عن ذلك صفحاً ونظرت إلى نعم المولى لم أقدر أن أعبّر عما أجد من السرور فأنا بين هاتين الحالتين رهين وبسبب غلبة الحالة الأولى عليّ حزين، وهذه العبارات وإن كانت فصيحة مفقّرة

فمعانيها عند مَن شمّ شيئاً من علم الحقيقة مردودة ومنكرة، ولو أنكم تفطّنتم للدخل الذي فيها ومحوتموها كما محوتم تلك الأسطر التي اعتذرتم عن محوها لكان ذلك عليكم أحق وبكم ألْيَق.

ومما تضمّنه كتابكم مما يكاد أن يخرج به قلب الإنسان بعد أن كنت نهيتكم عن مثله فيما خلا من الأزمان قولكم: عسى تبيّن لي هذا كله وأخبركم بما عندي لتنظروا فيه وأرجع عن فهمي الفاسد، وأي شيء يمنعكم أن تذكروا ما عندكم ليقع الكلام على ذلك وغيره إن وقع في كرّة واحدة ولا أحتاج إلى تكثير الكلام وتطويله في أمر وقع القنط من ذكره كثيراً، والمسألة التي قلت لكم فيها: أخاف أن تفهموها على غير وجهها، هي ما تضمنه كتاب فلان الذي قلتَ إنكم عزمتم على قراءته ودرسه.

وأما **الوجه الثاني**: وهو أنكم كتمتم عني ما تضمنته تلك الأسطر فلا أدري ما الذي حملكم على ذلك. إن قلت حملني على ذلك ما عساه يكون فيها من التكلم في الغير بالقبيح فلأي شيء نبّهتموني على المقصود بذلك الكلام ومعلوم أنكم وقعتم بذلك فيما منه فررتم مع أنكم ما أثرتم عليَّ بذلك إلا حيرة وتفرق خاطر لأني أحمله على محامل كثيرة قد تصح وقد لا تصح، لا سيما وأنا منشوب معه فنقع من سوء الظن به في أودية لا تنحصر. وإن قلتم: لأني أخاف أن يبلغه ذلك عني فأتضرر من قبله، فأنتم لم تخلوا من سوء الظن بي في أن أعرف غيركم عنكم بما تأخذون معي فيه على وجه يلحقكم به ضرر. وإن قلتم لأني بعد كتبه ظهر لي أني فيه مبطل، فلأي شيء لم تذكروا هذا حتى يبقى عندي بريء الساحة مما نسبتموه إليه في ذلك الكلام الممحوّ. وإن قلتم خلاف ذلك فلا أدري ما هو ولعل فيه تكون براءتكم من المطالبة وأنا لا أعلم، ثم إنك فيما فعلته من هذا أضررت بنفسك إذ ربما يكون في ذلك الكلام الممحوّ ما ربما تكون في التكلم عليه فائدة لأني لا أبخل عليك بمثل هذا إذا وجدت إليه مدخلاً ولو على بُعد كما ألفته مني غير مرة، فقد حرمت نفسك الفائدة بما فعلته من ذلك.

فإن قلت: ترى المحو يقع إليّ في كتبك كثيراً فلأي شيء لم تنكر ذلك

على نفسك كما أنكرته عليّ؟ فأقول: أنا وإن وقع مني ذلك فلا يقع مني إلا في موضع يقع فيه خلل وفساد من جهة الترتيب وجعل الأمور المتناسبة بعضها مع بعض، فقد يكون الشيء لا يقتضي التأخير فأقدّمه أو لا يقتضي التأخير فأؤخره، وكذلك يقع مني في موضع فيكون فيه خلل وفساد من طريق العلم، أعني أن لا يكون موافقاً للحق فأخاف إن بقي أن أتضرر به في الدار الآخرة من قبل تابع له أو آخذ به، فإذا وقع مني ذلك المحو استرحت من تباعة ذلك كما فعلته في مواضع من ذلك «التنبيه» ولذلك أودّ أنّ كل كلام صدر مني يكون ممحواً لأني في جميعه لم أقصد به في الحقيقة إلا أنت، ثم إني أراك كما يلطف الله تعالى «لِوَرَا لِوَرَا» فإذا كنت أنت لم تنتفع بذلك فكيف أرجو المنفعة به لغيرك؟ وإذا لم تصح المنفعة كانت المضرة ضربة لازب وليتها كانت السلامة لا مضرة ولا منفعة، فكيف لا أحب أن يكون ذلك كله ممحواً ولكن هو عندنا عيد ومهرجان إذا نفذ به القضاء وسارت به الركبان، وأي شيء يتفق في الوجود إذا جُعل فلان بسبب ذلك في النار ذات الوقود مع عاد وثمود، لكن الخوف كل الخوف أن يجعل فلان معه فيها وعند ذلك هو بين حالتين.

إما أن يقول: يا ليتني لم أره ولم أعرفه قط، **وإما أن يقول**: بخمسمائة سوط، ولا شك أن الحالة الأولى تضمنت من الندامة ما يزداد بها كربة على كربة وغمة على غمة مع ما فيها من منازعة الأحكام، والحالة الثانية بخلافها مع ما فيها من الاستسلام. وإنما كان يتفق الخلل العظيم في الوجود إذا تُنُوسي المعبود وغفل عن الرحمٰن الودود سواء انضمّ إلى ذلك عصيان أو لم ينضمّ، فاختر لنفسك يا أخي شيئاً لا مدخل لك في اختياره ولا وسيلة لك إليه، وما دمت تتخير وتتوسّل فأنت بعيد، ومتى استنكفت من بُعدك هذا فأنت لعين طريد، ولا فرق في ذلك بينك وبين ذلك الذي عُمل له الصِّرح ليبلغ الأسباب، أو الذي صنع التابوت وجعل نفسه في جوفه واحتال به كيف يرقى في الهواء ليرمي ربّ السماء بالنشاب، الأول فرعون والثاني نمرود، لكن غباوة هذين ظهرت للخاصة والجمهور، والغباوة التي أنت عليها بتقدير كونك على تلك الحال لا يتفطن لها إلا الخواص الذين شأنهم أن يُرموا بالحجارة والصخور.

فافهم هذا كله إن كنت فاهماً ففيه تلخيص جميع ما أشكل عليك مما كنتُ تحاميتُ الكلام فيه وقد ساقه الله تعالى إليك على يديّ أحسن سياقة، لكن مع كون رقبتي بالشنّاقة، فانظره، فإن استملحته فعلّقه في وسط البيت، وإن استقبحته فلا تقل لَيْت واحسبه كالميت وادفنه تحت تراب المحو والتطليس، واهرق عليه المحبرة والبِنّيس ليكون ذلكم سواداً على سواد ويقع لنا ولكم التخلُّص من تباعة ذلك في المآل والمعاد، والله تعالى وليّ السداد والرشاد إنه الكريم الجواد.

وأما المسألة التي بينكم وبين فلان فقد أكربني حالكم فيها ورأيت أنكم أخطأتم فيها من قِبَل أنكم لم تعاملوا الزمان وأهله بما يليق به وما أظن أنكم تجهلون حاله بل وقع منكم ما لم تكن لكم إليه حاجة من الكلام الخشن لفلان وإن كان ذلك الكلام محض الحق ولكن الحق في هذا الزمان قد مات ودُفن وخُرِىء على قبره. فليت شعري ما الذي كان يضركم لو تركتم الانحراف الذي هو شأنكم وخاطبتم فلاناً بلين وسكون وحُسن محاولة؟ ولو أدّى ذلك مثلاً أن تتخدّموا له وتحبسوا له نعله. وعوض ما قلتم له: أنا بالله وبالشرع، كأن تقولون له: أنا بالله وبفلان، أو تحذف قولك بالله وتقتصر على فلان بعد أن تكون عقيدتك سالمة وقلبك مستقيماً مع ربك.

فإن قلت: إذا فعلتُ ما أشرت به عليّ أذللت الدين وغيرت في وجه التوحيد واليقين. فأقول: وكأنك لما فعلت خلافه قمت بذلك الحق، وهيهات هيهات، بل الحق اليوم لا يقوم به إلا مَن ماتت نفسه ولم يبالِ على أيّ حالة يكون. وأما مَن هو مثلي ومثلك منشوب في شهواته وعاداته غريق في سيّىء حالاته فلا يسعه في التوصُّل إلى حقه الذي وجب له بالشرع إلا المداراة التي تشبه المداهنة أو المداهنة المحضة وهو وإن لم يعذر بذلك لكنه ارتكاب لأخف الضررين ووقوع في أهون الشرّين، كما قيل:

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فإنك اليوم إن لم يحصل لك من حقك شيء تستر به وجهك بين الناس ويحصل لك بسببه منهم الإياس لا يفضي بك زهدك في ذلك وسماحتك به إلى

صبر جميل ولا رضى بالقليل، بل تتسخط وتتشوف ويؤول ذلك بك إلى الالتجاء لمَن لا يرحمك والسؤال والتملُّق لمَن لا يؤلمه ألمك. فبحقك إلا ما أخبرتني أي الحالتين أوْلى تقبيل رجل فلان أو قولك بلسان حالك لأدنى الأدنياء وألْوم اللؤماء: أنت ربي، كما شاهدناه من ناس كثيرين اختلت أحوالهم ونفذت أحوالهم، وإني لأرى أن هؤلاء الذين يتخدمون للظلمة وأرباب الأمر ويقضون لهم الحوائج ويتصرفون لهم في المهمات على بصيرة إذا سلموا من مظالم العباد وتباعاتهم وسلمت عقيدتهم من أن يحبوهم لما هم عليه من الفجور والظلم، لأنه لا يستقيم لهم حال ولا يطيب لهم عيش إلا بذلك، وقد روي: «يأتي على الناس زمان لا يطيب فيه عيش مؤمن إلا باستناده إلى منافق» والظاهر أن هذا الزمان قد أتى منذ أزمنة كثيرة فما ظنك بهذا الوقت المرذول الذي ابتلينا به؟ وكيف لا يسعنا فيه أمثال ذلك والإنسان اليوم إذا احتاج إلى بصلة ولم يجد سبيلاً إليها كفر ونخر وفسق وفجر. وهل هو بما يفعله من ذلك إلا مشترٍ دينه بعضه ببعض مخافة أن يذهب بالكلية.

وقد رأيت في كتاب الحافظ أبي نعيم عن حذيفة بن اليمان ما يؤذن بهذا ويشير إليه، وكان ذلك صدر منه في زمانه الصالح مع القوم الصالحين وهو ما أسنده إلى النزّال بن سبرة، قال: كنا مع حذيفة في البيت فقال له عثمان: يا أبا عبد الله ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: ما قلتُ، فقال عثمان: أنت أصدقهم وأبرّهم، فلما خرج قلنا: يا أبا عبد الله ألم تقل ما قلت؟ قال: بلى ولكن أشتري ديني بعضه ببعضه مخافة أن يذهب كله. وقد قال النبي ﷺ: «**بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء**»[1] أو كما قال ﷺ. فغربة الدين التي بدأ بها أباحت لمَن تخوّف الإذاية والضرر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان أن يتكلم بكلمة بها يكفر. وغربة الدين الذي عاد إليه تبيح لمَن تخوّف مثل ذلك أن لا يأمر ببعض المعروف ولا ينهى عن بعض المنكر كما رأيته لحذيفة رضي الله

(1) رواه مسلم في صحيحه، بيان أن الإسلام بدأ غريباً، حديث رقم (145) [1/ 130] ورواه ابن ماجه، باب بدأ الإسلام غريباً، حديث رقم (3986) ورواه غيرهما.

عنه أيضاً في كتاب الحافظ المذكور: «**ليأتينّ عليكم زمان خيركم فيه مَن لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر**»[1] وإنما يكون خيرهم ـ والله تعالى أعلم ـ إذا بعثه على ذلك باعث الدين الذي يوجب له ما ذكرتُ من ترجيح أخفّ الضررين على الآخر، وأما أن يسترسل مع هواه ويتساهل في طاعته وتقاه فلم يعنه حذيفة، إلا أن يختار أحد المقام الأرفع ويرضى بالسيف والمقرع ويفعل كما فعل أولئك الذين كانوا يعذّبون بأنواع العذاب كبلال وعمّار وخبّاب وغيرهم في ذلك الوقت، وكما فعل ابن مسعود وأبو ذر وعثمان بن مظعون وغيرهم ـ رضوان الله تعالى على جميعهم ـ فنعم، ولكن بعيد أن يستقيم ذلك اليوم لأنهم إنما حملهم على ذلك الإيمان الجديد الذي يزداد في كل ساعة ونفس قوةً ورسوخاً بمشاهدة أنوار النبوة، وقوة إيمانهم هي التي قدروا بها على مكابدة الشدائد ومقاتلة الولد والوالد، ولم تعترِهم في ذلك شبهة ولا ريبة. وأما الآن حين بَلِي الدين وضعف الإيمان واليقين فالله تعالى يلطف بمَن تعاطى هذه الحال، ولعله إذا حاسب نفسه لم يجدها صادقة في ذلك وكان ما تعاطاه من ذلك مدخولاً معلولاً.

وقد خاف من مثل هذا أبو سليمان الداراني رضي الله عنه على حال قوته وعلوّ مرتبته. قال أبو سليمان: سمعت أبا جعفر يبكي في خطبته، قال: فشعلني الغضب وحضرتني نيّة في أن أقوم إليه فأكلمه بما سمعت من كلامه وبما أعرف من فعله إذا نزل، قال: ثم تفكرت في أني أريد أن أقوم إلى خليفة فأعظه والناس جلوس يرمقوني بأبصارهم فيرى عليّ التزيُّن فيأمر بي فيقتلني فأقتل على غير تصحيح. قال: فجلست وسكتُّ. ثم إن هذا الذي يتعاطى ذلك إذا تفطّن للدخل الذي فيه وطلب لذلك دواءً وطِبّاً لا يجده عند أحد. فالأوْلى اليوم بأمثالنا أن يُدخل كل واحد منهم رأسه ويعرف زمانه وناسه ويعاملهم معاملة توجب له السلامة منهم والانفصال على خير عنهم لأن الحال اليوم كما

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار عما يجب على المرء عند ظهور أمراء السوء. . .، حديث رقم (4586) [10/ 446] ورواه ابن أبي شيبة في المصنف، من كره الخروج في الفتنة. . .، حديث رقم (37349) [4/ 475] ورواه غيرهما.

قالت المرأة: «من أين ما قلبت غزلي لطمت صدري» وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله.

وأما اعتراضكم على فلان باشتغاله بقراءة كتاب مسلم وشرحه فهو اعتراض غير صحيح، لأن التشاغل بحديث رسول الله ﷺ بركة وعاقبته محمودة فما الذي ينكرون عليه من ذلك، وإنما كنتم تنكرون عليه لو تشاغل بقراءة المدونة وما أشبهها من الكتب الفروعية، لأنه إن تشاغل بقراءة ذلك في هذا الوقت المنحوس لم يستفد بذلك فائدة تعتبر، لأن ما يحتاج إليه من ذلك هو عنده حاصل وزيادة، وفي أخذه فيما لا يحتاج إليه ينقطع له وقت أنفَس من كل نفيس بخلاف الحديث فإنه مظنة الفائدة التي هو محتاج إليها وهي غير حاصلة له لأنه كلام مَن لا ينطق عن الهوى، فبقدر ما يزداد العبد فيه نظراً واعتباراً يحصل له فوائد لا يرى لها حداً ولا انحصاراً، كما أن حلواء القبيض كلما زدتها مضغة زادتك حلاوة.

وقولكم: غير أن الرجل عنده تسليم وإيمان بطريقتهم ففيه نظر، أما أن عنده تسليماً فمسلّم، وأما الإيمان بطريقتهم فلقائل أن يمنع ذلك على ما يظهر من الأمر لأن لذلك علامات تبدو على ظاهر الإنسان لم يظهر على ظاهره من ذلك شيء قوي بَعدُ، والفرق بين التسليم والإيمان أن التسليم يتصور مع بقاء الاحتمال في صحة الطريقة لأن المسلم إنما أوى إلى كهف التسليم ليسلم من المحذور الذي يتعرض له بتقدير الصحة فهو يقول: إن كانت طريقتهم صحيحة فقد سلمت بتسليمي لهم وقنعت بالسلامة، وإن لم تكن طريقتهم صحيحة فلا يضرني تسليمي شيئاً لأني لم أدخل معهم ولم أُكثر جمعهم. وأما الإيمان فلا يتصور فيه بقاء احتمال أصلاً ولذلك لا يمكنه أن يقع منه إلا ما يقتضيه إيمانه بها من محبة الدخول فيها والملازمة لها والإعراض بالكلية والنفور عن كل ما يخالفها ويباينها، وتطلب السبيل إليها عند كل مَن دبّ ودرج، إذ لم يجعل الله تعالى لرجل من قلبين في جوفه.

وإنما قلنا ذلك لأن الإيمان آمر وزاجر، آمر بما يقتضيه، وزاجر عن كل ما لا يقتضيه، فإن ادّعى أحد الإيمان ولم يأتمر لأوامره ولم ينزجر عن زواجره

فهو كاذب في دعواه. وقد عيّر الله تعالى أقواماً ادّعوا الإيمان ولم يعملوا بمقتضاه في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية 93] وعلى هذا يفهم قول من قال: «الإيمان بطريقتنا هذه ولاية» لأن مَن آمن بطريقهم فقد دخل معهم لا محالة. وبأي شيء يكون داخلاً معهم؟ بأن يكون محباً لهم، حريصاً على العمل بأعمالهم معتقداً بجميع معتقداتهم لا يرى إلا ما رأوا ولا يدري إلا ما دروا، وكل ما قدح في ذهنه أو سنح في عقله أو خامر باطنه خلاف ذلك لم يكن داخلاً معهم بل كان منهم أبعد من كل بعيد، فهكذا تحق الولاية لمَن آمن بطريقتهم.

وأما المسلّم لهم فلا حظ له في مقام الولاية لأنه بتسليمه لهم لم يراعِ إلا أمر نفسه، أعني أن تحصل له السلامة من الخطر الذي يتعرض له القادحون والمنكرون، وهو كما تقول العامة: «جالس على كُدْيَة تراهم» فإن جعل الشبلي والنوري والحُصْري في جهنم مثلاً قال لنفسه: أُنظري من أيّ شيء عافاك الله تعالى إن لو كنت معهم، وإن أقيموا مقام الشفاعة في المذنبين وجد هو السبيل إلى ذلك بما دان به من التسليم لهم وترك الاعتراض عليهم، وصاحب الإيمان لا يتصور عنده أن يكونوا من أهل النار إذ لو تصوّر ذلك عنده لم يكن مؤمناً بطريقتهم. وهذا كلام عرض لم يكن من الغرض ولم نقصد فيه إلا بيان غلطكم في التسوية بين التسليم والإيمان بطريقتهم. وأما التنكيت على فلان فلم أقصده ولا هو قدّي ذلك فليكن منه لي سماح في ذلك، والله تعالى يهدينا وإياه إلى رشد المسالك.

وقولكم: وقد أمرتموني أن أعرضها على كل مَن أمكنني ممن يشار إليه بفهم أو علم، ومَن هذه صفته لا أعرفه اليوم، ومَن هو عند الناس يوسم بشيء من ذلك هو عندي على العكس مما هو عندكم، ثم إنكم عزمتم على قراءته على فلان وفلان وفلان، أخطأتم في ذلك أقبح الخطأ لأني لم أقل لكم أُعرضوه على مَن هو عندكم من أهل الفهم والعلم وإنما قلت لكم: مَن يشار إليه بفهم أو علم لأن المسألة مسألة يشترك فيها جميع العقلاء إذا كان عندهم تحقيق في النظر ومعرفة بالحديث والأثر مثل فلان وفلان وفلان، ولأهل

الطبّ مدخل فيها كفلان وغيره لأنهم يعرفون الآلام واللذات الطبيعية ـ أعني أسباب ذلك ـ وبأيّ شيء تقوى وبأي شيء تضعف، ومسألتنا من ذلك ليست بمسألة صوفية، ولو كانت مسألة صوفية لم آمركم بعرضها على أحد ممن أعرفه الآن لأن الرياسة التي اكتسبتها في رأسي بسبب مزاولة علوم هذه الطريقة لا تدعني وسؤال الناس عما فيها على سبيل الاسترشاد وتطلب الصواب والسداد، لأني أعتقد أن عندي في ذلك ما ليس عند غيري ممن أعرفه في الوقت، فعرضك هذه المسألة على أولئك القوم الذين ذكرت لا فائدة فيه، إذ لا تدفع عني موافقتهم ولا مخالفتهم حرّاً ولا بَرداً.

وأما ما قاله لكم ذلك الرجل حين قرأتم عليه قولي: هو شخص مسكين ذليل حقير بعد قوله ومَن هو حتى يضاف إليها حين قال لكم: وأين المسكنة وهو سمّى نفسه؟ فلولا وجود الدعوى ما سمّى نفسه حتى تكون هي التي تسميه، فلم يأتِ فيها بشيء وإن كان كلامه في ذلك مخيلاً وهو من أحسن ما قاله في تلك المسألة من لدن شَرَعَ في الكلام فيها إلى الآن. وإنما قلنا إنه لم يأتِ بشيء لأنه حين لم يسمِّ نفسه وبقي منتظراً لأنه أثبت به محبوبته مرتكباً أعظم الدعوى، لكن الضارة له غاية الضرر لأنه أثبت نفسه وأثبت لنفسه أهلية أن تسميه، ومن أين له ذلك؟ ولعله لا يكون عندها شيئاً موجوداً فضلاً عن أن تسميه، وهذه الدعوى من جملة الدعاوى التي لا تليق بمقتضى الحال أن تُغتفر لما تضمنته من وجود الأنِية التي تناقض حقائق الوحدانية.

وأما الدعوى التي تلزمه من تسمية نفسه فمستحقرة جداً لأن الأمر في ذلك كله لم يخرج عنه بل هو مقتصر عليه، وسواء سمى نفسه عبداً أو مولى أو مسكيناً أو سلطاناً، وكلما كان على هذه الحالة لا عبرة به لأنه من جملة تصرفاته في نفسه بمنزلة أكله وشربه وحركته وسكوته، وجميع ذلك لهو ولعب لا تأثير له في الحقيقة، وإنما المعتبر الحالة التي يكون عليها باعتبار الحقيقة ليس عند ربك ليل ولا نهار. وقال القائل للذي سمع مَن يقول: «اللهم أرِنا الدنيا كما تراها» فقال له: «لا تقل ذلك ولكن قل: اللهم أرنا الدنيا كما أريتها الصالحين» فافهم هذا كله فقد قطعتُ فيه الكلام إذ ليس من

النمط الذي تستخدم فيه الأيدي والأقلام فاقنع منه بهذا القدر، والسلام.

ولا يعترض على ما ذكرناه بمسألة الغلام الذي سأله مولاه: ما اسمك؟ فقال: ما سميتني، فقد أثبت لنفسه أهلية أن يسميه، مع أن هذا عندهم من الطراز العالي لأنه لما خاطبه مولاه وسأله أثبت له وجوداً عرف منه الغلام أهلية أن يسميه مولاه، ولم يكن ذلك من الدعوى في شيء، والله تعالى أعلم.

وهذا أيضاً كلام مني وقع في تلك المسألة فأضيفوه إلى سائر الكلام الذي تكلمت به فيها ولعله ينقطع ها هنا بسبب غيبة ذلك الرجل وبتقدير رجوعه من السفر لا أدري ما الذي يقع له فيما قلناه ها هنا؟ فإن وقع له شيء فقد يمكن أن نتكلم عليه، والله تعالى أعلم.

***

الرسالة الرابعة والعشرون

وبعد: فقد كنت وجّهت إليكم قبل هذا كتاباً ذكرت فيه أموراً غِراباً منها أني قلت فيه من التكلف كذا ومن التعدي كذا لأشياء لم يؤمر الإنسان بالنظر منها ولم تجعل من علمه، وتجري ذلك المجرى عندي أحوال القيامة والحشر والنشر والجنة والنار، فمَن حصر الأمر في جزئيات ذلك كله إلى كيفية يعتقدها ويعتمدها فهو متعدٍّ ومتكلّف كما قلناه في الصفات والأسماء، فلا يُسلّم لأئمتنا رضي الله عنهم ما قالوه في الميزان من أنه ذو كفتين ولسان، وأين يوجد نص قطعي على جملة ذلك، وكذلك كل مَن رام أن يلفق بين أشياء هنالك ظهر فيها التناقض والتعارض، إذ لا حاجة به إلى شيء من ذلك. ومن أظرف ما سمعته من هذا الجنس الخلاف الذي وقع بينهم هل الحوض بعد جواز الصراط أو قبله، وأنهم صححوا أنه بعد جواز الصراط حتى حمل ذلك بعض محققيهم على أن ينص على هذا في عقيدة رسمها ووضعها، وفي مثل هذا كله يقال: «سترد فتعلم» وصحة العقيدة لا تتوقف على تعيين شيء من ذلك بل المطلوب من العبد أن يَكِلَ علم حقائق ذلك كله إلى العلام الخبير وأن يعتقد في هذه الأشياء كلها الأمر الذي هو عليه عنده في علم غيبه، ومما يجري هذا المجرى

آيات وأحاديث متعارضة في الظاهر مما لا يتعلق بها عمل ولا حاجة بأحد أن يتطلب الجمع بينها أو يتفقه فيها بنظره وعقله. وكذلك الآيات والأحاديث المتشابهة التي لا يجوز اعتقاد ظواهرها لا حاجة بأحد أن يتكلف أن يعيّن لها وجهاً تحمل عليه، بل يجب عليه أن يسلك فيها ما سلكه السلف الصالح من إمرارها كما جاءت. قال مالك رحمه الله: «إنما أفسد على الناس تأوُّل ما لا يعلمون» وكان القاسم بن محمد يقول: «يا أهل العراق، إنا والله ما نعلم كل الذي تسألونا عنه، ولأن يعيش أحدكم جاهلاً إلا أنه يعلم ما افترض الله عليه خير له من أن يقول على الله ما لا يعلم».

ومن التكلّف والتعدي أن يسأل العبد عن معاني ألفاظ من القرآن لا يتعلق بها عمل، ولقد سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما أظن عن قوله تعالى: ﴿وَأَبًّا﴾ [عبس: الآية 31] فقال: هذا هو التكلف. هذا مع أنه لفظ قرآني سيق في معرض تعديد النعم والمطالبة بشكرها. والمناسب لهذا أن يكون عند العبد علم بحقائق جميع تلك الألفاظ ليحصل منه الشكر على نِعَم معروفة بأعيانها عنده، ومع هذا عدّ عمر رضي الله عنه تطلب ذلك واستعلامه من التكلُّف الذي نهى عنه.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له». وفي رواية أخرى: «كنت أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ فلبثت سنة ما أجد له موضعاً»، وفي أخرى: «لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله عزَّ وجل فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التّحريم: الآية 4] حتى حجّ عمر وحججت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداوة فتبرّز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين مَن المرأتان مِن أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التّحريم: الآية 4]؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس. قال الزهري ـ راوي الحديث ـ: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه، قال: هي حفصة وعائشة. ثم أخذ يسوق الحديث، ولو كان

سؤاله عن هذا مطلوباً منه لم يهب أن يسأله عنه ولم يؤخر سؤاله ذلك التأخير، ولم يكره عمر سؤاله عن ذلك حسبما ذكره هذا الراوي، فلما رأى ابن عباس هذا السؤال نوعاً من الفضول وكان حريصاً على أن لا يفوته علم مثل هذا كان يتحيّن بعمر رضي الله عنه الأوقات التي يكون فيها منشرحاً طيّب النفس فيه قابلية للجواب عن مثل هذا، فيجعله من جملة الأمور المباحة في ذلك الوقت من غير أن يعتقد أن أخذه في ذلك طاعة وعبادة، ولذلك ـ أعني لما صادف عنده من الانشراح ـ أخذ عمر رضي الله عنه في سرد القصة عليه على طولها من أولها إلى آخرها، والحديث معروف، فللَّه دَرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما كان أكرهه للتكلُّف والسؤال عما لا يعني، وذلك لكراهية الله تعالى له.

وكان رسول الله ﷺ ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال حتى بلغ من كراهية عمر لذلك أن أدّب عليه صبيغاً الأدب البالغ. فقد روي أن صبيغاً هذا كان يُتّهم برأي أهل الأهواء، وكان يسأل عن آي من كتاب الله عزَّ وجل مثل ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، و﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ و﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ وما أشبههن من القرآن، وكان يأمر الناس بالتفقُّه في ذلك. وأنه قدم على عمرو بن العاص بمصر فسأله عن ذلك فقال له عمر: أنا أدلُّك على مَن يفتيك في مسائلك هذه أنا أكتب لك إلى أمير المؤمنين. فكتب له إلى عمر وأرسل معه رسولاً بالكتاب وسار صبيغ مع الرسول، فدخل الرسول على عمر، فلما قرأ الكتاب أوعده أن يأتي، فخرج الرسول فأتاه به فقال: ما الذي تسأل عنه؟ فسأله عن الذاريات والنازعات والمرسلات، فضربه بجرائد النخل حتى أدبر جسده ثم حبسه حتى إذا كاد أن يبرأ أخرجه أيضاً ثم ضربه ثم سجنه، ففعل به ذلك مراراً، فقال له صبيغ عند آخِر ذلك: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلي فقتل جميل وإن كنت تريد دوائي فقد بلغني الدواء. قال: فأطلقه عمر رضي الله عنه ونفاه إلى العراق وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد. قال: فكان صبيغ يدور في المسجد ويجلس فيه ولا يجلس إليه أحد. قال: ثم كتب أبو موسى إلى عمر أنه قد حسنت توبته فأمره عمر فخلّى بينه وبين الناس.

والذي يظهر لي أن هذا الأدب من عمر رضي الله عنه لصبيغ ليس على

سؤاله لمجرّد استجلاب الفائدة كالسؤال الذي ذكرناه عن ابن عباس رضي الله عنه، وإنما أدّبه لأنه فهم منه أمراً مستنكراً زائداً على ذلك وهو أنه إما أن يكون حسِب أن السؤال عن مثل ذلك من القرب والطاعات لله عزّ وجل، ألا ترى إلى ما تقدم من قول الراوي «وكان يأمر الناس بالتفقه في ذلك»، وإما أن يكون في أسئلته تلك متعنِّتاً طالباً للعثرات. ولقد نهى الله تعالى عن كثير من الأسئلة وإن لم يكن فيها شيء من هذا، قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . . .﴾ [المَائدة: الآية 101]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً مَن سأل عن شيء لم يُحرَّم على المسلمين فحرِّم عليهم من أجل مسألته**»، وكان يقول: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**» وقال نحواً من هذا الكلام حين سأله رجل عن الحج وقال له: أكل عام يا رسول الله؟ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس: «**سلوني عما شئتم**»(1) فقال رجل: مَن أبي؟ فقال: «**أبوك حذافة**»(1) فقال آخر: مَن أبي يا رسول الله؟ قال: «**أبوك سالم مولى شيبة**»(1) فلما رأى عمر ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله. فهذا كله مما ينبِّهك على خطر السؤال عما لا يعني وأن ذلك من التكلُّف والتعدِّي.

قال أنس رضي الله عنه: كنت عند عمر فسمعته يقول: «**نهينا عن التكلف**»(2) وجزئية واحدة يتعاطاها أهل الزمان هي عندي من التكلُّف الذي لا إشكال فيه وهي أنّ المدرس الذي يجلس لإقراء الناس لا بد له في الغالب من مطالعة الكتب قبل أن يجيء إلى مجلس الإقراء، وهذا هو التكلف البيِّن، لأن

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، حديث رقم (92) [1/ 47] ورواه الربيع في المسند، باب في فرض الحج، حديث رقم (394) [1/ 160] ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من كثرة السؤال. . .، حديث رقم (6863) [6/ 2659].

الإقراء اليوم لا ينبغي أن يتشاغل به إلا مَن يجب عليه ويرى أنه معاقَب على تركه، وذلك الوجوب لا يترتب إلا على مَن عنده علم حاصل يُطلب منه بثُّه للغير، وأما مَن ليس عنده علم حاصل فلا يطالب بذلك ولا يجب عليه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطّلَاق: الآية 7] وصاحب العلم الحاصل لا حاجة به إلى مراجعة الكتب لأنه إنما يرجع إليها ويطالعها لينقل منها أشياء يفيدها أو يتفيدها إذ ذاك وهو في كل ذلك فضولي متسبب إلى أن يُوجب على نفسه ما لم يكن عليه واجباً من التعليم لمسائل لم تكن حاصلة عنده في الوقت قبل مطالعة الكتب. وقد كان السلف يهربون من أن يتعرضوا لشيء يجب عليهم.

فإن قلت: إنما يطالع الكتب ليحصل له تحقيق في أمور عنده مشكلة فيزول بذلك عنه الإشكال أو ليستفيد مسائل لم تكن مستفادة له. فأقول: ما أشكل عليه من المسائل لا تتوجه عليه المطالبة بتحقيقها وبثها للغير من حيث إنه بث للغير، وإنما تتوجه عليه المطالبة بتحقيقها أو استفادة مسائل أُخر من حيث احتياجه هو إليها في نفسه ابتداءً، أعني أنه يجب عليه أن يَعلَمها ويعتقدها مما يجب علمه واعتقاده، ثم بعد ذلك يطلب منه أن يعلّمها لغيره. ومثل هذه الحالة لا تتقيّد مراجعته للكتب بكون ذلك لا يكون إلا عند تعاطيه للإقراء بل يطالع الكتب ويراجعها عندما ينقدح في خاطره ذلك الإشكال أو يريد أن يستفيد مسائل لم تكن عنده ويكون ذلك في أيّ وقت اتفق وكيفما اتفق، بل المدرس والمقرىء تكون الكتب عنده قبل تعاطيه للإقراء منسية فإذا أخذ في الإقراء استحضرها وأخرجها من الخزانة ونزّلها عن المرفع، وهذا دليل على أنه غير مخلص في علمه ذلك، بل الرياء والتصنُّع والتزيُّن بتحقيق المسائل ونقل كلام الناس متشبّث بذلك وهذا أعظم التكلف والتعدي والأخذ فيما لا يعني، وهو يرى أنه عامل لله ومطيع له ومتّبع ما أمره به من تعليم العلم ونشره.

ودليل آخر على كونه متكلفاً تخصيصه ذلك بفصل من فصول السنة ووقت معلوم في أيام ذلك الفصل وتصدِّيه بذلك لكل أحد من مكّاس[1] وشرطي وما

(1) مكّاس: من يأخذ المكس وهو ضريبة ويعرف بصاحب المكس (المعجم الرائد).

أشبههما، وتعرضه بذلك لكل غَث وسمين. فإذا شرع في الإقراء وفرغ من البسملة والتصلية والدعاء الذي لا يرتفع عن الأرض إلا مقدار جلسته على كرسيه، لو قيل له حينئذ: مات أبوك أو ابنك مثلاً، لم يوجب له ذلك قطعاً لما هم فيه ولا كفّاً عنه، ولو كان مخلصاً في ذلك وعاملاً لله تعالى لم يكن هكذا. فلا يتقيّد تعليمه بفصل مخصوص ولا وقت مخصوص، ولا يبث ذلك إلا لأهله ويمنعه من غير أهله، وإذا عرض له في أثناء ذلك حق واجب قطع ما هو فيه وتشاغل بذلك الحق الواجب. ثم إنه في هذه الحالة التي فرضتُها من قصده لتحقيق المسائل المشكلة واستفادة ما لم يكن عنده حاصلاً منها لم يخرج من عداد المتعلمين. فلأيّ شيء يكذب ويدّعي التعليم حتى يكلف الجالسين له من الأدب معه ما يليق بالمتعلّم مع المعلّم حتى يرى منهم مستحسناً أن تتساوى رؤوسهم مع رجليه أو تنخفض عنها بحسب قصر الكرسي وطوله؟

فإن قلت: كأنك يا أيها المتكلم سلمت من هذه الآفات أو من بعضها فيما تكتبه إليّ من الكتب فلا تحتاج في ذلك إلى مراجعة كتاب ولا إلى تنميق عبارة وتحسينها وتزيينها وأنك بريء من الرياء والتصنُّع «يُبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه معترضاً»[1] فأقول: إني لم أدّعِ أني مخلص فيما أفعله من ذلك، ولا أعتقد أني مطيع فيه لله تعالى، وإنما يقع مني ما يقع من ذلك قصداً لراحة قلبي وتشفِّياً بالكلام معك، واجعلني في ذلك أكون مصيباً أو مخطئاً، بل الظاهر أني مخطىء، ولهذا تجدني أقدّم ذلك على كثير من مهام نفسي الدنيوية والدينية.

أما الدنيوية فقد لا يستنكر تقدُّمه عليها لأنه دنيوي مثلها أو أبلغ منها، وإنما يستنكر تقديمه على الأمور الدينية، وذلك قد يقع مني كثيراً، فقد يتّفق أن أكون في صلاة فرض فينقدح عندي أن أكتب لكم بشيء فيغلب ذلك عليّ بحيث يسترسل خاطري في الفكر فيه حتى يذهب عليّ أكثر الصلاة وأنا لا أشعر بها

(1) رواه ابن حبان في الصحيح ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تفقد عيوب نفسه وطلب معايب الناس، حديث رقم (5761) [13/ 73].

ولا يوجد مني فيها حضور، وقد يكون في نيتي أن أقرأ جزءاً من القرآن فأجعل بدله هذا الخرمان وما أشبهه من الهذيان، ثم لا يقع مني خلف لما يفوتني من ذلك فيما يأتي من الأزمان، فعلى أيّ شيء هذا كله علامة على الإخلاص أو على الرياء الذي ليس لي عنه انفكاك ولا خلاص؟ كلا والله لا يصح إلا الصحيح ولا يوافق مرضاة الله تعالى بكل معنى منتخب ولفظ فصيح، ولكن معرفة هذا والإقرار به وإن كان لا ينفع في النجاة والفوز بالدرجات نعمة جزيلة، لأن أكثر الناس لا يعرفها.

فإن قلت: كيف تكون نعمة مع كونها لا تنفع فيما ذكرت؟

فأقول: إن لم تنفع في الوصول إلى كلية ذلك لا تخلو من المنفعة في حصول بعضه، فمَن لم يُجعل في أسفل سافلين من جهنّم فقد نجا من أعظم مهولها، ومَن وصل إلى باب الجنة ولم يدخلها فقد حصل له مبدأ الفوز وهو طمعه في دخولها، والله تعالى أعلم.

***

الرسالة الخامسة والعشرون

وبعد: فبعد أن وجّهت إليكم الكتاب الذي قبل هذا توجّه لي أن أكتب لكم سؤالين وجوابيهما فاسمعوهما وعُوهما وصِلوهما بخاتمة ذلك الكتاب ولا تقطعوهما، وهما:

فإن قلت: التقليد الذي حكمتم بأنه لا تأثير له ثابت عند الشخص الذي ذكرتم أنه يتصور منه ما ينفي به وجود الدعوى لأن المطلوب منه من كونه لا يفعل ما يفعله إلا مراعاة لحق الله تعالى لا ليستجلب به حظه ولا يرى فعل ذلك من نفسه، لم يتحصل له إلا بطريق التقليد، فكيف يتصوّر مع التقليد في الوجه الثاني ما استبعدتم من أنه لا يتصور معه في الوجه الثالث؟

فأقول: ما ذكرتَه صحيح ولكن الفرق بينهما أن التقليد هنالك مطلب واحد، وفي الوجه الثالث التقليد فيه في مطلبين: أما المطلب الواحد الذي هنالك فقد فهمته، وأما المطلبان اللذان في الوجه الثالث:

فأحدهما: أن يعتقد أولوية ما ذكرناه من تلك الذرة على عباداته الدائمة المتصلة، أولوية لا تتصور في هذا الموضع إلا مجازاً لفقد النسبة والمشاركة في ذلك.

والثاني: أن يكن ذلك منه لا يصح ويسلم إلا بفنائه عن نفسه وفنائه عن رؤية فنائه وهو معنى ذلك المطلب الواحد الذي قلد فيه صاحب الوجه الثاني وصحح به حاله.

ومعلوم أن التقليد في مطلب واحد من غير وُجدان ما يُصادمه ويعارضه أسهل من التقليد في مطلبين مع وجدان ما يصادمه ويعارضه وهو ما تقرّر عنده ورسخ في قلبه من صحة الحال التي هو عليها بنصوص الشريعة ومواطأة الكافة. وأي شيء ينقله عن ذلك إلا أمر إلٰهي وقهر ربّاني؟ فلذلك قلنا إنه بعيد أن يتصور ما يدفع به صاحب الوجه الثالث وجود الدعوى عن نفسه ويتصور في الوجه الثاني.

فإن قلت: يفهم من هذا كله أن وجود الدعوى في الوجه الثالث أعظم من الدعوى في الوجه الثاني، مع أن الوجه الثالث متضمن ما هو محمود في الشرع من محبة الخير والحرص على الازدياد منه، والوجه الثاني متضمن ما هو مذموم فيه من الحرص على الثاني واتباع الشهوة والهوى، فيلزم على هذا أن يصح من صاحب الوجه الثاني اختيار الحال التي هو عليها مع كونها مذمومة في الشرع، على حال صاحب الوجه الثالث مع كونها محمودة في الشرع، ويقول حين كانت الآفة أعظم والخطر أشد: فلا أحبُّه ولا أختاره وأبقى على الحال التي أنا عليها، وهذا فيه ما فيه.

فأقول: مقتضى النظر الحقيقي أن لا يصحّ له هذا الاختيار، لأن من المعلوم عند أرباب العقول السليمة أن المقام العالي أبداً هو الذي ينبغي أن يختار ويؤثر وإن كان الخطر فيه أعظم، واعتبر ذلك بأحوال أهل الرياسة والسلطنة بتقدير خلو ذلك من الآفات التي تضر بالدين، فإن مَن فيه أهلية للسلطنة لا يستحسن له عاقل أن يزهد في طلبها وأن يترك محاولة التوصل إليها بأي وجه أمكنه، تعلُّلاً بالخطر والضرر اللذين استهدف لهما بالنسبة إلى مَن

طلبها وبذل جهده فيها وتحمّل ما يعرض له فيها من الخطر والضرر، بل لا يعدّ ذلك منه إلا سفهاً وبلهاً وجبانة نفس ودناءة همَّة، والعالي الهمَّة في ذلك هو الذي يقول ما قاله امرؤ القيس:

نـحـاول مـلـكـاً أو نـمـوت فـنـعـذرا

فالعذر له في هذه الحالة إنما أوجبه عمله على مقتضى ما دعاه إليه علوّ همّته، فكذلك الحال فيما نحن فيه بل فيما نحن فيه أوْلى أو أوْجَب لأن ذلك إنما يقع بين حالين شريفين أحدهما أشرف من الآخر، وما نحن فيه لا اشتراك بينهما في شرف بل أحدهما هو الذي ينبغي أن ينتقل عنه على كل حال وهو حال صاحب الوجه الثاني، وفي الجملة معلوم أن مَن ترك الطاعات ونوافل الخيرات لأجل ما يتوقّعه فيها من الآفات فهو ناقص العقل فائل الرأي(1) مبخوس الحظ، بل على العبد أن يتشوّف إلى نيل المقامات العالية وإن كانت مضمِّنة لأعظم الخطر، ولا يُعذر في التقاعد عن ذلك الوجدان ما يتخوَّفه من الآفات والمضار، فإن كان ما توهمه من ذلك له قدرة وحيلة في صرفه عنه صرفه وأزاله وإلا فلا ملام عليه فيما أعجز قدرته واحتياله.

واعلم أن صاحب الوجه الثالث يتصور منه وجود الدعوى وإن كان إذ ذاك آخذاً في الطاعات وعاملاً بالصالحات، وأما إن كان مفرّطاً ومسوّفاً فقد انضاف إلى عواه الحاصلة كذبه فيها إذ لو كان صادقاً فيما تضمنها من أنه إنما يكره الموت لما يفوته من الأعمال الصالحة المقربة له من الله تعالى لسارع وبادر ولم يكن منه تسويف ولا تفريط. فهذا ما أردنا أن نذكره لكم تتمة لما تقدّم قبله ليحصل به تمام البيان لمعنى ذلك الكلام الذي وقع منا مطلقاً غير مقيّد فتفهّموه واعملوا عليه إن شئتم.

وموضع آخر في الكتاب الذي كنت بعثت به إليكم قبل هذا وقبل الذي بعثت إليكم قبله أعجلني حامله عن مزيد نظر فيه وأن نرتّب عليه من هَوْس الدماغ ما يعجبك وما لا يعجبك وهو قولي فيه: العبد من حيث هو عبد لا

---

(1) رجل فائل الرأي: ضعيفه. (المعجم الرائد).

يلزمه أن يتعرف هل مولاه راضٍ عنه أو ساخط عليه. وهذا لا يخلو من بشاعة في ظاهره ولكنه عندي الحق الصريح الذي لا ينبغي أن يعتقد سواه لأن العبد من حيث هو عبد لا مدخل له في شيء مما يتعلق بنفسه أو بسيده إلا بامتثال أمره واجتناب نهيه فقط، فما خلق الله تعالى العقل في ذي العقل إلا ليتوصل به إلى فهم هذه الجملة والتصرف فيها بحسب ما يهديه الله تعالى إليه لا غير، ويكون فيما بعد ذلك أصم أبكم أعمى. فمن نظر في شيء سوى ذلك من غير أن يكون له فيه قوة وحسن عون على ما ذكرناه من الامتثال والاجتناب فهو متعدٍّ ومتكلِّف والله لا يحب المتعدِّين ولا المتكلفين. وهذا من جملة ما تقتضيه الملة المحمدية من السماحة والسهولة، وفي قوله، والله أعلم «**إنَّا أمة أميّة لا نحسب ولا نكتب**»[1] إشارة إلى هذا، ولا تظنن أن السماحة والسهولة منحصرة في نحو قصر الصلاة في السفر والإفطار فيه والمسح على الخُفَّين وأكل الميتة للمضطر وتجرُّع جرعة الخمر إذا غصّ بلقمة وما أشبه هذا من أنواع الرخص، بل تتناول مع ذلك ترفيه العقول عن النظر في كل ما هو فضول، فمَن التمس معرفة كونه مرضياً لمولاه أو مسخوطاً له فهو متعدٍّ، وكذلك هل هو شقيّ أو سعيد أو كافر أو مؤمن أو طائع أو عاص أو وليّ أو عدوّ، ويلزم من ذلك أن لا يصح له التشاغل بالتفكُّر فيما عمله من حسنات أو سيئات لغير إرادة التدارك وإصلاح ما اختل منها، وكذلك لا يصح له تذكار ما يوجب له خوفاً أو رجاء أو حزناً أو فرحاً أو قبضاً أو بسطاً، فإن هذا كله فضول، فلا يصح إذاً عندي جميع ما قاله أئمتنا رضي الله عنهم من أمثال هذه الأشياء، مثل نظره في أن المقام الفلاني هل قام به أم لا؟ والحال الفلاني هل صح له أم لا؟ وكذلك النظر إلى السوابق والخواتم وما نفذ به القضاء وما جرى به القلم فلا يصح إذاً من الحيثية المذكورة ما قاله سيدنا أبو بكر الواسطي رضي الله عنه لما سمع قول القائل:

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: لا نكتب ولا نحسب. . .، حديث رقم (1814) [2/ 675] ورواه مسلم في صحيحه، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال. . .، حديث رقم (1080) [2/ 761] ورواه غيرهما.

أيـا راهـبَيْ نـجـران مـا فـعـلـتْ هـنـد[1]

ولا ما قاله سيدنا أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه حين سمع قول القائل:

مـنـازل كـنـت تـهـواهـا وتـألـفـهـا أيام كـنـت عـلـى الأيـام مـنـصـورا[2]

وأنت تعلم ما الذي قاله هذان السيدان حين سمعا هذين البيتين، فإن هذا كله لا فائدة له في النظر الحقيقي إلا شغل الخاطر والبال. هذا فيما يتعلق بالعبد، وأما ما يتعلق بالسيد فمَن قُذف في قلبه وتقرر عنده وجود مولاه وتوحيده وعظمته وملكيته له لا يسوغ له أن ينظر في شيء سوى ما يزيده في ذلك تحقُّقاً ورسوخاً، فمَن وقف على اعتقاد مُضمّن ما يفهمه بعقله من صفات الله تعالى وأسمائه ووجوه تنزيهه وعلائه، واقتصر على ذلك وجمد عليه ونفى غيره فهو متعدٍّ، فينبغي على ما ذكرناه أن لا يتشاغل بالنظر في شيء مما قرره أرباب الأصول على وجه التحقيق والتدقيق، بل يعتقد أن الأمر أجَل من ذلك كله بشيء لا يفهمه هو ولا غيره، ويقول ما قاله إمام العالمين والعارفين: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[3].

وكذلك أن لا يتشوَّف إلى الاطلاع على كثير مما ذكره الإمام أبو حامد الغزالي مما سمّاه علوم المكاشفة، وجعله الغاية القصوى للعارفين وما أشبه هذا مما سُوِّدت به الصحف ومُلئت منه الدفاتر والكتب، كيف ونبينا محمد ﷺ لم يبلغنا عنه أنه أمرنا عن ربه بالنظر في شيء من ذلك، ولا جعله من المتعينات علينا، وإنما أمرنا عنه بالتقوى والطاعة فقط، ومن تقواه وطاعته أن

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذا البيت وورد البيت في مصادر عدة منها معجم البلدان لياقوت الحموي، باب الدال والياء وما يليهما [7/ 35]. وأورده أبو زيد عبد الرحمٰن الثعالبي في التفسير، سورة الشورى، آية (6) [3/ 122].

(2) لم أقف على اسم قائل هذا البيت.

(3) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (486) [1/ 352] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر ما يستحب للمصلي أن يتعوذ برضاء الله جلّ وعلا...، حديث رقم (1932) [5/ 258] ورواه غيرهما.

تعمل بالرخص التي شرعها لنا، ومن جملتها ما ذكرناه، فلا جرم لما تلقّى ذلك عنه مَن عاصره من أمته أو بلغه عنه ممن أدركته عناية الله وتوفيقه ممن تأخر عنه لم يتشاغلوا بشيء سوى ما ذكرناه ولم يحرصوا على طلبه والبحث عنه بل رفّهوا خواطرهم وأراحوا عقولهم عن النظر في ذلك لعلمهم أن المقصود الذي طُلِب منهم قد فهموه وأحاطوا به علماً، وأنهم إذا تشوّفوا إلى تعرُّف ما سوى ذلك فإن العجز والتقصير منتهى غايتهم، ولذلك لما سمع بعضهم قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزَلة: الآيتان 7، 8] قال: «يكفيني هذا».

وكان الأعرابي الجلف إذا قدم على النبي ﷺ من البلاد النائية ليُسْلِم وليتعلم ما يحتاج إليه، لم يلبث معه إلا مقدار ما يدع بعيره معقولاً بباب الدار أو بباب المسجد بعد نزوله عنه، فإذا قال له النبي ﷺ في ذلك الوقت المختصر ما قال وعلّمه ما شاء الله تعالى أن يعلِّمه من المأمورات والمنهيات انصرف عنه إلى بلاده وقومه ولم يحتج إلى مراجعته، ويبقى مدة عمره لا يجتمع به ولا يراه. ومعلوم أن النبي ﷺ قد نصحه في ذلك المجلس كل النصيحة ولم يدّخر عنه شيئاً مما يوجب له رفيع الدرجات وعالي المنازل في الدار الآخرة، لكن كان هذا كله والإيمان غض والإسلام جديد، فلما طالت المسافة عليه ووصل البلاء والاضمحلال إليه، ووقع ما وقع من الإكثار ورسم أشياء تنقضي دون ذكرها وفهمها والإحاطة بها طوال الأعمار وصارت مقدّمات ذلك الأمر المطلوب وأوائله ووسائله تصنَّف فيه التصانيف وتُدوَّن فيه الدواوين، ثم في تصنيف واحد أو ديوان منفرد تقع تصانيف ودواوين كثيرة لا تنضبط لزمام، ولا يكاد أن ينقطع فيها الكلام، ويدّعي مصنفها إماماً أيّ إمام، وهو في جميع ذلك لم يفِ بالموعود ولم يَلمّ بالمقصود من ذكر حال العابد مع المعبود. وكل ما تراخى الزمان تزايد الهذيان، واستمروا بالجري على هذا الجريان ولم يخرجوا خنزيراً من فدّان، فأنّى يُعثَر مع ذلك على الحقيقة أو يُهتدى إلى شيء من الطريقة؟ نعوذ بالله من الغرور فإنه مبدأ انطفاء كل نور.

ومما قضيت منه العجب الخلاف الذي وقع بينهم فيمن لم يكن في

اعتقاده مستنداً إلى دليل وبرهان على طريقة أهل علم الكلام، وأن ثَمَّ مَن يقول إنه لا إيمان له ولا إسلام، حتى أن فلاناً أدام الله توفيقه أذكر أنه لما حكى هذا الخلاف في مقدمة الشرح الذي وضعه على «القواعد» لعياض التزم حين يأخذ في جزئيات العقيدة التي فيها بالشرح والتفسير أن يعضدها بدليل عقلي مما ذكره أهل علم الكلام ليخرج الناظر في كتابه من الخلاف الذي وقع في هذا الأمر.

وهل أوجب كل تشديد وتنطُّع وقع في الوجود إلا قصد الخروج عن الخلاف الذي لا أصل له؟ وهل المقصود إلا حصول الجزم بالاعتقاد السنيّ من أي وجه أمكن؟ فإذا حصل من طريق التقليد كفى ذلك كما يكفي إذا قارنه دليل وبرهان من غير وجود فرقان بينهما. ولا يحتاج إلى محاولة الدليل والبرهان إلا مَن تخلخلت عقيدته بشكوك أو شُبَه، وأما مَن هو راسخ في الاعتقاد السنيّ كحال عوام الناس فلا يحتاج إلى شيء من ذلك وقد تكون عقيدتهم أرسخ بكثير من عقائد أولئك الذين يتعاطَون هذه الأدلة ويحاولونها، وهذا موجود مشاهَد.

وقد اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب لمجرد الإقرار والنطق بكلمة الشهادة، ثم ينصرفون عنه إلى أهليهم ورعاية مواشيهم، بل لو يتشاغل أمثال هؤلاء بالأدلة والنظر فيها لخِيف عليهم أن تنقدح عندهم وساوس وخيالات وشكوك وشُبَه ينتشبون فيها ولا يقدرون على التخلُّص منها، وقد كان قبل أن تشاغل بها في أمان وصحة إيمان. وقد أطنب الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في الرد على هذه الفرقة التي قالت بهذه المقالة كل الإطناب في كتاب «التفرقة» وحكم بأن هذه الفرقة ضيّقت رحمة الله الواسعة، فإن أردته فانظره في الكتاب المذكور.

وهذا أيضاً مما ينتظم في سلك ما ذكرناه مما ينبغي أن ترفّه عن النظر فيه العقول ويُسلِّم علمها إلى مَن أحاط علمه بكل معلوم ومجهول، حذاراً من الزلل والدخول فيما لا يحلّ، والله تعالى أعلم وأحكم.

فهذا كله كلام عرض لي في الوقت أن أكتب به إليكم وإن خالف ذلك

العادة مني في أنه لا يكون كتابي إليكم إلا جواباً، ولكن لما جاء هؤلاء الناس قاصدين إلى جهتكم، ومعلوم أن السلاطين إذا قدموا على موضع لا يقدمون إلا لفوائد في ذلك، لكن تلك الفوائد إنما تحصل لهم أو لمَن تعلق بهم، وأما أنتم فلا فائدة لكم في ذلك بل ربما يوجب ذلك غلاء الأسعار ونُقصان الكميّة والمقدار فيتكدّر عيشكم ويتنغّص حالكم، فإنكم إن كنتم تشترون صاع الحنطة بعشرة دراهم رجعتم تشتروه بخمسة عشرة درهماً وأكثر، وإن كنت تشتري من الباكور أربعين بدرهم مثلاً رجعت تشتريها الآن بعشرين أو أقل، وقِسّ على هذا جميع الأمور التي تحتاج إليها، فإذا ورد عليك كتاب مني معهم ربما يكون في قدومهم عليك فائدة على الجملة والفوائد من حيث كونها فوائد لا يشترط فيها أن تكون كذلك في العاقبة بل يكفي في كونها فوائد أن تكون كذلك لأن في نظر المفاد إياها بمنزلة الحجر الذي يقال له «حجر بُشفشاف» إذا حصل بيد البربري الجاهل يرى أنه حاز بذلك مُلك العراق، وقد يفجأه الموت قبل أن ينكشف له سِرَّه وينزع عنه ستره وقشره فتحصل له في تلك المدة حالة جميلة ويربح فرحته فيها وإن كانت مدة قليلة. وكذلك ما تضمّنه هذا الكتاب ربما تستفيد به فوائد تعيش بها نَفَساً وتتخذها في ظلمات كروبك قبساً، ومن الآن إلى أن يقيّض الله تعالى مَن يكشف عن نحاسه وتلبيسه تحدث أمور وبعد الأمور أمور، إما أن يموت الحمار أو يموت سائقه، فالإنسان لا ينبغي له إلا أن يكون ابن وقته، ولا تحصل له الراحة إلا بذلك، وإلا فإن هذه الفتن التي استقبلت والمصائب التي ستنزل عقب المصائب التي قد نزلت إن لم يُرح الإنسان خاطره من تذكُّرها واستشعار حلول منتظرها بأسباب، أما أنت فبمثل هذا الكتاب. وأما غيرك فبمثل اللعب بالكعب وإلا تضاعف عليه البلاء إذ لا بُدّ له من أن ينفذ عليه ما سبق به القضاء وتقول العامة: «ضربتين في الرأس تُهَوِّس»[1]

(1) تَهَوَّسَ: صار به هوس (المعجم الغني).

الرسالة السادسة والعشرون

وبعد: فقد بلغني منكم كتابان اثنان أحدهما مختصر والآخر مطوّل، وقد أعجبني ذلك المطوّل كثيراً وتعرّفت منهما أموراً، **منها**: المسألة التي لم يوافق عليها سيدي فلان، وقولكم فيها مخاطباً له: ولو ارتضيتُه سلمتُه، الصواب فيه أن تقولوا: ولو ارتضيته لوافقت عليه، لأن الموافقة هي المطلوبة وهي التي فيها صعوبة، وأما التسليم فحاصل فيما يظهر. وأما البراءة التي أتتني طَيّ كتابكم فلم أعثر لها على حقيقة ولا عرفت لفَكّ رموزها طريقة، وكان قصارى أمري أن بقيت أنظر فيها كما ينظر الكبش في النارنج وعَمِيَ عني إلى القصد بما فيها سواء المنهج وخصوصاً ما فيه منها علامات الإعداد وحروف أبي جاد.

وأما الكلام الأخير فلم أخل فيه من تلمُّح يسير لكني لا أعتمد عليه ولا أركن إليه. فعرِّفوا بهذا كاتبها بعد أن تبلغوه عني السلام وتقولوا له: يقول لك فلان والله ما بخلتُ عليك بسر ولا هذا لي بطور، وما زال قلبي سبعين من منزع ابن سبعين، لا لإنكار عليه ولا لاعتقاد شيء مما نسبه أهل الجهل المركب إليه ولكني رأيت كلامه كثيراً ما يعذّب ويعنّي القلب ويُتعِب، وحينئذ لا يحصل لي منه شيء يشفي صدري ولا يثلج به خطري وسري. كيف وهو الذي قال في ذلك الكلام الأخير: وكل غير قاطع وكل قاطع معذب ناقص، وهذا ينعكس لا محالة إلى قولنا: كل معذب ناقص قاطع وكل قاطع غَيْر، والأغيار كلها لا حاجة بنا إليها باعتبار مقصده، وأيضاً مَن لنا بأنه قصد أن تفهم رموزه وأن تستثار دفائنه وكنوزه، والظاهر أنه لم يقصد ذلك لأن كلامه لا يجري على أسلوب واحد لأنه تارة يتنازل حتى يقول القائل: هو في يدي أنا له مسترِق، وتارة يستعلي في الجوّ المنخرق وهذا شأن لاعِب بألباب الناس موجب لها حصول الإشكال والالتباس كحال أصحاب الكيمياء، فبينما أنا في كلامه أطّلع وأهبط وأخبط وأخلط وأتوقّل كل جبل وأستنزل معاني كلامه بلطائف الحِيَل وأكابد في حمل مجلّده التعب والأين، وأكّد في النظر فيه بالقلب والعين إذ انفلت عنه صفر اليدين «بخُفَّيْ حُنين» ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها لكن

الشيوخ هم الذين يلينون الحديد ويقربون البعيد وقد شغر منهم الزمان والمكان وصاروا في خبر كان.

وكلام الششتري عندي أقرب مأخذاً من كلامه ـ أعني كلام ابن سبعين ـ وأما أزجاله ففيها حلاوة وعليها طلاوة، وهذا ما عندي في هذا الأمر ومنه تفهم مذهبي في الكتب التي سميتموها لذلك الشيخ لو قُدِّر أن تقع بيدي لكنتُ أتحلحل على مطالعتها من غير أن أحرق مزاجي في ذلك ولا أتكلّف استنساخها ولا ابتياعها بثمن له بال، وما ذلك إلا لما قلته لكم.

وأما مقطعات الششتري وأزجاله فلي فيها شهوة وإليها اشتياق، وأما تحليتها بالنغمة والصوت الحسن فلا تسأل، فإن قدرتم أن تقيدوا منها ما وجدتموه فافعلوا ذلك ولا بأس إذا استحسنتم شيئاً مما ذكرتم من تلك الكتب وقدرتم على نسخة فافعلوا ذلك لأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فطالعوا بهذا كله الرجل ووليّ توفيقنا هو الله عزَّ وجل.

وقول الشيخ أبي مدين في رؤيا ذلك الرجل حين سأله الشيخ أبو حامد فقال له: ما روح اللذة؟ فقال: نظرة إليك نظرة إليك، الظاهر عندي أنه إنما خاطب بهذا الكلام ربّه عزَّ وجل لكن في حال اضمحلّ في نظره وجود نفسه وجود الشيخ أبي حامد، وهذا هو عين الجمع الذي يشير إليه القوم، فلما حصل في هذا المقام من شهود الأحدية العزيزة المرام جرى على لسانه ذكر حاله الذي هو فيه فقال: نظرة إليك نظرة إليك، وتكراره إياه يؤذن بغلبة منازلته ولُقياه، ولذلك قال الراوي بإثره: فغشيهم نور عظيم فأخذتهم الملائكة. . . إلى آخره. ولا يكون هذا إلا عند مغافصة التجلّي واستيلاء الفناء والتلاشي.

وكانت أسئلة الشيخ أبي حامد موجبة لترقيه إلى هذا المقام الكريم. وقد يصح أن يكون الشيخ أبو مدين التفت بخطابه ذلك إلى النبي ﷺ أو يبقى على ظاهره من مخاطبة الشيخ أبي حامد. وسواء قدّرنا مقام أبي حامد أعلى أو مقام الشيخ أبي مدين أعلى إلا أن في هذين الوجهين بُعداً وفي تقرير صحتهما طول، والأظهر ما قدمناه إن لم يكن الناسخ حرّف الكلام فقلب الهاء كافاً،

فقد يمكن أن يكون نظرة إليه بالهاء ويعود على الله عزَّ وجل ولا يحتاج فيه إلى مؤونة، والله تعالى أعلم بهذا كله وبحقيقته.

وأما كلام الشيخ أبي مدين ومراجعة الشيخ أبي طالب له في ذلك في الرؤيا الثانية التي وقفتم عليها في جزء لبعض المحدثين فهو بيِّن كله ولا يخفى على مَن شدَا شيئاً من علوم هذه الطائفة، وفهم مرمى القوم في هذه الطريقة. وأنت تعلم حالي مع ما كان من هذا الجنس ـ أعني المرائي النومية ـ وإني لا أتتبَّعها ولا أبحث عنها، وإنّ ما كان منها فيه نوع علم كهذه الرؤيا لم تتوجه الهمَّة مني إلا إلى ما يلوح منها من فوق وفوق.

فإذا علمت هذا عرفت أني لا أجد في نفسي قابلية لما طلبتموه مني من بيان ما أشكل عليكم من ذلك الكلام كله أو بعضه وما ظهر لكم في هذه الحكاية من أن مقام سيدي أبي مدين أرفع وأعلى من مقام أبي طالب وأبي حامد، وأن سيدي أبي الحسن الشاذلي على حسب ذلك لا يشقّ له غبار. فقد يكون ذلك صحيحاً وأيّ شيء يستنكر من مثل هذا؟ فإنا نجد بعض المتأخرين من الأولياء قد أعطوا من اللطائف ومنحوا من العلوم والمعارف ما لم يصل إليه في ذلك أكابر المتقدمين. وخذ هذا من قول أبي بكر الشبلي رضي الله عنه في أبي يزيد: «لو أدرك زماننا لتأدّب بصبياننا» أو كما قال، ومن كلام أبي عبد الله الترمذي الذي حكاه عنه صاحب كتاب «لطائف المنن» أو قاله من تلقاء نفسه ـ طال عهدي به ـ فانظروه هناك مما معناه: أن الأولياء لا يزدادون مع ظلمات الفتن إلا نوراً، ومع استيلاء الفساد على الأمم إلا استقامةً وظهوراً.

ولعل في كلام سيدي أبي الحسن وسيدي عبد القادر وسيدي أبي العباس المرسي ما يؤذن ظاهره ببلوغهم رتبة الكمال التي أعجزت آحاد الرجال، ولم يقع مثل ذلك لأحد ممن تقدم ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 191] وقد يمكن أن لا يُجعل لهذه الرؤيا حكم في مثل هذا فلا يؤخذ منها ما ذكرتموه لأن للرؤيا أسراراً وأغواراً، والله أعلم بحقيقة أمرها، وإنما المعتبر في هذا الكشف والشهود الذي يكون للأولياء فبذلك تعرف الأشياء وتتبيّن مراتب الأولياء. هذا ما عندي، والله تعالى أعلم.

وأما كلام الجنيد الذي نقلتموه من طرَّة نسخة كتاب الترمذي وودتم أن أكون نقلته في الكتاب الذي ذكرتم حيث يليق به، فعندي فيه نظر لأن الحديث ورد مطلقاً أو عاماً وهذا كالتقييد له أو التخصيص، وإبقاؤه على إطلاقه وعمومه أولى والله تعالى أعلم لما ألفناه في الوجود من سعة الرحمة وسبوغ النعمة. فيتناول الحديث كل فقير وكل غنيّ فيهما أهلية دخول الجنة، فالفقير العالي الرتبة الذي أشار إليه ما نقلتموه من كلام الجنيد يدخل الجنة قبل الغنيّ العالي الرتبة في الغنى كالمؤثر المتصدق، وما أشبه ذلك بخمسمائة عام، والفقير الذي هو أدنى رتبة مع الغني الذي هو أدنى رتبة كذلك، ولا مانع يمنع من هذا مع بقاء الحديث على إطلاقه وعمومه، وليت شعري حين قيّد الفقير بتلك الصفات، أيَدَع الغني على إطلاقه أم يقيّده؟ فإن تركه على إطلاقه لم يستقم ذلك لأن فيه أيضاً مراتب لا تكون نسبتها مع ما ذكره نسبة واحدة، وإن قيّده عاد إلى ما قلناه.

واعلم أن هذا النوع من التضييق في تفسير الآيات والأحاديث لا أحبُّه كما لم أحب التضييق الذي ضيّقه الإمام أبو حامد حين تكلم على الخشوع وحضور القلب في الصلاة، ورأى أن صلاة مَن لم يحضر قلبه فيها ساقطة عن درجة الاعتبار موجبة لصاحبها الهلاك والبوار، وأن الفقهاء إنما قصدوا مع الناس مصالحهم الدنيوية، وأن المصالح الأخروية ليس النظر فيها من شأنهم. وهذا شيء لا أفهمه، لأن الناس فيهم أغبياء وألِبّاء وعوامّ وخواصّ، والتكليف الشرعي شامل لجميعهم، ودوائر الرحمة دائرة عليهم، وكل أحد يأخذ منها حظاً وافراً على حسب حاله ومقامه، والقط لا يقدر على حمل الجمل، بل الصواب عندي أن يقال: مَن أتى بالصلاة على الوجه الذي ذكره الفقهاء فقد قام بالواجب عليه وكان له ثواب مثله، ومَن أتى بالصلاة كذلك وأضاف إليها ما اشترطه الإمام أبو حامد فهي أيضاً مجزية عنه وهو مثاب عليها وعلى ما اعتمده فيها من المراقبة والحضور أضعافاً مضاعفة. فلو كلّف الناس كلهم أن يصلُّوا على النحو الذي ذكره الإمام أبو حامد لم يقدر على ذلك أكثرهم بل لم يوجد منهم واحد من ألفٍ.

فالكلام الذي نقلتموه عن الجنيد رضي الله عنه لو صحّ عنه أو رأيتموه له في كتاب معتبر لا أجد في نفسي قابلية على نقله في الكتاب الذي ذكرتم مقرّراً فيه حكم ظاهره، وقد أنقله لأستخرج منه معنى غير ما ذكره من ذلك التقييد والتخصيص. وأما ما ذكره من ذلك فلا للعلة التي ذكرتها، فكيف وقد انضاف إلى ذلك أنه منقول من طرّة كتاب ليس له رأس ولا رجلان، ولا يُدرى مَن نقله ولا مَن كتبه؟ ومثل هذا ليس في كتابي منه شيء والحمد لله إلا موضعاً أو موضعين، وأذكر الآن من ذلك كلاماً كنت نقلته من كتاب كان لكم عندي فيه حكايات لم أعرف مؤلفه وهو ذو حظ مليح وربما فيه تراجم بالأحمر وعلى ذهني أنكم قلتم لي أن والدكم رحمه الله كان من كتبه ولكن الذي نقلت منه إنما هو كلام معناه كالمجمع عليه فلم أحتج إلى تصحيح نقله.

وثَمّ موضع آخر نقلته من ظهر كتاب الترمذي الذي كنت استعرته من ابن فلان وهو كلام مذكور عن الحسن في صفة الفقيه حين قال فيه هو كذا وهو كذا وعدّد صفات حسنة كثيرة لم أرها مجموعة إلا في ظهر ذلك الكتاب لكني رأيتها بخط فلان وهو مَن تعلّم ضبطاً واتقاناً مع أن بعض تلك الصفات أو أكثرها قد صحّ نقلها عن الحسن ولا يبعد أن يكون في كتابنا من هذا الجنس موضع آخر نسيته، فهذا كله هو الذي يمنعني من نقل ذلك الكلام مستدلاً به على ذلك المعنى من التخصيص وإن كان قد تضمّن من صفات الفقراء المتحققين في الفقر ما يعترف بحقّيته كل ذي لبّ، ودعك أنت تكون مثل الهر أو كجالب التمر إلى خَيبَر.

وأما ما استفدتموه من «فهرسة الباجي» فلا حاجة به إلا لمَن قصد إلى مناظرة طاعن على الإمام أبي طالب بكلام الخطيب فيفحمه بشهادة الباجي له، وأما في تقريره منزلته وعلوّ درجته فلا، ولو كان الذامّ له غير مطعون عليه، لأن هذه الطائفة بينهم وبين غيرهم في إدراك منازعهم التي بها يُحمدون ويُذمُّون سدّاً كسدّ ذي القرنين، فإن مدحوا بشيء لم يصيبوا وجه المدح به، وإن قدحوا فمثل ذلك، وقد يُذمُّون بما يمدح به ويمدحون بما يذمّ به لاستقصارهم وعدم استبصارهم، كما قال ابن شرف في قصيدته البديعة:

وربـمـا عـابـه مـا يـفـخـرون بـه يُهوى مَن الخَضْرِ ما يُشنا من الكفل[1]

يريد بذلك ممدوحه، وكان في وهمي أن الباجي متقدّم بالزمان على الخطيب بن ثابت فالآن استفدت تأخره بحيث روى عنه.

وأما رجوعك إلى الرواية والتشاغل بحدثنا وأخبرنا لأجل هذا أو غيره، فلا أدري ما أقول فيه؟ وكل أحد اليوم حائر بنفسه، ما قصده إلا كيف يقطع وقته. فإن كان مكفيّ المؤونة من جهة القُمام اشتغل بهذا وبغيره من أنواع الفضول، وإن لم يكن مكفيّ المؤونة انحصر فكره ولبُّه في ذلك الأمر ولم يكن فيه متسع لغيره. وأما أن يوجد اليوم أحد فيه قابلية لعمل صالح خالص من الهوى والشهوة يتعبّد به لربِّه عزَّ وجل في وقت إعراض الناس عن ذلك ورميه إياهم خلف ظهورهم فلا، إلا مَن رحمه الله تعالى.

فإذا عرفت هذا ولم يكن عندك اغترار بحالك، فاشتغل بالرواية أو بالقراءة أو بما شئت من أنواع الفضول، فإنك لست بناقص بها ولا زائد، وإنما هو وقت تقطعه كيفما اتفق إلا أنك تستحب قطعه بما ألفته كما ذكرته، وغيرك ممن ألف قطعه بالفسوق والمجون كذلك. وإنما العزيز الذي هو بمنزلة الكبريت الأحمر والذهب الإبريز مَن وفقه الله تعالى وصرف همّته نفساً من عمره إلى عبادة يعامل بها مولاه ويجد ثمرتها في أخراه من غير أن يكون له فيها غرض دنيوي.

وقولكم: لو كان قدّر بمجيئك لأضربت عن ذلك صفحاً... إلى آخره، فما أدري أيّ شيء تفعل بمجيئي؟ أتدخل الخلوة على يدي أم تريد عُلوّ سندي؟ كلا ليس شيء من ذلك عندي، فلم يبقَ إلا القيل والقال وتحميل ظهورنا من الأوزار والأحمال الثقال بالغدو والآصال والكتاب يفي بذلك كله أعظم وفاء، والله يلطف لنا في القضاء.

(1) ورد البيت في كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة على النحو التالي:
وربَّـمـا عـابـه مـا يَـفْـخـرونَ بـهِ يُشْنَا مِنَ الخضْر ما يهوى من الكَفَل
[7/ 222].

وقولكم: مع أن أهلها ـ تعني بذلك أهل الرواية ـ لهم تصديق بأحوال أهل الحقيقة، صحيح، ولكن لا أدري أين أهلها اليوم الذين لا يكذبون ولا يموهون ويكون لهم العقل الرصين والإدراك المتين في تحقيق ما ينقلون ويسلم مع ذلك الإنسان في مجالستهم من مسارقة الطباع وتغيُّر الأوضاع ولعله فتح عليكم فيهم من حيث لا أشعر.

وقولكم: وهم بضد أهل الفقه فإن عندهم غِلظاً وعدم شفقة، صحيح ذلك التضاد ـ والله أعلم ـ ولكن إنْ أردتموهم أيضاً فشأنكم وإياهم.

***

الرسالة السابعة والعشرون

وقد بلغنا كتابكم وتعرّفت منه حالكم، وقد كنتُ أظن أن شيئاً من ذلك لا بد أن يقع، فالحمد لله الذي تدارك الأمر بما أجراه على يدَي فلان من الخير حين جمع بينكم وبين ذلك الرجل ولم تفعلوا شيئاً لمّا ذكرتم له تلك المسألة، ووقع ذلك منكم في أنكم لم تذكروا له أنكم سألتموني عن ذلك أو جاوبتكم عليه لأنكم وجدتم مفصلاً لذلك، وما اعتللتم به من أنكم خفتم أن يصدر منه ما يوجب اعتراضاً وأنكم لا تحبُّون ذلك فليس بشيء، وأيّ ضرر يقع في الوجود إذا اعترض أحد على كلامي، وما كتبت كل ما كتبت وجرى به القدر ونفذ به القضاء إلا وقد جعلته هدفاً للاعتراض ووقوع المطاعن من أصحاب القلوب الصحاح والمراض إن لم يكن ذلك عاجلاً فسيكون لا محالة آجلاً، لكن إن كان ذلك عاجلاً كان نصف الهمّ لأني أعرف بذلك ما لي وما عليّ.

وقولي: نصف الهَمّ، مجاز، إذ ليس عندي من ذلك هَمّ ولا نصف هَمّ ولا ربعه ولا ثُمنه ولا عُشره ولا عُشر عُشره بل أنا مُحبّ في ذلك لما فيه من تكثير الكلام ـ وإن كان من جملة المذام ـ والله تعالى تجاوز عنا بفضله.

ومن أظرف ما رأيت في كتابكم حتى قضيت منه العجب ورأيت أن كتابكم هذا بسببه فاق كل ما كتبتم لي من كتب لما اشتمل عليه من نادرة لا

يقدر أن يتفوَّه بها إلا مَن نشّف دماغه وهج السمائم[1] التي لم تأتِ بعد، وأما لو أتت لا أدري ما الذي كان يكون الحال، وذلك قولكم: حتى أني أودّ لو حفظت عنكم شيئاً من المكاشفات واطلعت عليه من الأخبار بالمغيبات بعد تقرير ما أرتم أن تقرروه من حرصكم على أن لا يكون لأحد ممن يتّصف بصلاح أو علم ذكر معي قصداً منكم بذلك إلى صرف الناس إليّ وأخذهم عني لأنهم لا ينفعلون إلا لذلك، وهذا الكلام منكم يحتمل وجهين:

أحدهما: وليس بظاهر من الكلام، أن لا تعتقدوا ذلك موجوداً عندي ولكن أحببتم أن يوجد ذلك لي وتحفظوه عني من أجل ذلك الغرض، وهذا حسن وغرض صحيح مستقيم لو سلمتم من الجهل بحالي الذي استولى عليكم.

والثاني: أن تعتقد وجود ذلك عندي إلا أنكم جهلتموه فتريدون أن تعرفوه وتحفظوه لتذكروه لغيركم، وهذا الوجه هو ظاهر من كلامكم لأنكم قلتم: لو حفظت عنكم، ولو أردتم الوجه الأول لقلتم: لو وقع منكم وحفظت كذا وكذا، فإن كان هذا مرادكم فقد جهلتم من وجهين:

أحدهما: اعتقادكم أن مقام الولاية لا بد وأن يجري على صاحبها شيء من خوارق العادة على النحو الذي ذكرتم وليس ذلك بلازم فيها، وانظر هذا المعنى عند قول ابن عطاء: ليس كل مَن ثبت تخصيصه كمل تخليصه.

والثاني: اعتقادكم وجود هذا المقام لي، والأوْلى بي أن أسكت ها هنا وأتحامى الكلام عليه لأن كل ما أتكلم به في محاولة إزالة هذا الاعتقاد منك لا تحمله على وجهه ولو بلغ في التحرير والنصوصية كل مبلغ، ولكن لا أحبّ أن أخليكم في هذا الموطن من فائدة من حكاية جرّ إلى ذكرها كلامكم ثم أعقب ذلك بشيء من المزاح معكم بحكاية أحكيها عن نفسي ولو كنتُ حاضراً معكم لاستغنيت عن سَوْق هاتين الحكايتين بصوت ريح مستشنَع يخرج من بين الشفتين لأن ذلك في المألوف بين العامة أبلغ في المعنى المقصود به من كل كلام ملفّق ومنمّق ويكون لي في ذلك أسوة وقدوة بأبي ذرّ رضي الله عنه فإنه

(1) السَّمُوم: الريح الحارَّة والجمع سمائم.

فعل ذلك حين رأى أحد الأمراء يعظ الناس ويتكلم في الزهد وعليه ثياب رقاق وأثر الرفاهية بادٍ عليه.

أما الفائدة فتأخذونها من حكاية كانت قرعت سمعي قبل هذا وهي أن بعض المشايخ رأى منه تلامذته في بعض الأيام نوع بسط وتمام اتساع ووفور قابلية لأن يقول أو يقال له، فقالوا له لما اغتنموا ذلك منه ما معناه: المألوف من حال المشايخ أنهم يتحفون تلامذتهم بتحفة يزداد بها يقينهم وإيمانهم بطريقة مشايخهم وذلك بأن يذكروا لهم شيئاً مما اختصهم به مولاهم من أنواع الكرامات وسني الهبات، وعَدُّوا من ذلك أشياء من نحو الطيران في الهواء والمشي على الماء وإجابة الدعاء، وغير ذلك، ونحن نريد أن تذكر لنا شيئاً مما أكرمك به مولاك وأتحفك واختصك. فلما سمع منهم ذلك أطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال لهم: نعم أنا أخبركم وأتحفكم وأذكر لكم الكرامة التي بها أكرمني والخصوصية التي بها اختصّني، وهي كونه أمهلني ولم يرسل عليّ صاعقة تحرقني أو طوفاناً يغرقني أو يأمر الأرض فتبتلعني، فهذه هي الكرامة التي بها أكرمني والخصوصية التي بها اختصّني، فخذوا ذلك أو دعوه، أو كما قال لهم هذا الشيخ رحمه الله تعالى وجزاه خيراً.

فاسمع هذه الحكاية، فلو كنت شيخاً لقلت لك مثل ما قال هذا الشيخ لكن لا على النحو الذي قاله، وإنما قلت: لا على النحو الذي قاله، لأن لصحة هذه المقالة شروطاً ليس عندي منها شيء أقربها حسن الظن بجميع المسلمين وليس عندي من ذلك إلا أطراف الريش.

وأما المزاح الذي أريد أن أمزح معكم فهو بحكاية أحكيها لكم عن نفسي، وهي أن رجلاً ممن يحسن الظن بي مرض له ابن وابنة في هذه الأيام القريبة وكان يحبّهما حبّاً شديداً، والولد أكثر، فجاء إليّ باكياً شاكياً بإناء فيه ماء ووعاء فيه حنّا برسم أن أرقي له ذلك ليستشفي به لهما، ووصف لي مقدار ما بلغ به وجده عليهما، فأجبته إلى ذلك وفعلت ما طلبه مني، ثم انفصل عني وهو يرى أنه قد حصل على ما طلبه وبلغ القصد الذي رغبه، فلم يكن إلا بياض نهار وإذا به قد جاء إليّ وأخبرني أن ابنته قد ماتت، فحضرت جنازتها،

ثم بعد ذلك بيوم جاء إليّ وأخبرني أن ابنه قد مات، فحضرت جنازته، ثم جاء إليّ بولد كان بقي له أكبر من أخيه وقال لي: خاطرك معه، فدعوت له، فلم يلبث إلا يومين وإذا به قد مرض ثم دخل قبره في اليوم الثالث، وحضرت جنازته.

فهذه صورة من صور الكرامات صدرت مني رضي الإلٰه عني. فإذا أخبرتم أحداً فأخبروه بهذا وما أشبهه، ولو كان عندي شيء مما يخالف هذا لأخبرتكم به ولم أبخل به عليكم. والظاهر من حال ذلك الرجل الذي مات أولاده ببركتي بقاؤه على حُسن الظن بي. ولا تتعجب من ذلك فقد وقع مثل هذا لذلك الرجل الحنفي جاء إليه رجل ذات يوم بابنين له ليدعو لهما بالبركة فرجع إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب، وسأله آخر أن يدعو لمولود وُلِدَ له أن يطول عمره، فجعل عمر المولود أربعين سنة فرجع إلى منزله مسروراً فوجد ابنه يعالج الموت ومات من يومه، ومسح على عيني رجل استشفى بمسجد فابيضت عيناه، ومسح رأس صبيّ فقرع قرعاً فاحشاً وقرع كل مولود وُلد له بعد ذلك، ومع هذا كله لم يمتنع قائلهم من أن يقول في حقه:

كـم آيـة لـك فـيـهـم كالشمس تطلع من غمامة

وأذكرني قوله: «تطلع من غمامة» صاحب الغُمامة الذي رآه في نومه فلان، والمراد منكم أن تقولوا له: يقول لك فلان: قد قال النبي ﷺ: **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»**[1] وأنت يا أخي كان لك فيما خلا من الزمان متبوع تتبعه وتقتدي به ثم خرجت عنه لمّا بدا لك منه فما يؤمنك أن يكون هذا الآخر مثله أو أشَرّ منه، فلا تعتمد على كل ما تراه في المنام، ولا تلتفت إلى أضغاث الأحلام. وتقول العامة: «البيان في الفدّان ولا شرّ في الأندر» وقولي مثله أو

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. . .، حديث رقم (5782) [5/ 2271] ورواه مسلم في صحيحه، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، حديث رقم (2998) [4/ 2295] ورواه غيرهما.

شرّاً منه كلام مطلق لا بد من تقييده لأني أوقفته على حالي قبل حصول النشبة وهو لم يفعل ذلك ولو بعد تحقُّقهما في النسبة، فبهذه الخاصية فضلته ولا فخر، وأستغفر الله العظيم من هذا كله.

***

الرسالة الثامنة والعشرون

وبعد: فقد بلغني كتابكم وقد تعرّفت منه أموراً منها سَوقكم لتلك المسألة التي كان فرضها فلان بنصِّها، ولو فعلتم هذا أولاً لكنتم أرحتوني من الكلام فيها بما تكلمت به ولكنتم أفدتموني فائدة جزيلة بعلم ما لم أكن أعلم من تلك الدقائق والحقائق التي أبداها لنفسه المناظرة له الشيخ الحاتمي رضي الله عنه ومثله يتكلم بذلك الكلام النفيس البديع. وأما كلامي فيها فهو خشني رسمي وأنا فيه بمنزلة الخرّاز الذي يتبع في خرزه الثقب ولا يتجاسر يخرج عنه يميناً ولا شمالاً، والله تعالى يلطف بنا بفضله، لكنني في ذلك الكلام وافقت نفس هذا الشيخ الذي ناظرته، والتوهم الذي توهّمته هو ما توهّمتُه أنا، والاعتراف الذي اعترفت به له أخيراً به اعترفت أنا له، وهذا القدر في حقه كاف شاف والحمد لله.

وأما ما ذكرتم من حال فلان فالتسليم بخلاف الموافقة، وحين لم يصرّح بالموافقة فالتسليم لا ينفع، فتلك المسألة إذاً بقيت عرجاء حتى يسخره الله تعالى فيدعّمها بالموافقة، وتدعيم غيره بدلاً منه لا ينفعني ولا يضرني إلا إن دعّمها فلان، ولكن إذا دعّمها فلان بالضرورة، ولا مطمع في تدعيم فلان فلا مطمع فيما يتبع ذلك، فبقيت المسألة إذاً كما قلت لك من العروجة، ولا قوة إلا بالله.

وأما الكلام الذي محوتموه من كتاب فلان وقيّدتموه عندكم ولم تفلتوه من يدكم حتى تتحققوا عدم صحته. فاعلموا أن الكلام في نفسه صحيح إن تحقق ذلك الشرط الذي اشترطتُه أولاً، وتحقّق ذلك الشرط منا ومن أشبهنا محال في العادة، فإذا لم يتأتَّ تحقُّق هذا الشرط فينا ورأينا ذلك المقصد أجَلّ شيء قدراً وأشرفه خطراً ربما نتشوّف إليه وتسيل لعبتنا عليه ونحدّث أنفسنا

بتحقق ذلك الشرط فينا على وجه الاغترار ويحصل بسبب بقاء، وذلك الكلام مرسوماً من الفساد ما لا مزيد عليه، فرأيت الأوْلى محوه وتعفية أثره، ولعمري إن في كتبكم التي عندكم من تلك المعاني ما لا يحصى كثرة ولكن ما عندي ما أعمل إن قلت لكم امحوها لا يعجبكم مني هذا الصوت، فإن صادفكم هذا وواحد من الصبيان يعرض عليكم أحزابه لا تدرون ما يقول وقد تثور عليكم تلك الأخلاق المباركة فتردُّون غيظ الحمار على «البردع» وإن سكت عن ذلك فيه ما فيه، والله تعالى لا يُحيِّرنا.

وأما ما سألتم عنه من العبارات التي ذكرها سيدنا أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه ونفعنا به، فالأمر فيها قريب. فإن شئتم جعلتموها شيئاً واحداً، وإن شئتم جعلتموها متغايرة مرتّباً بعضها على بعض، وكلام العارفين لا يلزم منه أن يكون مختصراً ولا أن يكون مكرّراً، والظاهر أنها متغايرة مرتّب بعضها على بعض كما ذكرت لك، لأن قطع العلائق أمر متحقق وهو أول، ولا يلزم من حصوله أن ينجمع الهَمّ، ولكن لا يحصل جمع الهَمّ إلا بقطع العلائق، فقطع العلائق أعمّ، وجمع الهَمّ أخصّ، وكذلك مَن انجمع همَّه وانقطع علائقه لا يلزم أن يحضر مع ربّه، ولكن حضوره مع ربِّه لا يتصور إلا بجمع الهمّ وقطع العلائق، فهو أخصّ منهما وهما أعمّ منه، كما يقال قريشي وهاشمي وعلوي، فالقريشي لا يلزم أن يكون هاشمياً، والهاشمي لا يلزم أن يكون علويّاً، والعلوي يلزم أن يكون هاشمياً وقريشياً، والهاشمي يلزم أن يكون قريشياً، وعلى ترتيب تلك الثلاثة الأمور هو سير السالك، لأن أول ما يؤمر به قطع العلائق، بل هو كل المأمور به، فإذا قطع علائقه هداه الله سبيله فيجمع همَّه ويُحضره معه كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: الآية 69] وحال المجذوب شيء آخر.

وأما ما ذكرتم من انصراف همم الناس إلى ما ذكرتم «فالناس على دين الملك» فالله تعالى يُصلح الراعي والرعية ويوفّقهم جميعاً إلى الأعمال المرضية.

الرسالة التاسعة والعشرون

وقد بلغني منكم كتابان اثنان، **أما أحدهما** فبعثت بجوابه مع رجل كان ساق إلينا كتاباً من فلان، **وأما الآخر** فبعثت بجوابه مع أخيكم. فلما كان الآن جاء إليّ الرجل الذي يصل إليكم إن شاء الله تعالى هذا الكتاب على يده، وأظنُّه الرجل الذي كنتم بعثتم معه الكتاب الأول منهما، وطلب مني كتاباً فوعدته به، ورأيت قبيحاً أن يجيء بكتاب ويرجع بلا كتاب، ثم إني طلبت ما الذي أكتب لكم به فلم أجده لأن ذينك الجوابين استوفيت فيهما ما يُحتاج إليه من الكلام، فقلت: اعلم أن تجديد السلام فيه البركة ولا ينبغي لأحد أن يستحقر هذا لما تضمّنه من اسمه الكريم جلّ وعلا، وأسماء الله تعالى يتيمّن بها مقولة باللسان ومرقومة بالبنان ومذكورة بالجنان، أسماء عظيمة كريمة إذا استصحبها أحد كانت له عوذة وتميمة، يستدفع هو بها عن نفسه شر ما خلق ربّ الفلق ويأمَن بها مستصحبها من السرق والغرق والحرق، أسماء حميدة مجيدة إذا انشرح بها صدر عبد أوجبت له أحوالاً سديدة رشيدة من رغبة ورهبة وأنس وهيبة، وقبض وبسط وسكر وصحو، وغيبة وحضور وفناء وبقاء، وغير ذلك من أحوال الأولياء والأصفياء، ثم يترقُّون من ذلك إلى أحوال شريفة توجب لهم الوصول إلى مقامات عالية منيفة، مرجعها إلى شهود التوحيد، والتحقُّق بالتفريد وصفاء التجريد، ولذلك يلهج بذكر أسماء الله تعالى الأحباب، ويُصغي إلى سماعها أرباب الألباب، فإذا تجلّت لهم معانيها لم يكن بينهم وبين المتسمِّي بها حجاب، فعند ذلك تحقّ الحقائق وتتّحد الطرائق وتتسع المضائق ولا يكون هناك شيء من العوائق والعلائق، فليهن صاحب هذا ما حصل له من المُلك الأبدي والعزّ السرمدي، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافِقون: الآية 8] مع قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطِر: الآية 10]. وهذه عبارات مشيرة إلى معنى ما حكاه ابن البنّا عن الصوفية من تمكُّن المذكور ساقها إليك مدبّر الأمور من حيث لا نظنّ ولا تظنّ، فاقتنع بذلك ولا تطمع في الزيادة عليه إذ هو شيء لا حاجة بنا ولا بكم

إليه، ولأن الصمدية جلّت أن يتناولها نعت ووصف، والأحدية تقدّست أن يعبّر عنها بلفظ وحرف، فمَن رام ذلك وقع في الشطط وحصل في مهواه من الخطأ والغلط فسقط بذلك في جملة مَن سقط.

وهذا كله كلام سمح به الخاطر في هذا الزمن الآخر وهو نفس يشبه أنفاس الأكابر، فالعق العسل ولا تسلْ، والحمد لله عزَّ وجل. وهذا الكتاب وإن كان صغير الجرم فهو كبير على التحقيق لما تضمّنه من ذكر الله تعالى والتنبيه على الثناء على أسمائه الحسنى من غير أن نمزج ذلك بشيء من الكلام الغث المتعلق بالأغيار والأكوان.

فكل كمال ليس فيه نقيصة   وكل حديث ليس عنه فمُفترى

ولولاه لم ينطق لساني بذكره   ولولاه لم أسمع ولولاه لم أرَ[1]

واعتبر ما ذكرناه من الصغر والكبر بالبطاقة التي توضع في كفَّة الميزان فترجح بها وتطيش السجلات التي كانت مجعولة في الكفة الأخرى وذلك لما تضمّنته من شهادة التوحيد جعلنا الله تعالى من أهلها في الحال والمآل بمنِّه وكرمه والسلام الذي سيق هذا كله بسببه مُعاد عليكم.

***

الرسالة الثلاثون

وبعد: فقد بلغني كتابكم وتعرفت منه أموراً **منها**: أن فلاناً أخذ في نسخ ذلك الكتاب في حقي، فالله تعالى يجزيه خيراً.

ومنها أنكم ذكرتم أنكم قرأتم ذلك الكتاب الذي فيه الأوجه الثلاثة على رجل لم تسمِّه لي إلا أنكم أثنيتم عليه بالفهم والنبل وأن فلاناً وفلاناً وفلاناً كانوا يثنون عليه، ولو عرفتُ اسم هذا الرجل لكان حسناً.

وقوله لكم حين باس في الكتاب وجاء على خاطره، والله ما كنت إلا

(1) لم أقف على اسم قائل هذين البيتين.

أجد من ذلك في نفسي شيئاً لا سيما ما ذكروا من أنه يتصوّر له على صفة أبويه يهودياً ونصرانياً وأن ذلك بقي في خياله، ليس في كلامي ما ينفيه ولا ما يثبته لأن الذي تكلمت عليه هي الآلام التي تُذكر عند النزع، وما ذكره هو من جملة الطوام[1] التي يُخاف منها إذ ذاك كرؤية ملك الموت على صورة مهولة أو انكشاف الغطاء له بالشقاوة، وليس بين هذا وبين ما ذكرناه من الآلام البدنية مناسبة ولا ارتباط، فلا أدري من أين أخذ هذا من كلامي ولم أستحضره الآن كله في ذهني.

ومنها ما ذكرتم حين رجعتم تأكلون الشعير انقبض خاطركم من أجله لأنكم لم تعتادوه، فالعامة تقول: «يُشرَب الصبر لما هو أمرّ» وأين اليوم مَن يجد الشعير؟ لا يجده إلا أبو فلان، وأما القمح فقد صار من جملة الأدوية التي يصفها الطبيب للمرض.

وقولكم: فإذا اشتدّ عليّ ذلك، أُنظر إلى تلك الحكاية التي فيها، إنما هي فَورة الجوع فما أبالي بأيّ شيء رددتها، كذلك ينبغي أن يكون العاقل، فإن الشبع والتخمة وتخيُّر الأطعمة وانتخابها مضرّة لصاحبها في ثاني حال وأنتم وإن كنتم رجعتم إلى هذه الحالة كرهاً فلعلكم تنقلون إلى أن يكون ذلك طَوْعاً منكم واختياراً كحال ذلك الرجل، وما ذلك على الله بعزيز.

وقولكم: بل أُنظر إلى الطامة الكبرى، وهي الناس ممن هو خير مني بألف ضعف، يموتون جوعاً، فحينئذ أحمد الله وأشكره، هذا حسن منكم لا يسعكم سواه لأنه موافق لما ورد في الحديث: «**انظروا إلى مَن هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[2] وقد حملته أنا على عمومه ـ أعني في أمور الدنيا وفي أمور الدين ـ

---

(1) الطَّامة: الداهية تغلب ما سواها/ والطامة: هي الصيحة التي تطم كل شيء/ والطامة: هي القيامة تطسم على كل شيء/ ويقال للشيء الذي يكثر حتى يعلو قد طمَّ/ وطَمَّ الماء: علا وغمر (لسان العرب).

(2) رواه الترمذي في السنن. . .، باب (58) حديث رقم (2513).

وحمله غيري على أمور الدنيا فقط، والله أعلم بالمصيب في ذلك من المخطىء.

وأما ما سألتم عنه من أمر المعاد وما عندي فيه، فاعلم أن الذي عندي فيه ما كنت أشرت به إليكم من أنه لا ينبغي أن يبحث عنه ولا ينظر فيه، وإنما الواجب أن يعتقد فيه ما نطق به الوحي من وجوده وصفاته وأحواله وتفصيلاته، وأن يؤمن العبد بجميع ذلك إيماناً ساذجاً خالياً من تفتيش وتحقيق وتدقيق. وأما النظر فيه هل هو جسماني أو روحاني أو حسّي أو معنوي فهو من الفضول الذي ينبغي أن يتجنبه أرباب العقول، وحُكم مَن أخذ اليوم فيه عندي أن يكوَى في الدماغ إذ إنما حمله على ذلك ما هو فيه من الراحة والفراغ، ثم إنه لو علم تلك الأعيان وصار علمه بها كالعيان لكان ذلك من العلوم التي لا تنفع، وكل ما لا ينفع علمه لا يضرّ جهله، وبعض ما لا يضرّ جهله قد يضرّ علمه، وإنما العلم النافع بالمعاد وكذلك بكثير مما يتعلق بالاعتقاد أن يعلم ذلك العلم كما قلناه على سبيل الإبهام، ومنفعة العلم بالمعاد إنما هي ما يثيره ذلك العلم للعبد من رجاء وخوف يبعثانه على العمل الصالح والتقوى، والإبهام في إثارة ذينك الأمرين أبلغ من التعيين لأن كل ما يُحيط به فهم الإنسان وعلمه قاصر وبحسب قصوره يقِلّ ما يترتب عليه من التأثير بخلاف ما لم يُحط به علمه، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان 49، 50] أبلغ في إثارة الرجاء والخوف من الآي التي لا تشبهها في الإجمال لأن مغفرته ورحمته وعذابه كلما امتدّ فيها ذهن الإنسان إلى تعيين شيء لم يستتب له ذلك للإبهام الذي فيها، وجوّز وجود ما هو أعلى من ذلك، وظهر لي عند كتب هذا أن الرجاء في هاتين الآيتين الكريمتين أغلب من الخوف من وجهين أظنُّهما زائدين على ما ذكره أئمتنا رضي الله عنهم في ذلك، ولا يبعد أن يكونوا ذكروهما ولم أرهما، أحدهما تقديم آية الرجاء على آية الخوف، وتقديم الشيء يؤذن بالتهمُّم به كما قال سيبويه، والثاني ذكره في آية الرجاء لصفاته العليّة وأسمائه الحسنى، وذكره في آية الخوف فعله فقط وهو عذابه الأليم، وبينهما ما بينهما.

وما ذكرتموه من أنكم لم تقفوا على نص الغزالي فيه، وكذلك أنا لم أقف عليه، وقد ذكر في كتاب «ميزان العمل» شيئاً يبعد أن يؤخذ له منه مذهب في المعاد الروحاني، والله تعالى أعلم.

وقولكم في الكتب الأربعة: لو دفع فيها القناطير. . . إلى آخره، هو نظرك انفردتَ به، ولو عرضتها في آفاق العالم وناديت عليها فيمن يزيد قد لا يُساوي ذلك ولا جميع ما عندكم مني فولة مسوّسة، ولكن لما أقررت بذلك فقد اعترفت بأن عندك قناطير مقنطرة من الياقوت، ومعلوم أن شيئاً من ذلك لم تستغنِ به عن طلب الدين الذي لك قبل زيد وعمرو ولم يدفع ذلك عنك جوعاً ولا حَرّاً ولا برداً ولا أيضاً لاح لك به سر من الأسرار الملكوتية التي يعتمدها بالتشوُّف والتوسُّل والمجاهدة والخلوة والذكر هؤلاء الفقراء المباركون وإنما هو شيء حسن في عينك غاية وجاوزتَ في استحسانه واستملاحه مبلغ النهاية بحيث استحقرت القناطير المقنطرة من الياقوت أن يعطى فيه من غير أن يكون لذلك أصل ولا فصل، بل هو شيء قذف في قلبك من غير كسب ولا جعل، فإذا تقرّر هذا فلتعرف منه أن كل أحد في رأسه ما يلهيه وقيمته عنده مثل القيمة التي فرضها ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 53] فمَن رام صرفه عنه أو تقبيحه له فقد تعاطى أمراً شاقّاً، فلا ينبغي لأحد إذاً أن يُحرق مزاجه في صرف أحد عن شيء زيّن له ولو يكون ما كان من تحقيق أو خُرمان[1]، وليعتمد في ذلك منزعه إن أراد أن يطيب عيشه معه.

وما أحسن المعاملة التي يعامل بها فلان الناس في هذا الزمان، لأجل ذلك لا تكاد تجد أحداً يطلق فيه لسانه بذمّ ولا عيب عكس ما أنا وأنت عليه من ضيق القبح ولا ندري كيف نعيش في هذه الدنيا. فالله تعالى يلطف لنا بلطفه الخفي الذي ما لطف به لأحد إلا عوفي وكفي ولكنا إذا رجعنا إلى الحقيقة رأينا حالنا وحاله صادرين من عين واحدة، فلا أفضلية لمتسع على ضيق ولا مفضولية لضيق على متسع إلا بما فضّل به مولاه أحدهما على الآخر

(1) الخُرْمان: الكذب (القاموس المحيط).

وشيء مما فضّله به لا اطلاع لنا على كنهه، وقد لا يكون لنا شعور به، ولذلك نجد أفسق الفاسقين الذي تشمئزّ منه نفوس العالمين تكون فيه خاصية محمودة لو وزنتْ بالياقوت لوزنتها، فما ظنّك بمَن هو فوقه في الحال المحمود، ولعل بتلك الخاصية يستوجب من الله تعالى المنزلة العالية ويغتفر له بسببها كل حالة رديّة.

وإنما سقت لك هذا الكلام كله لنصادف قلبك ساكناً ونفسك هادنة إذا ذكرتُ لك حالي مع فلان حين جاء إلى هنا، ولتعلم من ذلك أني في سوق المعاني وربط بعضها ببعض صانع ـ وكل طريق ينفذ إلى الجامع ـ ونعني بهذا ما قدّمنا ذكره من أن كل أحد عند نفسه جزء لا يتجزأ، ولعلك ترى قولي: إذا ذكرت لك حالي مع فلان، فتحدّث نفسك بأنه كانت بيني وبينه حالات ومرنّات، كلا لم يكن شيء من ذلك، وإنما الرجل جاء إلى هنا وبقي يومين أو ثلاثة ولم ألتقِ معه ولم يلتقِ معي. أما عدم التقائه معي فهو الوجه لأنه قادم، والقادم له حق في أن يُجاء إليه، وأما عدم التقائي معه فلا أعلم له سبباً معتبراً إلا [الزبلحة][1] والوقوف مع حظ النفس، ولا أدري ما الذي يؤول إليه ذلك بي، والله تعالى يتجاوز عني برحمته.

وقولكم: وقد كشفتم عوار المقرئين في هذه الأزمنة، صحيح عندي أنه عوار ما ذكرت لك ولكن لا أظن يوافقني على ذلك إلا أنت، ولم تخبرني هل وافق عليه فلان أم لا؟ فإن اتفق أن يوافق عليه فلا أبالي بعد موافقته مَن خالف فيها، والثلاثة الأثافي[2] عليها يستقيم وضع القدر، ولا حاجة في ذلك إلى الرابع ولا خامس لأن المقصود قد حصل.

وأما ما ذكرتم من تكاسلكم عن الدعاء بسبب نظركم إلى القضاء والقدر وأن الدعاء لا يزيد ولا ينقص، فهو قصور منكم وجهل، لأن الدعاء من جمل

(1) الزبلحة: كذا بالأصل ولم يظهر لي المعنى.

(2) الأُثفية والإثفية: الحجر الذي توضع عليه القدر وجمعها أثافي وأثافٍ: الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها. (لسان العرب).

الأسباب التي أجرى الله تعالى سنَّته بترتُّب المسبّبات عليها من غير أن يكون لشيء منها فعل أو جعل، فمَن أكل الخبز شبع ومَن شرب الماء روى ومَن جلس في المسيد[1] من الظلام إلى الظلام أو تردّد إلى القاضي في التداعي والخصام ربما يحصل في يده ما يكون فيه قوام أوده، وكذلك مَن دعا في شيء استجيب له، وهذه كلها أمور عادية متساوية في السببية، وقد قال بعض العلماء في قول مَن قال: أجلّ ما أكل الرجل من كسب يده، أنَّ كسب يده هو رفعها إلى الله تعالى بالدعاء عند الفاقة والحاجة، فإذا كان هذا كله أسلوباً واحداً فلأي شيء تفعلون البعض دون البعض؟

وقولكم: ربما أتغافل وآخذ في الدعاء لكونه إظهاراً للعبودية، فلا أدري أيّ شيء تعتقده في وجه كون الدعاء إظهاراً للعبودية، فإن كنت تعتقد فيه أن تكون في حال دعائك مفوّضاً متوكّلاً لا أرب لك في استجلاب شيء على وفق دعائك، إذ لا يكون القدر نفذ به، وإنما تأتي بالدعاء لأنه عبادة في نفسه، فذلك اعتقاد غير مستقيم، لأن فيه من الدعوى ما لا يخفى، وإن اعتقدت في وجه ذلك أن تكون في حال دعائك طالباً منه شيئاً رأيت أن لك فيه مصلحة من غير أن تدّعي استغناء عن ذلك ولا سخاوة نفس به ومن غير أن ترى دعاءك سبباً مُوجباً لحصول ذلك الشيء المطلوب دون الحكم الأزلي، فهو اعتقاد مستقيم سالم من الدعوى، وتكون في دعائك هذا الذي صحبه طلب المآرب والحاجات مظهراً للعبودية لا سبيل لك في إظهارها سوى هذا، إذ بذلك يعرف أنك لم تستغنِ عن مولاك بحال لأن الله تعالى لمّا ركّبك تركيباً يحوجك إلى لقمة تأكلها وشربة تشربها وبرغوث تصرف عنك أذاه وفأر تدفع عنك ضرره وعدواه، اقتضى منك عند وجود هذا كله أن تدعوه وتتضرع إليه وتلحّ في مسألته ليصرف عنك ما أهمّك من ذلك، بل لمّا خلقك وأهّلك لأن تكون ملكاً في الآخرة تقول للشيء كن فيكون، وتكون من القرب منه والدنو بحال لا يصفه الواصفون ولا يعبّر عنه المعبِّرون، ولم يكن لك إلى التوصل إلى ذلك

(1) مَسْيد: لغة في مسجد (تاج العروس).

والتشاغل بأسبابه حيلة ولا قوة إلا به، اقتضى منك أن تسأله ذلك وترغب إليه فيه ليعينك على ركعة تنقرها وفعلة حسنة تبتدرها، وتكون في دعائك في هذين الأمرين ـ أعني الدنيوي والأخروي ـ وإلحاحك ومبالغتك فيه مطيعاً لله تعالى ومتعبِّداً له بذلك وموافقاً لمرضاته ومُظهراً للعبودية وقائماً بحقوق الربوبية، ولا ينافي ذلك أن تكون مفوّضاً متوكّلاً راضياً، كما لا ينافي ذلك التسبُّب والتكسُّب، ومحال أن يكون العبد في حال تسبُّبه وتكسُّبه لا محبة له ولا مَيْل إلى ذلك الشيء الذي يطلبه ويستجلبه ولكن لا عبرة بذلك إلا إذا تغيّر قلبه واضطرب وتشوّش عند عدم إفضاء سببه إلى مطلبه فعند ذلك يظهر أنه كان مفلساً من تلك المقامات العليّة، وأما إذا كان لا يتغيّر قلبه ولا يضطرب ولا يتشوّش عند عدم ما ذكرناه فهو حائز لتلك المقامات العلية، ولو أخذ الدنيا في صدره تكسُّباً وطلباً بالكلية، وكذلك لو ألحّ في الدعاء والسؤال وطلب الحاجات والنوال، وقد قال النبي ﷺ في بعض دعائه: «**أسألك الرضى بعد القضاء**»(1) أو كما قال ﷺ، فمقتضى هذا أن الرضى بعد القضاء هو الحال المطلوب، وأما قبل وقوع القضاء فالجزع منه لا يضر لأنه من مقتضى الجبلّة التي تكره وقوع البلوى، والرضى به لا ينفع لأنه حديث نفس ومجرد دعوى.

فإن قيل: إذا كان العبد محبّاً فيما يحصل له بتكسُّبه وتسبُّبه ودعائه وطلبه، ولا شك أنه إذا لم يحصل له ذلك ينقلب حبُّه بغضاً، لأن محبّة وجود الشيء مقتضية للبغض لعدمه، فكيف يستتب لك هذا؟ فأقول: ذلك صحيح ولكن ذلك أول ما يفجأه بمقتضى الطبع ولا يلبث ذلك أن يذهب ويزول بما يكرّ عليه من جنود إيمانه ويقينه ومعرفته فيهزم ذلك، وهو بمنزلة الطائف الذي ينهزم بالتذكير في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١**﴾ [الأعراف: الآية 201] ولم يقل لا يمسهم ذلك أو لا يصيبهم، كيف والبشرية للإنسان أمر ذاتي لا يفارق، ومن شأنها التألُّم والتأثُّر، قال الله عزَّ وجل: ﴿**وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا**

(1) رواه الطبراني في الكبير، عن زيد بن ثابت، حديث رقم (4803) [5/ 119].

تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: الآية 104] فلم يحكم لهم بعدم التألُّم عند نزول البلاء ولكن حكم لهم بكون ذلك الألم مغموراً بقوة الرجاء ولم يكلّف الله تعالى عباده أن يكونوا في أجسادهم مثل الحديد لا يتأثرون ولا يتغيرون، كيف والأنبياء عليهم السلام والأولياء لم يخرجوا عن حكم بشريتهم في أكثر أحوالهم بل أصابتهم الآلام القوية وضروب الآفات البدنية وتغيّروا بها وتأثروا، وناهيك بما أصيب به سيدهم وخيرتهم يوم أُحُد، بل ما جرى له من سفهاء أهل الطائف حين عرض نفسه عليهم ثم انصرف عنهم آيساً من إجابتهم من الاستهانة والاستصغار والرجم بالإحجار حتى قال حين أوى إلى ذلك الحائط: «**اللهمَّ إليك أشكو ضعفي وقوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس**»[1] إلى آخر الدعاء. وروي أنه لما أصيب بما أصيب به يوم أُحُد أنشد هذا البيت، أظنُّه من قول طَرَفَة ابن العبد:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهنّد

ولكن لما كان ذلك مغموراً ومقهوراً ومغلوباً بما كانوا فيه من المشاهدات السنية والمقامات العلية لم يضرّهم الإحساس بذلك ولا وجود التأثُّر به حبّة ولا خردلة لأن كراهيتهم لذلك قد اندفعت بما ذكرناه بل زادهم ذلك في حال العبودية ومقام الفقر قوةً ورسوخاً، ولستُ أوجب أن لا ينفكُّوا من وجود الآلام في كل حال بل قد يكونوا في بعض الأحوال لا يتأثرون بألم وإن كانوا من لحم ودم، ويكون هذا من جملة الكرامات التي يُكرمون بها كما يصيب أهل الحال والوجد فقد يبلغ بعضهم من قوة الوجد أن يضرب بالسيف في وجهه ولا يحسّ بذلك، وقد حكى مثل هذا الجنيد عن السري رضي الله عنهما واستنكره ثم بان له صحّته. وكما جرى لحسين بن منصور فإنه ذكر أنه كان تقطع أطرافه ولم تتغيّر منه شعرة، وقد يصرف الله تعالى الآلام عن بعض الناس بلطيفة يخلقها لهم، فقد حكى الشيخ [الأكبر] محيي الدين بن عربي في

(1) رواه الطبراني في الدعاء، باب الدعاء عند الكرب والشدائد، حديث رقم (1036) [1/ 315].

بعض كتبه قال: «رأيت فاطمة بنت التاج بمكة وقد أخذها أبوها يؤدّبها لأمر طرأ اتّهمها فيه فضربها عصياً كثيرة وهي ما عندها خبر بشيء من ذلك، فقالت: إنه لما ربطني والدي وأخذ يضربني أحسست بشيء رمى نفسه عليّ وعانقني فكانت العصا تنزل في ظهر ذلك الذي لبسني وأسمع وقع العصا ولا أحسّ بشيء منها في ظهري فكنت أضحك تعجُّباً من ذلك» ولكن هذه الأحوال وإن جلّت، والمواجد وإن عظمت وقلّت، فلا تقتضي أفضليتها للحال المألوفة المعتادة التي ذكرناها.

فهذا ما ظهر لي في كيفية الدعاء لإظهار العبودية والقيام بحقوق الربوبية فنزل عليه كلام ابن عطاء فهو عندي الحق الذي ليس عليه غطاء وليس بمستبعد أن يخالفني فيما قلته من التحقيق المترسّمون من أهل هذه الطريق ولا ينكر منهم وجود الإعراض لأنهم لم يروا إلا سواداً في بياض من غير أن يعرفوا له معنى أو يعتقدوا له أصلاً ومبنى، وأما غيرهم من أهل الظاهر فقد يوافقون عليه ولا يصلون بقدح ولا إعراض إليه.

وقولكم: وهذا خفت منه أن يكون طرداً لي عن الباب لكثافة الحجاب، فلستَ بمجرد ترك الدعاء مطروداً ولا محجوباً ولكن الجهل بهذه المعاني ربما يكون سبباً في ذلك، فإذا عرفتها الآن فقد فتح لك الباب ورفع عنك الحجاب فادخل وتفرّج ولا تنصرف عنه ولا تعرج، ولتستكثر من الدعاء والسؤال حتى في الأمور التي ليس لها بال كما قال: «**سلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك**»[1] وافعل في مطالبك كلها كما كنت تفعله حين كنت تدعو على فلان بالإلحاح والتطويل، وتجعل ذلك بين الصفحة والمنديل، ولكن إذا فعلت ذلك في أمر تبين لك فيه صلاح وسداد، فلتكن حينئذ مجتنباً سيّىء العمل والاعتقاد، أما سوء العمل فأن تكون عند عدم إجابة الله إياك فيما طلبته منه متشوّشاً مضطرباً، وأما سوء الاعتقاد فهو أن ترى الدعاء منك سبباً موجباً، فإذا سلّمت في دعائك من هذين المحذورين، فادعُ بما أحببت حتى ما تتغذى به

(1) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [1/ 225].

وما تتعشّى، وقرّ عيناً بما إليه ذهبت فإنك لا تخاف في ذلك دركاً ولا تخشى، والله تعالى أعلم.

وقولكم: لأن حالي في هذا الوقت ملفّق جداً لم أتفرّغ لقراءة حرف من كتاب الله ولم أزِد على الفرض شيئاً مع كونه للعقوبة أقرب، بل أحق وأوجب، فهو كلام لا يساوي سماعه وليس له رقاعة إلا بضميمة ودعامة، وليت شعري أيّ وقت ترى حالك فيه غير ملفّق وأن الفرض الذي تأتي به أنت بسببه للعقوبة غير مستحق، لعمري إذا جاء ذلك الوقت لتُبتلى فيه بطامة كبرى ولا تبكي فيه حزينة مع أخرى.

وأما ما استشرتموني فيه من عرض ما ذكرتم على فلان وأن فلاناً لم يوافقكم على ذلك، فاعملوا إن شاء الله على ذلك إذ لا خير في شيء لا يوافق عليه، مع أنه أعلم بحال ذلك الرجل منكم، وقد كنتُ ذكرت لكم السبيل في عرض كلامي على الناس فالزموا ذلك واعملوا عليه، والله الموفق.

وبعد أن كتبت هذا ورد عليَّ منكم كتاب على وفق الخاطر من جهة الاستيفاء ولكن لم يجيء على الخاطر مما فهمت منه من عدم حصولك من مرضك بسبب ما أنا أعانيه وأكابده على الراحة والشفاء. أما الاستيفاء فلم تدع فيه لقائل ما يقول، وأما عدم حصولك على الشفاء فلا بد لنا من قبل من أن نتكلم فيه بكلام معقول مقبول كما شاء الله تعالى وحكَم، وذلك أنك لما حكيت في جملة ما حكيت تلك المسائل القبيحة ناقلاً لها عما أملاه عليك فلان عقبتها بقولك: ولولا مقاربة الدخول في المضمار ـ والله أعلم ـ ما وسعني أن أكتب شيئاً في ذلك، وفهمت أن المضمار المعنِي لي أن تكون نفسك عندك لا تبالي بها على أيّ حالة تكون، فلا تُناضل عنها ولا تسعى فيما فيه فائدتها ومنفعتها، ولا تفرق فيما ينالها من خير أو شرّ أو سعادة أو شقاوة. فلما كان عندك هذا هو المضمار استحللت بسببه أن تسوق تلك الحكايات التي لا يجوز لك سوقانها، واستحللت أيضاً أن تقول في كل ما أنبّهك على خطئك فيه: الحمد لله الذي أمضى قدره فيَّ، ومَن أنا حتى أكون لذلك أهلاً؟ وتقول حين حكيت قولي بعد أن كنتُ متشوّفاً إلى أن يرد عليّ ما يسرُّني فأبى الله

ذلك: الحمد لله الذي أظهر ما سبق من قدره وإرادته فيّ، ومَن مثلي في الوجود إذا ظهر لي أني محل لنفوذ قضاء الإلٰه المعبود؟

وقولك: إذا لم أشمّ منه رائحة أيّ شيء يقع في الوجود، وإنما المقصود أن ينفذ ما سبق من القضاء، ويظهر ما سُطر في أمّ الكتاب من سعادة أو شقاوة وما أشبه هذا من الكلمات، فكان حالك معي في هذا كله كما تقوله العامة: «من أين ما ضربتَ له وتد يعلّق لك مخلا» وقد ظهر لي فرقان عظيم بين حالك الآن وحالك الذي ذكرته في الكتاب الذي تقدّم لنا في هذه الأوراق الجواب عليه، فإن كان حمدك وشكرك على تلك الحالات المكروهات مع كراهتك لها ونفور طبعك عنها وتمنِّيك أن لم تكن عليها فقد يكون ذلك صحيحاً والأمر فيه قريب، وقد كان لرسول الله ﷺ حمدان معروفان، إذا أصابه ما يكره قال: «**الحمد لله على كل حال**»[1] وإذا أصابه ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات**» أو كلاماً هذا معناه.

والظاهر أن هذا المعنى هو الذي قصدتَ ولكن لم تفصح عنه بكلامك، وإن كان حمدك وشكرك على تلك الحالات المكروهات مع عدم كراهيتك لها وعدم نفور طبعك عنها وعدم محبتك أن لا تكون عليها أو تشوّفت إلى أن يحصل لك عدم الكراهية والنفور والتمنِّي لأن لا تكون عليها كما هو ظاهر كلامك، فقد أخطأت في ذلك غاية الخطأ. إلا أن التكلُّم على هذه الحالة يستدعي طولاً كثيراً ولكنا نجتهد في تحريره بأقصى ما يمكننا الآن، ويكون مع تحريره واختصاره مفهوماً قريب المرام ممن أصغى إليه بقلبه ولبِّه وتأمل كل حرف منه ولا يأخذه جزافاً ولا يعتقد أن فيه لغواً ولا حشواً، فإن هذا ليس من شأني في كل ما أقصدك به من بيان، والله المستعان.

ونبدأ أولاً بالقصد إلى غلبتك وإفحامك، ثم نرجع ثانياً إلى بيان خطئك

---

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور وقال: وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الأمر يسره قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال. (الدر المنثور، سورة التوبة (112) التائبون العابدون [4/ 297].

في إقدامك وإحجامك بعون الله تعالى وقوته، **فنقول**: إن قلت لي ها هنا: وأيّ شيء يقع في الوجود إذا أخطأتُ فيما ذكرت وتجري على سننك المتقدم، أقول لك: لو سكتُّ ها هنا وطويتُ الكتاب وبعثت به إليك بلا زيادة عليه فأنت حينئذ بين أمور ثلاثة: إما أن ترضى بسكوتي ها هنا وبما نبهتُك عليه من الخطأ وتسلك المسلك الذي سلكت في تلك الكلمات، وإما أن تتشوّف إلى مزيد كلام وترضى بخطئك، وإما أن تتشوّف إلى مزيد كلام على ما ذكرت ولا ترضى بخطئك، فهذه ثلاثة أوجه لا زائد عليها فاعلمها.

فأما **الحال الأولى** فلا أقدّر أنك توافق عليها مع أنها موافقة لمذهبك فمن أين جاء هذا الفرقان، وليس رضاك بدخول جهنّم بأقرب من رضاك بسكوتي عن الزيادة على التكلُّم واستمرارك على الخطأ المتقدّم، فتبيَّن بهذا أن حالك الآن أنك غالط في رضاك بغلطك إذ لو كنتَ فيه مصيباً لجرى الباب مجرًى واحداً.

فإن قلت: أرضى بهذا الحال وأجري فيه على منزعي وأستمرّ على مذهبي، فإذا قلت لي هذا القول لا يسعني أن أقول لك إلا ابقَ بالعافية لأنك حين رضيت بغلطك وسكوتي عن بيان غلطك لم يبقَ فائدة لكتاب ولا سؤال ولا جواب واسترحتُ منك واسترحتَ مني، ومعلوم أنك لا ترضى بهذا ولو ضُرِبتَ بالقطوط الميتة، فظهر أنه لا بدّ لك ها هنا من التوبة من ذلك المذهب، ثم إنك لا بد لك من أن تنتقل إما إلى الحالة الثانية أو الثالثة. أما الانتقال إلى الحالة الثانية فلا وجه له، وفيها من التناقض ما لا يخفى ويجري الكلام عليها مجرى الكلام على الأولى، وأيّ فرق بين رضاك بالخطأ وبين رضاك بأن لا يقع مني لك كلام، لأنك إنما رضيت بالخطأ من حيث هو قضاء من الله تعالى وقدر وكنت أنت أهلاً له ومحلاً، وكذلك يلزم في الحالة التي لم ترضها، فإن التزمت هذا جرى ها هنا الكلام كله الذي وقع منا على الحالة الأولى، وإن لم تلتزم هذا وتعتقد غباوتك في هذه التفرقة وتصر عليها وتطالبني بالكلام الذي ارتقبته مني فإني أقول لك: يا أخي لا تطلب مني شيئاً يُتعبُني بلا فائدة تستفيدها هي عندي فائدة لأني إنما أريد بكلامي كله أن أصرفك عن الخطأ ولا

تسمح نفسي أن أصرفك عما أنت به راض. فإن انفحمتَ ها هنا ورأيت هذا لازماً لك طوق حمام لزمك أن تتوب أيضاً من هذا المذهب. فيتعيّن عليك حينئذ الانتقال إلى الحالة الثالثة، وهي أن لا ترضى بخطئك ولا بسكوتي، وهذه الحال هي الحاصلة منك، ولكنّا قدّرنا ما ذكرناه من الانتقال إلى كذا أو إلى كذا على ما اقتضاه كلامك الذي أخذنا منه مذهبك، فظهر من هذا أن كلامك كله هراء لم تعبّر به عن حالة ثابتة راسخة فيك، وأن سائر أقوالك التي ذكرناها عنك حين قلت: الحمد لله على كذا الحمد لله على كذا. . . إلى آخره، قشار في نخال لا يتحصل له معنى بحال، وأنك متوغّل وراسخ في الحالة الثالثة وإن لم تشعر بذلك من نفسك وهي الحالة التي لا يخلو عنها عاقل لم يصطلم بالوجود ولم يغب في الشهود.

فإذا اعترفت بهذا لزمني أن أبيِّن لك كيف تكون في المضمار مع كونك عليها ـ أعني على هذه الحالة الثالثة ـ ولنفرض ذلك في مسألة مخصوصة لئلا يتشعب الكلام، وهي ما وقع منك من أنك لا تسمح بذرّة للمساكين مما عندك. فنقول: الوجه أن تعترف بأن هذه علة فيك لأنك تعلم أنها غير مرضية في الشرع، فإذا اعترفت بذلك فلا بدّ لك من معاناة زوالها عنك، فإن سمحت نفسك بمعاناتها وسخت بذلك فلا كلام، وإن لم تسمح ولم تسخَ فلا بدّ لك من أن تنكرب لذلك لأنا فرضنا أنك باق في مقام أنك تحب وتبغض، وكربك هذا إنما هو لكونك على تلك العلة، ثم إن كربك على تلك العلة إما أن تعتبره بالنظر إلى الماضي أو النظر إلى المستقبل، فإن اعتبرته بالنظر إلى الماضي وتقول: يا ويلي انقطع عليَّ زمان وأنا بتلك العلة مبلي، فيقال لك: ما مضى فات، فالكرب لأجله لا وجه له، والحب والبغض المتعلقان بالماضي لا فائدة لهما، فالكرب والحب والبغض في هذا الوجه ينبغي للعبد أن ينفيه عن نفسه ما استطاع، فإذا نفاه عن نفسه لا يدّعي فيه فيقول بلسان حاله: الكرب زال عني والحب والبغض ليسا عندي ولكن يظهر التشوُّف إليه والتمنِّي له لأن هذا هو المناسب لحال العبد، ومعلوم أنه إذا نفاه عن نفسه فانتفى يكون في محاولة ما ينفي به وجود الدعوى عنه مكلَّفاً بحيث لا يثيره عليه وجد ولا تحمله عليه

قريحة وجد، فإذا ثار قلب الإنسان بشكوى كرب يكون على ما مضى، لا يدل هذا على أنه محاول بذلك البراءة من الدعوى، لأن ثوران القلب على خلاف مقتضى البراءة كما قلناه، وهو حالك في أكثر شكاويك التي تقدمت على خلاف مقتضى البراءة كما قلناه، وهو حالك في أكثر شكاويك التي تقدمت لك في كتبك كلها إليّ إن كانت متعلقة بالماضي، وكنتَ فيها غير جاء في المضمار من جهة كونك انكربت على شيء مضى وفات، وإن قدّرنا أنه انتفى عنك الكرب لم يدّل ما أبديتَه من الشكوى على نفي الدعوى لأنها خرجت من صميم القلب وكان حقها إذ ذاك أن تكون من فوق فوق وشيء من هذا لم يقع منك.

فإن قلت: أراك حكمت بحسن انتفاء الكرب من أمور كانت في الماضي وأطلقته ولم تقيّده كما قيّده الإمام الغزالي، فإنه ذكر حال العبد التائب الباكي على ذنوبه السالفة ومثَّله بالذي يحتاج إلى جواز ماء غمر عليه جسر فيعمد هذا الرجل إلى تخريب هذا الجسر فيخربه ثم يُلجئه الحال إلى جواز ذلك الماء فيجوزه بعد اللتّيا والتي، فإذا جاوزه وقد عاين ما كابده من الشدائد والمشقات في جوازه أقبل يبكي على تخريبه لذلك الجسر فقال ها هنا الإمام الغزالي ما معناه: إن لم يكن أمامه جسر آخر يخاف أن تدعوه نفسه إلى تخريبه فلا وجه لتشاغله بالبكاء على أمر قد فات بلا فائدة، وإن كان أمامه جسر آخر فإنه يستحسن منه ذلك ليبقى الحزن والخوف ملازمَين له فيكون ذلك مانعاً من أن تدعوه نفسه لتخريب جسر آخر فيلقى من العناء والتعب إذ ذاك ما كان لقيه قبل، فتكون هذه فائدة بكائه، وإن كان هذا البكاء على أمرٍ قد مضى، وإلى هذا المعنى تشير المسألة المفروضة عندهم في نسيان الذنوب وتذكرها، وأظنّ هذا الذي ذكرته ها هنا هو معنى ما ذكره الغزالي، ولي سنين ودهور لم أطالع ذلك ولم تمكني معاودة النظر فيه إذ لم يحضرني الكتاب الذي ذكره فيه.

فأقول: لا وجه لهذ التفرقة وهي عين الدعوى لأنه جعل معتمد أمره في بكائه أن يصاحبه الحزن والخوف فيمنعه ذلك من تخريب الجسر الذي أمامه، وهذه دعوى لأنه شاهد فعل نفسه في تسببه إلى أن لا يخرب الجسر مرة أخرى، وهلّا جعل معتمد أمره اللجاء والافتقار إلى الله تعالى وإلقائه باليد

عجزاً وضعفاً، فإذا كان معتمد أمره هذا كان الآخر بحسب التبع ـ أعني رؤية فعل نفسه ـ فلا يقع في بكائه كل المبالغة لأن ما يقع له من هذا الجنس إنما ينبغي أن يكون قصده به أن ينفي عن نفسه دعوى الافتقار والاضطرار فلا يكون له فيه اجتهاد ولا بدار كما ذكرناه، ولكن القصد إلى نفي هذه الدعوى بما ذكرناه إنما يكون مع السعة وعدم استحثاث الركب في المسير، وأما إذا كان الوقت ضيّقاً وخشي فوات القافلة فلا وجه لتشاغله بالبكاء مطلقاً فليلغِ ذلك وليأخذ مِزوَده[1] على عنقه وليمضِ ولا يعرج على شيء. فهذا هو الذي حملني على عدم تقييد كلامي كما قيّده الغزالي رحمه الله تعالى.

فإن قلت: فالكرب على ما مضى لو لم يكن مستحسناً مطلوباً لم يلحق الأنبياء والأولياء وإلا فلماذا بكوا وصاحوا وناحوا على وجه لم يقصدوا به نفي الدعوى عنهم كما ذكرناه؟ فأقول: يتعيّن علينا أن نجيب عن هذا السؤال بما ذكره الإمام الغزالي رحمه الله، ونقول في تقريره على ما كان حصل في ذهني منه: الأنبياء والأولياء أقيموا مقام الإمامة والاقتداء، ومن شأن الأقوياء أن يسيروا بسَير الضعفاء ـ فلو لم يجرِ على ظواهرهم ذلك ـ بل كانوا راضين بما وقع ساكنين من حيث لا يقلقهم خوف ولا فزع، لرأى ذلك أتباعهم منهم فلم يحملوه على وجهه ولم يحيطوا علماً بكنهه فيضعوا البكاء في غير محله فيهلكوا. وقد يمثّل هذا بالمعزم الحاذق الماهر بأخذ الحيّة وتناولها إذ ينفر عنها ويهرب منها وإنما يفعل ذلك لئلا يراه ولده يأخذها فيأخذها هو فتُهلكه، وهذا الوجه الذي ذكر معناه الغزالي حسن محتمل أن يكون، ومَن قدر أن يستنبط وجهاً غيره فشأنه وإياه. فهذا كله كلام على الوجه الأول وهو كربك على كونك على تلك العلة المذكورة في الزمان الماضي.

وأما الوجه الثاني وهو كربك على كونك على تلك العلة في الزمان المستقبل، فهو كرب صحيح مطلوب كون العبد عليه، لأنه يفيده ذلك الكرب نشاطاً وحسن عون على معاناة تلك العلة، وكلما اشتدّ الكرب عظمت الفائدة

---

(1) المزود: وعاء يوضع فيه الزاد. (غريب الحديث لأبي إسحاق الحربي).

بذلك، وهو حاصل عن مقام الخوف الذي هو محمود في الدين والشرع، وهو الذي يثاب عليه العبد بالجنّتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه الكريم، نعم قد يخفّ هذا الكرب بأمر وهو حسن ظنّه بالله سبحانه أن لا يدعه وتلك العلة، بل يرجو منه أن يعينه ويقوّيه على عمل يكون منه في معاناة تلك العلة حتى يبرأ منها.

وأما عمله هو بمجرده فلا يعتمده ولا يلتفت إليه، وإذا لم يعتمده ولم يلتفت إليه لا يجد له في نفسه ثقلاً بل يتوهمه هيِّناً سهلاً، فمن هذا الوجه يخفّ الكرب عليه بعض الخفة وتكون هذه الخفة محمودة لا مضرّة عليه فيها أصلاً، وأما إذا خفت الكرب أو انتفى بالكلية فلا خير في هذا لأن ذلك علامة على الاستحقار للطاعة والتهاون بالمعصية، ثم يؤول به هذا الحال السيىء إلى حال الإباحة والترخُّص واعتقاده انتفاء التكليف بنوع تأويل فاسد، وهذا خروج من الدين ـ والعياذ بالله ـ فإن ادعيت أن سبب انتفاء هذا الكرب عنك إنما هو شهود التوحيد وأنه نوع نضال عن النفس وحرص على استجلاب الحظوظ لها، فدعواك هذه باطلة ومشاهدتك ملفقة لما قدمناه من كونك لم تنفكّ عن الحب والبغض، وإلا فلأي شيء لم تشاهد التوحيد ولم تناضل عن النفس ولم تحرص على طلب استجلاب الحظوظ لها في لقمة أو حبّة إذا احتجت إليها، ومعلوم أن عدم سماحتك بذلك لم يكن إلا لحظك، فليكن لحظك أيضاً ما تسامحت به في جانب الدين ويكون المعين لك على هذا التسامح نوعاً من الغرور بادعاء المشاهدة التي تأيّدت بالمعرفة بزعمك ويعينك عليه أيضاً ضعف الإيمان بالوعد والوعيد والحشر والنشر، وهذه حالة مرذولة ناقضة للشريعة والحقيقة جميعاً. أما مناقضتها للشريعة فبيِّن، وأما مناقضتها للحقيقة فإنك رأيت هذا الرأي واستحسنته واستصوبته واعتمدت عليه، وهل هلك مَن هلك إلا بمثل هذا؟ كيف ورائحة من هذا تباين الحقيقة المباينة التامة، فإن الحقيقة عبارة عن معنى يقتضي أن لا يكون للعبد وعلومه وفهومه وجميع صفاته وجود، ولا يوافق هذا المعنى إلا الشرائع التي جاءت بها الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأنهم جاؤوا بأشياء تهتدي العقول إليها وأشياء لا تهتدي

العقول إليها وهي جملة واحدة تعبّد بها العباد ووحدتها هي التي أبطلت الآراء والتعقلات بأسرها لأن الشيء المتعقّل والشيء الغير متعقّل إذا فرضناهما شيئاً واحداً كان ذلك الشيء لا متعقلاً ولا غير متعقل فكان شيئاً خارجاً عنهما، وإذا كان شيئاً خارجاً عنهما لم يكن للعبد إذ ذاك وعلومه وفهومه وجود ألبتة، فيكون أشبه شيء بالأعمى الذي يقاد ويساق ولا معنى للحقيقة إلا هذا. فالشريعة هي الحقيقة والحقيقة هي الشريعة، فمَن خالف الشريعة خالف الحقيقة ومَن خالف الحقيقة خالف الشريعة، ولولا ما رحم الله تعالى لعباده ببعثه الرسل والأنبياء ليهدوهم إلى الحقيقة بما بيّنوا لهم من الشريعة لتاهوا في ظلمات الآراء كما وقع لمَن لم يقتدِ بشرائع الأنبياء. قال الله تعالى في معنى اتحاد الشريعة والحقيقة، والله تعالى أعلم بما يُنزّل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10]، وقال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّساء: الآية 80] وما أحسن ما قاله في هذا المعنى الجمعي جعفر ابن محمد الصادق رضي الله عنه: «علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته فعرّفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقاً من جنسهم في الصورة ألبسه من نعته الرأفة والرحمة وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّساء: الآية 80]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية 107] وقد سئل عبد الله بن عمر رضي الله عنه فقيل له: يا أبا عبد الرحمٰن إنّا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر؟ فقال ابن عمر: إن الله بعث إلينا محمداً ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأيناه يفعل. إلى غير هذا مما ذكره، والتشاغل به تشاغل بما هو معلوم، فالواجب على العبد أن يكون أعمى أصمّ لا يرى إلا ما أراه الشرع ولا يسمع إلا ما أسمعه الشرع، وفي معناهما القلب واللسان وسائر الجوارح والأركان، ويكون حاله كحال ذلك الرجل الذي قيل له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فقال: نعم، فقيل له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ فقال: لا أسمع.

والعجب من هؤلاء الناس الذين فرّقوا الدين وجزّؤوه عِضين فجعلوه فقهاً

وتصوُّفاً وظاهراً وباطناً وشريعة وحقيقة، فأوجب هذا التجزيء والتبعيض لأهل قصور النظر أن يتشاغل كل واحد منهم ببعضه دون البعض الآخر متّبعاً في ذلك هواه وما رآه. فإذا أمعن في ذلك واستحلاه قال: ليس ثَمّ سوى ما أنا عليه وباطل كل ما عداه، ومعلوم أن الطباع مختلفة والقرائح متباينة، فيأخذ كل واحد بطرف ويحرم بسبب توغُّله فيه واستحلائه له النصف فيثور من هنا من الافتراق والاختلاف ما لا مزيد عليه، ولا ثَمّ مَن ينبّه على هذا الغرور الذي عمّ الخاصة والجمهور، وهل ثَمّ إلا دين واحد تعبّد الخلق به ربّه واحد تعبُّداً واحداً في قلوبهم وأبدانهم، وهو منقسم إلى فرائض وفضائل.

والفرائض مختلفة المراتب، والفضائل كذلك، فاتسع الدين بسبب هذا ودخل الناس فيه كلٌّ على قدره، ثم مَن كانت فيه كزازة وشكاسة ومرارة وزعارة بسبب نفسه التي تعلقت من عنقه ولم تدعه يتهنّى بعيشه طرفة عين، كان قصاراه أن يتمسّك بالفرائض القلبية والبدنية وبعض الفضائل المتعلقة بهما، ولكن بعد أن لوّح له بشيء يعطاه مما يستحسنه ويستملحه بمنزلة العود المزَوّق الذي تستمال به قلوب الصبيان وضعفة النسوان. ومَن كان منهم فيه حرية طبع وكرم سجية وكمال انقياد وتمام قابلية، تمسّك بالفرائض كلها وأضاف إليها الفضائل من غير أن يحتاج في ذلك إلى تلويح بشيء يوجب له سماحته بالطاعة. ليس ثَمّ شيء سوى هذا، وما يسبقه أو ما يلحقه وما عداه خَشْوَ البردع[1] لكن لا يدفع ولا ينفع.

فإن قلت: هذه شهادة على نفي وهي غير متقبَّلة عند العقلاء. فأقول: شهادة النفي متقبَّلة في بعض الأشياء، وهذا منها، فهذا هو الذي ينبغي لك أن تأخذه مني وتحمله عني، وكل ما جاءك عني مما يخالف هذا فتأوّله عليه بالتأويل المرضي والمختار وإلا فارمي به في البحر الزخّار، فإني لا أحل لأحد أن يتجاوز الحدود ويتهاون بأوامر المعبود من غير حياء ولا حشمة ثم يدّعي في ذلك أنه أخذه مني ونقله عني.

فإن قيل: رسميّ، أقول: نعم ولا شيطان غويّ، فإني شخص أثقل ظهره

(1) بردع: البردعة: الحِلْس الذي يُلقى تحت الرَّحْل (لسان العرب).

كثرة الأوزار وعموم التفريط والتضييع آناء الليل وأطراف النهار، وأنا محتاج إلى التنصُّل من ذلك والاعتذار والتوبة والاستغفار، لكن ما مضى من ذلك وفات ينبغي لي أن لا أنكرب له، فإن جاهدت نفسي في هذا ربما يزول عني ذلك الكرب أو يخف، وما أستقبل من ذلك ولم أوفَّق للعمل بما يجب عليَّ منه لا أعدم فيه الكرب والاغتمام لأن ذلك في رقبتي بمنزلة صيام العام إلا أني أخفف ذلك عن نفسي في بعض الأوقات بحسن الرجاء بمعين المساكين والضعفاء، وأما أن أدّعي أني راض فيه بالعقاب والعذاب أو أن نعدّ قدرة الله تعالى فيّ من جملة المحاب فحاشى وكلا، وكل أحد يعرف عظمه على الصحفة ولولا كراهية النفس واطلاع الغير على عيوبها لذكرت لك منها ما لا ترتاب معه في أني على الوصف الذي ذكرته لك، والله على ما نقول وكيل.

فإن قلتَ: كيف يستقيم لك هذا الكلام مع قولك: وأي شيء يقع في الوجود إذا جُعل ابن عبّاد في النار ذات الوقود... إلى آخره، فإن الأظهر من هذا أنك فقدت الكرب لما فعلته من الذنب في ماضٍ أو مستقبل؟ فأقول: نعم، ظاهره ذلك ولكن لم أعنِ به إلا أنه لما وقع مني الذنب ينبغي لي أن لا أنكرب له بالنظر إلى ما مضى وإني لم أمتُّ بأثره من غير أن أتلافاه لانبغى لي أن لا أنكرب بإدخال جهنّم عليه لأن الكرب في ذلك عني منتفٍ، وأما ما أستقبل فلم أتعرض له البتة.

فإذا فهمت هذا كله فلنرجع إلى مسائلك التي خرجت فيها عن المضمار وأبيّن لك كيف ينبغي أن تكون عليه إذ ذاك.

فأقول: أما موافقتك المضمار عند رؤيتك المساكين والمحتاجين ولا تسمح لهم بصدقة، أنَّ ما مضى من حالك هذا ترضى به ولا تنكرب بسببه لأنه شيء قد مضى وفات ولا تدّعي مع ذلك أنك راضٍ ولا فرح، وما تستقبل تنكرب من أجله لتتوصل بذلك الكرب إلى أن تكون على حال تسمح فيه نفسك بالمواساة، لكن يخفف عنك هذا الكرب بما ترجوه من مولاك من التوفيق والهداية إلى ذلك. وأما أن تتشوّف إلى أن تكون بحال لا تناضل عن نفسك ولا تعمل على خلاصها فذلك منك سوء أدب، وأما إن ادّعيت ذلك فقد

انضاف إلى سوء الأدب افتراء الكذب. وكذلك في المسائل التي حكيتموها عن فلان مما فيه ذكر الغير والتنقُّص والعيب، فإذا تقرّر عندك أن ذلك محظور ينبغي لك أن لا توافقه على حكايتها، فإن غلبتك شهوتك وكتبت به وفارقك الكتاب فيكون دخولك في المضمار أن لا تنكرب لذلك لأنه أمر مضى وفات، وأما إن بقي بيدك فأنت حينئذ مأمور بمحوه وإبطاله، فإن لم تنكرب لهذا فقد رضيت بالمعصية وأنت متمكِّن من تلافيها وهذا فيه ما فيه، وإن انكربت لذلك وأبيت محوه وإبطاله لما تعلم من أني أحب أن أعلم مثل ذلك كله فليصُدَّك ذلك الكرب عن أن تقول بأثره: ولولا مقاربة الدخول في المضمار ما وسعني أن أكتب لك بشيء من ذلك، ولكان الأحق والأوجب أن تجعل بدلاً من ذلك الاستغفار وطلب التوبة من العزيز الغفّار. فهذا هو المضمار الذي ينبغي أن تكون عليه عند إيرادك لهذه الحكايات ولم تسمح نفسك بمحوها وإبطالها. وأما إن لم يتقرَّر عندك أنها محظورة فنظر آخر.

وكذلك حين قلت: الحمد لله الذي أظهر ما سبق من قدرته وإرادته فيَّ، ومَن مثلي في الوجود إذا ظهر لي أني محل لنفوذ قضاء الإلٰه المعبود، لما قلت لك: بعد أن كنت متشوّفاً إلى أن يرد عليّ ما يسرُّني فأبى الله ذلك، ووجه دخولك في المضمار فيه أن تقول: قد عزَّ عليَّ أن جاءك مني ما يسوءك ولكن بعد أن نفذ القدر بذلك وأجرى عليّ فيه إساءتك نرجو من الله تعالى أن أرضى بما سبق من حكمه بذلك فيّ، ومَن مثلي في الوجود إذا أعطيت ذلك الرضى بحكم الإلٰه المعبود.

وكذلك حين قلت: وإن لم أشمّ رائحة أي شيء يقع في الوجود، وإنما المقصود أن ينفذ ما سبق من القضاء ويظهر ما سُطر في أمّ الكتاب من سعادة أو شقاء، وجه دخولك في المضمار فيه أن تقول: عزّ عليَّ ما تعبتَ فيه معي ولكن من ساعة إلى ساعة فرج، وقد غلب عليَّ الكرب بهذا الكلام منك إذ وقع وفات ولكن نرجو الله تعالى في زوال هذا الكرب عني وأن يوفّقني للكون على ما أنت إليه تشير وتومي، وإلا فإن هذه العبارة منك ها هنا جافية ثقيلة الروح متضمِّنة غاية الدعوى التي هي أعظم البلوى.

وكذلك حين قلت: ومَن مثل فلان في الوجود إذا جُعل مع محبوبه في اليوم الموعود هو عيده ومهرجانه، ثم أقول بلسان الحال والمقال: مُنًى إن تكن حقاً... إلى آخره، وجه دخولك في المضمار فيه أن تقول بأثره ولا تحذفه لأنه كلام مليح: وأستغفر الله من هذا لأنه حال غلب عليّ في الوقت حتى تمنّيت ما لست بأهل أن أتمناه.

وكذلك في قولكم: بل أقول أيضاً هذا من الباذنجان، إذ الاغتباط والاستبشار والتشوُّف وطول الانتظار والكون في حبائل الهوى والشيطان، ليس لي في شيء من ذلك مدخل، وجه الدخول في المضمار فيه أن تحذفه ولا تقوله، لأنك سقته في معرض الدعوى والاعتذار عن النفس والمسامحة لها في الضلال الذي هي عليه.

وكذلك في قولكم: تبيَّن لي خطأي، والحمد لله، هو أني في قبضة الرحمٰن وشأني المنازعة في كل ما يرد عليّ من شأن، وجه الدخول في المضمار أن تحذف قولك أني في قبضة الرحمٰن، لأن سَوْقه في هذا المعرض لا ينبغي لأنه سيق في معرض الاعتذار وأصحاب القبضة من علوّ المقدار بحيث لا يشقّ لهم غبار. وهذا ما ظهر لي في الوقت أن نتكلم عليه من المواضع في كتابك وأنبِّه على وجه المضمار فيه.

وأما ما فهمته في مقاربة دخولك في المضمار من كونك لم تناضل عن نفسك ولم تسعَ فيما فيه خلاصها اعتماداً منك على ما قلته بأثره فهو صحيح أن أردته ولكن مذهبي في هذا قد قدّمته لك وهو أن الإنسان يحرص على أن لا يفعل ما يلام عليه، فإذا وقع ذلك لم ينكرب بسبب ما وقع وفات لأن كربه نضال عن النفس ومحبة ما فيه خلاصها مع فوات الأمر، وإن لم يفت ذلك بل كان حالاً أو مستقبلاً فلا بد له ها هنا من النضال عن النفس وطلب الفرار من ذلك الذنب فينكرب لا محالة، فإذا جعل معتقد أمره اللجا إلى الله تعالى والافتقار في أن يوفقه ويعينه على ذلك خفّ عنه ذلك الكرب وكانت مناضلته عن نفسه على وجهها.

وأما أني أقول: إن مقاربة الدخول في المضمار هو أن يفعل العبد ما

يُلام عليه ثم لا يسعى في خلاصه من ذلك ولا يناضل عن نفسه، فلا أقول به فليبلِّغ الشاهد الغائب، وإنما أطلقت ذلك الكلام لأني كنت فهمت منك التوغُّل في الطرف الآخر، ثم إنك لما انتقلت إلى هذا الطرف قلتُ لك: قاربت الدخول في المضمار ولم تدخل بعد، وإنما تدخل فيه بالتوسط، وهو بالنص خير الأمور[1] فهذا هو التصريح بالمضمار الذي قلت لك أنك قاربت الدخول فيه من غير إشارة ولا تلويح ولا ذكر شيء مما يغبر في وجهه فافهمه واعمل عليه ترشد إن شاء الله تعالى.

وإنما أطلت النفَس في هذا ومددت الباع فيه لأني أصابني من حالك كرب شديد ورأيت أنك كالمحتاج إلى إسلام جديد وأنها من البلايا النازلة بي والمستهان بها بسببي فلم يسعني إلا التجريد عن الساعد وإبداء الحق الذي كل منصف به يعترف وعليه يساعد، وبالله التوفيق.

وأما المسألة التي فرضها فلان، فإن كان فرضها كذلك فالحق فيها واضح لا يخفى على أحد، وهو أن الذي مكث عشرين يوماً لم يأكل ثم فتح عليه بقوته ثم رأى مَن هو أحوج منه فدفعه إليه أفضل من الذي يكتسب ويحبس حاجاته ويتصدّق بما فضل عن حاجاته.

وإنما قلتُ إنه أفضل منه لوجهين، **أحدهما**: أن حال الأول حال أهل التجريد بخلاف الآخر، وحال أهل التجريد على الجملة أفضل من حال المكتسبين المتسببين، **والثاني**: كونه مؤثراً على نفسه بالقوت، والأول ليس بمؤثر لأنه تصدّق بالفاضل فقط ولم يتجاوز إلى غيره، وما اعتلّ به من فضل حال المكتسب والمتصدّق بالفاضل بكونه لم يختر لنفسه والآخر اختار لنفسه ليس بشيء لأن كل واحد منهما لم يختر لنفسه ولا قصد إلى كثرة الثواب الذي يحصل لمَن وقعت صدقته فيمن هو في غاية الاحتياج والفاقة فيكون بذلك مختاراً لنفسه، وإنما قصد بذلك سدّ خلّة مَن هو أشدّ خلّة من صاحبه فقط،

(1) ونصه: «خير الأمور أوساطها» رواه البيهقي في السنن الكبرى باب ما ورد من التشديد في لبس الخز، حديث رقم (5897) [3/ 273].

ومثل هذا لا دخل فيه من جهة أنه اختار، وإنما يتصوّر الدخل فيه وإن لم يكن مختاراً لأجل نفسه إذا كان هذا الرجل في مقام الزهد لأن مَن هو في مقام الزهد وأراد تحقيقه بخروج الشيء من يده لا ينبغي له أن يختار مَن يصرفه إليه كما قال بعضهم: الزهد أن تترك الدنيا كما هي لا تقول: أبني رباطاً ولا أعمِّر مسجداً، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الزهد أن لا تبالي من أكل الدنيا من مؤمن أو كافر» ففي هذا المقام قد يكون التخيُّر مدخولاً معلولاً

ثم إنَّ ما أدعوه من عدم التخيُّر في الرجل المكتسب المتصدق بالفاضل لم أفهمه لأني أقول: لعله تخيّر مَن تصدّق عليه. **وقوله**: اللهم مَن مات في هذه الليلة جوعاً أو عرياً فلا تؤاخذني به. إنما وقع منه هذا الدعاء لاحتمال أن لم يكن بالغ في تطلُّب مَن هو أحق بالصدقة من الآخر، وكون هذا الدعاء في هذه الحال أوْلى بمقام أويس رضي الله عنه إذ يبعُد أن يتوهّم فيه أن يتصدّق بالفاضل على كل مَن اتفق، وفي الجائز أن كون هناك شخص قد أشرف على الهلاك جوعاً وعرياً لو طلبه لوجده، ثم يدعو بذلك الدعاء لأن دعاء أمثاله بذلك لا يكون إلا بعد بذل الجهد بالكلية إذ يخاف أن يكون بقي منه بقية.

واستحباب مَن استحبّ للإنسان إذا خرج بصدقته أن يدفعها لأول مَن يلقى، ليس بلازم أن يكون ذلك مراعاة لعدم التخيُّر إذ لعله يكون من قبل ما يخاف عليه من تغيُّر نيّته إذا لم يعطها لأول مَن يلقاه، وانظر قصة ذلك الرجل الذي نوى وهو في مغتسله أن يتصدّق بثوبه لما أمر حينئذ مَن يتصدّق به عنه قبل أن يخرج من مغتسله مخافة أن يتغير خاطره، وقد قالوا: السخاء إجابة الخاطر الأول. فهذا مما يمكن أن يقال في هذه المسألة إن وقعت على حسب ما قررتموها فإن عندي فيها بعض ريبة، والله تعالى أعلم.

وكون الحالة التي حكمنا بمفضوليتها حالة أويس كما هو المعلوم، والحالة الأخرى حالة الحلاج على حسب ما ذكرتم عن فلان، فلا يدلّ ذلك على أن الحلاج أفضل من أويس، لأن أفضلية الحال بخلاف أفضلية الشخص، فلا يلزم من أحدهما الآخر ـ والله تعالى أعلم ـ ثم إن حالنا بحمد الله تعالى

ليس كحال واحد منهما، نحن أكبر منهما مقاماً وأكثر بأوامره ونواهيه قياماً، نحن لا نواسي ولا نؤثر، وإذا رأينا مَن يتقطع بالجوع من أهل التجمُّل والقنوع لا تتحرك منا داعية إلى إحياء رمقه ولا إطفاء حرقه، ومع ذلك نتكلم في الدقائق ونغوص على الحقائق ونبيِّن للناس واضح الطريق، فنعوذ بالله من قلة الحياء فإنه رأس كل داء وعياء.

وأما المسألة التي جرت بين فلان وفلان، فهي من المسائل التي جرى القدر بوقوعها وفرضها، وهي من جنس مَن قدّمناه من تفريق الدين الذي أوجبه الجهل بالحق الواضح المبين كما ذكرناه، فمن الحق أن يعرض عنها ولا يؤخذ فيها ولا يلتفت إليها، وفيما تقدم لنا قبيل هذا إشارة إلى وجه الحق فيها.

والحاصل أن التصوُّف هو مقتضى الكتاب والسنَّة، فمن تصوّف فقد أقام الكتاب والسنَّة، ومَن عمل بالكتاب والسنَّة فقد تصوّف، ومَن لم يتصوّف لم يقم بالكتاب والسنَّة، ومَن لم يعمل بالكتاب والسنَّة لم يتصوّف، الاطّراد والانعكاس لي في ذلك شكّ ولا التباس عند العقلاء والأكياس، فمَن أعجبه هذا الكلام فلا عتاب عليه ولا ملام، ومَن لم يعجبه هذا بل تأذّى به وأذى فليدخل بيتاً له أربعة حيطان وليضرب برأسه من حائط إلى حائط حتى يتناثر دماغه بين الآجُر والكدّان[1]

وقول ذلك الرجل: المتصوّفة يخبعون الحقّ عن الناس، صحيح مليح، وغير ذلك منهم فاسد قبيح، لأن الحكمة لا يُسمح بها للأنتان والمقاذير، كما أن الدر والجوهر ليس بلائق أن يعلقا على أعناق الخنازير، فأخبروا بهذا كله مَن سألكم عنه وكل شاطح ورسمي أنا بريء منه.

وأما ما أخبرتموني به من حالكم في المولد المبارك فقد كان فلان أخبرني به في كتاب كتب به إليّ وظهر لي من ظاهر كلام تكلّم لي فيه أنه لم يحملك على عمله على حسب عادة الناس إلا كلام الناس لك وتحريضهم إياك

---

(1) والكَدُّ: إناء من الخزف يملأ فيه الماء والجمع الكِدّان. (تاج العروس للزبيدي، فصل الكاف مع الدال المهملة [18/ 319]).

عليه ونسبتهم لك في ترك فعله إلى أمر شنيع، فلما توهّمت هذا تكلّمت له في الكتاب الذي بعثت به إليه على حسب هذا التوهُّم، فلما بيّنت لي الحال وأنك رجعت إليه من تلقاء نفسك لأنك أمِنت فيه من المنكر المعتاد إذ ذاك ندمت على ما وقع مني من ذلك الكلام وتبت من التكلُّم بمثله، وما برز من الغيب فيما فعلتموه من ذلك مبارك، ولو لم يكن في ذلك إلا الدراهم التي انثالت عليك من كل جهة ومكان وفرح فلان منكم بذلك العمل والشأن لكان في ذلك كفاية وغنية فكيف بما انضاف إلى ذلك من الفوائد الزوائد وهي كون العوائد قائمة الذات، وكذلك انشراح النفوس بالجذل والمسرّات وتلألؤ حيطان المكتب بأضواء النيران وترائي الوجوه المِلاح الحسنة الصِباح من الصبيان، وأما الأصوات الطيبة والنغمات المستلَذّة المستعذَبة وتشامّ الرجال وروائح النساء واحتكاك ملاحفهِنّ بتلك الملابس الفاخرة والكسا، فلا تسأل، إذ لا يدع ذلك كله ساكناً إلا حرَّكه ولا نائماً إلا أيقظه ولا ميتاً إلا أحياه، لكن كان ذلك كله قبل اليوم إذ الناس ناس والقوم قوم، وأما اليوم فلو أسمعتهم أصوات الموسيقى أو لحّنت لهم أشعار ابن السقّا وجلوت عليهم أجمل الصور المعطرة بالمسك والعنبر والمزينة بالياقوت والجوهر لم يتحرك لهم عضو ولم يصبهم من ثوران الشهوة سهم ولا لهو، ولقالوا لك: دعنا من طريقتك المثلى ولحنك المستلَذ المستحلى وأسمعنا صوت المِقلى، ولو لم يكن فيها إلا أشاكيم الحوت التي يستقذرها السادات والشُتُوت فإن البطن إذا شبع ولو بالتبن، والبهتُ إذا ارتفع ولو بالشيء المنتِن، يستقيم منا بسبب ذلك ما تريد أن تُسمعناه من نغمه أو تحرّك لنا من همّه «فإن الفأس لا يخدم إلا باللقمة» ولا تظنن يا أخي أني قصدت التنكيت عليك بهذا الكلام وأني لم أرضَ بما فعلته في ذلك المقام لأني كما قدّمته لك من الدين الواسع وأني محتاج إلى التوبة عما أنا له فاعل وصانع، ولكنها من المُلَح التي جرت بها مني لك العادة، ومن المزاح الذي لا يستنكر على الأدنياء والسادة، والعارف بأساليب الكلام الذي هو فيها فارس وإمام، إن جدّ كان كل ما يأتي به صواباً وصدقاً، وإن هزل ومزح لا يقول إلا حقاً، وأستغفر الله تعالى من هذا الهذر وأسأله أن يصلي على

خير البشر وأن يدخلني في شفاعته التي لا تضيق عمّن أدبر واستكبر، أنا وأخي يحيى، ولا أزيد الآن ميّتاً ولا حيّاً اقتداء مني بذلك الأعرابي الذي عظم حنقه وساء خلقه. فبجاه محمد الكريم توسّلت وبأذياله تمسّكت، والمرضي المقرب والمرعي المحبَّب إذا أراد أن يفعل شيئاً فعله وإذا أمّله ولو مثل ابن عبّاد بلغه أمله.

وقد كنت في اليوم الذي كتبت فيه هذا وجدت بعض راحة من مرض أصابني ـ والحمد لله ـ فمشيت إلى الجامع الأعظم برسم سماع الكتاب فسمعت فيه من «الحلية» عن أبي جعفر محمد بن الحسين بن علي المعروف بالباقر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ما يدلّ على صحة ما قلته لكم في مسألة الدعاء المتقدمة، ففرحت بذلك غاية الفرح لأجل موافقة ذلك لما كنت فهمته في تلك المسألة، وبمثل ذلك ينبغي أن يفرح لأن ذلك الرجل من سُلالة النبوءة، فالكلام الذي يقع منه في مثل هذا في غاية المتانة والقوة، وهو أنه قال ما معناه أو هو لفظه أو بعض منه لفظه وبعض منه معناه: ندعو الله بما نحب، فإذا وقع ما نكره أحببتُ ما أحبّ. فانظروا كيف هو نصه في «الحلية» في مناقب هذا الرجل واكتبوه بنصه بعد قولي: لأنه حديث نفس ومجرّد دعوى. وقبل قولي: فإن قيل إذا كان العبد محبّاً فيما يحصل له بتكسُّبه وتسبُّبه، فهو أقرب موضع يناسبه.

وسمعت فيه أيضاً ما يوافق قولي قبل هذا حين قلت: وجدت بعض راحة من مرض أصابني ـ والحمد لله ـ بعض موافقة، وهو أنه ـ أعني محمد بن علي المذكور ـ ضلّت له بغلة، فقال: لئن ردّها الله ليّ لأحمدنه بمحامد يرضاها. فلم يلبث أن رُدّت عليه بسرجها ولجامها، فلما ركبها واستوى عليها وسوّى عليه ثيابه قال: الحمد لله. لم يزد على هذا، فقيل له في ذلك، فقال: إني لما قلت: الحمد لله، جعلت الحمد كله لله، فانظر هذا وصححه من الكتاب المذكور، وقد أعجبني ذلك وأردت أن أتحفكم به أيضاً ـ أعني بكلام هذا الرجل ـ نفعنا الله به وبأمثاله ورزقنا شيئاً من أنفاسهم العالية وأحوالهم السامية بمنِّه وكرمه ليكن هذا آخر الكتاب، والله تعالى الهادي إلى الصواب.

وبعد أن كتبت هذا ورد عليّ منكم كتاب وقد تعرّفت منه أموراً، **منها**: أنكم ذكرتم أن فلاناً لما ورد عليكم فهمتم أن عنده زوائد لم تروها عندكم وأنكم غبطتموه بذلك وزال بذلك عنكم استجلاب الفائدة في مسألة الوراثة المباركة التي استفدتموها في النوم. واعلم يا أخي أن الخيرة لا تدري أين هي وفي أي شيء هي وهل أنا وأنت وهو وجميع العالم وما عنده من معارف وعلوم بالنسبة إلى القدرة الربانية إلا بمنزلة اللعب الخيالية التي يخرجها المَشْعوِذ فيحركها ويُرقصها فيضحك من ذلك الصبيان ويتفرّج فيها الجهلة والنسوان، والمشعوذ في حاله لا همَّة له في شيء من أحوال النظار له، وكذلك هو حالنا، فأعرض عن هذا كله واعلم أنك باعتبار ليس بيدك شيء، وباعتبار بيدك كل شيء، فاضرب الزير بالقلة وابقَ مجرّداً بلا علاقة ولا عِلّة، هذا كله حال الباطن. وأما الظاهر فتتعرفون كيف يكون حاله مما تقدم في هذه الأوراق.

وأما المسائل التي سألكم عنها فلان وسألتم عنها من بكاء موسى عليه السلام واستحياء رسول الله ﷺ الوارد ذلك كله في حديث الإسراء، فلا أدري ما أقول في ذلك. وقضية الإسراء وما وقع فيها من الكوائن لا يعلم حقائق جميع ذلك إلا صاحبها المباشر لها ﷺ، وأما غيره فهو مصروف عن ذلك لم يحط بحقيقة شيء منه بمنزلة البصر الذي تشاهد قرص الشمس. فأرباب الباطن بمنزلة الناظرين إليه في الصحو بلا سحاب ولا ضباب، وكلما نظروا إليه تشلْوَت أعينهم بالأشعة التي تتسلّط عليها، فإذا سُئلوا عن حال ذلك القرص اعترفوا بالعجز عن إدراك حقيقته. وأهل الظاهر بمنزلة الناظرين له من وراء السحاب والضباب، فإذا نظروا إليه وبرقوا أعينهم فيه وداموا على ذلك ولم يرد أعينهم شعاع اعتقدوا فيها كمال الانطباع، وسُئلوا عما رأوا، ادّعوا أنهم رأوا حقيقة قرص الشمس بلا شك في ذلك ولا لبس، فإذا قيل لهم: إنكم لم تروا حقيقته وأنتم محجوبون عنها، يقولون للذي يقول لهم ذلك: بل أنت هو المحجوب، وكذلك حال الإسراء باعتبار الناظرين في شأنه. أما أهل الظاهر فتفقَّهوا فيه وزادوا ونقصوا كأنهم رأوه كالعيان أو نزل عليهم من الله تعالى كلية

البيان، وأما أهل الباطن فاعترفوا بالعجز والقصور ووكلوا الأمر فيه إلى مَن يعلم حقائق الأمور. وليس هذا خاصاً بقضية الإسراء بل هو عام في كل شيء غيب علمه عن العبد ولم يُجعل له سبيل إلى الاطّلاع على حقيقته، فإن ادّعى فلان أنه عرف حقيقة ذينك الأمرين ـ أعني بكاء موسى واستحياء محمد ﷺ ـ فذلك كرامة في حقِّه ينبغي لنا أن نبايعه وإلا فلنفعل أنا وأنت وهو ما يفعله [القلبّق][1]، ولنعلم أن جميع جزئيات ذلك لا تُدرك ولا تتحقق. وقول فلان في بكاء موسى عليه السلام: ظنّ موسى أنه ما يرفع عليه أحد فلذلك بكى، فإن كان معتقداً ظاهر ذلك فقد حصل في ورطة، وإن لم يعتقد مفهومه فمجرّد كلامه ذلك لا جدوى له حتى يبيِّن أن بكاءه عليه السلام على هذه الحالة لائق به من جهة خصوصية مقامه وإلا فلِمَ لم يبكِ غيره من الأنبياء والرسل ونبينا ﷺ قد رفع عليهم؟ والظاهر أنه لا يمكنه بيان ذلك، فإن أمكنه بيان ذلك وبيَّنه فهي كرامة في حقِّه فينبغي لنا أن نبايعه كما نبايع الآخر.

وأما ما سألتم عنه من معنى قول ذلك الرجل: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح، وأن فلاناً أجاب بما ذكرتم وأجبتم أنتم بنحو منه. فاعلم أن ذلك المعنى هو الذي مشى عليه في تفسيره الأئمة المصنّفون، ولعمري هو تفسيره لا تفسير له سواه ولكن الشأن في فهم ذلك التفسير، فقولهم في تفسيره: الصوفي لا يتغير من شيء كالبحر لا يتغيّر بما يلقى فيه من الأقذار والنجاسات، صحيح مليح، ولكن يحتاجون إلى بيان تلك الأقذار والنجاسات أيّ شيء هي، والمتبادر من ذلك إلى الفهم أن الصوفي لأجل ما هو عليه من موت نفسه وذلّتها إذا وُوجه بشيء من الإذاية والضرر احتمل ذلك ولم يقل إلا خيراً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفُرقان: الآية 63] بمنزلة الأرض إذا طرح عليها قذر أو نجاسة لم تضجّ منه ولم تدفعه عن نفسها ولا يمنعها ذلك من أن تُخرج أنوارها وأزهارها، وهذا الشيء المتبادر ليس هو كلية ما تناوله ذلك اللفظ، والله تعالى أعلم.

(1) كذا بالأصل ولم يظهر لي المعنى.

وإنما الكلية التي يتناولها ذلك اللفظ هي أن الصوفي هو الذي صفا من الكدر، وأيّ شيء الكدر؟ هو أن يرى له أنيّة، فإذا صفا من هذا ولم يرَ لنفسه أنيّة كان مثل الأرض لا شيء أخفض منها ولا أذَلّ، ولذلك يقال: «أذَلّ من التراب» فإذا ورد على الصوفي شيء مما يقتضي إثبات أنيّة في الظاهر وهو المعبّر عنه بالأقذار والنجاسات أحاله إلى نفسه ولم يؤثر ذلك في بطلان أنيّته فيخرج عنه كل شيء مليح من أحوال زكيّة وأعمال رضية، كما أن الأرض إذا طرح عليها شيء من الأقذار والنجاسات أحالته إلى نفسها ورجع تراباً من جملة التراب وخرج عليها كل شيء مليح من أنوار وأزهار عجاب. وقولنا الأقذار والنجاسات إنما هو عبارة عن كل غير وسوى، ولا نعرف نجاساً ولا قذراً إلا ما كان غيراً، فالأرض كما تحيل الجيفة كذلك تحيل المسك، والصوفي كما يحيل ما نافر ذاته يحيل ما لائمها ويبقى مجرّد فردانياً وحدانياً، لم يتعلق بشيء ولم يتعلق به شيء.

وهذه الجملة هي معنى ما قلتُ لك قبل هذا اضرب الزير بالقلة وابقَ مجرّداً بلا علاقة ولا علّة، عقب قولي: واعلم أنك باعتبار ليس بيدك شيء وباعتبار بيدك كل شيء، فالزير عبارة عما نافر ذاتك وهو باعتبار الظاهر ليس بيدك شيء، والقلة عبارة عما لائم ذاتك وهو باعتبار الظاهر كونك بيدك كل شيء، أو تقول: الزير عبارة عما لائم ذاتك وهو باعتبار الباطن كونك ليس بيدك شيء، والقلة عبارة عما نافر ذاتك وهو باعتبار الباطن كونك بيدك كل شيء، أيّ هذين أردتَ أن تقول فقل، إلا أن الاعتبار الظاهري في الملائم والمنافر هو حال العوام، والاعتبار الباطني فيها هو حال الخواص.

وقولي: وابقَ مجرداً بلا علاقة ولا علّة، أي لا تحبس بيدك على شيء يلائمك وينافرك، أعني لا تتعرض له بنفي ولا إثبات ولا حبّ ولا بغض ولا تحسين ولا تقبيح، بل تكون محرَّراً من رقّ المكاره والمحاب الظاهرة والباطنة الدنيوية والأخروية، وجملة هذا هي الأقذار والنجاسات التي تعرّضت لأن تفتن هذا الصوفي لتوجده أنيّته كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:

الآية 35]. فلأجل ما فيه من الصفاء والتحقق في بطلان الأنيّة لم يؤثر ذلك فيه شطيّة بل أحال جميع ذلك إلى نفسه وألحقه بعالمه وظهر بذلك تبرُّؤه من الرقّ وتحقُّقه بالحرية والعتق وهو الشيء المليح الذي خرج منه.

فإذا فهمت هذا فقد أحطتَ بمجامع هذا الأمر وحصل لك بسببه قرّة العين وثلج الصدر ولم تحتج إلى ما طلبته مني في قولك ولا تقتصر على معنى واحد بل تظهر في ذلك معاني وتذكرها على الترتيب الأعلى فالأعلى، فإنك إذا عرفت المكاره والمحاب وترتُّبها في الجلاء والخفاء والقوة والضعف وأن الإحالة تتسلط على جميع ذلك علمت أن تسلُّط الإحالة على الجلي والقوي من المحاب والمكاره هو أول ما يبادر إليه الصوفي لأنه أشد تعلُّقاً وأسرع افتتاناً، ثم تسلُّط الإحالة على الخفي والضعيف من المحاب والمكاره يكون بعده لأنه أضعف في التعلُّق وأبطأ في الافتتان فعلمت من هذا كيفية الترتيب وتبيِّن لك الأعلى والأدنى. والله ولي التوفيق.

وأما ما ذكرتم من حال فلان حين قال لك: ما عرفتك إلا صالحاً، وما أجبتَه به من قولك: أخطأت... إلى آخره، فقد أخطأت في ذلك الكلام أشد الخطأ وإن كان قصدك بذلك صحيحاً غاب عنه علمه، والحق أن الصالح هو الذي يُعرف وأن غير الصالح لا ينبغي أن يُعرف، ولكن الشأن في الصلاح ما هو، ولا أعرف للصلاح معنًى إلا الصلاحية للحضرة، ولا يصلح للحضرة إلا مَن كان حراً من رقّ الأشياء كما ذكرته لك، لكن هذا التحرُّر له مراتب، فبقدر ما يكون فيه من التحرُّر يكون فيه من الصلاح، وبقدر ما يكون فيه من الصلاح يستحقّ المعرفة، والمعرفة هي الصحبة، فإذا حصلت تلك المعرفة والصحبة حصل في ذلك من الفوائد للصاحب والمصحوب ما لا يحصى حسبما أومأت إليه حين تكلّمت على قول ابن عطاء: لا تصحب مَن لا ينهضك حاله.

أما الصلاح الذي يعرفه الناس اليوم أو الذي تشير إليه الصوفية حين يذكرون مراتب المختصين فيقولون: صالحون ومقرّبون وصدِّيقون، وجعلهم إياهم في أدنى المقامات وهو أن يكون العبد قائماً بوظائف الطاعات والعبادات

الظاهرة فلا أدري أنا ذلك، ولا يدخل لي سملوخاً[1] إلا أن يكون ذلك اصطلاحاً مجرداً اصطلحوا عليه، فلا سؤال في الاصطلاحات، وإلا فلو كان ذلك صحيحاً ـ أعني تخصيص رسم الصلاح ـ بأدنى المقامات، لم يسأل مقام الصلاح خواص الأنبياء والرسل، فقد سأل ذلك إبراهيم وسأله يوسف وسأله سليمان ـ على جميعهم الصلاة والسلام ـ وحكم الله تعالى بتولِّيه لهم، فلا خفاء إذاً بعلوّ هذا المقام على غيره، وليس ذلك إلا ما عبّرنا به عنه.

والصلاح الذي يعرفه الناس ويطلقون عليه اسم الصلاح لا تصلح صحبته ولا مقاربته لأن فيها غاية الضرر للصاحب والمصحوب، وذلك لأن كل واحد منهما يُرائي للآخر ويحسّن مواقع نظره منه لأنه يخاف أن تسقط منزلته عنده سواء كانا متماثلين في الصلاح أو متباينين، لأن الصاحب راغب في صحبة مصحوبه فهو يحرص على أن لا يقع منه ما يكدّر ذلك، والمصحوب لما رغب الصاحب في صحبته أعجبته صحبته فهو يحرص على مثل ذلك أيضاً. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه ذلك الرجل الذي قال: أخاف أن أتزيّن له ويتزيّن لي وأتصنّع له ويتصنّع لي. ويستضرّ كل واحد منهما من الآخر من وجوه أُخر.

فإذا كانا متماثلين في الصلاح حرص كل واحد منهما على التماس عثرات الآخر وتشوّف إلى الاطلاع على عوراته لأن كل واحد منهما لا يحبّ أن يفوقه صاحبه بمنقبة من المناقب ولا يستتبّ له هذا إلا بتطلُّب عيوبه، وإن كانا متباينين في الصلاح فمَن هو أقلّ صلاحاً من الآخر يلحقه من قبله الصغار والمذلّة واعتقادهما ما دامت صاحبتهما، ومَن هو أكثر صلاحاً يلحقه الكبرياء والعزّة واعتقادهما ما دامت صحبتهما، وإذا كانت صحبة الصالح متضمنة وقوع غاية المضارّ لكل واحد منهما إذ هي متعلقة بأمر الدين ـ أعني المضارّ ـ ذهبت

(1) السُّملُوخ: بالضم: الصملوخ، كالسِّملاخ وهو من الأُذن: وسخُها وما يخرج من قشورها، قاله النضر. والسُّمْلُوخ: ما يُنتزع من قضبان النَّضِيِّ مثل القضبان، وجمعه السماليخُ، وهي الأماصيخ. والسماليخيُّ من اللَّبَنِ والطعام: ما لا طعم له. والسمالِخِي: لَبَنٌ حُقِنَ وتُرِك في السِّقاء وحُفِر له حفرة ووضع فيها ليَرُوب، وطعمه طعم مَخْضٍ. (تاج العروس 15/ 121].

من تلك الصحبة الفائدة والمنفعة، لأن الفائدة والمنفعة إن كانت متعلقة بأمر الدنيا فلا تعدل شيئاً من مضارّ الدين، وإن كانت متعلقة بأمر الدين فمنفعة الدين تُذهبها مضرته لأن وجود المنفعة لا يفي بوجود الضرر، فالفرار من الضرر هو غاية المنفعة، فصار عدم صحبة هذا الصالح سبباً لوجود غاية المنفعة، كما أن في صحبته غاية الضرر.

فإذا تقرر هذا ففلان وفقه الله تعالى حين قال لك: أعرفك صالحاً، ثم بعد ذلك هجرك لفقدك ذلك الصلاح، لك أن تقول له: ما الذي تعني بالصلاح؟ إن عنيت به المعروف عند الناس فعدم صحبتك لي مما أغتنمه سواء كنتُ في ذلك الصلاح قدّاماً أو من فوق فوق للآفات التي ذكرناها، وإن عنيت الصلاح الذي هو الصلاح الحقيقي فلا نسلّم لك أني منه مفلس، بل عندي من مباديه ما أرى أني به في الوقت كالفلك الأطلس، نعمة من الله وفضلاً. فإن قال لك ها هنا: لا أعرف ما تقول وإنما سلبت عن الصلاح لأنك ابتدعت وتركت سلوك طريقة العلماء وتصوّفت وتّبعت الجهّال والأغبياء، وأدّاك ذلك كله إلى التهاون بالدين والشرع، ورضيت بتهاونك واستحسنته واستصوبته حتى إني لو نصحتك لم تقبل نصيحتي، ولو وعظتك لم تنتفع بموعظتي، فأي شيء أفعل بصحبة مَن هذا حاله معي؟ فإن قال لك هذا فقد أدّاه كلامه إلى الغالب والانفحام وأمكنك أن تأخذه أخذ الكرام لأنه رماك في أمر أظنه صائماً عنه، ونفّر لك عن حديث أحب أنه لم تقع منه كل العناية في البحث عنه وتطلب التشفّي منه، فعند هذا يصح لك أن تقول له: دعنا من هذه التشنيعات والتهاويل بل أنا صالح بزوجَيْ سراويل، ودعواك لي عدم الصلاح من جملة الأباطيل. فإن قلت: هذه دعوى مني، فأقول لك: ليست هذه دعوى لأنك لم تشاهد فيها نفسك ولا اعتمدت فيها نظرك وحَدَسَك، بل ألقيت إلى ربِّك السلم وتحدثت بما له عليك من النعم، وعند ذلك لو جاءك آلاف الآلاف يخاصمونك ويجادلونك لغلبتهم وأفحمتهم بتوفيق الله تعالى ومعونته.

فإذا قلت له هذا الكلام وتنازل إلى أن يتحدّث معك في هذا الأمر ويُقبل عليك بكليته حتى يأخذ ما عندك أخذاً يظهر منه أنه يودّ أن تصيب أنت ويخطىء

هو، فقد أنصف، والإنصاف فيه بركة وخير كثير، ونرجو من الله تعالى أن يتبيَّن له الحق ويستمر على صحبتك ومعرفتك من غير شوب ولا مذق، وإن لم يتناول إلى أن يتحدّث معك في هذا الأمر فدعه وما اختار لنفسه وبادر بانصرافك وأره سعة أكتافك، فإذا وليت فذلك ولم تصرف إليه همّتك وبالك، كبّر عليه أربعاً ولا تعرض له بعد ذلك بسوء ولا بالترحُّم والدعاء، فهذا هو النظر المستقيم الذي يقبله كل طبع سليم.

وأما الكلام الذي تكلمت به والكلام الذي جاوبك به بعد ذلك فخارج عن قانون الإنصاف مشتمل على محض العصبية والانحراف، فقولك: إن أردت أن تعرفني فلا تعرفني بالصلاح، مستشنَع الظاهر، وقوله هو بعد ذلك: الله تعالى يتوب علينا، فبل أن يعرف مذهبك في الصلاح، أي شيء هو؟ ليس له معنى يعلق بالخاطر، والصواب ما قررناه، والله تعالى أعلم.

وكلام فلان حين أشكل على فلان الجمع بين ظاهر الحديث وبين مذهب المتصوفة صحيح، وحال البقاء هو حال الكمال، والشعور بالأغيار فيه غير مؤثر في نقص ولا اختلال، وقد سمع النبي ﷺ بكاء الصبي وسمعَتْ أمُّه بكاءه وقد شعرا معاً بالأغيار لكن كان شعوره ﷺ بالأغيار في مقام البقاء، فلذلك وقع منه عند شعوره بها في صلاته ذلك الفعل الحسن، وشعور أمِّه بالأغيار في حال وجود الهوى فلذلك خاف عليها عند شعورها بها في صلاتها أن تفتتِن.

وأبلغ من هذا الحديث في الشعور بالأغيار الحديث الذي ذكر فيه حمله ﷺ لأمامة ابنة ابنته زينب وأنه كان إذا سجد وضعها وإذا أقام حملها إن بقي ذلك على ظاهره لأنه إنما حمله على هذا شدّة حبه لها والشعور مع شدة الحب أبلغ من الشعور بلا حب، لكن كان هذا كله في مقام البقاء، ولا شك أن النبي ﷺ كان في ظاهره كالناس يحبّ ويبغض ويرضى ويغضب ويشتهي ويعاف ويلذ ويألم وغير ذلك من لوازم البشرية، لكن مَن توهّم أن حاله في هذه الأشياء على حد حال غيره أو أن حال غيره مثل حاله فقد ارتكب أمراً فظيعاً واعتقد معتقداً شنيعاً ولم يجعل لما أعطاه الله تعالى من العلم والمعرفة اللائقين

بمقامه الرفيع الذي هو غاية الغاية ونهاية النهاية أثراً في أفعاله التي يفعلها وأحواله التي يتّصف بها.

فإذا رأينا النبي ﷺ في الظاهر تشاغل بالأغيار، في صلاته وحكمنا بأن هذا هو حال الكمال، ورأينا غيره تشاغل في صلاته بالأغيار لم يلزمنا أن نحكم على تلك الحال بالكمال، بل يجوز أن يكون حال ذلك الشخص الذي لم يشعر بالأسطوانة الساقطة، والشخص الذي لم يعرف مَن عن يمينه وشماله أكمل وأتم حتى يتحقق حاله ومقامه، كيف وقد قال ﷺ: «**إني لست كهيئتكم**»[1] وهذا الكلام وإن كان ذكره في مسألة الوصال فهو عام في جميع الأحوال، فلا بدّ من اعتقاد بينونة عظيمة بين حاله وبين حال غيره، وإن لم يظهر لنا نحن فرقاً البتة، وفائدة عدم الظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن يستتب لنا حصول الاقتداء به، إذ لو ظهر لنا فرق ما لم يتم لنا ذلك ولتوهمنا نحواً مما توهمه ذلك الرجل الذي قال ما معناه: لسنا مثل رسول الله ﷺ، الله يُحِلّ لرسوله ما شاء، حتى شقّ ذلك عليه ﷺ وغضب وقال: «**ما بال أقوام يتنزّهون عن شيء أنا أفعله والله إني لأشدّهم له خشية**»[2] أو كما قال ﷺ، وهذا من جملة الرحمة التي بُعث من أجلها وهو أن يدخل في دائرة الاقتداء به كل مَن علا وسفل إذ هو في بعثه إلى الأحمر والأسود ليس كغيره من الرسل.

وقول فلان هذا ما رأيته ولا عرفته لهم حين أخبره فلان أن حال الكمال عندهم هو مقام البقاء لا يلزم، لأنّ مَن علم حجة على مَن لم يعلم، والفقهاء الذين هم أهل التحقيق في الفقه لا يبعد في حقّهم أن يجهلوا مسائل من التصوّف، كما أن أهل التصوّف الذين هم أهل التحقيق فيه قد يجهلون مسائل

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الوصال...، حديث رقم (1862) [2/ 693] ورواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن الوصال في الصوم، حديث رقم (1102) [2/ 774] ورواه غيرهما.

(2) لفظه عند البخاري: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» (صحيح البخاري، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، حديث رقم (5750) [5/ 2263] ورواه غيرهما.

من الفقه، فلو قيل للفقهاء مثلاً: ما معنى حضرة القدس؟ لم يدرِ ما معنى حضرة القدس، ولو قيل للمتصوف مثلاً: أي شيء مسألة الحمار والفرس؟ لقال: لا أدري ما مسألة الحمار والفرس. وفي قديم الأمثال «مَن جهل شيئاً عاداه» هذا ما حضر من الكلام على مسائلكم.

***

الرسالة الحادية والثلاثون

وقد بلغنا كتابكم بعد طول التشوُّف وتعرفت منه أموراً منها مسألة فلان، وأنّ ما كنتم عرّفتموني به عنه لم يصح، فالحمد لله، وقولكم في مساق الكلام عنه: وما زلت قط أستثقل وأنكر على فلان وفلان كذا وكذا، صحيح ذلك الإنكار وقد أصبتم فيه، وأصحاب ذلك الحال في الغالب لا بد من أن يُفتضحوا ويُبتلوا ببلايا ترجع أيديهم فيها أكماماً، فنعوذ بالله من الدعوى، فإنها أصل كل بلوى.

وقولكم: أريد أن تبيِّن لي كيف يكون مدخولاً ما أنا آخذ فيه من الرواية، فليت شعري كيف يخفى عنكم ذلك؟ وكل ما يفعله الإنسان اليوم بشهوة وهوى مدخول. **وقولي**: اليوم، أشرت به إلى الوقت الذي أعوز فيه وجود أنوار اليقين الذي تكون أعمال العباد بسببه غير مدخولة ولا معلولة. وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سمع القائل يقول: «لا حكم إلا لله»: «كلمة حق أُريد بها باطل» فكذلك أعمالنا وأقوالنا اليوم كلها، إما قول حق وإما فعل حق، ولكنه بَهْرَج إذا حكّ في الميلق، واعتبر هذا كله في أقوالك وأفعالك من حين تدخل منزلك إلى حين تخرج منه، فاعتبره في أفعالك وأقوالك عند ملاقاتك لزيد وعمرو وكيف تلقاه وبماذا تلقاه، فإنك إذا فتشت ذلك كله فإن لم تجد الدخل فيه لم تكن على يقين من وجود سلامته. فإذا صحّ هذا فظنُّك في فعل من أفعالك أنك فيه على الطريقة المثلى خطأ محض حسبما ظهر لك في الرواية وما أشبهها.

وأما نص الكتاب الممحوّ فهو قولي بعد بدأته المعلومة: والمراد منكم أن تخبروني بما استقرّ عليه أمركم من حال الناس الذين هم يموتون جوعاً

وعرياً من غير مبالاة أحد بهم، فلا أدري أوجدوا في ذلك رخصة أم أخذوا في قلوبهم وأبدانهم من سوء حال مَن ذكرناه حصة أم سكتوا عن ذلك كما هو المألوف والمعهود «وخلّو الكفّة تنطح العمود»[1] وهذا هو الظاهر. فإن كان هذا هو الواقع فإن نفسي تشمئز من سكوتهم عن ذلك كثيراً لما تضمّنه سكوتهم من فساد الناس وعدم معرفتهم بحكم هذه النازلة التي هم محتاجون إليها الاحتياج التام، ويخاف أن تنجرّ إلى ما هو أعظم وهو أن تحدث لهم فِتنة دجّالية تفسد فيها أديان الناس واعتقاداتهم في ربِّهم ولا يوجد مَن يتعرّض لإبطال تلك الشبهة الخيالية ويقع السكوت عنها كما وقع في هذه، وهذه النازلة من مقدّمات ذلك، ومن أدلّ الدلائل عليه إلا أن يلطف الله تعالى، ولا شك أن هذه النازلة لم يطرأ مثلها فيما تقدّم فيسلك الناس فيها مسلك المتقدّمين ممن يقتدى بهم في ذلك، وإن خالفوا ذلك اعتقدوا أنهم على الخطأ فيقع منهم الاعتراف بذلك. كيف؟ وهذه النازلة قد شدّت وبليّة غلبت سائر البلايا وبدت إذا فسدت فيها أديان الناس ومُروءاتهم وأخلاقهم.

أما فساد الأديان: فلإهمالهم المساكين وتخليتهم إياهم حتى يموتوا جوعاً وعرياً، وهم قد وجبت عليهم مواساتهم، وقد كانوا قبل اليوم يكترثون بهم بعض اكتراث. وأما اليوم فلا فرق عندهم بينهم وبين القطط والكلاب، وقد يصبح بعضهم في أزقة المدينة وقد أكل الكلاب بعضه وجرُّوه ويمرُّون عليه بمنزلة جيفة من الجيَف. ثم إنّ باب الورع في الحرام قد انسدّ عليهم بالكلية فلا يبالون بشيء من الأشياء، لا من سرقة ولا من خيانة ولا من خديعة، ومَن له قهر وغلبة لم يُقصِّر في شيء من الغصب والظلم، ولقد كانت هذه الأشياء موجودة قبل هذه النازلة ولكن خرجوا عن الستَار في هذه الأزمنة وقالوا بألسنة حالهم للفقهاء المتشاغلين بتمهيد الأحكام الشرعية: اشتغلوا بها أنتم وحدكم حتى يتعلمها منكم أهل المحشر، وأما نحن فلا حاجة لنا بها الآن إذ نفذ الوعد الحقّ بفساد الزمان.

وأما فساد مروءاتهم فكل مَن في يده شيء تمسّك به وشدّ يده عليه ولم

---

(1) مثل شعبي من عهد المؤلف لم يظهر لي معناه.

يستحي من رد مَن يسأله مواساته ممن يمتّ إليه بقرابة أو معرفة، ولم يستحي السائل أيضاً يبتذل وجهه بالسؤال والكُدية، ومنهم مَن هو قادر على تسبب يقيم به حاله وقد يسلّط بعضهم حتى لو كان بيده مقرع وأمكنه أن يضربه به لضرب.

وأما فساد أخلاقهم فمن قبل فقدان الشفقة والامتعاض، وهذا هو الداء العُضال، فترى أحدهم يتعرض له المسكين الساقط القِوَى الذي لم يبقَ منه إلا الرسوم فلا يعيره بصره، وإذا سأله اكفهَرّ في وجهه وولّاه دبره، ولا أدري في أي وقت تعود لهم الشفقة إلا إن انقرض هذا الجيل بأسره لأنه على تقدير أن يتفق لهم وقت رخاء وزمان خصب ليس لهم في ذلك مطمع لأن المساكين إذ ذاك يكونون أحسن حالاً مما هم الآن عليه، وقد يبقى بعضهم على حاله، وعلى كل حال، فشفقة الناس عليهم تكون معدومة بالكلية لأنهم إذا عدموها والبلايا بهم متفاقمة، والمحن عليهم متراكمة، فأحرى أن يعدموها في حال يكون فيها بعض اتساع فلا ترى إذاً أحداً من المساكين يُشفق له أحد ولا يأخذ له بيد، ثم مَن انفلت منهم من هذا الوقت المسكين فلا تسأل عمّا يكون فيه من الإقبال على الدنيا والحرص عليها وعلى جمعها ومنعها لأنه يخاف أن يدركه زمان يكون فيه مثل هذا الأمر النازل أو أشدّ.

وعلى الجملة فقد وقع في الناس الفساد الذي لا يُرجى زواله إلى يوم التناد، ثم إنه لا يكون إلا في الازدياد إلا مَن رحم الله تعالى، لأن الإيمان التوحيدي لم يبقَ في أيدينا منه إلا الاسم، والدين المحمدي لم يستقر عندنا منه إلا الرسم، وعُلوّ هذين الأمرين وقوتهما بهما تتلقى البلايا الكبار الزائدة على المقدار ويُستحلى بسببهما الرزايا التي تُمِرّ العيش ويُعوِز فيها الاصطبار. فإلى ماذا يلجأ الناس؟ وبماذا يتمسكون؟ وأي أرض تأويهم؟ وفي أي طريق يسلكون وبناء الدين في تَدَاع، وضيف الإيمان قد تهيّأ للرحيل ووقف للوداع.

ومما يكاد أن يخرج منه القلب ويتفطّر له اللب عدم تعرض الخطباء والوعّاظ لتنبيه الناس على هذا الأمر أبد الدهر، فترى أحدهم في أكثر البلدان يرقى على خمسة أدراج أو ستة أو سبعة من عيدان ويقف على رؤوس الناس في كل جمعة عسلوج لا ينفع أحداً بنافعة، فما كان أوْلى ذلك المنبر أن يُرمى به

من على ظهره قبل أن يهبط أو يتلكى حين يريد خَدَمة المسجد إخراجه ويتبقط، ولو فعل ذلك كان وعظه به أنفع من وعظ هذا الخطيب المسكين، ولكن جرت عليه صورة الأدب معه لأنه مملى له ومؤخّر إلى حين، ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجَاثيَة: الآية 14] أي يكفيهم ما هم فيه.

وقد قال عمر رضي الله عنه لما سيق إليه الهُرمزان(1) واستسقى ماء، قال: «لا تجمعوا عليه العطش والقتل» أو ما معناه هذا، وليت شعري أي فائدة لمشروعية البُكور يوم الجمعة والدنوّ والإنصات إذا كان ما يُسمع منه اليوم يُسمع منه في سائر الأوقات؟ وقد قال الإمام أبو حامد رضي الله عنه في بعض كلامه مشيراً إلى مقصد من مقاصده: «ولقد سُلّمت المنابر اليوم إلى قوم قلّ من الله حياؤهم» ولا أدري ما قال بعد هذا؟ وأنا أقول: ولقد سُلِّمت المنابر اليوم للحمير ومَن ليس له من الفطنة لمصالح الناس في دينهم ودنياهم، لا قليل ولا كثير. وأعظم من هؤلاء وأشرّ وأدهى وأمرّ المعجبون بآرائهم وأذهانهم والفرحون بأحزابهم أصحاب الكراسي والأساطين الذين يُشبّهون في امتثال الناس لأوامرهم ونواهيهم بالسلاطين، فتراهم مشتغلين بمسائل وباذلين جهدهم فيها وربما لا يحتاجون منها إلا إلى مسألة واحدة من مائة مسألة، وتسعة وتسعون مسألة لا حاجة بهم إليها، وإذا لم يحتاجوا هم إليها فمَن بعدهم أحرى أن لا يحتاج إليها لحكم الزمان الفاسد بذلك، ثم إنهم أهملوا هذه النازلة المعضلة والقضية المشكلة التي عمّ ضررها الخاص والعام، ونفذ القدر بها على أهل الإسلام، فلم يرسموا فيها باباً ولا وضعوا فيها سؤالاً ولا جواباً حتى يكون الناس على جلية من أمرهم، إما من طاعتهم، وإما من وِزرهم، ولو وقعت نازلة للذي أمر مما يرجع إلى شهوة فرجه مثلاً وتنازل إلى السؤال لهم عن ذلك ويقول: قد سبق لساني بكلام لا أدري هل يفوتني به غرضي من الجارية الفلانية التي أنا أحبها أم لا؟ لرأيت فيها من الفتاوى والأوضاع والنصوص والأقيسة ما لا مزيد عليه مع أن الجارية في أصلها غصب لا يحلّ له

(1) الهرمزان: الكبير من ملوك العجم. (لسان العرب). ويقال: الهارموز (القاموس المحيط).

حبسها ولا رؤيتها فضلاً عن مضاجعتها ومجامعتها، ودعه يجعل عِوضاً من ذلك الكلام الذي تكلَّم به تسبيحاً أو تقديساً، وهذا هو شأنهم في أكثر أمورهم، فإنهم يقولون: إنما نتعلّم العلم ونعلِّمه من حيث هو، وأما ثمرته وفائدته فليس لهم تعرّض لذلك.

وأما مفاسده فقد عمَوْا عن رؤيتها، فترى أحدهم في مجلسه سباع ضارية وكلاب عاوية، أعظم مقاصدهم في حضور ذلك المجلس أن يتعلّموا كيف تحتدّ أسنانهم لافتراس الناس، ذياب في الثياب، يظهر للناس على ظواهرهم التؤدة والسمت الحسن، فإذا تمكنوا من رياسة وولاية نبذوا خلف أظهرهم ما تعلموه منه من السنن، ويكفي أن يكون في المجلس من هذا الجنس واحد على الدوام أو ترمي المقادير بعضهم حتى يحضر مجلسه في بعض الأيام، وما الحزم في هذا الوقت للمدرس المسكين إلا أن يفعل ما فعله أبو سفيان بن حرب في الليلة الظلماء لما خشي أن يُداخِل جنده فيها أحد من الأعداء ممن يتجسّس خبره ويبغي ضرره، فقال: «لينظر امرىء مَن جليسه» لكن للباقة هؤلاء الذين كلامنا فيهم وذيبيّتهم قد يفعلون معه ما فعله حذيفة بن اليمان في ذلك الأوان، فإنه بادر وأخذ بيد مَن على يمينه وقال له: «من أنتَ؟» وأخذ بيد مَن على شماله وقال له: «مَن أنت؟» وحينئذ يضيع حزم صاحب ذلك الدست.

ولقد قال رجل للأعمش مثنياً عليه ومضيفاً له بتعليم الناس العلم المحاسن إليه: لقد أحيا الله بك العلم لكثرة الآخذين عنك، أو كما قال، فقال له الأعمش ما معناه: هم على ثلاثة أقسام: قسم منهم يموتون من قبل الإدراك فيذهب علمهم، وقسم منهم يصحبون الملوك فيذهب علمهم، وقسم منهم أظنّه قال: ينسون ما علموا فيذهب علمهم، أشار بهذا إلى أن ما كان فيه من تعليم العلم لم يعدم فيه ضرراً أو أنّ تعبه في ذلك مشى هدراً.

وقد جرى القلم بما لم أكن قصدت إلى ذكره، فلنرجع ولنقل هذان الفريقان من الناس هما اللذان يلزمهما الأخذ في هذا الأمر، أما الفقهاء فبإبانته وإنارة برهانه، وأما الخطباء فبإشاعته وإعلانه، لكنهم لم يفعلوا، والله تعالى يوفّقنا وإياهم إلى ما يحبُّه ويرضاه. وقد ذكرنا في الكتاب الذي قبل هذا شيئاً

من هذا المعنى إلا أن هذا أوعب وأكثر، والله تعالى يُخلّص الجميع بفضله.

وقد رأيت أن أذكر لكم ها هنا أبياتاً أربعة يتضمّنها مربّع وأذكر لكم معه أبياتاً يستفاد منها كيف يستخرج منه، والمعنى الذي يتضمّنه ورأيت هذا مما يليق أن أتحفكم به لأنه صعب المرام على مَن كان مثلي قصير الباع في النظام، والمعنى الذي يتضمنه معنًى شريف يتعيّن به الاهتمام، وقد سمح به الخاطر الذي ليس بعاطر، فخذوا ذلك مني وارووه عني فقد رأيت المحلحلين مثلي يفعلون ذلك مع المحلحلين مثلك فيقولون: وقد أجزت لفلان كذا وكذا وجميع ما لي من نظم أو نثر، وقد فعلت أنا معك مثلهم في هذا المربع وما تعلّق به وهو هذا:

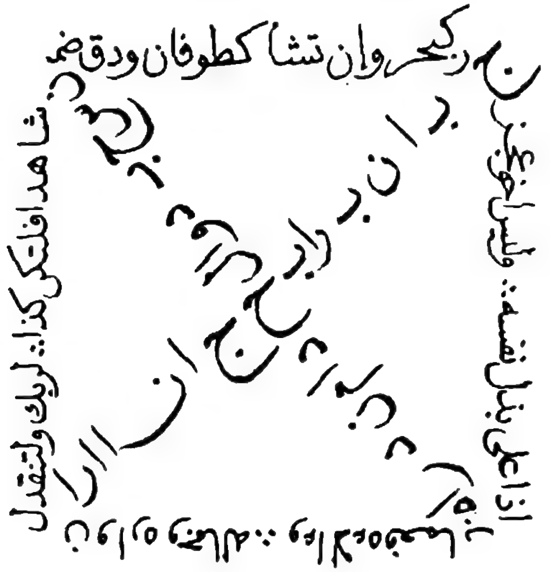

وهذه هي الأبيات المفسرّة له:

أحضِر مُربّعنا ذهناً يريك به ... أبياتاً انتظمت كالسّلك بالدررِ

واعرف بدايتها وضعاً وغايتها ... ووفِّها حقّها من جودة النظرِ

تجدهما أبداً حاء بأوسطه ... وعكس أحرفه ينبيك بالخبرِ

فانسِق بحاء به باءً بمفتتحٍ ... واذهب يميناً وصل ما فوق بالأثرِ

ثم استمرّ على أسلوب ذا لترى ... في بدءها خَتْمَها فلتَهن بالظفَرِ

إذ ذاك قد أسفرت عن وجهها وبدا ... فيها امتداحُ جميل الوصف مقتدرِ

ثم الدعاء إلى استحلاء مرّ ضنًى   من أجل حسن سَنِيّ راق للفكرِ
فاسمع لقائله واعمل بحاصله   تظفر بطائله صفواً بلا كدرِ
فربّنا برّه ما إن يعبِّره   نطق ويحصره ذكر لمدّكرِ
وإن شرّهت له فاسأل مضمّنه   ربّاً يُنيلُكَهُ في لمحة البصر
ثم أرسُمن مثلاً تدعي له رجلاً   ولا تكن وجلاً أن تأتِ أو تذرِ
وعُدّ ذا كذباً إن لم يكن عجباً   أن تَرْقِين سبباً سهلاً لمعتبرِ
واستُر لنا خطلاً واغفر لنا زللاً   وأبلغنْ أملاً لكل معتذرِ
فهذه شِيَم ما إن لها قِيَم   تعلو بها همم كالأنجم الزهرِ

فهذا هو المربع والأبيات فانظرها فإن قدرت على استخراج ذلك وإلا فتراني أكفيك مؤونة استخراجها وأذكر لك نصّ الأربعة الأبيات بمرّتها، فإذا عرضتها على المربّع تفرّجت فيها كيف تطابقه، وهي هذه:

حِبا ربِّنا بحر كبحر وإن تشأ   كطوفان ودق ضمن سُحْب دوالحِ
حلا وذْبُ حُسن شاهداً فلتكن كذا   لربِّك ولْتَنْقَد لآراء ناجحِ
حِجانا أرى أنواره وجماله   وآلاءه فعماً بها رُدنَ مادِحِ
حدا مَن درا هذا على بذل نفسهِ   وليس أخو عجز جبان برابحِ

وإنما قلت في تلك الأبيات المفسّرة: ثم أرسمن، مثلاً، لأني كنت قصدت بذلك شخصاً كان يكتب إليّ في هذه الأيام أبياتاً من نظمه، فأردت أن أبعث به إليه، ثم تغافلت عن ذلك، وقد اتّفق في هذه الليالي أن كان في بعضها رعد قويّ حتى أدركني منه رعب وقلت في نفسي: أي شيء يمنع من أن تتزلزل بنا الأرض ويرجع أعلاها أسفلها، فحضرتني هذه الأبيات إلا أني بعد ذلك أصلحت ما كان منها مختلاً فارووا ذلك عني:

أيا قوم إني مُخبر بقضية   أوافق فيها الحقّ والحقّ أبلجُ
ألا إن ربّي ذو اقتدار وعزَّة   فما لامرىء من قبضة الله مَخرجُ
وليس بواقيه هلاكاً معجّلاً   سوى فضله إذا ما عدا ذاك لجلجُ

وليس له نفع ببر وطاعة — على غفلة إذ ذلك الشيء بهرجُ
وليس له منجي ولا ملجأ له — من الله في الدنيا ولا يوم يخرجُ
ففرُّوا إلى الله الذي الأمر أمره — فهذا صراط مستقيم ومنهجُ
وهذا اعتقاد العارفين بربّهم — فبالله فاهدوا هديهم لا تعرّجُوا

فهذا ما أردت أن أذكره لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهذا هو نقل ذلك الكتاب الذي امّحى حرفاً بحرف إلا مواضع يسيرة منه، فإني نقلتها على المعنى الذي كانت عليه، وقد أحسنتم في بعث ذلك الكتاب الممحو لأني استعنت به ولولا ذلك لانتشبت، وذلك المربّع لصعوبته ارتكبت فيه ضرورتين، **إحداهما**: أن قولي: بجْزءْ أغلب أمره إنما يقال في الدواهي والأمور العظيمة، فعبّرت به لمجرد العظم فقط، **والثانية**: قولي: ناجح، لم أره في اللغة مستعملاً على هذه الصيغة من الثلاثي وإنما استعمل على صيغة «مُنجح» من الرباعي، لكن تلك الصيغة التي ذكرت مألوفة في العادة.

والذي يظهر لي أن كل خطيب يخطب فهو خارج عن المضمار إلا مَن أستثنيه، سواء خطب في كل جمعة بخطبة واحدة لا يزيد عليها شيئاً أو زاد عليها، ولكن في بعض الجمع دون بعض أو زاد عليها في كل جمعة ولكن لم يُراعِ في خطبته حال ذلك الوقت أو راعى حال ذلك الوقت ولكن لم يحسّن سياقة ذلك كما ينبغي أو استوفى ذلك كله ولكنه لم يتقِ الله تعالى ولم يراقبه في حال قبول خطرات التصنُّع والرياء، فهؤلاء خمسة من الخطباء خارجون عن المضمار، ونعني بخروجهم عن المضمار أنهم اشتركوا في أنهم لا حظ لهم من ثواب ولا أجر، وهم متفاوتون في الإثم والوزر. فالأول من هؤلاء أعظمهم وزراً لأنه توعَّر[1] في تلك الأعواد ولم يدع أحداً غيره يسمع الناس فائدة تستفاد، والثاني دون والثالث دون الثاني والرابع دون الثالث والخامس دون الرابع.

والذي هو داخل في المضمار الخطيب الناصح، العارف بالمفاسد

---

(1) تَوَعَّرَ الأمر: تَعَسَّر/ وتوعَّرَ الرجل: تشدَّد/ وتوعَّر في الكلام تحيَّر/ الوعر: المكان الحزن ذو الوعورة ضدّ السَّهل. (لسان العرب والقاموس المحيط).

والمصالح، الذي يعلم وجه مشروعية الخطبة في كل جمعة، ويذكر للناس فيها من وجوه النصيحة ما أمكنه ووسعه، ويحرص على أن يعلمهم الأمر الذي يحتاجون في الوقت إلى علمه والعمل به، ويُبلغهم ذلك على أحسن وجه وأقربه، بحيث يُراعي ذلك في نغماته وفي ترتيب كلماته، ويختلف ذلك باختلاف المطلب الذي هو آخذ فيه، وقد يخفض صوته في موضع يقتضي الحال خفضه، ويرفعه في موضع يليق به رفعه، ولا يستمر ذلك على سنن واحد بل يضع كل شيء في موضعه. وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته واشتدّ غضبه كأنه منذر جيش، يقول: «**صبّحكم ومساكم**...»[1] الحديث، ثم يقصد بذلك وجه الله تعالى والدار الآخرة، فهذا هو الداخل في المضمار السالم في تعاطي ذلك من الأوزار الكائن في عداد المتقين الأبرار، ودونه مَن لم يكن مخلصاً في ذلك لكنه لم يجد غيره هنالك يقوم مقامه في سلوك تلك المسالك، وهو عند نفسه شقي هالك، ومَن عدا هذين الشخصين ساقط عن درجة الاعتبار ليس وراء داره دار.

واعلم أن العامة والغوغاء لا سبيل لهم إلى الانتفاع على أيدي الفقهاء المنتصبين للإقراء والتدريس، لأن شأن هؤلاء بث الأحكام الشرعية وذكرها لمَن يتعرض لهم أو يسألهم عنها، والعامة لا قريحة لهم تحملهم على سؤالهم عن ذلك لما هم فيه من الجهل والغفلة، فيحتاجون لا محالة إلى مَن يُعاين قلوبهم أولاً بالموعظة والتذكير والتخويف والتحذير، ثم يتدرّج في أثناء ذلك إلى ذكر الأوامر والنواهي والسنن والآداب. وطريقتهم في هذا أوسع من طريقة الفقهاء وأقرب مأخذاً وبهذا يقع لهم الانتفاع.

ثم قدِّر أن ثَمَّ مَن يقوم بهذا ولكن أيّ شيء يجمعهم معه حتى يقع منه ذلك لهم؟ وليس له سبيل إلى أن يأمر البرَّاح فينادي على الناس: ألا احضروا مجلس

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم (867) [2/ 592] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار عما يجب على المرء...، حديث رقم (10) [1/ 186] ورواه غيرهما.

فلان فإنه يريد أن يعظكم ويذكركم ويُعلِّمكم ما تجهلونه، فإنهم يقولون له: لا حاجة لنا به، هذا إن حسّنوا العبارة وإلا قالوا شيئاً آخر، فلا جرم تلطف لهم في توصله إلى ذلك بمشروعية الاجتماعات العامة كالجمعة والجماعات والأعياد والمواسم، فحين يجيؤون إليها على ما أحبُّوا أو كرهوا يسمعهم من ذلك ما يقدر لهم سماعه وتلطف لهم مع ذلك بأمور مثل البكور والدنوّ من الإمام وإيجاب الإنصات، والتوعُّد عليه ببطلان الصلاة، حتى إنه ورد النهي عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب لأن الاحتبا يجلب النوم ويمنعه من الاستماع للخطبة، وقاس العلماء على ذلك الاستناد وأمروه بالجلوس مستوفزاً، أترون هذا كله شرع لكي يسمعوا منه ما هو محفوظ لهم أو غير ذلك؟ ثم إنَّ الأزمنة التي كان الخير فيها متمحِّضاً أو غالباً على الشر الغلبة الكثيرة لم يحتج معهم إلى شيء سوى تذكيرهم بالقرآن وإسماعهم إياه كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: الآية 45]، فكان لهم في الصلوات الجهرية والخطَب في الجمعات والأعياد والاستسقاءات وفي بعض مواطن الحج سبيل إلى ذلك، فكان يتلى عليهم القرآن ويسمعونه وهم لما خصُّوا به من العقل المؤيد بنور اليقين والإيمان يفهمون مضمنه فاكتفوا بذلك ولم يحتاجوا معه إلا إلى كلام يسير ولم تكن إذ ذاك عامة ولا غوغاء. فلما تناقص الخير وأظلمت القلوب بعض الظلمة حدثت العامة والغوغاء فاحتاجوا لا محالة إلى مزيد كلام يقرب من فهمهم أوامر القرآن ونواهيه وزواجره ووعده ووعيده، فانتدب الخطباء والوعّاظ القصاص للقيام بوظيفة طب هذه القلوب التي أصابتها هذه العلل والأدواء، فأظهروا في ذلك صناعاتهم العجيبة كلٌّ على حسب ما ظهر له في وجه المعاناة والمعالجة للأمراض الحادثة في ذلك الوقت فانتفع بهم عالم كثير، ثم هم في هذا الأمر مختلفون، فمنهم مَن برىء من مرضه وحصل من العافية على غرضه، ومنهم مَن وقفت علّته عن التزايد حتى انقرض الصادقون من أولئك الواعظين والمذكِّرين وبقي منهم أهل التصنُّع والرياء، فحينئذ أعضل الداء وعظم البلاء، إلا أن هؤلاء على حال ما هم عليه من الفساد لم يخلوا أيضاً من أن انتفع بهم عالم كثير، فلما انقرض هؤلاء أيضاً لم يوجد مَن يقوم مقامهم وأن يحسن ما

يحسنون، فبقي الخطباء على حالهم، فمنهم مَن يحسن بعض الإحسان فيراعي في خطبه الوقائع والنوازل ويذكر للناس ما يليق بذلك فيقع لهم في ذلك المجلس بعض انتفاع، ومنهم مَن لم يعرف شيئاً من ذلك واعتقد أن الخطبة إنما شرعت تعبُّداً لا لفائدة فهو يجيء في كل جمعة ويسرد على الناس خطبة أعداد من صبيان المكاتب يحفظونها كما يحفظها هو، ومنهم مَن يبلّق بشيء من خطب الناس ولكن كل ذلك خارج عن المضمار.

وأما الوعّاظ والقصّاص فعُدموا أو كادوا يعدمون لأن تلك الطريقة صعبة المرام تحتاج إلى شروط ليس في هذه الأزمنة مَن يقوم بها، فلما ضعفت طريقة الوعظ والتذكير احتاج أرباب الأمر الناظرون في مصالح الناس إلى أن يقيموا لهم مَن يسمع الناس كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام العلماء المتقدمين رضي الله عنهم أجمعين في المساجد الجامعة ويجروا على مَن يحسن سياقة ذلك على وجهه الأرزاق والمرتّبات كما يجري على الفقهاء والمدرِّسين ليقع لمَن يحضرهم بعض انتفاع، فحدثت حلَق الحزب بالغداة والعشي، ولولا ذلك لبعد عن الناس سماع القرآن ولم يسمع من أحد إلا في قيام رمضان.

وأما الصلوات الجهرية فلا يقرأ فيها إلا بسوَر معلومة قليلة الحروف والكلمات، ولو وجدوا ما هو أقلّ من ذلك لم يقصّروا. وحدث أيضاً قراءة الكتب التي فيها ذكر الدين ونعوت الصالحين وكيفية التعبُّد لربّ العالمين، فكان قرّاؤها على الناس كالنائبين عن مؤلّفيها الذين سلفوا، فهم متكلّمون بألسنتهم وإن كانوا في أزمنة بعيدة من أزمنتهم، ولهذا لا يحصل بها كمال الانتفاع للسامعين والمطالعين كما لا ينتفع في أكثر النوازل أن تؤخذ أحكامها من نصوص الكتب الفقهية حتى يتفقّه فيها وينظر بسببها في أمور كثيرة ولكن فيها خير كثير.

فلما رأى الجهلة أن هؤلاء نالوا فوائد دنيوية من قِبَل تشاغلهم بذلك من غير مشقة ولا تعب في وقت عطلة تسبّبوا بوقاحتهم وصابتهم إلى أن يحصل لهم مثل ما حصل لأولئك على ما هم عليه من الجهل والغباوة أن يزيلوه من أيديهم فاستتبّ لهم ذلك من قِبَل فساد الوضع. فلما تعاطى ذلك مَن لا يحسنه ولم يعرف السبب الذي لأجله كان ذلك صار أحدهم يجيء فيقرأ على الناس،

فلِفساد نيّته وجهله بوجه مرسوميته يكون إيراده ذلك عليهم لا يساوي عندهم ذرّة ولا بعرة، أو يجيء يوماً أو يومين ويبقى عشرة، ومنهم مَن لا يجيء ولا يقرأ، ومرتبه جار عليه يتوصّل بتيسُّر وسهولة إليه، فحينئذ ضاع الناس وماتت هممهم وهلكت أديانهم ولم يجدوا معيناً ولا نصيراً من قلوبهم وبقوا منهمكين في دنياهم غرقى في شهواتهم وهواهم، وذلك هو مقصدهم ومناهم، إلا أنه بقيت منهم بقايا يعرفون شيئاً ما من الحق وهم الذين يُرون يعتادون المساجد ويلازمون مجالس العلم وحلَق الذكر، لكن أكثرهم يفعل ذلك ضراوة وعادة، ويدعوه أيضاً إلى ذلك عجزه وقصوره عن الأخذ في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها ولو قدر على ذلك لم يُرَ هنالك، ومن العصمة أن لا تقدر، وأقلُّهم يفعل ذلك حسبة وقربة، ثم إن هؤلاء على قسمين: أكثرهم مغترّ رضي بحاله واستحسنه وقال: ليس في الوجود إلا هذا الحال، وأقلهم مَن لم يغترّ بحاله ورأى أن ما هو آخذ فيه شغل من جملة أشغاله وهذا هو اليوم القطب ومَن يشار إليه بالعقل واللب، إيه ثم من المعلوم أن الداء إذا أعضل واستحكم في الناس فإنه يحتاج إلى مَن يقوم بوظيفة طبِّه وذلك بدواء يليق بذلك الداء، ولا شكَّ أن ذلك الدواء يفوق تركيبه تركيب سائر الأدوية، فيحتاج في ذلك من الأعشاب والعقاقير شيء كثير وربما احتيج إلى أن يضاف إليها أشياء فيها سمِّيه كالدراريج المعلومة، ولحوم الأفاعي والحناش المسمومة، ومعلوم أنه ليس كل طبيب يقدر على هذا وإن تعاطاه هلك ذلك العليل فلا بدّ من طبيب ماهر البواطن عنده في العلم بها بمنزلة الظواهر، وهذا من العزَّة في الغاية، فكذلك ما نحن فيه، فالناس اليوم كالمجاذيم، وقد تعاطى علاجهم أشدّهم جُذاماً، فكيف ينتفعون على يديه أو تفلح وجوههم بتعويلهم عليه؟ لعمري إن لم يقدّم هؤلاء معاناتهم طبيباً سالماً من الجذام يعرف مقادير الأمراض والأسقام ومصادر الأدواء والآلام، ماهر في دقائق الطبّ يضع الهناء مواضع النقب، فإنهم لا يرون في أحوالهم قرّة عين، وإن اعتمدوا في ذلك أبا زكرياء الرازي أو حنين وافهم الرمز يا حسين، ولكن حين لم يفعلوا ذلك فهو خير له وشرّ لهم، خير له لأنه سلم من تباعات دائهم، وشرّ لهم لأنهم بقوا بعظيم بلائهم، وما مثله معهم إلا مثل طبيب أراد أن يطبّ

جماعة من المرضى احتاج في معالجتهم إلى أن يركّب لهم أدوية يستخرجها من أجساد تضرّ بروائحها كل مَن يهاولها فصُرِف عن ذلك وقيل له: أتأمن أن يعلق بك وتصعد إلى خياشيمك من ذلك رائحة تستضر بها وإن ادّعيت أنك قادر على التحرُّز منها فربما يخرج الأمر عن الاختيار ولا ينفعك في إبطال فعلها شربة عسل ولا شرطة مُحْجم ولا لذعة بنار. وقد كنتَ في غنًى عن طبّ أهل الحارة وإن تأنّقتَ في أدويتك المستحسنة المختارة، فدع الخلق وما دفعوا إليه، فمراد الحق منهم ما هم عليه. وهذا ما ظهر لي أن يقال في هذه المسألة بعد أن كنتُ قطعتُ الكلام فيها، ولا أدري هل يعود لنا كلام آخر أم لا، لكني رأيته الآن كافياً في بيان كون أكثر الخطباء والمذكِّرين وقرّاء الكتب غاشّين ظالمين من حيث لا يشعرون. وقد كانوا مني في راحة ولكن لي في هذا أيضاً نوع استراحة، فآثرت راحتي على راحتهم حسبما اقتضاه الزمان، والله المستعان.

وكم رأيت فيه من شخص في رقبته ديون نسيها أو تغافل عنها ورقد على قفاه ثم جاءه طالب حثيث برسم مشهود عليه فيه بذلك الدَيْن فاقتضاه وضيّق عليه، فإن كان الغريم غنياً ملياً والآخر فقيراً فكل مَن دبّ ودرج يلعنه في مطله، ويُعذر مَن له الدَيْن في طلبه وبُخله، وإن كان الغريم فقيراً وصاحب الدَيْن غنياً فقوّة عارضته وعلوّ كلمته تجعله تحت حطّه، وإن كان ربما استحقه عليه بفقره وضغطه، ولكن الذي يجلي الظلم ويُزيل الغمم ويبْرىء من التهم ويصوِّب حكم مَن به حكم قول الذي علّم بالقلم ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النِّساء: الآية 148] فتبارك الله أصدق القائلين.

وقد تقدّم لنا أيضاً كلام كثير في الفقهاء والطلبة، وتعمّرت به طوامير وسجلات لو علم صانعها ما الذي اكتتب فيها من ذلك لكان من المحتمل أن لا يصنعها، لكن يا سيدي يحيى أنا في أمان ما دمت حياً لأن شأنك كتمانها لا إشهارها وإعلانها، فإن قُدِّر موتي قبلك فعند ربِّي أحتسب عنائي وشقائي فيها لأني في ذلك أكون بمنزلة مَن سأل عن مسألة فلم يُجَب، أو دعا بدعوة ولم تُستَجَب، وإن قُدِّر بموتك قبلي فسيكون فيها من الزحام وكثرة الكلام وإتعاب الأيدي والأقلام ما لو علمت ذلك وأنت في البرزخ لعضضت على أناملك

وأكلت يديك غضباً وغيظاً وندماً إن لم يكن قرع ذلك سمعك وأنت في عالم الدنيا، لكن الرزق مقسوم والرزّاق سبحانه حاكم لا محكوم، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. كلام على قول القائل لمَن يعذله ويلومه على التفريط وترك العمل، فأعمال البر ما وفقت لذلك. وهل هذا القول خطأ أو صواب؟ وعلى ما تعلق به من معانٍ أُخَر؟

اعلموا أن هذا القول في حال يكون خطأً وفي حال يكون صواباً، وأما الحال الذي يكون فيه خطأ فهو إذا قاله صاحبه منتصراً لنفسه ومحتجّاً لها من غير ظهور افتقار ولا غلبة انكسار، لأن العبد من حيث هو عبد لا ينبغي أن ينتصر لنفسه ولا يحتج لها وإن كان في كلامه ذلك ينطق بالحكمة ويتكلم بمحض الحق وذلك من أعظم الجنايات التي لا انتعاش له منها عند سيّده، ولم يعذر الله تعالى الكفار حين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النّحل: الآية 35] وما أشبه هذا، وهو كلام صحيح يجب على كل أحد اعتقاد مضمنه كما يجب عليه أن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له، ولكن كان كلامهم ذلك مدخولاً لإرادتهم الانتصار والاحتجاج لنفوسهم، وشأن العبيد مباين لهذا كله.

وقولكم: وكذلك يقوله مَن لا يصلي ولا يتطهر من جنابة، إنما يقوله على هذا الوجه المذموم، ولذلك ذمّ منهم هذا القول.

وأما الحال الذي يكون فيه صواباً فهو إذا قاله قائله غير منتصر لنفسه ولا محتج لها وإنما قاله إخباراً منه عن قدرة الله تعالى فيه ونفوذ تقديره عليه مع شدة افتقار ودوام انكسار، وخذ هذا المعنى من قول النبي ﷺ: «**فحجّ آدم موسى**»[1] أي غلبه بالحجة، والحديث صحيح مشهور، إن شئت أن تقف عليه كل أحد يُخبرك به.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب تحاجّ آدم وموسى عند الله، حديث رقم (6240) [6/ 2439] ورواه مسلم في صحيحه، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، حديث رقم (2652) [4/ 2042] ورواه غيرهما.

وقولكم: وتعرف النفس الخبيثة ما تحب إلا الثناء والحمد، ولا ينبغي الثناء والحمد إلا لله تعالى، بعد قولك: وغيرك إن عرف ما أنا عليه يمقتني ويبغضني وهو بعُذره فيّ دليل على أن ما كنتُ قلتُه لكم يدخل لكم من أُذن ويخرج من أُذن أخرى، لكني أعذرك في ذلك كما هو المألوف لك مني لأنك لم تخالط أحداً له عقل ولا فهم، ومَن خالطتَه من غير العقلاء والفهماء تراهم في الفلك الأطلس فمن أين يجيئك معرفة الحق من الباطل الذي رغبتموه من الله تعالى في الكتاب الذي قبل هذا، لو سافرت إلى أقصى الصين وعمرت ما عمر نوح من السنين لم تصل إلى ذلك وعندك شيء من الدعوى.

ومن الدعوى التي هي أعظم من البلوى أن تعتقد في نفسك أنها خبيثة وأن كل مَن يمقتك ويبغضك هو بعذره فيك، فليت شعري من أين حصل لك هذا الاعتقاد وهذا العلم؟ ولا تظنّنّ أني في هذا الكلام أنكر عليك وجود هذا الاعتقاد، كيف وهو مطلوب به كل العباد؟ لكن أنكر عليك أن تبنيه على أساس غير مستقيم، والأساس الذي هو غير مستقيم أن تشاهد ما أنت عليه من الذنوب وتغفل عما لله عليك من النِعَم، ولا شك في كونك على هذه الحال، ومَن كان على هذه الحال لا يفلح أبداً، لأن الغفلة عن النِعَم تؤدي إلى كفرانها، وكفرانها يؤدي إلى سلبها، ولستُ أعني بالنِعَم الدينار والدرهم والمأكول والمشروب فقط، وإنما نعني بذلك أن وفقك لأن تقول لا إلٰه إلا الله يوماً من الدهر، وأن تستيقظ من نومك بعُماشك وبُصاقك حين تسمع أذان الزقاق فتقرّب آنية الوضوء لتتوضأ منها، وأن تقوم إلى الصلاة فتنقُرها نقر الديك.

فهذه وما أشبهها هي النِعَم التي أعنيها، ولا أقول لك هي ما اتّصفت به من دين أو صلاح أو إقبال على خير أو تجنُّب لشر، بل ألغي لك هذا كله وأطالبك بواحدة من تلك النِعَم التي تقرّ بأنّ الله تعالى أنعم عليك بها بلا شك وأنت تستحقرها وتستهين بها، فإذا أقررتَ بها بقي عليك أن تعرف قدرها، ومعرفة قدرها هو أن تعرف أنها لا تليق بك من حيث أنت، فإذا عرفت أنها لا تليق بها من حيث أنت استولى عليك من الفرح بها ما يمنعك من التطلع إلى سواها، وذلك هو حقيقة الشكر الذي تستوجب به المزيد، ومن مقتضى ذلك أن

يرحمك مولاك فيسمح لك عن مساويك وعيوبك التي أنت متّصف بها، وهي في رقبتك بمنزلة صيام العام، ولا سبيل لك إلى إماطة شيء منها عنك بقوة ولا حيلة، لأنك إن تشوّفت إلى ذلك بقوة أو حيلة كان ذلك من أعظم المساوىء والعيوب التي تزداد بها إلى حملك حجراً. فأنت ترى هذا الطريق ما أقربه وما أسهله لمَن أُهِّل له، وما أبعده من المهالك والمعاطب التي تعرّض لها مَن لم يُوفَّق له، وترى أيضاً من سياقة هذا الكلام، هل أثنيت على الله تعالى وحططت النفس في أسفل سافلين أو أثنيت على النفس وألغيت الثناء على ربّ العالمين؟ كلا والله، بل أنت ومَن أشبهك بما ترومونه عكستم الأمر فأثنيتم على النفس بكمال العلم والقدرة والقوة، إذ شأنكم أن تلوموها على التفريط والكسل اللوم المفرط من غير وجهه، ولولا اعتقاد أنّ لها عندكم قدرة وقوة ما لمتموها ذلك اللوم وألغيتم الثناء على الله تعالى بغفلتكم على النِعَم التي أنعم بها عليكم من غير استحقاق وقلتم: هلا أعطينا ما هو أكبر من ذلك، وأي شيء أنتم حتى ينعم عليكم وألوف من أقرانكم وأشباهكم قد طُردوا وأُبعدوا، فما هذا الجهل والغيبة؟ أرأيت لو أن عبدين مشفشفين مكرّشين ملطّخين بأنواع الأقذار والأنجاس اشتريتهما من البِركة التي هي عندكم سوق الخدم والعبيد من غير حاجة منك إليهما، ثمّ عمدت بهما إلى منزلك فنظفتهما من الأقذار والنجاسات وكسوتهما قميصين يساويان دراهم معدودات، ثم إن أحدهما رأى في بيتك من جباب «الإشكرلاط» وقباطيْ الحرير والديباج شيئاً كثيراً فقال لك: اكسني جبّة من هذه الجبب أو قبيطة من هذه القباطي فإن المعاملة التي عاملتني والقميص الذي ألبستني ليس لشيء من ذلك عندي وقع، وسكت الآخر فلم يقل شيئاً بل لم يمِل بخاطره إلى شيء من ذلك علماً منه بأنه لم يستحق ذلك التنظيف الذي نظّفته والقميص الذي ألبسته فضلاً عما فوق ذلك، مع علمه بأنك قادر أن تنزع عنه السِتر وأن تمدّه وتذبحه إلى غير القبلة من غير مبالات منك بذلك، أيّ العبدين تجده آثر عندك وأقرب إلى تحرّي مرضاتك وأوْلى باستحقاق النِعَم السابغة منك عليه؟ أهذا العبد الشاكر أم ذلك العبد الكافر؟

ولا شكّ أن العبيد المكلّفين في هذه الحياة الدنيا بهذه المثابة. فمِن عبد أنعم الله عليه بنعمة ـ أي نعمة كانت ـ فمات من شدة الحياء من الله تعالى من

كونه ذكره بتلك النعمة على خساسة قدره وتفاهة خطْره، فاستغرق في الشكر عليها وذهل عن تطلُّب ما سواها. ومن عبدٍ أنعم الله عليه بنِعَم كثيرة وهو يرى أنه فاته من النِعَم ما استحقر ما أنعم به عليه في جنبه إذ لو لم يستحقر ذلك ما تطلّع إلى غيره. فما أحرى هذا بأن يسلب عنه النِعَم بكمالها لمّا كفرها، وما أحرى العبد الأول الذي شكر تلك النعمة التي أنعم بها عليه مولاه بأن يفيض عليه من النِعَم ما لم يخطر له قط ببال. فهذا الشخص الذي يرى نفسه مفرطاً في حقوق الله تعالى غافلاً عن جملة النِعَم التي أنعم بها عليه، إن كان يعتقد أنّ لنفسه في ذلك مدخلاً فبئس الاعتقاد ذلك، وإن لم يعتقده بل اعتقد أنَّ الله تعالى حرمه فما عنده ما يعمل، فلأيّ شيء ينظر إلى ما حرّمه؟ فيكفر النعمة الموجودة ولا ينظر إلى ما به أكرمه فيذهل بشكرها عن تطلُّب النعمة المفقودة، ما هذا إلا من عمى البصيرة ـ نعوذ بالله من ذلك ـ فإن عمى البصيرة هو الذي أوجب لكم كونكم أبقتم من الله تعالى بنفوسكم فترون من أجل التكليف الذي كلّفكم أنه مفوّض إليكم إصلاحها أو إفسادها، فإذا قدّرتم وقوع الإصلاح لها منكم فرحتم لما لكم في ذلك من المنفعة التي تتوهّمونها تكون لكم في الدار الآخرة لا لإقامة العبودية لله عزَّ وجل، وإذا قدّرتم وقوع الإفساد لها منكم حزنتم لما لكم في ذلك من المضرّة التي تتوهّمونها تقع بكم في الدار الآخرة لا لما تركتموه من آداب العبيد بين يدَي الربّ المجيد. وكل ذلك عند العارفين بالله تعالى المطّلعين على حقيقة الحق جهالات وخيالات لا يثبت منها في نظرهم التحقيقي شيء، بل النظر المحقق يوجب لهم أن يروا نفوسهم وقلوبهم بيد الله تعالى ليس لهم قدرة مستقلة على شيء من الخير يجلبونه إليهم ولا أيضاً على شيء من الشرّ يدفعونه عنهم.

فلما تحقّقوا بهذه المعرفة كان معتمد أمرهم اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه في أن يوصّل إليهم الخيرات ويدفع عنهم المضرّات. فإن كل حركة تجري عليهم في موافقة أو مخالفة ملغاة في نظرهم لا يعتقدون لها سببية في حصول منفعة أو مضرّة، ولا يرون في ذلك سببية إلا لإرادة الله تعالى ومشيئته فقط، فتعلّقت قلوبهم بذلك واطمأنت لما هنالك، فلما اطمأنت قلوبهم إلى ذكر الله زالت عنهم خباثة نفوسهم من حيث لا يشعرون وصارت طيّبة طاهرة، لولا ذلك ما فارقتها

الخباثة ولو أنها بلغت من العبادة والزهادة كل مبلغ فنفس أكبر العبّاد ونفس فرعون ذي الأوتاد مشتركتان في الخباثة وقلّة النجابة إلا مَن رحمه الله تعالى بهذا الأمر العزيز الذي لا يوصل إليه بسبب ولا حيلة بل لا يفهمه أكثر مَن يشار إليه في هذه الأزمنة لأن نوافح المسك لا توجد في بيوت الكنّافين والسرّابين، نعني بهم كل مَن له نفس معلّقة من عنقه كأنا وأمثالي نتحمّل منها على رقابنا حمالة ثقيلة مع أنها ليست بحسنة ولا جميلة، لو قذفت إلى كلب لبوّلها أو طرحت إلى ذئب لنيّبها، لا لما هي عليه من ذنب وعصيان بل لما هي عليه من تكبُّر وطغيان، ولا أعني بالتكبُّر والطغيان أن يرفع صاحبها شنفوره على الخلق أو يظلمهم ويبخسهم شيئاً من الحق، وإنما نعني بذلك أن يكون عنده شيء من الدعوى التي هي أعظم البلوى ولو كان صاحبها حائزاً للحظ الأوفر من ظاهر التقوى.

وعلامات وجود الدعوى في العبد لا أذكرها لئلا نقع من ذلك في أمر تنكرونه عليّ من غير حاجة بذلك إليّ، والله تعالى يعلم المُفسد من المُصلح. وهذا كله كلام جرى به القلم وتعمّرت به هذه الكواغد من غير ظنّ منا أن ينتهي إلى هنا، قصدت به أن أجذبكم إلى الطريق المستقيم الذي حُدتُم عنه بما ظهر لي من ذلك الكلام الذي تكلّمتم به، فإن صادفت فيه الغرض فالحمد لله، ونسأل الله تعالى أن يهدينا وإياكم إلى سبيل الرشاد من غير أن يكون لكلامي في ذلك شيء من التأثير، وإن لم نصادف فيه الغرض فاجعلوه من جملة المقارع التي شأن نفوسكم الخبيثة بزعمكم أن تمقرع بمثلها، لكني قصدت أن أضربكم بها فجاءن يدي في الحائط. واقبلوا عذري وسامحوني فيما ترون فيه من خشونة أو جفاء، فما حملني على ذلك إلا أنه عزّ عليّ الحال التي فهمت أنكم عليها من التيه والتحيُّر والعمى بعدما وقع مني إليكم التنبيه المتكرِّر مرات، والله تعالى الهادي والموفق لا ربّ غيره ولا معبود سواه.

الرسالة الثانية والثلاثون

وقد كان بلغنا منكم كتاب صحبة فلان وتعرفت منه ما كتبتم به، وتعرفت من

كتاب فلان أنكم في غاية الكرب ونهاية الضرّ، فها أنا أذكر لكم ما تستعينون به على الصبر عليه والرضى من الله تعالى فيه، والله وليّ التوفيق لنا ولكم.

واعلموا أن العبد لو كان لا يلقى الله تعالى إلا بعمله بالطاعات والعبادات الظاهرة لما كان له في ذلك منتفع ولكانت صحائف حسناته خالية خاوية، لأن قبول عبادات العبد مشروطة بإخلاصه فيها ونفْيه الآفات عنها، وكيف يسلم أمثالنا من ذلك مع حبِّنا للدنيا وإيثارنا طاعة الهوى؟ فمِن نعمته علينا ورحمته بنا أن ابتلانا بالمصائب والنوائب والهموم والغموم ليحصل لنا بذلك في العاجل رقة وافتقار بالقلب، ودعاء وابتهال باللسان، وذلك من أعظم العبادات وأفضل القربات، ويحصل بذلك في الأجل تكفير السيئات وترفيع الدرجات من غير أن نخشى عليها آفة ولا عاهة، فقرُّوا عيناً بذلك، وليكن لكم أسوة حسنة في الأنبياء وخواص الأولياء، فإنهم أعظم الناس بلاءً لأنهم أعظم عند الله تعالى ثواباً وجزاءً.

ولو لم يرد في هذا المعنى إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية 10]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات 155-157] لكان ذلك كافياً. فالله تعالى يرزقنا وإياكم الصبر على ما ابتلانا به والعافية مما لم يبتلنا به.

وإذا لم نكن من رجال البلاء فينبغي لنا أن نسأل الله تعالى العافية في الدين والدنيا والآخرة. فهذا مما يخفف وقع المصائب عليكم ويُحلّيها لكم. ومما يخففها أيضاً على العبد توقُّع نزول الموت به في كل نَفَس، وفي بعض الآثار: «**أكثروا ذكر هاذِم اللذّات فإنكم إن كنتم في ضيق عيش وسّعه عليكم فرضيتم به فأجرتم، وإن كنتم في سعة نغّصها عليكم فزهدتم فيه فأُثبتم**»(1) ومثال هذا مثال رجل حبسه السلطان في محبسه على نيَّة أن يُخرجه للقتل

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر العلة التي من أجلها أمر بالإكثار من ذكر الموت، حديث رقم (2993) [7/ 260] ورواه بنحوه غيره.

والصلب في أي وقت أراد، فإنه في حال كونه هنالك لا يجد لذة شهوة ولا متعة، ولا يجد ألماً لضربة ولا خدشة، لأنه يتوقع نزول ذلك الأمر العظيم به وتفريقه بين روحه وجسده. ولا شك أن الإنسان في هذه الدار مسجون محبوس وهو مرتقِب في كل نَفَس أن ينزل إليه ملك الموت فينزع روحه عن جسده ويصيره جيفة من الجِيَف. وأي فرق بين هذين الأمرين لمَن كان عاقلاً؟ فإذا أشعر الإنسان خاطره بذلك وطاوله بفكره وألزم تذكاره قلبه لم يتصور منه وجود غمّ ولا حزن لشيء من مصائب الدنيا كائنة ما كانت.

ومما يخففها أيضاً على العبد أن يعتقد أنّ في مقدور الله تعالى ما هو أعظم مما ابتلاه به، وقد صرف الله تعالى ذلك عنه وابتلى به عبيداً لا يحصون كثرة وعافاه منه، وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يعتادون في كل وقت حضور ديار المرضى والزمنى ويتفقدون مواضع إقامة الحدود والعقوبات على الجُناة وأرباب الجرائم من قطع أو ضرب أو قتل، كل ذلك ليستذكروا نِعَم الله تعالى عليهم، فتحملهم رؤيتها على الشكر لربِّهم عزّ وجل إذ عافاهم مما ابتلى به غيرهم مما ذكرناه ويقفوا على حدود الأدب بين يديه وصدق المعاملة له. وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**انظروا إلى مَن هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»(1) أو كما قال ﷺ. وأنتم إذا نظرتم في هذا الأمر بعين البصيرة وجدتم مَن هو أدنى منكم أكثر من أن يحصى في أمور الدنيا وفي أمور الدين، وأنكم تفوقونهم لا محالة بنِعَم دينية ودنيوية ولا يمكنكم إنكارها، أما النِعَم الدنيوية فظاهرة، ولو لم يكن من ذلك إلا صحة بدنكم وخفّة ظهركم من تبعات الأهل والعيال، وأما النِعَم الدينية فعندكم بحمد الله منها شيء كثير، وذلك مثل ملازمتكم لمذهب أهل السنَّة، ومجانبتكم لأرباب الضلال والبدعة، وسلامة جوارحكم من الظلم والعدوان والانهماك في متابعة الشيطان، وما رزقكم الله تعالى من محبة الخير وأهله وتهمة النفس وسوء

(1) رواه الترمذي في السنن، باب (58) حديث رقم (2512) [4/ 665] ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (10251) [2/ 481].

الظن بها، والخوف من الذنوب والحزن عليها، وابتلاء الله تعالى لكم بالفقر والفاقة اللذين هما من شعار الصالحين، وملازمة الذلّة والانكسار اللذين هما من أخلاق المؤمنين، إلى غير ذلك من النِعَم التي لا يمكنكم إنكارها ولا جحودها، ويكفيكم من ذلك ما تقدّم لكم من موالاة سيِّدي سليمان ـ رحمه الله تعالى ونفعنا به ـ وخدمتكم له إلى أن فارق الدنيا، وقد كنتم إذ ذاك تتقلقلون إلى السفر والقدرة تحبسكم حتى بلغتم من ذلك غاية الأمل والمرغوب، والرجل المذكور من أولياء الله تعالى المتحقق ولايتهم.

وقد أنعم الله تعالى عليكم بجمع ذلك من غير حول منكم ولا قوة، وكثير من الناس معدوم منهم هذه الصفات والأحوال غرقى في بحار التيه والضلال. فهذه كلها أدوية قامعة لمادة العلل التي حدثت عندكم، فإذا استعملتموها حمدتم عاقبتها إن شاء الله تعالى. والله تعالى يُفرِّج عنكم ويجعل ما أصابكم تكفيراً لذنوبكم وترفيعاً لدرجاتكم.

***

الرسالة الثالثة والثلاثون

وقد بلغني كتابكم مطوّلاً بعد أن كنت بعثت إليكم جواب كتاب بعثتموه إليّ مختصراً، وتعرّفت منه حالكم السيىء، ولست أعني بحالكم السيىء ما حكيته عن نفسك مما يرجع إلى قلة الدين وقلة الدنيا، وإنما نعني به مجرد فهمك لذلك وعملك عليه وكونه بين عينيك وسواساً خنّاساً حتى أهلكت نفسك وحملت من ذلك أثقل من الجبال الرواسي، والجهل يعمل بالإنسان أكثر من ذلك كما قال الشاعر:

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[1]

ويا أخي كيف ساغ لك أن تقول في كتابك المرة بعد المرة: إني عن باب

(1) هذا البيت هو لصالح بن عبد القدوس وكل شعره حكم وأمثال [لباب الآداب للثعالبي، الباب العاشر في فنون مختلفة [1/ 139].

مولاي مطرود ودون كل خير أريد أن أحلى به ممقوت مبعود. وقولك: وما أنا إلا ممن حقّت عليه كلمة العذاب، أفأنت تنقذ مَن في النار؟ وقولك: وتبادر لذهني أني شقي محروم مطرود مذموم. أتدري أيّ مصيبة وقعت فيها بهذا الكلام وبالحال الذي حملك عليه؟ هي أنك رأيت نفسك وحسبت أنها شيء معتبر وأن الأحوال المحمودة قد هيِّئَتْ هي لها وجُعل فيها تمام قابلية لنيلها والوصول إليها، ثم صرفها عن ذلك ما استولى عليها من الغفلات وما هي مبتلاة به من الشهوات، وترى أن في قدرتها أن لا يصدّها ذلك ولا يصرفها عن الخيرات التي هي مهيأة لها لكنها لم تفعل ولم تتشاغل بذلك. وهذا فيه شيء من الدعوى لأن رؤية النفس وتوهم أن منها فعلاً أو جعلاً أو استحقاقاً لمرتبة من المراتب أو حال من الأحوال الشريفة شيء عظيم، ثم فيه مع الدعوى المذكورة منازعة الإرادة والقدرة، لأنك تعلم أنه لا يكون في مُلكه إلا ما يريد، وأن قدرة الله تعالى غالبة على قدرة العبيد، ثم مع هذا ضجرت وجزعت وتكدّر وقتك وتشوش حالك، ولم يكن سبب ذلك إلا أنك رأيت قدرة الله تعالى غالبة لك، وإرادته نافذة فيك، ثم إنك كرهت ذلك وأحببت أن يتغير علم الله تعالى وقدرته وإرادته وحكمه فيك لما أنت له مُحبّ وله مؤثر، ولا معنى للمنازعة إلا هذا، بمنزلة مَن أخذه ملك قاهر وقيّده بقيود وغلّله بأغلال وطرحه في سجن فيحزن لما فعله معه الملك ويقول في نفسه: هلا أكرمني وخلع عليّ وجعلني في بستان أو قصر بدلاً مما فعله معي، فما أحبّني في أن يكون فعل بي ذلك وتغيّر ما قضى به عليّ، فهذا وِزان ما أنت عليه لأنك لم تنكرب ولم تتغير ولم تجزع ولم تضطرب إلا لأمور أوقعها بك ربك قد مضت وفُرِغ منها.

فإن قلت: إنما الموجب لكربي أن يدوم لي هذا الحال ولا يكون لي منه انفكاك ولا زوال. فأقول لك: إنك لا تدري ما يكون ولعلك فيما تستقبل ستجد قوة ونهضة إلى الأعمال الصالحة والحالات المرضية ـ والساقي باقي ـ فلأي شيء تحجّر القدرة؟ وكم رأيت ممن كان كافراً ثم آمن أو عاصياً ثم أطاع أو معوَجّاً ثم استقام. فهذه مصيبة وبرصة وقعتَ فيها وأنت لا تشعر بها، إذ لو شعرتَ بها لتمنّيت أن القلم الذي كتبت به ذلك الكلام تكسّر، وأن الكاغد

الذي كتبت فيه تمزّق، وأن اليد التي تصرّفت في ذلك أصابها خدر وارتعاش حتى لا تخرج تلك الصورة المستقبَحة للوجود.

هذا كله إن كنت رأيت نفسك في جميع ذلك وحسبت أنها شيء معتبر. وأما إن لم ترَ نفسك في ذلك بل رأيتها أسيرة في قبضة القدرة ـ لا تُبدي ولا تُعيد ـ فقد وقعتَ بذلك الكلام في طامة أخرى، وهي سوء ظنك بربك. وأي شيء أدراك ومن أين علمت أنك مطرود مبعود ممقوت، وأنك ممن حقت عليه كلمة العذاب؟ أبعث إليك بذلك رسولاً أو أُنزل عليك كتاباً؟ كلا بل أسأتَ بربِّك الظن وحكمتَ بأن سوء قدره قد نفذ فيك، لكن بالتخمين والحذر. وهلا أحسنت ظنّك بربك وقلت: أنا محل لنفوذ قدره وقضائه، وهدف لسهام أحكامه، وكل ما يحكم به عليَّ من هداية أو ضلال أو سعادة أو شقاء أو ربح أو خسارة أو طاعة أو معصية، كل ذلك سواء بالنسبة إلى عظمته، فمن الجائز كما حكم عليّ بالضلال في الماضي حكم لي بالهداية في المستقبل، وكما حكم لي بالشقاوة حكم لي بالسعادة، وكما حكم لي بشيء حكم لي بضده.

بل الرجاء وحسن الظن ينبغي أن يكون الغالب لأمرين، أحدهما: أنه يحبّ ذلك منك، **والثاني**: حسن المعاملة التي عاملك بها في دينك ودنياك.

أما محبته ذلك منك فهو أمر معلوم بنصوص الشرع، ولا يحصى ما ورد من هذا المعنى. **وأما حسن المعاملة** التي عاملك بها في دينك ودنياك فإنك إذا صرفتَ نظرك إليها وتصفّحتها وفتّشتها لم تجد معاملة واحدة بين ألف معاملة خالية من الإحسان واللطف البتة، بل ألغِ ذلك كله وقدِّر أنك فقير من الدين وفقير من الدنيا، فالفقر الحقيقي من الدين لا يتصوّر إلا بوجود الكفر، والفقر الحقيقي من الدنيا لا يتصور إلا بأن تسلب عنه جميع النِعَم الداخلة فيه والخارجة عنه، فيسلب عنه مثلاً ماله وصحته وجماله، ويكون مجذوماً أو مبروصاً مدفوعاً بالأبواب، مضروباً للناس بسوط الإبعاد والحجاب. فهذا هو أنهى ما يُقدّر، لكن إذا عرف هذا الشخص حاله في سلب النِعَم الدينية والدنيوية عنه، كان معرفته بحاله نعمة عظيمة فائقة جميع النِعَم بحيث إنه لو انفتحت بصيرته وخُيِّر بين أن يُسلب هذه المعرفة ويعطى جميع النِعَم أو تبقى عليه هذه المعرفة ويُسلب جميع

النِعَم لاختار أن تبقى عليه ويُسلَب جميع النِعَم، بل لو انفتحت بصيرته لشاهد أن معرفته بحاله هي النعمة التي تستغرق جميع النِعَم وأن فاقد ذلك وإن أُخِذ بيده وجُعِل في الفردوس الأعلى ليس إلا في خسار وبلاء.

فإذا عرفت هذا طاب عيشك وانتفخ ريشك وشاهدت لك الفضل على تسعمائة وتسعة وتسعين شخصاً من ألف شخص، مشاهدة خالية من الآفات والعلل، ويبقى واحد من ألف، إما أن يكون له الفضل عليك أو تتساوى معه. وإنما كانت خالية من الآفات والعلل لأنك لم تشاهدها من حيث أنت ولم تطالع بها حظاً من حظوظ نفسك البتة.

هذا كله بتقدير أن تكون مسلوباً جميع النِعَم، كيف وقد هداك ربُّك لأن تقول: لا إله إلا الله، وتبقى ثلاثة أيام أو أربعة وتأخذ لقمة لا منَّة لأحد فيها عليك وتجعلها في فمك وتجد لذّتها في حلقك، وتشاهد في بعض الأحيان ولديك فلاناً وفلاناً ـ هداهما الله تعالى ـ يقفزان ويلعبان ويضحكان، وكذلك فلانة، وأنت في هذا كله ساكن الجأش مهدّن الروعة. فهذا أقل ما يمكن أن تعترف به. ولو شئت أن أتدرّج لك من هذا وأترقى بك قليلاً قليلاً قليلاً إلى أن أُريك مِن نِعَم ربِّك عليك في الدين والدنيا ما لا تسعه عبارة ولا تلحقه إشارة، وتعترف بجميع ذلك أتمّ اعتراف، مع ما أنت عليه من القبائح وأنواع الفضائح لم تقلع ولم ترجع لفعلتُ. ولكن التنبيه والإيماء في هذا الموطن أبلغ من الإفصاح والتصريح.

فكما رأيتَ أنك في حكم الله تعالى مطروداً مبعوداً ممقوتاً وممن حقّت عليه كلمة العذاب باعتبار ما أنت عليه من الصفات الخسيسة والأعمال الخبيثة، فلِمَ لا تجوّز تجويزاً غالباً أن تكون عنده حظيّاً مقرّباً محبوباً قد سبق لك من الله الحُسنى باعتبار ما هو عليه من الجود والكرم والمَنّ والفضل؟ بل هذا أوْلى، لأنك تركت اعتبار نفسك وما هي عليه من الصفات اللائقة بها ونظرت إلى ربِّك وما هو عليه من الصفات الحميدة والنعوت المجيدة مع أن عندك من أفعاله معك ومعاملته لك آلاف الآلاف مما تقيس عليه ذلك، وليس عندك مما تقيس عليه في الجانب الآخر شيء. فلا يستقيم إذاً لإبليس أن يقول لك: لمَ أحسنتَ بربِّك الظنّ واتكلتَ على فضله وكرمه وألغيتَ أمر نفسك ولم

تعتبره ولم تبالِ به؟ ويستقيم كل الاستقامة أن يقول لك ربُّك: لِمَ أسأتَ ظنّك بي واعتبرت نفسك ووقفت مع صفاتك وآفاتك؟ أما شاهدت المعاملة التي عاملتُك والتربية التي ربّيتُك؟ فمن ذلك ما بان لك وجه مناسبته لك وموافقته بحيث لم تملك نفسك أن استحسنته واسترضيته وهو أكثر ما يكون.

ومنها ما أخفيتُ عنك حاله لحكمة انفردتُ بعلمها، لو أظهرتُ ذلك لك لكانت بلية من جملة البلايا مع كونك بها قرير العين. ولعل من هذه النِعَم التي أخفيتها عنك رؤيتك نفسك بالعين التي رأيتها به من كونها مطرودة مبعودة ممقوتة. ولو أشعرتُك بأن هذه نعمة عليك من قَبل أن أسلبك عن نفسك وأُخرجك منها خروج الشعرة من العجين لكان في ذلك من الضرر عليك والفساد العائد إليك ما لا مزيد عليه. وعند ذلك لو ناحت عليك النوائح وبكت على مصيبتك البواكي لكان ذلك قليلاً في جنب ما بُليتَ به. ولولا أني لطفت لك بأن قيّضت لك عبداً من عبيدي وجعلت له ولكلامه موقعاً من قلبك فعمد إلى نفسك التي هي معتبرة عندك، ورأيت منها عظيماً كل ما تأتي وتذر، فجعلها بين رجليك تصدم عليها وتدوسها بنعلك القذر، وفتح لك بصراً ترى به نِعَمِي عليك ما بطن منها وما ظهر، وجعل لك بذلك سبيلاً إلى الوقوف ببابي والإيواء إلى جنابي لطردتك وأبعدتك طرداً وبُعداً لا تشعر بهما مني كما فعلته بأكثر مَن ترى عيناك ممن تصبح معه وتمسي من الجبابرة المسرفين والأغنياء المترفين، بل كما فعلت بكثير ممن ترى عيناك من أصحاب التلاليس[1] والحلاليس[2] الذين هم في صور الآدميين ولكنهم في عداد الأباليس. وذلك أني ألبستهم لباس الاغترار وأحكمت في قلوبهم رؤية الأغيار فعَمُوا بذلك عن التحقيق وحادوا عن سواء الطريق.

أما سمعت ما نقل لك عني مما أوحيت معناه إلى نبيي يعقوب «لولا

(1) تلاليس: جمع التِّلْسَة: وعاء يُسَوّى من الخوص شبه قُفَّة، وهي شبه العيبة التي تكون عند القصارين (تاج العروس).

(2) الحِلْس: كل شيء وَلِيَ ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج وقيل هو كساء رقيق يكون تحت البرذعة، والجمع أحلاس وحلوس (لسان العرب).

لطفي لك وعنايتي بك، لجعلت نفسي عندك أبخل الباخلين، ولكن لعنايتي بك، جعلت نفسي عندك أرحم الراحمين». فإذا رأيتني عاملتك بهذه المعاملة الحسنة التي تعجز في وصفها الأقلام والألسنة، فلأيّ شيء تُسيء ظنَّك بي فترى أني طردتك وأبعدتك ومقتُّك وجعلتك ممن حقّت عليه كلمة العذاب؟ رؤيةً كدّرت عليك عيشك وشوّشت عليك نفسك ومنعتك راحتك وأُنسك. أأذنتُ لك في ذلك أو حرّضتك عليه أو ندبتك إليه؟ أفي حكمي تخرّص أم في مملكتي تزيد وتنقص؟ ولقد كان لك في مكابدة أمر معاشك وتصوير اللقمة لك ولعيالك ما يكفيك حصول العذاب به إن لم تشاهد فيه لطفي وعطفي. فكيف وقد أضفت إليه الكرب الذي أصابك من التخريص في قدرتي والتحجير عليَّ في مملكتي وسوء الظن بي؟ فأعرضت بذلك عن بابي وتصاممت عن خطابي واشتغلت بمعاندة قدرتي ومراغمة حكمتي.

فهذا كله كلام مستقيم لا يقدر أن يُردّ منه حرف واحد. فهاتان مصيبتان وطامتان نازلتان بك وبهما كان حالك الذي أنت عليه من الغم والكرب شيئاً لا يرضى به عاقل ولا يصدر ويتصور إلا من غبي جاهل، وهو الذي قصدت أن أتكلم لك عليه، وأُبدي وأعيد فيه، وأنت إذا تأملت هذا الكلام كله من أوله إلى آخره وأصغيت إليه بقلبك وفرّغت له سرَّك نفعك النفع البيِّن من هذا المرض المزمِن. وعُدّه أنت إما مرهماً وإما ترياقاً وإما معجوناً وإما إكسيراً ـ أي شيء أحببت أن تسميه سمِّه ـ وهو الذي ركبته لك لترجع به عن حدسك وتخمينك وحولك وقوتك واجتهادك ونظرك إلى نفسك حسبما طلبته مني.

وأما الحال الذي هو عندك سيىء وهو الذي سُقتم ذلك الكلام كله من أجله حتى أخذت بسببه في أودية كثيرة وطرق متشعبة، وهو كونك مكبَّلاً بالشهوات، عاجزاً عن التحلِّي بكل فعل حسن، قبيح الفعال، إذا رأيت طرفة أو شهوة تجد نفسك عليها كالثكلى ولا تُبالي في التوصُّل إلى ذلك بما حلّ أو حُرم وأنك كالأنعام ـ بل أنت أضلّ ـ إلى آخر ما قلت من هذا المعنى، فقد اشتركت معك ودائي وداؤك واحد. ولكنا إذا أحكمنا المعاني التي ذكرناها لك في مداواة علة الجهل الذي أصابك حتى نعرف بذلك جلالة قدر ربّنا وحقارة

أنفسنا ويصير لنا ذلك مَلَكة وحالة ثابتة راسخة، رجونا الله تعالى أن يلطف بنا في هذا الداء الذي ابتُلينا به.

فهذا ما حضرني من الكلام الذي طلبتموه مني على الحال السيئة التي لم تعجبني منك، فواظب على تذكاره وتكراره آناء الليل وأطراف النهار لتكون معانيه ملازمة لقلبك لتدفع بها ما يصيبك من الخواطر الردية والأفكار السيئة. والله تعالى الموفق لذلك والمعين عليه، لا ربّ غيره.

***

الرسالة الرابعة والثلاثون

وقد وصلنا كتابكم وتعرّفت منه حالكم وحال أولادكم وأنكم تتقلبون في النِعَم ظاهراً وباطناً. فالحمد لله على ذلك، وقد سُررنا به كثيراً.

وأما ما سألتم عنه من تلك المشاهدة وأنها هل يُتوصّل إليها بسبب أم لا؟ وما العلامة في كونها تصير للإنسان ملكة؟

أما الأول: فالسبب لا بد منه في الغالب، لكن السبب لا يتعيَّن بتعيين العبد، فالسببية التي يتعاطاها قاصداً بها ذلك المطلب باطلة لا جدوى لها لأنها من هذه الحيثية ـ أعني من حيث كون إرادة العبد وقصده متوجهين لها ـ أمر باطل. والمشاهدة التي أشرنا إليها أمر حق، وشيء من الباطل لا يمكن أن يُتوصّل به إلى الحق، ولذلك كان قولكم: بل نتكلّف المشاهدة المذكورة، واستعمالكم لفظ التكلُّف في هذا الأمر خطأً محضاً، ولو أمكن أن يُتوصّل إليها بسبب ـ يعتمده الإنسان ويقصده ـ لم تكن عزيزة في الوجود ولكانت من جملة المألوفات والمعهود. وإنما السبب في ذلك ما يهيؤه الله تعالى للعبد من غير أن يشعر بشيء من سوابقه أو لواحقه، فإذا وجده العبد لديه وأفضى به إلى المقصد الذي كان متطلعاً إليه شعر به إذ ذاك.

وليس هذا خاصاً بهذا المطلب بل هو جار في كل مطلب من المطالب ـ شريفاً كان أو غير شريف ـ وكم مرة يروم العبد أمراً ويجتهد ويأخذ فيه بكليّته ثم لا يصل إليه. وكم مرة يصل إليه ما لم يتشاغل به ولم يعوّل عليه. وقد

تجري على يد العبد أسبابه وهو في غفلة لا يشعر، وقد يفتح الحق تعالى له بابه من حيث لا يحتسب أو يقدّر، وهذه الحالات كلها هي أغلب حالات العبد.

وأما السبب الذي يتخذه عُمدة فما أكثر ما يُخلفه وعدَه ولا ينيله بغيته ولا قصده. وإن اتفق أن يجيء على وفق الغرض المقدّر والغرض المدبّر فإن التعب في تعاطي تلك الأسباب عتيد وذنب صاحبه من أجل سوء أدبه من الغفران بعيد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلَت: الآية 46].

فبمشاهدة العبد الأسباب هكذا يحصل له البراءة من الدعوى وإسقاط الياءات التي وجدوها في نطق اللسان، وعقد الجنان من أعظم المِحَن والبلوى. وبهذه الخلّة يتحقق في مقام التوحيد والجمع ويجد الراحة بمفارقة عالم الفرق الذي هو سبب كل هجر وقطع، وهو أيضاً محل التعب ومظنة وجود الكدر والنصب حسبما جرى لك في المقاتلات والمضاربات مع نفسك التي تضمّنها كلامك هذا من أوله إلى آخره. فاخرج يا فلان عن هذا كله ـ لا بنفسك ـ تكن رجلاً. وذلك بأن تكون نفسك عندك هدفاً مسلوباً عنها كل فعل وجعل مع اجتهادك في القيام بوظائف الشرع من غير تقصيرٍ ولا نقصٍ مُخِلٍّ.

وهذان الأمران فقط هما اللذان يجبان عليك ويوجبان لك أن تنساق المنافع والفوائد إليك.

فالأمر الأول: حقيقة توجب لك مطالعتها الراحة من التعب.

والأمر الثاني: شريعة تؤديك منازلتها إلى غاية الأرب.

فإذا أنت وفّيت هذين الأمرين حقّهما فاشكر الله تعالى على توفيقك لذلك، وإن لم تقم بحقِّهما وأصابك من أجل ذلك ضيق وكرب وأمر يزعج العقل واللب، فهو معدود لك في جملة القربات موضوع في كفَّة الحسنات. فلأيّ شيء تطلب الانفصال عنه وتروم التفصي منه؟ ثم من بعد هذا لا تبالِ بكل وسواس يرد عليك يريك نفسك أنها صالحة أو طالحة أو مؤمنة أو كافرة أو مثبتة للإلٰهية والدار الآخرة أو نافية لهما، أو أنها بصدد العقوبة أو المثوبة. فإن ذلك كله خواطر وأوهام ووساوس لا تفيدك شيئاً سوى الحرمان. وإن دامت بك أدّتك في آخر الأمر إلى دخول المارستان ـ لا على الوجه الذي دخله

عليه الشبلي ـ ولكن لحمق وخرق كل واحد منا بصدده أو قُل هو به مبلي. فقد تحصّل لك من هذا الكلام كله الجواب عن سؤال الأول، وهو: هل يُتوصل إلى تلك المشاهدة بسبب أو لا؟ مع ما انجرّ إليه الكلام من أمور غير واحدة.

وأما السؤال الثاني: وهو سؤالكم عن العلامة على صيرورة تلك المشاهد للعبد مَلكة. فاعلم أن صاحب الملكة لا يحتاج إلى علامة، كما قيل: من هو منغمس في الماء إلى زنده، كيف لا يعرف حَرَّ الماء من برده؟

ولكن من أدنى علاماته أن تمّحي عن باطنه آثار تلك الوساوس والخيالات ويجد الراحة منها في جميع الأوقات والحالات، ويكون كما قال سيدي عبد القادر:

أصبحت لا أملاً ولا أمنية أرجو ولا موعودَة أترقب

لكن مع توفية الأدب حقَّه وإيتاء الإجلال لله تعالى مستحقه. وهذه هي المشاهِد العجاب والموارد العِذاب والعطايا الفاخرة والمزايا التي حَظي بها أربابها في الدنيا قبل الآخرة. لا جعل الله حظّنا منها الوصف الذي منا ألف، ونظمنا في ذلك مَن أخذ منها بحظ وطرف بمنِّه وفضله.

فهذا ما حضرني من الكلام على السؤالين المذكورين، وهو مع ذلك مضمَّن كيفية التخلُّص من تلك الورطات التي ذكرتم كلها بتوفيق الله تعالى وتأييده. والله تعالى يدفع عنا وعنكم الأسواء ويحول بيننا وبين عدوان الأعداء. والسلام عليكم والرحمة والبركة.

***

الرسالة الخامسة والثلاثون

وقد بلغنا منكم كتابان اثنان وتعرفت منهما حالكم في الابتداء وما آل إليه في انتهاء من تهدُّن روعتكم وسكون خاطركم بالنسبة إلى ما كان أصابكم من الضيق والكرب. فنسأل الله تعالى أن يجزي أفضل الجزاء كل مَن سعى في مسألتك بلسان أو قلم أو قدم، وأن يعطيه أفضل ما يرجوه من ربه ويأمله من رضاه وقربه بمنِّه وكرمه.

وخبركم هذا الذي ذكر موته من جملة الأخبار التي تذكر في الفرج بعد الشدّة، وكم لك من خبر من مثل هذا في طريق الحجاز وغيره، وهذه الأخبار أعْوَن شيء على زيادة الإيمان واليقين لأن بوجودها يحصل للعبد خالص الشكر لرب العالمين، وهي من أبلغ ما تستجلب به القلوب الضعيفة لملازمة الأدب والكون بين يدَي الله تعالى كما يجب.

وقد حصل لي بسكناك هنالك مركز إن قدّر بمجيئي إليكم، والإمام الذي ذكرتم أني أعرفه ويعرفني هو فلان الذي كنت عهدته هنالك حين كان فلان ـ رحمة الله عليه ـ وهو رجل من أهل الخير، وأظن حاله شبيهاً بحالكم من الزلط وكثرة العيال، وقد اتفقتما هنالك «والغريب للغريب نسيب».

والأمر في سكنى تلكم البلدة كما كنت قلته لكم في الأسطر التي رسمتها في آخر ذلك الكتاب، وذكرتم أنكم انتفعتم بها، إلا أن ذلك الموضع من النفحات الكبار التي جاءتك في المضمار في سواد الليل وبياض النهار، أما في الليل فحين تسمع نغمات السمّار في الأسوار ونقنقة الضفادع في الأسحار على شواطىء الأنهار، وأما في النهار فحين تقف بباب المدرسة وتشاهد باب الملك وعزّته وترى الوجوه حوله دائرين حائرين راغبين راهبين، منهم مَن يخلع عليه أسنى الخِلَع، ومنهم مَن يذهب به إلى باب السبع، وأنت تعلم ما الذي يصنع به هنالك.

وأما إذا صعدت منار الجامع في الليالي المقمرة، وأشرفت على ما هنالك من البساتين المثمرة وغير المثمرة، والحيطان المنيعة والمباني الرفيعة، وتحقّقت ما فيها من اللذات وأنواع الشهوات وما تضمنته من الوجوه الملاح التي ليس عليها فيما تفعله جناح، ونزّلت هذه الجملة بمنزلة العروس التي تستولي بحسنها وجمالها على القلوب والنفوس، لم تشكّ ولم تَرْتَبْ في أن خُطّابها قد استعذبوا عذابها لما منحتهم اقترابها، وطلابها قد رضوا بقتلها لما تمسّكوا بحبلها، وعذرت هؤلاء الذين جاؤوها مبادرين لئلا تنتزع من أيديهم صاغرين، وعذرت أيضاً ذلك الذي يجيء من جهة الأندلس لأن مخطوبته مغناطيس كبار الأنفس.

وأما أنت وذلك الرجل البادسي، فالذي يحصل لكما من بينهم إنما هو لقمة تبلعانها في مسافة تقطعانها، وإلا فإنك إذا أمرت مَن يقول «حيّ على

الفلاح، الصلاة خير من النوم» يقولون لك بلسان حالهم: كذلك هو عندك، فإذا كبّر ذلك الرجل البادسي تكبيرة الإحرام يقولون له: «صلِّ أنت وحدك» لأنهم غرقى فيما عليهم استولى من شأنهم المستلَذ وحالهم المستحلى، وأنتما وهم - وإن تباينت أحوالكم - ففي التراب تجتمعون كلكم، ورأيت في هذا كله قدرة من قادر وحكمة من حكيم فاطر.

فإذا أدركت ها هنا الحال والوجد ورقصت على مناسبة هذه النغمات الروحانية والأوتار المعنوية التي ليس بينك وبينها مسافة ولا بُعد، لم يكن ذلك منك بعجيب ولا مستنكر لدى كل عارف لبيب، وعند ذلك تنجلي عنك كل غمّة وكربة، ويعمل هذا الحال فيك ما لا يعمله سماع نغمة ابن يعقوب ولا ابن أبي ضربة.

فهذا كله رأيته موافقاً للحال التي ذكرتم لي عن أنفسكم حين قلتم: وتكتب لي بما يظهر لكم أن لي فيه منفعة، فإني في هذه الأيام في كرب شديد وعيش نكيد، فإذا رأيت كتابكم لعل أن نجد فيه ما يسليني عما أنا فيه. فتسلَّى بهذه الجملة، واحمد الله تعالى على أن منحك كرمه وفضله، وإن لم تتسلّ بهذا لم يسلِك شيء غيره. والله تعالى يفرج عنكم الكرب ويوفّقنا للكون على حال نسعد بها في الحال والمنقلب بمنِّه وكرمه. والسلام عليكم والرحمة والبركة.

***

الرسالة السادسة والثلاثون

وقد بلغني كتابكم وذكرتم فيه حالكم من قلّة الراتب وعدم إنصافكم فيه، وأنكم رجعتم تخيطون في دار الصنعة ثياب أولئك الناس، ولن تتشاغل اليوم بشيء أفضل من ذلك، فنِعْم الفعل وحبذا الشغل.

يا أخي، ضاقت الأسباب عليكم وبلغ من ضيقها أن رجعتم تتشاغلون بأمر حذّر منه أهل الورع والدين، وجعلوا متعاطيه في عداد الظالمين، مع تمكنكم من غيره بأن تأخذ ما تخيطه من البلد البالي حيث الرعية والعامة وتتشاغل به في موضعكم فإنّ المعاش عندكم كما سمعت قد تحرَّك في التجارات والصناعات، فما أسرع ما عمل فيك ما كنت ذكرته لك من الظلام

الذي يصيب مَن يمسي ويصبح على وجوه أولئك الظلّام، حتى حملك ذلك على إعانة الظلَمة في أمور دنياهم.

وقد جاء رجل إلى ابن المبارك فقال له: «إني خيّاط فربما خطتُ شيئاً لبعض وكلاء السلطان، فماذا ترى أكون من أعوان الظَلَمة؟» فقال: «لستَ من أعوان الظلَمة بل أنت من الظلَمة، إنما أعوان الظَلَمة مَن يبيع منك الإبر والخيوط» وغير هذا مما هو معروف عنهم.

وقد كان لك في الراتب الذي تأخذه هنالك ـ وإن قلّ ـ كفاية، ولكن ذلك كله لا بركة فيه، وكيف يبارك في الأشياء الخبيثة؟ وذلك كله أمر مجرّب، وما أشبَّهُ ذلك الحرام إذا حصل في جوب الإنسان إلا بجهنَّم ولو ألقي فيها ما عسى أن يُلقى إلا وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: الآية 30] ولكن كنتُ وافقتكم على ذلك الراتب لأجل الضرر الذي كان أصابكم من كونكم تبقون الأيام والليالي لا تذوقون فيها طعاماً، فكان ذلك عندي أعظم عذر. فلا جرم ارتفع حالكم بعض ترقيع، فلو كنتم حين تتناولون ذلك تجدون مرارته لم تحبُّوا أن تستكثروا منه ولجعلتموه في مداواة علّة قِلّتكم بمنزلة الصبر السقطري[1]، ولكنكم وجدتم حلاوته التي هي مضادة لحلاوة الإيمان، والضدان لا يجتمعان. فذهبتْ إحدى الحلاوتين بالأخرى، فطلبتم الاستكثار من ذلك الشيء الحلو ولم يقدَح لكم هذا في خاطر ولم يتغيّر لكم بسببه قلب، وهل هذا إلا عن الظلمة التي كنت ذكرتها لكم؟

ولكن مع هذا كله فلا تأخذ عليّ، فإني فيه فضولي، ولعل ضيق حالك بلغ بك إلى أن يجوز لك مثل هذا وأنا لا أعلم، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. وإنما قصدت بهذا تنبيهك لئلا يصيبك الذهول والاستغراق حتى لا تعرف ما وراءك ولا ما قدّامك، مع أني أعلم علم يقين أنَّ مَن ترك شيئاً لله عوّضه الله تعالى خيراً منه، ولا يلزم من هذا العوض أن يكون من جنس ما ترك، ولكن لعله يكون رضًى وصبراً وقناعةً وزهداً وما أشبه هذا مما يعتمده

(1) السقطري: جزيرة ببحر الهند على يسار الجائي من بلاد الزَّنج، والعامة تقول: سقوطرة يجلب منها الصبر.

بالطلب كل عاقل لبيب، وينتهي به الحال إلى أن يقول ما قاله ذلك الرجل الذي بقي سبعة أيام لم يذق فيها ذواقاً فسُرَّ بذلك وقال: يا ربّ إن لم تطعمني ثلاثة أيام أُخَر لأُصَلِّيَنَّ لك ألف ركعة. ولكن قد قلت لك في تلك النفحة التي هيّأت لك نغماتها وأبنتُ لك ترنّماتها أنك إذا أمرت مَن يقول «حيّ على الفلاح» يقال لك: كذلك هو عندك، فلولا ما قدّمت من الاعتذار حين قلت لك: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، لم آمن أن تقول لي مثل ذلك المقال لما أمكن أن يكون استولى عليك من الظلمة التي لا يمكنك عنها في الوقت انفصال ولا زوال. والأشياء كلها نسبية، فالكنّاس إذا رأى الحائك يستحقره ويستذلُّه يعتقد أنه مغبون الرأي في اختياره ما اختاره، والحائك إذا رأى الكاتب كذلك، لأن «مَن جهل شيئاً عاداه». فإذا قدّرنا أن تقول لي ذلك سلمتُ لك في حالك وخلّيتك بصوابك مُحالك وقلتُ كما قاله العبد الصالح نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هُـود: الآيـة 34] ورأيت هذا من أكبر النفحات التي تهيأت لي في هذه الأزمنة التي أتت من بعد، ومما يجب أن يرقص فيها ـ ولا كرقص الأكوان ـ حين تذكر نجد، ولكن لا أظن بك ذلك، إذ لم أُحِط علماً بما هنالك كما ذكرت لكم.

وأما ما ذكرتم من الخوف الذي أصابكم من ألم الموت فهو أمر يعتري الإنسان من مقتضى مزاجه وطبعه، لأنه أنِس بهذا الضوء وألفه وقضى فيه وطره، ودعه يكون ملكاً أو صعلوكاً، وفراق المألوف أمر صعب. هذا لو كان الموت دون ألم، ولا يصيب صاحبه كرب ولا غمّ، فكيف إذا انضاف إليه ذلك على الوجه الذي يذكرونه؟ فحينئذ لا ينكر ما ذكرتموه عن أنفسكم من أنكم إذا تذكّرتم ألم الموت يسلب عنكم أكثر النوم ومنعكم الانشراح والاستراحة.

فهذان وجهان اجتمعا عليكم أوجبا لكم كراهية الموت وحب الحياة، ولا دواء ذلك إلا الإيمان بما جاءت به الأخبار والآثار من أنّ الموت من أجَلّ التحف التي يتحف بها المؤمن، ولهذا كان السلف الصالحون يتعرضون للحتوف وملاقاة السيوف وبذلك قدّروا على ما جرى على أيديهم من افتتاحهم للبلدان وغلبتهم جميع أهل الأديان.

وقد كان طُليحة الأسدي الذي تنبّأ بعد وفاة رسول الله ﷺ ثم بعد ذلك تاب وراجع الإسلام، قال له بعض أصحابه حين انهزم عنه أشياعه وأتباعه وتعجّب من ذلك: «أتدري لمَ ذلك؟ لأن أصحابك كل واحد منهم يحب أن يموت قبله صاحبه، وعدوّهم يحبّ كل واحد منهم أن يموت قبل صاحبه». وقد صدق فيما قال، لأن مَن طالع في خاطره نفاسة شيء لم يتمالك من أن يتهالك في طلبه والوصول إليه، وهم قد لاح لهم جمال الآخرة فاستطالوا مدّة إقامتهم في الدنيا واستعجلوا القدوم عليها وتسبّبوا لذلك ببذل المهَج في مواطن الحرب ومعارك الطعن والضرب. يقول أحدهم لما أصابه جرح صغير واستبعد أن يفضِي به إلى الموت: «**إنك لصغير وإن الله ليبارك في الصغير**» وكذلك كان بارك الله فيه حتى مات منه ـ حيّاه الله ـ وهذا كله أمر معلوم مقرّر.

وأما الوجه الثاني: وهو توقُّع الألم الذي يُذكر في الموت، فعندي فيه نظر.

أما أولاً: فلأنّ ما يُذكر من مبلغ ألم الموت لم يذكروا عليه قاطعاً ولا حجة قوية. فالأوْلى بالإنسان أن يضرب عن ذلك صفحاً ويستشعر فيه من الخفة ما ورد عن النبي ﷺ في شأن الشهداء من أن الموت عندهم بمنزلة قرصة النملة أو كما قال ﷺ. وإذا كانت الشهادة مما تغيّر حال الموت وتنقله من الثقل إلى الخفة، ومن الألم الكثير إلى الألم اليسير، علمنا منه أن الآلام في الموت ليست بطبيعية حتى لا يمكن انفكاكها عنه.

وقد كنت كتبت بهذا إلى فلان وطلبت منه أن يعرضه على مَن يمكنه ممن يشار إليه بعلم أو فهم لأنظر هل يوافقون عليه أو يخالفون فيه؟ وقد كان ذكر لي في كتاب ما ظاهره أن فلاناً وافق عليه، فإن صحّ هذا الظاهر ففيه أعظم تقوية لما ذكرناه لأن نظره عندي سديد.

وأما ثانياً: فلأنّ الخوف مما لا بد منه وتوقعه مما يزداد صاحبه ألماً وكرباً قبل مجيء وقته، كما قال سقراط: «استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه» ومثل هذا لا ينبغي لعاقل أن يتشاغل به أو يعمر باطنه به، فإذا وقع توسوس الخاطر به فينبغي له أن يدفعه عنه إما بسماع نغمات أن استعمال أمور طيّبات من المفرحات وغيرها، ويكون ذلك بعد استفراغ الخلط السوداوي الذي غلب سائر الأخلاط بالأفيتمون وغيره مما هو مشهور عند الأطباء.

والغالب مني في هذا الكلام الدعابة والمزاح لتستفيد به نوع انشراح ليتوافق اللفظ والمعنى في حصول الأفراح، وإلا فإن مَن التجأ إلى خياطة ثياب الظلمة الوحيشة قلوبهم المظلمة ليُصلح بذلك وقته ويرفع به بهته كيف يجد سعة لاستعمال الشراب المفرح الذي هو مشتمل على نحو الخمسة عشر جزء أعلاها المسك والعنبر وأدناها لسان الثور والورد الأحمر، وكذلك كيف تجد سعة لاستعمال الدواء المسهل للمرّة السوداء، وهو أيضاً يشتمل على أجزاء كثيرة جداً، وليتك تجد من الاتساع ما يمكنك أن تشتري معه من أَيْرْنَهْ[1] نصف صاع، والطرف والتحف لا يُراد منها الشبع ولا الاستمتاع.

ولعلك تقول: هذه وقاحة منك من حيث إنك جعلت إيرنه من الطُرف والتحف. فأقول: نعم هي وقاحة ولكن فيها ملاحة، ولا تغفل أيضاً عما في هذا الهذيان من الكذب والبهتان لأن مَن هو في حضرة الملوك وليس بمتقشف ولا صعلوك يبعد أن يكون محتاجاً إلى أيرنهْ وهو يشاهد طول نهاره الطيافير المزوّقة بالأطعمة الحفلية المونقة تتخالى عليه وتُهدي نسيم روائح أبازيرها إليه، ومحال ألا يكون في الآكلين والمتناولين لذلك أنسية وفتوّة ولا شيء من المروّة بحيث لا يشير على غربته من ذلك بشظية طيّبة طريّة. هذا شيء لا يتصور في مجرى العادة ـ أيها الصفيّ ـ لا بالشرقي ولا بالغربي، لأنهم من الناس الكبار الذين لا يرضون بالعار. وأما إذا وجد فضلة رخصية من تلك الألوان فلا تخلّيه نفسه حتى يشتريها ولو لم يبقَ له إلا التبان، فكيف يلتفت مع هذا إلى أيرنه التي تحرق مصارينه وبطنه لما فيها من الحرارة الزائدة التي ليس فيها لمريد التغذي بها فائدة.

وهذه الخرافات مما يسمح به في الوقت قلبي ويدي لحصول الغرض الذي به قد أبتدىء وهو ابتغاء تسليتك وتغنُّم مسرّتك مع أني أعلم أنه ليس فيه فائدة في اندمال الجرح ولكنه كما تقول العامة «دهن على قيح».

وإنما الدواء الحقيقي الذي ينفع من كل داء عضال ولا يكون في صحة

(1) اسم مدينة. جاء في كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الإقليم الخامس [2/ 247]: «والطريق من (جرلاصة) إلى حصن (إيرنة) ثلاثة أيام».

تركيبه وإفضائه إلى الراحة والشفاء مدفع ولا مقال، ملازمة التقوى ونهي النفس عن الهوى على طريقة أئمتنا وساداتنا رضي الله عنهم، وعند ذلك تجد من السرور والأريحية السريعة الوحيّة ما يحصل لك به كل الأمنية ولا يبقى عليك من الكُرب الدنيوية والنفسانية بقية، وتقول حينئذ ما قاله إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: «لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف» فـ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصَّافات: الآية 61]، ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية 26].

فهذا ما أردنا أن نذكره لكم مما يمكن أن تستدفعوا به عنكم ما عرض لكم من الكرب بسبب توقع الموت وبسبب ما أصابك من ضيق الوقت، وجعلناه مشتملاً على جدّ وهزل ولفظ عاميّ وكلام جزل، كل ذلك لنستخرج منه الوجد الكامن وتقول بلسان حالك ومقالك: يا ابن عبّاد ما أعرفك بمداواة علل الباطن. فإذا سمعتُ هذا منك أدركني فرح واستبشار بمدحك إيّاي وثنائك عليّ من بين فقهاء الأمصار الذين ليسوا في المضمار لكنهم في فنِّهم الرسمي لا يُشَق لهم غبار ولا يُخاض لهم تيار، لكن يعتريه الفناء والدمار وينطوي بانطواء هذه الدار ولا يبقى لهم من ذلك إلا ما وافق أعمال المتّقين الأبرار، لا لأن لي في ذلك مقصداً أنتفع به في الدار الآخرة ـ لا والله ـ ولكني أقول لك كما قال الحريري[1] رحمه الله:

فكُلْ ما حلا حين يوتى به ... ولا تسأل الشهد عن نحله

وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله.

وأما ما طلبتم من النصيحة والوصية فإنكم تستفيدونها مما تقدم من الكلام إن شاء الله تعالى ولا فائدة في الكلام الكثير، وكيف تنفع الوصية والنصيحة ممن لم ينصح نفسَه ولم يوصها بما ينفعها؟

إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

(1) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري المولود سنة 446 هـ والمتوفى سنة 516هـ، قال ذلك في مقاماته المشهورة.

فهناك ينفع ما تقول ويُقتَدَى بالقول منك وينفع التعليم
لا تنهَ عن خُلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

والله تعالى يلهمنا رشد أنفسنا ويوفّقنا للخير قبل حلول أجلنا بمنِّه وكرمه.

وأما المسألة التي سأل عنها فلان من الصلاة على النبي ﷺ عقب قراءة الحزب جماعة بلفظ «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد**» فقد كانوا يفعلون ذلك ها هنا ثم تركوا ذلك وصاروا يستعملون الصلاة التامة إلى «**إنك حميد مجيد**» عشر مرات غدوة وعشر مرات عشية، إلا يوم الجمعة وليلتها، فيقولونها عشرين عشرين ولا أدري مَن الذي كان ردّهم إلى ذلك.

والكلام في هذه المسألة كالكلام في مسألة المولد التي كنت كتبت لكم به. فالوجه عندي أن لا يُنكر ولا يُعترض شيء من هذا الجنس وأن يعتقد فيه وفي أمثاله الإباحة والتوسعة ولا يقال فيه أنه حرام ولا بدعة، إن لم يصادم ذلك سنَّة ثابتة ولم يودّ استعماله إلى منكر ولا محظور بل ينبغي أن يكون ذلك مندوباً ومطلوباً، لقوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [الحجّ: الآية 77] وهذا خير.

وقد كنت رأيت توليفاً من نحو الكراس قبل هذا ألّفه ابن البقال ـ ولا أدري أيّ ابن البقال هو ـ في هذه النازلة بعينها حكم فيها بالجواز ـ والله أعلم ـ واحتجّ على ذلك بحجج. والذي يظهر لي أن الدين إذا ذهب والإيمان إذا سُلب، وتمسّك الناس بشيء مما يظهر أنه من آثاره كأمثال هذه المسائل لم ينبغِ لأحد أن ينكرها فيبقى الناس بلا دين ولا رائحة دين. ولا ينبغي لمَن شأنه العلم أن يقاشح في أمثال هذا، وبمثل هذا يجاب كل مَن يشغّب ويقول: لو كان هذا جائزاً أو مطلوباً لفعله السلف الماضون، لأن أصول الدين كانت عندهم راسخة قوية وفروعه كما تلقوها عن رسول الله ﷺ غضة طرية، فلم يحتاجوا إلى استعمال شيء من هذه المراسم، كما لم يحتاجوا إلى تدقيق النظر في نوادر المسائل الفقهية ولا وضع التواليف والكنانيش فيها، فإن فرضنا ذلك بدعة مذمومة فهذا أيضاً مثلها، فلأي شيء لم يُنكر هذا وأنكر أمثال ذلك؟

ويجري مجرى ما قلناه من الصلاة على النبي ﷺ جماعة وإقامة المولد على الوجه المعتاد ـ إذا سلم من المنكر ـ الدعاء بإثر الصلاة على حسب ما

ألفه الناس، وكذلك قراءة الحزب بالدائرة، وكذلك اتخاذ المصابيح الكثيرة في المساجد في رمضان، لأنهم إنما قصدوا بذلك تعظيمه، لكن إذا سلم ذلك من المنكر، كما قلناه في المولد وغير هذا مما لم يحضرني الآن.

وتصريح ذلك الرجل بأن الصلاة على النبي ﷺ في جماعة حرام، أمر شنيع، ولعل تصريحه بذلك الكلام أقرب إلى أن يكون حراماً مما حكم هو عليه بالتحريم لوجوه.

منها: بشاعة هذا اللفظ، وقوله «في جماعة» لا يزيل شناعته ولا بشاعته، وأي فرق بين جماعة يصلُّون على النبي ﷺ على لسان واحد متراسلين وبين أن يجتمع جماعة فيصلي عليه كل واحد واحد؟ ومنها ما تعرض له بسبب ذلك من أذى الناس له، كالذي وقع لذلك الفقيه ـ أظنُّه من فقهاء القيروان ـ فإنه أذاه عامة الناس إذاية عظيمة بسبب ما سمعوه من قوله: «إن قراءة القرآن بالدائرة بدعة» وشنعوا عليه أن يقول: «إن قراءة القرآن بدعة» ولم يتخلص منهم وينفلت من أيديهم إلا بعد اللتيا والتي.

ومنها ـ وهو أعظمها ـ: الحكم بالتحريم على شيء من غير دليل قاطع، والله تعالى قد حذّرنا من ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: الآية 116]، وقوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: الآية 59].

وما احتج به لذلك من كونه لم يكن في السلف، احتجاج ضعيف، وليس كل ما لم يفعله السلف يحكم بتحريمه، لعل قراءة الحزب بالدائرة أقرب إلى أن ينكرها ـ كما أنكرها ذلك الفقيه ـ من هذا لِما اعتيد في ذلك من تقطيع الحروف واختطاف الكلمات، والقرآن لا يُقرأ إلا على وجه مخصوص، ليس في الصلاة التي ذكرها مانع، والله تعالى أعلم.

وأما قيام المؤذنين بالليل للدعاء، فقد نصّ عليه ابن الفرس في «أحكام القرآن» له وذكر فيه خلافاً، ولا أدري عمَّن حكاه، وأظنُّه عن بعض فقهاء عصره، فكفانا مؤنة النظر في ذلك، ولو كان ذلك الكتاب بيدي لنقلت لكم كلامه في هذه المسألة. وينبغي أن ينكر من ذلك على المؤذنين الذين يلحنون في آيات من القرآن

يقرؤونها إذ ذاك، وقد يكون ذلك من اللحن الفاحش الذي يغيّر المعنى، وقد يتأذى بسماع أصوات بعضهم بعض مَن جاورهم، فلينظر في ذلك.

***

الرسالة السابعة والثلاثون

وقد كان بلغني كتابكم جواباً لما كنتُ كتبت به إليكم، وذكرتم فيه أموراً من جملتها أنه يحدث لكم قنوط لا تعرفونه من نفسكم. فإذا ذكرتم أنكم تعرفون أمثالنا ممن تتوسّمون في الصلاح ينجلي عنكم بعض الكرب، وأنكم ترددتم في الوجهين وسألتم هل في ذلك علة أم لا؟

والذي أراه أن العلة في الوجهين ثابتة لا محيص لكم عنها، أما نظركم إلى ما تعرفونه من نفسكم حتى يؤدّيكم ذلك إلى القنوط، فالعلة فيه ظاهرة لأن موجب ذلك وجود الغفلة منكم عن النظر إلى فضل الله تعالى وكرمه وما أسداه إليكم من ألطافه ونِعَمِه مع أنكم مصرّفون في قبضة القدرة لا تملكون لأنفسكم من الهداية والرشد مثقال ذرة، فالقنوط لا وجه له، وهو جهل محض وهو من كبائر الذنوب التي عدّدها العلماء. وغاية الأمر أن يغلب عليكم حال الخوف وذلك وصف محمود موجب لصاحبه الفوز والأمان وبلوغ الرضوان لأنه يلزمه حال الرجاء ومقام حسن الظن بالله لزوماً ضرورياً «**والله تعالى عند ظنّ عبده به**»[1] كما ورد في الخبر، فهذا المعنى تنتفي العلة في هذا الوجه، ولا يكون لها وجود البتة إلا على طريق الخواص المحققين بالتوحيد والإخلاص، وتقرير ذلك لا يليق بالوقت.

وأما الوجه الآخر وهو تذكركم معرفة الصالحين لتنتفعوا بهم، والانتفاع بهم لا يعدو ثلاثة أوجه: **إما** في الدنيا فبالإرشاد والدعاء، **وإما** في الآخرة فبقيامه

(1) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خير منهم وإن تقرّب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت منه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» صحيح مسلم، باب الحثّ على ذكر الله تعالى، حديث رقم (2675) [4/ 2061] ورواه غيره.

مقام الشفعاء، وهذا الوجه مما يغترّ به كثير من الناس، والعلة في ذلك موجودة، لأنكم إذا نظرتم بعين البصيرة إليهم لا تجدونهم إلا أشباحاً وأحجاراً لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم إيراداً ولا إصداراً ولا نفعاً ولا ضراراً، فإن سُخّر أحدهم إلى شيء من ذلك فهو مجرور بسلسلة في عنقه لا يستطيع لها نزعاً ولا للقدرة التي تجرُّه بها دفعاً ولا ردعاً، وإن لم يسخر لذلك بقي على أصله من العجز وعدم الحيلة. ومَن كان بهذه المثابة لا ينبغي لأحد أن يعتمد عليه ولا يركن إليه بل يكون اعتماده إلى الواحد القهار العزيز الجبّار الذي كل مَن سواه بالنسبة إلى جلاله في غاية الاحتقار والضعة والصغار والهلاك والبوار.

فإذا فتح لك باباً إليه وألاح لك نوراً يهديك ويدلُّك عليه إما بتوفيقه إياك إلى معاملة عاملتهم بها الله عزَّ وجل أو محبة قذفها في قلبك لهم، فقد حصلت على الكبريت الأحمر ووصلت إلى الملك الأكبر وانجلت عنك الوساوس وهرب منك الشياطين والأبالس، وكان ذلك أصلاً جيداً تبنى عليه، وحصناً حصيناً تلجأ إليه، لأنك شاهدت فعله بك ومعاملته معك. فإذا وجدت مذاق هذا العسل والفانيد[1] وسكرت من هذا المشروب الذي لا يشبه جيّدَ خمر ولا نبيذ، قلتَ: ليس في الدنيا صالح ولا عارف إلا محمد بن عبّاد، ولا فاجر ولا جاهل إلا مَن هو له منافر ومعاد. فإذا صحوت من سكرك وتبيّنت حقيقة أمرك لاح لك أن ابن عبّاد رسم من الرسوم لا محصول عنده ولا معلوم، وأنّ ما أتاك من قِبله فالله سبحانه هو المتولّي لتفصيله وجمله من غير حول منك ولا منَّة ولا قوَّة. فحينئذ تُقبِل على مولاك وتُعرض عنه، وليس إعراضك عنه بالذي يوجب لك من قِبَله انقطاع منفعة بل ذلك مما يزيدها ويؤكدها لأن قلبه بيد مَن اعتمدت عليه وافتقرت إليه لكن تحتاج إلى القيام بالأدب ومراعاة حق السبب عملاً على مقتضى ما الشرع منك طلب.

فإذا حصل لك فهم هذا المعنى في التعليم الذي هو أحد وجوه الانتفاع

---

(1) مشروب لا يشبه الخمر ولا النبيذ كما قال المصنف أعلاه. جاء في البحر الرائق شرح كنز الدقائق: «ولو دخل الفانيد أو السكر في فيه ولم يمضغه لكي يصلي والحلاوة تصل إلى جوفه تفسد صلاته. (البحر الرائق شرح كنز الدقائق، كتاب الصلاة (2/ 2).

المذكورة فهمته أيضاً في الوجهين الباقيين، فأضربت عن كل أحد ولم تتعلق همّتك إلا بالواحد الأحد، وكنت في معاملتك للصالحين مراعياً حق الله، قائماً بأمر الله، متقرّباً بجميع ذلك إلى الله تعالى، وكان بناؤك على قاعدة صحيحة لا اختلال فيها.

فإن اتفق أن يتغير على أحد منهم قلبك، فإن القلب أشد تقلُّباً من القِدر إذا استجمعت غلياناً حسبما ورد به الخبر، سلموا منك وسلمت منهم. **أما سلامتهم** منك فلعدم التباعات عليهم من قبلك لأنك لم تعاملهم وإنما عاملت ربّك فيهم، فمطالبتك منهم ساقطة عنهم. **وأما سلامتك** منهم فلبقاء ما حصل لك من الثواب على مراعاة حقهم لله عزَّ وجل سالماً موفوراً لم يعتره حط ولم يعرض له بطلان. وإن لم يتّفق لك عليه تغيُّر بل كان حسن ظنك باقياً، فلا تسل عما تناله من الله تعالى من المزيد الذي ليس له حصر ولا تحديد، ويتزايد ذلك أضعافاً مضاعفة بحسب ما يتزايد من حُسن الظنّ وجميل الاعتقاد. فأنت في كلا الأمرين ـ أعني في تغيُّر قلبك عليه وعدم تغيُّر قلبك ـ سالم غانم. كل ذلك ببركة تعلُّقكم بالله وإيوائكم إليه وقصر همّكم عليه. رزقنا الله من ذلك ما رزق أولياءه بمنِّه وكرمه.

وهذا المعنى الذي ذكرته لكم الآن به توزن صحة دعوى هذه الحال لكي تسلم من الاعتلال، إذ لا ينبغي أن يقبل من النفس جميع ما تدّعيه حتى يُتَوَثَّق منها بموثِق غليظ ويزن حالها بميزان محقّق صحيح، لأن النفس أسرع شيء إلى ذلك وأحرصها عليه. فإذا ادّعى مدّعٍ أنه معتمد على الله تعالى وقاصر همّته عليه، ومخلص في معاملته له غير طامحٍ بنظره إلى سواه، فلا تصح له هذه الدعوى حتى يُجرب نفسه مع كل مَن يعتقده ويلتمس منه البركة والمنفعة في معاملته له، فإن لم يتغيّر قلبه عليه باطّلاعه منه على ما يوجب ذلك، فحاله صحيح لأنه لا يقطع بحفظه وعصمته بل يعلم أنه مقهور في قبضة القدر. وكذلك إن تغيّر قلبه عليه، لكن لم يؤثّر ذلك خللاً في معاملته معه بل جرى حاله معه في الوجهين مجرًى واحداً لأن ما كان لله لا يكدّره شيء. وكذلك إن أثّر خللاً لكن لم يقع منه بسبب ذلك ما يحبط سالف عمله معه ويبطله من وقوع ندامة أو قصد بإذاية، لأن ما كان لله لا يسعه إلا حفظه وصَوْنه من الآفات والعاهات ليجده في صحيفته في يوم لا ينفعه إلا الأعمال الصالحات، فإنْ وقع منه شيء من هذا فهو كذّاب في

دعواه أنّ معرفته لله هو متَّخِذ إلٰهه هواه، فمعاملته معه مدخولة معلولة ممزوجة بحظّ النفس والهوى. وما هذه صفته لا نفع له فيه في الآخرة ولا فائدة، وعساه يكون نافعاً له في دنياه الفانية البائدة. فهذا ما أردت أن أذكره لكم في بيان ما أشكل عليكم وتردّدتم فيه وذلك أمر بيِّن، فإن أشكل عليكم شيء منه فخذوا فيه مع فلان ـ حفظه الله ـ فإنه قد حصل له أنس بكلامي وحدس على مقصدي ومرامي. والله الموفّق لجميعنا لا ربّ غيره ولا قوّة لنا إلا به.

وما ذكرتم من القساوة التي اعترتكم، فلا أعلم لها سبباً إلا مخالطتكم لأهل الغفلة، المحبِّين للدنيا، المتكالبين عليها، وعدم اعتنائكم بحضور مجالس الذكر ومجالسة الذاكرين لله عزَّ وجلَّ، المذكِّرين له بلسان حالهم ومقالهم. فهذا هو الذي أوجب ما ذكرتموه من القساوة والحرمان، ومداواة ذلك بقطع أسبابه مع توكُّلكم على الله ووقوفكم ببابه.

الرسالة الثامنة والثلاثون

وقد بلغني كتابكم وتعرفت منه أنكم اجتمعتم مع بعض الناس تحدّثتم في الحجاز فذكروا لكم أنه ما يحمل الناس اليوم إلا الهوى، وطلبتم منا فيه أن أشرح لكم الهوى والعلة التي تكون على المسافر.

والذي أقول لكم إن الهوى له سلطنة عظيمة على الناس، لا سيما في هذه الأزمنة التي صار الناس فيها أمثال البهائم ـ أعني من جهة إفلاسهم من معرفة حقائق الدين ـ ومن أشدهم إفلاساً من ذلك بعض مَن يتفقّه ويتفقّر. ولعل الذي قال لك: ما يحمل الناس اليوم إلا الهوى، لم يحمله على هذا الكلام إلا الهوى، واجعله يكون مَن كان، ولعلني في هذا الكلام أيضاً لم يحملني عليه إلا الهوى، فاقبله إن شئت أو ردّه.

وقد كنتُ كتبت لأخي محمد بن أديبة رحمه الله كلاماً في المشي إلى الحجاز وما يُحمد منه وما يُذمّ بالنسبة إلى الأشخاص والأحوال، وذكرت ذلك فيه وذكرت أيضاً فيه شيئاً مما طلبتم منا بيانه من أمر الهوى وعلل السفر، وهو

الآن منسوخ عند أخي يحيى السرّاج، فإن شئت أن يطلعكم عليه أطلعكم. فإذا اطّلعتم عليه فاقنعوا به، فإن الوقت لم يتّسع لتقرير ما هو أكثر من ذلك لأني كتبتُه في الوقت الذي ورد عليّ كتابكم فيه وأعجلني حامله.

وأما ما سألتم عنه من التسفير بالكواغد المكتوبة فيها الأسماء المعظّمة، فقد كان سيدي الحاج يتجنب من ذلك، وهو القدوة في الورع والتحفُّظ، ولا شك أنه بعيد من الأدب لا سيما فيما كان من ذلك فيه قرآن أو حديث من كلام النبوة، لكن لا من جهة كون المسفِّر يضرب عليها أو يلطخها بالغراء أو ينكسها كما ذكرتم، لأن مثل هذا لا يبعد أن يتسامح به إذا حمل عليه غرض صحيح. وناهيك بما فعله عثمان بن عفان رضي الله عنه من تحريق المصاحف أو تخريقها. وإنما يكون ذلك بعيداً من الأدب من جهة كون المسفّر يجعل ذلك من جملة الوقاية والصون للكتاب الذي يسفره. وإذا كانوا لم يجعلوا من الأدب أن يسندوا القصعة بالخبز ويضعوا على الخبز من الإدام ما لا يؤكل به لكون الخبز محترماً، كان الأوْلى لا يجعلوا من الأدب كون الكواغد المكتوبة فيها الأسماء المعظمة وقاية وصوناً لغيرها لأن احترام الأسماء أكثر من احترام الخبز فيما يظهر، وإن كان الكل محترماً. ويستفاد ذلك من الفضائل التي ذكروا في رفع الكواغد المكتوبة المطروحة في الطرقات، وقصة بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه في ذلك معروفة.

فعلى هذا ليس من الأدب أن يجعل ما اعتاد الناس من جعل رقّ مكتوب فيه الأسماء وعاءً لغيره، ولا يجمع فيه كراريس مخيطة فيه أو غير مخيطة، ولا يعمد إلى كتاب من الكتب فيجعل وسادة للرأس، أو يكون منزلاً في موضع فيجعل عليه شيء من متاع البيت، قِس على هذا ما أشبهه مما يكون الكتاب فيه آلة ووسيلة. فهذا هو الحكم عندي في ذلك مع أني لست بفقيه ولا عالِم ولكن لما سألتني عن ذلك أجبتك بهذا، والله الموفق لا ربّ غيره.

وما ذكرتم من ضيق حالكم بسبب تقصيركم في طاعة الله عزَّ وجل، فاعلم أن العارفين والمتحققين من أهل المعاملات الباطنة قد سلموا من هذه الجهالات، وذلك أنهم عملوا على تصحيح التوحيد أول مرة بأن التزموه عقداً، ثم ابتهلوا إلى ربِّهم بألسنتهم وقلوبهم في تحقيقه لهم حالاً، وحرصوا على أن

يستصحبوه في أحوالهم جهد استطاعتهم، فلما علم ذلك منهم رحمهم بأن جعلهم لا يرون لأنفسهم حَوْلاً ولا قوة فيما يأتون أو يذرون بل تولّى حفظهم وكلاءتهم وتكفّل بمصالحهم وكفايتهم لأنهم عبيده الصالحون لخدمته. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية 36] وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: الآية 196] وقال تعالى فيما يروى عنه: «**أنا عند ظنّ عبدي بي**»(1) فسهّل عليهم الصعب ويسّر عليهم العسير وأربحهم وقتهم النفيس الخطير وأحلّهم في نعيم ومُلك كبير، فلا يتحركون ولا يسكنون إلا به، ولا يعتمدون إلا عليه، ولا يرفعون هممهم إلا إليه لحُسن ظنّهم به، وهذه هي الخاصية التي سبقت بها هذه الأمة سائر الأمم.

وفي بعض الأحاديث النبوية أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: «**إني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبُّون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم**» فقال عيسى عليه السلام: «**يا ربّ وكيف يكون ذلك ولا علم ولا حلم؟**» فقال الله عزَّ وجل: «**أعطيهم من حلمي وعلمي**»(2)

وبهذه الخاصية أيضاً اتصفت هذه الملة المحمدية بالسماحة والسهولة، وهي وإن كانت سهلة المتناول قريبة المرام، فلا ينكر أيضاً ما فيها من التكاليف الشاقة. والتسهيل العام لا يكون إلا بهذه المشاهدة التي ذكرناها، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحَج: الآية 78] وملّته إنما هي الإسلام والتوحيد. وقال نبينا ﷺ: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**»(3) وهي ملّة إبراهيم عليه السلام.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه البيهقي في الأربعين الصغرى، حديث رقم (47) [1/ 95] ورواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه فضالة [48/ 364] ورواه غيرهما.

(3) رواه الطبراني في الكبير، عن علي بن يزيد، حديث رقم (7868) [8/ 216] ورواه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة الباهلي، حديث رقم (22345) [5/ 266] ورواه غيرهما.

وقال بعض العارفين في معنى قوله ﷺ: «**يسّروا ولا تعسّروا**»[(1)] معناه: دلُّوهم على الله ولا تدلُّوهم على غيره، فإن مَن دلّك على الدنيا فقد غشّك، ومَن دلّك على الأعمال فقد أتعبك، ومَن دلّك على الله فقد نصحك.

والمقصود من هذا أن تعلموا أن هذه الطائفة المذكورة يقل الغلط فيهم من هذا الوجه الذي ذكرناه لغيبتهم عن شهود أنفسهم ورؤية حَوْلهم وقوّتهم. ولولا ذلك لم يكن لهم حال ولا مقال. فإذا وقع ذلك منهم نادراً تدوركوا بالحفظ والكلاءة فثبتوا في مقاماتهم ووقفوا على مراكزهم عناية من الله تعالى بهم، وأما أهل الكذب والدعوى فلا كلام معهم.

فقد علمتم بهذا من أين وقع الغلط على هذه الطوائف وبماذا سلم مَن سلم، وما ذاك إلا بهذه الحالة العظيمة التي اختصّ بها عباد الله، وبها صاروا أولياء، فإذا علمتم موقعها من الدين وأنها الوسيلة إلى القرب من ربّ العالمين، وتشوّفتم إلى أن تترقوا إلى هذا المقام الكريم وتنتظموا في سلك مَن آتاه الله هذا الملك العظيم، فستعلمون مما قررناه أنه لا سبيل لكم إليها إلا عليها، ولا وسيلة لكم إلا بها، كما قال بعضهم: «عرفت ربِّي بربِّي، ولولا ربِّي ما عرفت ربِّي» ويحكى أنه سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقيل له: أعرفت الله بمحمد أم عرفت محمداً بالله؟ فقال: «لو عرفت الله بمحمد ما عبدته، ولكان محمد أوْثَق في نفسي من الله ولكن الله عزَّ وجل عرّفني نفسه بنفسه».

فالآن إذ ظهر لكم اتحاد المتوسّل به والمتوسّل إليه على وجه لا تفهم كيفية العقول، ولم تروا في ذلك تبايناً ولا تغايراً فقد ظفرتم بحالة هي غاية الطالبين ونهاية رغبة الراغبين، إذ لا يمكن التوسُّل إلا بموجود حاضر قريب. فإذا كان المطلوب موجوداً عندكم وحاضراً معكم وقريباً منكم فماذا تطلبون من بعده؟ ولماذا تتوسّلون به سواه؟ وما مثلكم في ذلك إلا كمثل رجل بيده درة خطيرة لا يعرف لها قدراً بل يحسبها في عداد الأحجار التي يعرفها ـ بل لا

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث رقم (69) [1/ 38] ورواه مسلم في صحيحه، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم (1734) [3/ 1359] ورواه غيرهما.

شعور له بها ـ وهو يشكو الفقر والضر ويتكفف الناس، فبينما هو كذلك إذ انكشف له حقيقة أمرها وأنه متمكن من أن ينال بها درجة المُلك، فلا تسأل عما هو فيه من الغبطة والسرور والنعمة والحبور. قد قالوا: ليس العجب من السيّارة حيث طلبوا الماء فوجدوا يوسف، وإنما العجب من مذنب طلب المغفرة فوجد الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية 110].

وقد قرّبتُ لكم العبارة عن هذا الأمر لعلكم تفهمونه، وإلا فهو ألطف من أن تضبطه عبارة أو تحمله إشارة. ولكل شيء سبب، قدّر الله تعالى سببيته من غير حَوْل من العبد ولا قوّة، فقد تكون معرفتكم لي واعتقادكم أني أُحسن الإرشاد إلى ما طلبتموه وكتبتم إليّ بما كتبتم به، وجوابي لكم على ذلك أسباباً في حصول مطلوبكم من غير حَوْل منا ومنكم ولا قوّة. وسترون بهذا النظر أحوالكم كلها جارية هذا المجرى ـ أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم ـ ففيمَ العناء والتعب والكدّ والطلب وعلى مَ الفرح والتأسُّف والندامة والتلهُّف؟ ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصَّافات: الآيتان 86، 87]. أما ما علمتم أن في الله عوضاً من كل فائت وخلفاً من كل ذاهب؟ بل مَن وجد الله فما فقد شيئاً ومَن فقده فما وجد شيئاً.

فهذه هي القاعدة التي بنى عليها أمورهم العارفون المحقّقون، فكل ما يعتريكم من الوساوس والأفكار وما يحجبكم عن نَيْل المراد وقضاء الأوطار، فإنما ذلك لما غاب عنكم من هذا التحقيق، فإذا فتح الله عليكم في فهم ما ذكرناه وأخذتم به أنفسكم أن تكونوا عليه في مواردكم ومصادركم، كانت عندكم عبادات مسرمدة وقربات مؤبّدة لا يتخللها فتور ولا ملل من غير تعب منكم ولا نصب، فهذه هي الغنيمة الباردة والتجارة الرابحة والمزيد الذي أوجبه الشكر الذي أنعم به عليكم من رؤيتكم الأشياء بالله من الله. فطوبى لكم إذ ذاك وحسن مآب.

وصاحب المشاهدة المذكورة تحمله على أن لا يتحرَّك لطلب ولا لسبب يتخيَّر منه، فإن دام على التيقُّظ في هذا فقد وصل إلى مقام ينتظم له كل مقام وحصل على مرام يُستحقر في جنبه كل مرام. فتلقَّوا يا أخي ما قلناه لكم بحسن

القبول وقدّموه على كل معقول ومنقول. واعلموا أن العقل لا يدركه والنقل لا يصرح به بل هو من العلوم اللدنية التي أودعها الله في غيابات القلوب. وقد روي أن في بعض الكتب المنزّلة على بعض أنبياء بني إسرائيل: «**لا تقولوا العلم في السماء مَن ينزل به، ولا في الأرض مَن يصعد به، ولا في البحار مَن يعبر به؟ العلم مجعول في صدوركم، موضوع في قلوبكم، فتأدّبوا بين يديّ بآداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق النبيين الربّانيين أُظهر العلم من قلوبكم على ألسنتكم حتى يعمّكم ويغمركم**»[1]

فهذا ما أردنا أن نذكره لكم بين يدَي التكلُّم على أحوالكم ليكون أصلاً ثابتاً يُرجع إليه وأساساً يُبنى عليه. والسلام.

كمل بحَوْل الله وقوّته والحمد لله على آلائه ونعمه، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد خير بريّته وعلى إخوانه وآله وصحابته وسلّم كثيراً.

انتهى والحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد نبيّه وعبده وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً أثيراً طيِّباً مباركاً فيه سرمداً أبداً.

(1) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين [4/ 388].

فهرس المحتويات

تقديم 3
ترجمة ابن عباد النَّفْزي 5
الرسالة الأولى 9
الرسالة الثانية 14
الرسالة الثالثة 23
الرسالة الرابعة 33
الرسالة الخامسة 37
الرسالة السادسة 43
الرسالة السابعة 49
الرسالة الثامنة 54
الرسالة التاسعة 56
الرسالة العاشرة 58
الرسالة الحادية عشرة 76
الرسالة الثانية عشرة 82
الرسالة الثالثة عشرة 90
الرسالة الرابعة عشرة 107
الرسالة الخامسة عشرة 132
الرسالة السادسة عشرة 138
الرسالة السابعة عشرة 155
الرسالة الثامنة عشرة 173
الرسالة التاسعة عشرة 181

الرسالة العشرون 185
الرسالة الحادية والعشرون 194
الرسالة الثانية والعشرون 212
الرسالة الثالثة والعشرون 217
الرسالة الرابعة والعشرون 227
الرسالة الخامسة والعشرون 233
الرسالة السادسة والعشرون 241
الرسالة السابعة والعشرون 247
الرسالة الثامنة والعشرون 251
الرسالة التاسعة والعشرون 253
الرسالة الثلاثون 254
الرسالة الحادية والثلاثون 288
الرسالة الثانية والثلاثون 305
الرسالة الثالثة والثلاثون 308
الرسالة الرابعة والثلاثون 314
الرسالة الخامسة والثلاثون 316
الرسالة السادسة والثلاثون 318
الرسالة السابعة والثلاثون 326
الرسالة الثامنة والثلاثون 329
فهرس المحتويات 335